

مجلة ثقافية شهرية

AL FAISAL MAGAZINE

ISSUE 42 OCTOBER – NOVEMBER 1980.

العدد (٤٢) ـ ذو الحجة ١٤٠٠ هـ السنة الرابعة ـ تشرين الأول (أكتوبر)/تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٠ م

بسم الله الرحمن الرحيم

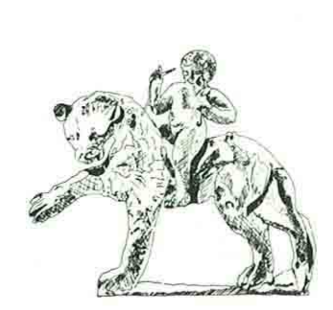
الفيصل

مجلة ثقافية شهرية
تصدر عن
دار الفيصل الثقافية

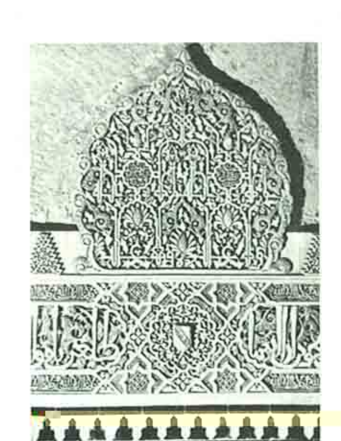
رئيس التحرير
علوي طه الصافي

العدد (٤٢) ذو الحجة ١٤٠٠هـ السنة الرابعة تشرين الأول (أكتوبر) / تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٠م

هذا العدد



★ شبه جزيرة العرب هي مهد الحضارة العربية وموطن الساميين الأوائل، ولكن كيف اكتسبت هذه الحضارة صفة الديمومة والاستمرار دون أن تضمحل أو تتلاشى وما سر تماسكها؟ طالع ص (٨٣) ★



★ تستغلق كثير من مصطلحات الفن الإسلامي على غير المتخصصين كزخرفة التوريق مثلاً وغيرها من التعبيرات الفنية. فما التوريق؟ وما دلالته الاصطلاحية، وكيف قُدر له الانتشار حتى أقاصي متاحف الغرب الأوروبي والأمريكي، وكيف ترقى عَبْر العصور. طالع ص (١١٣) ★



★ إن مراعي المناطق الحارة الجافة يتهددها خطر التصحر ويؤثر على أعداد الماشية الراعية، فوق جفاف التربة وبُعد الماء وزحف الرمال. ما التصحر؟ وما أشكاله؟ وكيف نصده ونتغلب عليه. طالع ص (١٢٣) ★



د . عماد الدين خليل

★ من مواليد الموصل في العراق عام ١٩٣٩ م .

★ دكتوراه في التاريخ الإسلامي .

★ عمل مشرفاً على المكتبة المركزية لجامعة الموصل ، فمعيداً ، فمدرساً ، فأستاذاً مساعداً في كلية آداب جامعة الموصل ، ثم باحثاً علمياً في المؤسسة العامة للآثار .

★ يعمل حالياً باحثاً علمياً .

★ حضر عدداً من المؤتمرات العربية والدولية .

★ له عدد من المؤلفات المطبوعة .

د . محمد فتحي عثمان

★ من مواليد المنيا في مصر عام ١٩٢٨ م .

★ دكتوراه – جامعة برنستون في أمريكا .

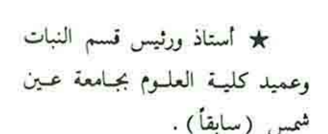
★ تخصص حضارة إسلامية ، وتاريخ فكر إسلامي .

★ يجيد الإنجليزية والفرنسية واللاتينية .

★ عمل مدرساً بجامعات وهران في الجزائر ، وفي الرياض ، وفي برنستون ، وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض .

★ يعمل حالياً أستاذاً بكلية العلوم الاجتماعية ، ومديراً لمركز البحوث بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض .

★ له عدد كبير من المؤلفات المطبوعة .



د . عبد الحليم منتصر

★ أستاذ ورئيس قسم النبات وعميد كلية العلوم بجامعة عين شمس (سابقاً) .

★ عضو الأكاديمية المصرية للعلوم .

★ عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

★ عضو جمعية البيئة النباتية البريطانية .

★ عضو الجمعية الجغرافية الأميريكية .

★ رئيس تحرير مجلة رسالة العلم – القاهرة .

★ عضو جمعية البيئة الصحراوية بالهند .

★ رئيس الجمعية المصرية لعلوم البيئة .

★ رئيس الاتحاد العلمي العربي .



★ عضو المجمع العلمي المصري .

★ رئيس الجمعية المصرية لتاريخ العلوم وعضو المجمع المصري للثقافة العلمية ، وعضو لجنة التراث في المجلس الأعلى للفنون والآداب .

★ شارك في تأليف عدد من الكتب ، كما ألف كتاب « تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه » .

★ عضو المجلس الاستشاري لمكتب تنسيق التعريب في الرباط بالمغرب .



د . محمد عبد المنعم خفاجي

★ من مواليد المنصورة عام ١٩١٥ م ، مصر .

★ حصل على الدكتوراه من جامعة الأزهر عام ١٩٤٦ م .

★ حقق العديد من كتب التراث ، وأخرج موسوعة كاملة عن الأدب العربي في جميع عصوره ، وكتب في التاريخ والنقد والإسلام والتفسير واللغة وغير ذلك من الفنون .

★ عضو في كثير من الجمعيات الأدبية .

★ يكتب في مختلف الصحف والمجلات العربية .

★ شغل وظائف علمية في جامعة الأزهر .

★ أشرف على العديد من رسائل الدكتوراه والماجستير .

★ عميد وأستاذ في جامعة الأزهر .



خليل السواحري

★ من مواليد القدس ١٩٤٠ م ، فلسطين .

★ ليسانس في الفلسفة والعلوم الاجتماعية من جامعة دمشق .

★ مارس التدريس والكتابة في الصحافة .

★ يشغل منصب أمين سر رابطة الكتاب الأردنيين منذ تأسيسها عام ١٩٧٤ م ، وحتى الآن .

★ صدر له مجموعتان قصصيتان وكتاب نقدي .

★ المحرر الثقافي ومحرر شؤون الأرض المحتلة في جريدة الدستور الأردنية بالإضافة إلى عمله رئيساً لشعبة الدراسات في المكتب التنفيذي لشؤون الأرض المحتلة .



** من خلال هذا «الملف» سوف نحاول رصد الحركة الثقافية من اصدارات جديدة .. وندوات .. ومؤتمرات .. ومعارض .. ومناسبات .. وأحداث ثقافية .. وادبية .. وفنية بصورة نطمح أن تكون مسحاً شهرياً لجريات الحركة الثقافية ليس في «الوطن العربي» فحسب ، بل في «العالم» الانساني .

أملنا أن نجد من المؤسسات العلمية .. والتربوية .. والفنية .. الى جانب الأدباء .. والمفكرين كل عون في إمدادنا بالجديد الدائم من النشاطات لتحقيق الأهداف التي تسعى اليها المجلة لخدمة القارىء .. لإضافتها الى ما يزودنا به مندوبونا ، والله الموفق **

في الوطن العربي :

- ندوة فكرية عن الثقافة العربية في بغداد .
- مجلة جديدة باسم «الثقافة الأجنبية» .
- مجلة «للفن التشكيلي» تصدر في دمشق .
- «فصول من النقد» مجلة جديدة تصدر في القاهرة .
- الاحتفال (بالجاحظ) رائد الفكر العربي الموسوعي .
- وفاة الشاعر السوري محمد الحريري .

في العالم :

- معرض فني عن عسير يقام في سويسرا .
- وفاة صاحب أشهر قاموس فرنسي .
- ترجمه قصص عربيه إلى الإنجليزية .
- وفاة المدير الأدبي للمسرح الوطني بإنجلترا .
- إقامة معرض للفنانين العرب في روما .



★ محمد حسن فقي ★

مسابقة في الفنون المسرحية والشعبية

رغبة في تشجيع ودعم الحركة المسرحية بين الشباب والنهوض بالتذوق الفني لديهم واتاحة الفرصة لهم لاكتساب تجارب وخبرات جديدة، ومحاولة لمعالجة مشاكل البيئة، ومن ثم إيجاد الحلول الصحيحة لها ودعم وتأكيد السلوك القويم النابع من تعاليم ديننا الحنيف، فقد أعلن **المكتب الرئيسي لرعاية الشباب بالمنطقة الغربية عن (مسابقة الفنون المسرحية والشعبية)** وذلك بين نوادي المنطقة لعام ١٤٠٠/ ١٤٠١ هـ، والتي تشتمل على مسابقة في (**الدراما التمثيلية**)، و(**مسابقة في المنوعات**) مثل **الموسيق والفنون الشعبية**. ويعتبر الاشتراك في هذه المسابقة اجباري لجميع النوادي.

دار نشر جديدة

فتحت في الرياض دار جديدة للنشر لتعمل مع دور النشر الأخرى، خدمة للقراء وللعلم، **لا تقتصر مهمتها فقط على نشر الكتب بل ستقوم بتقديم أبحاث تاريخية ووثائق علمية ودراسات أدبية ومواقف فكرية**. اسم هذه الدار «**الفاخرية للنشر**»، وكان أول عمل لها كتاب «**مقررات مؤتمر طهران ـ يالطا ـ بوتسدام**» نشرته بالاشتراك مع **دار الكاتب العربي في بيروت**.

نادي القصيم والمسابقة الأدبية

تمشياً مع الهدف الذي أنشئ من أجله فقد **أعلن نادي القصيم الأدبي عن مسابقته الثقافية** الأولى لعام ١٤٠٠ هـ، وذلك في مجال **القصة القصيرة، والمقال الأدبي، والشعر الموزون المقفى**، وفتح المجال **للأدباء من الجنسين**، وسيكون آخر موعد بالنسبة للقصة هو ١٤٠١/١/١٥ هـ، والمقال الأدبي ١٤٠١/٢/١٥ هـ، والشعر ١٤٠١/١/٢٢ هـ، وترسل المسابقة إلى النادي الذي يتخذ من (**بريدة**) مقراً له، وقد رصدت جوائز للفائزين في هذه المسابقة.

... ـب جديدة ✱

● «**دراسات في النقد الأدبي والبلاغة**»، تأليف **الدكتور عبده قلقيلة**، صدر عن **دار العلوم**.

● «**أبو مسلم الخراساني** ـ صاحب الدعوة العباسية»، تأليف **صالح بن سليمان الوشمي**، صدر عن **نادي القصيم الأدبي**.

● «**ذكريات وأصداء**»، مجموعة شعرية **للدكتور وليد قصاب**، صدرت عن **نادي الرياض الأدبي**.

● «**الكاتب والأفكار**»، تأليف **عبد الله أبو العينين**، صدر عن **دار الشروق بجدة**.

● «**لكي يكون لحياتنا معنى**»، تأليف **عبد الله أبو العينين**، صدر عن **دار الشروق بجدة**.

● «**فيلسوف**»، تأليف **الشاعر محمد حسن فقي**، صدر ضمن **سلسلة المكتبة الصغيرة**، وهو عبارة عن سلسلة مقالات.

● «**أمواج وعيون**»، مجموعة قصص قصيرة تأليف **أحمد شريف الرفاعي**، صدرت عن **مؤسسة تهامة للنشر**.

● «**ألوان وأصداء**»، تأليف **أحمد شريف الرفاعي**، صدر عن **مؤسسة تهامة للنشر**.

● «**القرد والضب**»، تأليف **يعقوب إسحاق، كتابان** صدرا ضمن **سلسلة «لكل حيوان قصة»** للأطفال، التي تصدر عن **إدارة النشر بمؤسسة تهامة للنشر**.

● «**الإبحار في ليل الشجن**»، ديوان شعري للشاعر **محمد فهد العيسى**، صدر ضمن **سلسلة «الكتاب العربي السعودي»** التي تصدر عن **إدارة النشر بمؤسسة تهامة**.

● «**عواطف إنسانية**»، ديوان شعري تأليف **مريم البغدادي**، صدر ضمن **سلسلة «الكتاب العربي السعودي»** التي تصدر عن **إدارة النشر بمؤسسة تهامة**.

● «**ليلة في الظلام**»، قصة تأليف **محمد زارع عقيل**، صدرت عن **نادي جيزان الأدبي** ـ طبعة ثانية.

● «**مع الشباب ـ في تنمية القدرات والمواهب**»، محاضرة أعدها **الدكتور زاهر عواض الألمعي**، صدرت عن **نادي جيزان الأدبي**.

كلمة

القرن الخامس عشر

بهذا العدد يودع قراء المجلة القرن **الرابع عشر الهجري**، ويأتي الشهر القادم كأول شهر في **القرن الخامس عشر الهجري**.. لهذا حرص العالم الإسلامي في مشارق الأرض ومغاربها على الاحتفاء بمقدم القرن الجديد تطلعاً إلى آفاق واسعة من **التقدم العلمي، والتطور الفكري** من أجل إحياء حضارة أعطت العالم الكثير من معطيات عقول أبنائها، فكانت أمة فاعلة قادرة على الانتشار والنشر.

الانتشار لإيصال الدين الإسلامي إلى العالم أجمع لأنه دين العالمين.

ونشر معطيات الأمة الإسلامية الحضارية بكل ما تمثله من شمول واتقان وإبداع.

وليس غريباً أن تتطلع أمة كالأمة الإسلامية إلى قرن جديد يختلف عما سبقه من خلال الآمال الكبيرة التي تعمر نفوس المسلمين، لأنها أمة حية ومتجددة رغم كل ما اعتورها من تخلف، وران عليها من سيطرة واستيطان واستعمار أجنبي عبث بمقدراتها، واستغل ثرواتها وطاقات أبنائها لمصالحه ومصالح بلاده.

فإذا كان أمل الأمة الإسلامية في احتفائها بمقدم القرن الخامس عشر تطلعاً إلى القضاء على السلبيات من أجل إيجاد الإيجابيات، وتحرير الأراضي المقدسة المغتصبة فإننا نأمل أن تكون الاحتفالات التي ستقام حافزاً لتوحيد الأهداف، والاتفاق على الوسائل، والصدق مع الإخلاص في العمل من أجل تحقيق كل الآمال المعقودة.

ويسعد المجلة أن تسهم بهذه المناسبة في تسليط الأضواء على بعض جوانب الحضارة الإسلامية، وتصوير الآمال التي تجيش داخل النفوس من خلال عدد من الموضوعات المنشورة في هذا العدد، وغيرها من الموضوعات التي لم يسعها هذا العدد فاضطررنا إلى تأجيلها إلى العدد القادم.

نسأل الله أن يوفق أمتنا الإسلامية والعربية لمعرفة الطريق إلى الله، ومن ثم الانتصار لأنفسهم ومقدساتهم وما ذلك على الله بعزيز.

المجلة



★ عبد العزيز المقالح ★

المغرب :

* كتب جديدة *

● «**ثقوب في السماء**»، مجموعة قصصية تأليف **بوشتي حاضي**، صدرت في **المغرب**.

● «**حركة عدم الانحياز ـ نشأتها، تركيبها**»، تأليف **الدكتور أحمد مفتاح البقالي**، صدر عن **مطبعة الأنباء، الرباط**.

لبنان :

حسين مروة وجائزة «اللوتس»

منح **الدكتور حسين مروة** المفكر والناقد اللبناني، **جائزة «زهرة اللوتس»**، وهي جائزة **يمنحها اتحاد كتّاب آسيا وإفريقيا**، وذلك تقديراً من الاتحاد لإنتاجه وعطاءاته الفكرية والأدبية في مجالات الفلسفة والفكر والنقد والأدب على امتداد السنين، وللدور الذي يؤديه في سبيل تعزيز الثقافة الوطنية اللبنانية والعربية المعاصرة، ولاسهامه في تطويرها.

* كتب جديدة *

● «**لساحلك الآن تأتي الطيور**»، مجموعة شعرية للشاعر **محمد الأسعد**، صدرت عن **دار ابن رشد**.

● «**ديوان عبد العزيز المقالح**»، صدر عن **دار العودة**.

● «**المعجم الأدبي**»، قاموس تأليف **الدكتور جبور عبد النور**، صدر عن **دار العلم للملايين**.

● «**قضية فلسطين في سيرة بطل** ـ الشهيد الحي عبد القادر الحسيني»، تأليف **نبيل خالد الآغا**، صدر عن **المؤسسة العربية للدراسات والنشر**.

● «**مقالة في اللغة الشعرية**»، تأليف **محمد الأسعد**، صدر الجزء الأول عن **المؤسسة العربية للدراسات والنشر**.

● «**موسوعة الإدارة الحديثة والحوافز**»، تأليف **حامد**

الحرفة ومجموعة أخرى من الأخصائيين ، صدرت في أربعة مجلدات عن الدار العربية للموسوعات .

● « سنابل وأعاصير في الشعر النسائي العربي المعاصر » ، تأليف روز غريب ، صدر عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر .

● « مقدّمات لزمن الحرب » ، مجموعة قصص قصيرة تأليف باسم فوتيحو ، صدرت عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر .

● « مجموعة شهادات ووثائق [illegible] » ، رواية ألّفها صلاح عيسى ، صدرت عن دار ابن رشد للطباعة والنشر .

● « شمس الكرمل » ، رواية تأليف نواف أبو الهيجاء ، صدرت عن دار النضال ببيروت .

● « أوهام ريفية » ، مجموعة شعرية للشاعر جودت فخر الدين ، صدرت عن دار الآداب ببيروت .

● « دراسات إسلامية في التفسير والتاريخ » ، تأليف محمد الغزي موسى ، صدر عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر .

● « قراءات نقدية » ، تأليف الدكتور يوسف حسين بكار ، صدر عن دار الأندلس .

● « شجر الغيلان .. في البحث عن قمر » ، مجموعة شعرية تأليف حسان عزت ، صدرت عن دار ابن رشد .

● « فلسفة الدين والتربية عند كنت » ، تأليف الدكتور عبد الرحمن بدري ، صدر عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر .

● « رامة والتنين » ، مجموعة قصصية تأليف إدوار خراط ، صدرت عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر .



● الكتاب .. الغزو الفكري في العالم العربي

● الناشر .. سلسلة « المكتبة الصغيرة » ـ الرياض

الغزو الفكري ، هو الجزء الثاني عشر من سلسلة « المكتبة الصغيرة » التي يصدرها الأستاذ الأديب العلامة « عبد العزيز الرفاعي » ، ينشر فيها الثقافة ميسرة بين أبناء قومه . ومؤلف هذا الكتاب هو أحد أدباء المملكة العربية السعودية المرموقين البارزين الأستاذ عبد الله عبد الجبار ، وهو أستاذ في جامعة الملك عبد العزيز في جدة ، له جولات في عالم الأدب ، وقد مثل بلاده في مؤتمرات أدبية ، وهذا الأثر المبحوث عنه ، مؤلف من مقدمة ، وتمهيد ومن هذه الموضوعات :

● الاستعمار الثقافي .

● حركات مشبوهة .

● غزو الكيان اللغوي .

● الغزو بالسلب .

● كيف نقاوم الغزو ؟

● من حزيران إلى رمضان .

● مرجع ومصادر .

هذا الكتاب خلاصة مكثفة لأفكار عميقة ، قال في تمهيده :

« **حينما تمنى أمة من الأمم بكارثة الاستعمار فإنه لا ينهب ثرواتها المادية فحسب ، وإنما يقضي على ثروتها الروحية كذلك ، ولا يسجن حريتها الشخصية والسياسية وحدها وإنما يسجن معها أيضاً لغتها القومية** » .

وبين في هذا التمهيد ما كانت عليه حالة الصحافة في الحجاز وفي العراق من تدنٍ ، ثم عرض للاستعمار الثقافي في مصر في ظل الاستعمار الإنجليزي ، وما فرضه من جعل لغة التدريس هي الإنجليزية ، وكيف حجب ـ دنلوب ـ التعليم الصحيح عن الشعب ، بنى سياسته على تخريج طبقة من الموظفين حتى يسير الجهاز الإداري على حسب ما تقتضيه سياسة الاستعمار .

ولما أرغم الاستعمار أن يستجيب لرغبات الشعب جعل لغة التدريس العربية ، لكنه فرض على المدارس أن تكون معزولة عن المجتمع .

ثم عرض للاستعمار الفرنسي وقال إنه يختلف عن الاستعمار الإنجليزي ، واستشهد



★ أمين الريحاني ★

● «حق المرأة بين مشكلات التخلف الاجتماعي ومتطلبات الحياة الجديدة» ، تأليف **عزيز السيد جاسم** ، صدر عن **المؤسسة العربية للدراسات والنشر** .

● «**شذرات من عهد الصبا**» ، تأليف **أمين الريحاني** ، صدر عن **المؤسسة العربية للدراسات والنشر** .

● «**المغرب العربي قبل سقوط مدينة الجزائر**» ، تأليف **لوسيت فالنسي** ، ترجمة **إلياس مرقص** ، صدر عن **دار الحقيقة** .

● «**فيخت** : حياته ، آثاره ، عرض لفلسفته» ، تأليف **ديديه جوليا** ، ترجمة **حسيب نمر** ، صدر ضمن سلسلة «**أعلام الفكر العالمي**» التي تصدرها **المؤسسة العربية للدراسات والنشر** .

● «**تجديد التاريخ**» ، تأليف **الدكتور عمر فروخ** ، صدر عن **دار مجلة «الباحث» للنشر** .

العـــراق :

ندوة فكرية

ستعقد في بغداد (**ندوة فكرية عن الثقافة العربية**) تحت شعار : **وحدة الثقافة العربية تجسيداً لوحدة الأمة** ، وقد دعي إليها عدد من **الشخصيات العلمية والأدبية والإعلامية من العراق والدول العربية** ، وستستمر خمسة أيام من شهر أكتوبر (تشرين الأول) عام ١٩٨٠ م ، وذلك بتنظيم من (**مجلة الأقلام العراقية**) تناقش فيها تقارير وبحوث ودراسات عن **الحضارة العربية القديمة ، ودور أجهزة الإعلام والاتصال الجماهيري في وحدة الثقافة العربية** ، بالإضافة إلى مناقشة واقع الثقافة واللغة العربية بدول المغرب العربي في مواجهة اللهجات المحلية .

بقول (**أوجستين برنارد**) ، وهو يذكر الدوافع التي حركت فرنسا لغزو الجزائر «إننا لم نحضر للجزائر لإقرار الأمن بل لنشر الحضارة واللغة والأفكار الفرنسية ، وليست الجزائر مستعمرة كالهند الصينية ولا هي **دومنيون** مثل ــ**كندا**ــ ولكنها جزء من فرنسا كما كانت أيام رومية» .

ومن أجل تطبيق أقوال هذا المستعمر عملياً ، **أغلقت في الجزائر المدارس العربية** ، واعتبرت اللغة العربية ، لغة أجنبية ، واستخدمت الفرنسية للقضاء على الشخصية الجزائرية ولتربية موظفين يكونون خدماً للاستعمار .

واعتبرت الجزائر فرنسية ، وفي سنة ١٩٣٨ م صدر قانون ، نص على أن العربية لغة أجنبية ، وفرض على المعلمين أن يعرفوا الفرنسية .

وكان لذلك التعسف خلق شخصية ــ**عبد الحميد بن باديس**ــ ١٨٩٠ ــ ١٩٤٠ م القيادة التي كافحت الاستعمار .

وكان لمجلة (**الشهاب**) التي أصدرها ابن باديس دورها في التوعية . وقد ذكر المؤلف في كتابه جهاد الشيخ ــ**البشير الإبراهيمي**ــ وظهور **نشيد الجزائر** من وراء قضبان السجن الانفرادي ــ الزنزانة ــ من فهم وفكر ــ**ابن تومرت**ــ :

مرحباً بالنازلات الماحقات
والدماء الزاكيات الدافقات
والبنود اللامعات الخافقات
في الجبال الشامخات الشاهقات
نحن ثرنا ، فحياة أو ممات
وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر فاشهدوا

ثم يعرج على **الاستعمار الفرنسي في سورية ولبنان** ، ويذكر أنه لم يستطع أن يطمس اللغة العربية في هذين القطرين ، كما طمسها في الجزائر ، لذا لم يحاول الفرنسيون أن يتعرضوا للمجتمع العربي ، وعلى محاولاتهم الخبيثة ، وكتب للعربية الانتصار .

وينتقل إلى **الاستعمار الإيطالي** ، ذاكراً أساليبه الرهيبة **في ليبيا** ، وكيف أن ليبيا كلها لم يكن فيها سوى مائة مدرسة ابتدائية مدة التعليم فيها خمس سنوات ، يتعلم الطفل فيها العربية في السنوات الثلاث الأولى ، إلى جانب الإيطالية في السنتين الباقيتين فرضت الإيطالية لغة رسمية ، والعربية لغة ثانوية .

ولعل أغرب ما لقي الشعب الليبي ــ وهو أغرب ما لقي شعب ــ **أن اقتناء الكتب في ليبيا كان محرماً في الانتداب الإيطالي** . صفحة (٢٩) .



★ الجاحظ ★





★ سليم طه التكريتي ★

ذكرى الجاحظ

سيحتفل في شهر نوفمبر (تشرين الثاني) في **بغداد** بذكرى **المفكر العربي الكبير (الجاحظ)** تحت شعار (**الجاحظ رائد الفكر العربي الموسوعي**). وقد شكلت لجنة برئاسة **الدكتور (علي جواد طاهر)** للإشراف على إقامة هذا الاحتفال الذي سيستمر أسبوعاً، تقدم فيه بعض البحوث التي تتناول بالدراسة والرصد حياة الجاحظ الفكرية والشخصية، وقد وجهت بهذه المناسبة الدعوة إلى عدد من المفكرين والأدباء العرب.

مجلة جديدة

قررت **دار الجاحظ للنشر ببغداد** إصدار مجلة جديدة بعنوان «**الثقافة الأجنبية**» تعنى **بترجمة الأدب الإنساني العالمي** وبخاصة أدب أمريكا اللاتينية وإفريقيا وآسيا، وكذلك تعنى **بالاتجاهات والتيارات الأدبية في العالم**، وذلك لإتاحة الفرصة أمام القارئ للاطلاع المباشر وبذلك ستكون رافداً جديداً من الروافد المهمة للحركة الثقافية والأدبية في العالم العربي. ومن المعروف بأن سورية تصدر مجلة بعنوان «الآداب الأجنبية» تبرز جانباً من الآداب العالمية.

* كتب جديدة *

- «**أناشيد السكون**»، مجموعة شعرية تأليف **فاروق يوسف**، صدرت عن **وزارة الثقافة العراقية**.
- «**جماليات الفنون**»، تأليف **الدكتور كمال عيد**، صدر عن **دار الجاحظ** ضمن **سلسلة الموسوعة الصغيرة**.
- «**القصة القصيرة الجديدة في العراق**»، تأليف **الدكتور عمر الطالب**، صدرت في **بغداد**.

ويرى المؤلف الفاضل أن **البهائية حركة مشبوهة، وأنها ذات علاقة بالصهيونية، لأن إسرائيل تطبع كتب البهائية وتمد البهائيين بالمال**. صفحة (٣١ـ٣٣).

ويعرج على **غزو الكيان اللغوي**، ويسفه آراء الداعين إلى **العامية**، وإلى **الحرف اللاتيني** ذاكراً (أدونيس) و(سعيد عقل)، وينتقل إلى البرهنة العملية على أن **الخط العربي** أوجز من **الخط اللاتيني** ثم يذكر المحاولات التي قامت من أجل **اختصار حروف الطباعة**، ولكن تلك المحاولات ظلت من الأماني الجلدة، وقد دعا إلى إصلاح الخط العربي مع أنه دافع عن جماله.

وفي سنة ١٩٤٥م، رصد **مجمع اللغة العربية في القاهرة** ألف جنيه جائزة للأحسن اقتراح لتيسير الخط العربي، وتلقى مائتين وخمسين اقتراحاً، أكثر من نصفها لمستشرقين.

وتنافس أعضاء المجمع حول أحقية الأجانب في التقدم لهذه المسابقة، ثم أهملت الفكرة كلها (ص ٦١).

ثم دافع المؤلف عن كفاية **اللغة الفصحى** قائلاً: «لم يكن للعبرية قواعد، فاستعاروا قواعد العربية ومصطلحاتها، ولم يكن عندهم معجم فاستعاروا الفكرة من العرب». ثم يورد شكوى **أساقفه الأندلس**، من إقبال **نصارى الأندلس** على اللغة العربية، وهيامهم بها، وإهمالهم لغتهم، كأنما المؤلف يقول ضمناً، إن إهمال العرب لغتهم ناتج عن حواجز نفسية وليس هرباً من صعوبة العربية.

ويرى المؤلف الفاضل أن **الدفاع عن اللغة الفصحى واجب ديني وقومي**، ويستشهد بقول **العقاد**: «إن الحملة على اللغة العربية حملة على كل تقاليدنا الاجتماعية والدينية، وعلى اللسان والفكر والضمير في ضربة واحدة، فزاول اللغة العربية لا يبقى للعرب أو المسلم قواماً عن سائر الأقوام، ولا يعصمه أن يذوب في غمار الأمم، فلا تبقى له باقية من بيان ولا عرف ولا معرفة ولا إيمان» (صفحة ٦٧).

وإذا ذكر الغزو بالسلب بين أن **هجرة العقول المفكرة من البلاد النامية**، نكبة ما بعدها من نكبة، فهو يذكر أسباب هذا الوباء، ويصف علاجه، ويوضح عدد العقول النيرة المهاجرة، ذاكراً الفرق بين الغزو الفكري والتأثر، ويدعو إلى مقاومة هذا الغزو الذي هو مطلب من مطالب الصهيونية.

فالكتاب يستحق أن يطالعه كل شاب عربي ليتنبه لهذا الخطر الداهم.

روكس بن زائد العزيزي
الأردن





★ فدوى طوقان ★ ★ محمد الحريري ★

● «بلاد آشور»، تأليف أندريه بارو، ترجمة الدكتور **عيسى سلمان وسليم طه التكريتي**، صدر عن **دار الرشيد ببغداد**.

● «**عبد الله والدرويش**»، ديوان شعري للشاعر **ياسين طه حافظ**، صدر عن **وزارة الثقافة والإعلام**.

● «**العباب الزاخر واللباب الفاخر**»، تأليف **الحسن بن محمد بن الحسن الصنعاني**، تحقيق **محمد حسن آل ياسين**، صدر عن **دار الرشيد ببغداد** ضمن سلسلة «المعاجم والفهارس».

● «**المنعطف**»، مجموعة قصصية تأليف **أحمد عودة**، صدرت عن **وزارة الثقافة والإعلام**.

فلسطين:

* كتب جديدة *

● «**تاريخ الطبقة العاملة الفلسطينية ١٩١٨ - ١٩٤٨م**»، تأليف **عبد القادر ياسين**، صدر عن **مركز الأبحاث في منظمة التحرير**.

● «**هزيمة الشاطر حسن**»، مجموعة قصصية تأليف **أكرم هنية**، صدرت عن **دار الكاتب بالقدس**.

● «**قصائد سياسية**»، مجموعة شعرية للشاعرة **فدوى طوقان**، صدرت عن **دار الأسوار بعكا**.

● «**كوشان**»، مجموعة قصصية تأليف **محمد نفاع**، صدرت عن **دار الأسوار بعكا**.

● «**رحلتي غربة ودموع**»، مجموعة شعرية للشاعر **موسى محمد خلف**، صدرت عن **مكتبة المجتمع بالناصرة**.

● «**منزرعون**»، مجموعة شعرية للشاعر **منيب مخول**، صدرت عن **دار [illegible] بعكا**.

سورية:

مجلة للفن التشكيلي

تقرر إصدار مجلة جديدة متخصصة في **الفنون التشكيلية بدمشق** وذلك تحت اسم «**الحياة التشكيلية**»، وتهدف هذه المجلة إلى تقديم دراسات عن الفنون التشكيلية العربية والعالمية، وعن التراث العربي التشكيلي، وقد أسندت رئاسة تحريرها **للناقد السوري طارق شريف**.

وفاة الشاعر محمد الحريري

انتقل إلى رحمة الله تعالى **الشاعر السوري محمد الحريري**، وكان اتحاد الكتّاب العرب في سورية قد نعاه. كان في حياته شاعراً فذاً أعطى خلال عشرات السنين نتاجاً شعرياً ينبض بالحياة، **له تراث من الشعر المتنوع الأغراض** أبدى فيه إنتماءً شديداً لقضايا وطنه وأمته ومجتمعه.

* كتب جديدة *

● «**بحثاً عن مدينة أخرى**»، رواية تأليف **محيي الدين فرنكة**، صدرت عن **اتحاد الكتّاب العرب بدمشق**.

● «**المؤتمر الاستثنائي للوزراء العرب - المسؤولين عن الشؤون الثقافية**»، صدر عن **وزارة الثقافة والإرشاد القومي السورية**.

● «**العلامة - خير الدين الأسدي**: حياته وآثاره»، تأليف **عبد الفتاح رواس قلعه جي**، صدر عن **مطابع الإدارة السياسية في الجيش بدمشق**.

● «**أغنية الأنهار الصغيرة**»، مجموعة قصصية للقاص **سعيد جبار فرحان**، صدرت عن **اتحاد الكتّاب العرب بدمشق**.

● «**[illegible]**»، رواية تأليف **أديب نحوي**، صدرت عن **اتحاد الكتّاب العرب بدمشق**.

● «**دوائر في الهواء**»، مجموعة شعرية تأليف **عبد الرحمن غنيم**، صدرت عن **اتحاد الكتّاب العرب بدمشق**.

● «**مناجاة الشموع**»، ديوان شعري للشاعر **عبد الوهاب الشيخ خليل**، صدر عن **المطبعة الحديثة بحماة - سورية**.

مصـــر

الاحتفال بالدكتور القط

أقيم في **القاهرة** ، في **قصر ثقافة مصر الجديدة** ، احتفال بمناسبة فوز **الدكتور عبد القادر القط بجائزة الملك فيصل العالمية** ، حضر الحفل التكريمي عدد كبير من **الأدباء والمفكرين وأساتذة الجامعة** ، ومن المعروف بأنه قد فاز بالجائزة الخاصة **بمجال (الأدب العربي) مناصفة مع الدكتور إحسان عباس** وذلك لعام ١٤٠٠ هـ ، وفي شهر ربيع الثاني الماضي .

فصول من النقد

ذلك هو **عنوان مجلة جديدة** تصدر عن **الهيئة المصرية العامة للكتّاب بالقاهرة** مهمتها الفنية تدور حول النقد الأدبي ، **ويرأس تحريرها الدكتور عز الدين إسماعيل ، والدكتور صلاح فضل** .

* كتب جديدة *

● « **التراث الأدبي للمغرب العربي** » ، تأليف **الدكتور عبده قلقيلة** ، صدر عن **مكتبة عالم الكتب** .

صدرت الكتب التالية عن **دار الفكر المعاصر بالقاهرة** :

★ « **العالم الروائي عند نجيب محفوظ** » ، تأليف **إبراهيم فتحي** .

★ « **المسرح التجريبي من (إستانسلافسكي إلى اليوم)** » ، تأليف **جيمس روس ايفافز** ، ترجمة **فاروق عبد القادر** .

★ « **المنطق الجدلي** » ، تأليف **هنري لوفيفر** ، ترجمة **إبراهيم فتحي** .

● « **الأدب العربي المعاصر في فلسطين من عام ١٨٦٠ إلى ١٩٦٠ م** » ، تأليف **الدكتور كامل السوافيري** ، صدر عن **دار المعارف** .

● « **أضواء على الثقافة العربية** » ، تأليف **الدكتور أحمد محمد عطية** ، صدر عن **دار رع للطباعة والنشر بالقاهرة** .

● « **الحب في الشعر الفارسي** » ، تأليف **الدكتورة عفاف السيد زيدان** ، صدر ضمن سلسلة « **كتابك** » التي تصدر عن **دار المعارف بالقاهرة** .



★ عبد الله البردوني ★

اليمـن

مؤتمر للأدباء والكتّاب

رغبة في **تنشيط الحركة الأدبية** والقضاء على العوامل المعرقلة لنهوض الأدب في اليمن ، فقد عقد مؤتمر حضره **الأدباء والكتّاب اليمنيين** ، نوقشت فيه موضوعات عديدة وهامة ، الغاية منها تحقيق الهدف الذي عقد من أجله المؤتمر .

* كتب جديدة *

● « **زمان بلا نوعية** » ، ديوان شعري للشاعر **عبد الله البردوني** ، صدر في **اليمن** .

تـونـس

معرض للفن العربي

أقيم بمركز **الفن الحي (بالبلفيدير)** معرض للفن العربي المعاصر ضم عدة أعمال فنية في الفنون التشكيلية والتجريدية بمشاركة عدد من الفنانين بالبلاد العربية .

* كتب جديدة *

● « **الصحافة الأدبية في تونس ١٩٠٤ ـ ١٩٥٥ م** » ، تأليف **جعفر ماجد** ، صدر ضمن **منشورات الجامعة التونسية** .

● « **الإعانة** » ، تأليف **أحمد بن أحمد ذروق** ، تحقيق وتقديم **الدكتور علي فهمي خشيم** ، صدر عن **الدار العربية للكتّاب** .

● « **محمود بيرم التونسي** ـ قيثارة الأدب الشعبي » ، تأليف

محمد كامل البنا، صدر عن **الدار العربية للكتّاب**.

● «**أبو حيان التوحيدي**»، تأليف الشاعر **علي دب**، صدر عن **الدار العربية للكتّاب بتونس**.

● «**التوت المر**»، رواية تأليف **محمد العروسي المطوي**، صدرت عن **الدار التونسية للنشر**.

الكويت

أسبوع ثقافي ليبي

أقيم في (الكويت) **أسبوع ثقافي ليبي** وذلك تحت إشراف **المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب** تضمن فقرات فنية ومحاضرات أدبية في النقد والشعر والقصة ومعرض للكتاب والصور والفنون التشكيلية.

* كتب جديدة *

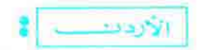
● «**الجهاز المصرفي والمالي في الكويت ـ مع دراسة تطبيقية للسوق المالية الكويتية**»، تأليف **إبراهيم رضوان العبادلة**، صدر عن **دار الوطن للطباعة والنشر**.

● «**تكنولوجيا السلوك الإنساني**»، تأليف **ب. ف سكينر**، ترجمة **الدكتور عبد القادر اليوسف**، مراجعة **محمد رجائي الذريني**، صدر عن **المجلس الوطني للثقافة والفنون بالكويت** ضمن سلسلة «**عالم المعرفة**».

● «**الإنسان والثروات المعدنية**»، تأليف **الدكتور محمد فتحي عوض الله**، صدر ضمن سلسلة «**عالم المعرفة**».

● «**أبيات المعاني في شعر المتنبي**»، تأليف **الدكتور عبده قلقيلة**، صدر عن **مكتبة الفلاح بالكويت**.

● «**البلاط الأدبي للمعز بن باديس**»، تأليف **الدكتور عبده قلقيلة**، صدر عن **مكتبة الفلاح بالكويت**.



● «**ديوان الخرقاوي**»، ديوان شعري للشاعر **منصور الخرقاوي**، صدر عن **شركة الربيعان للنشر والتوزيع بالكويت**.

الأردن

* كتب جديدة *

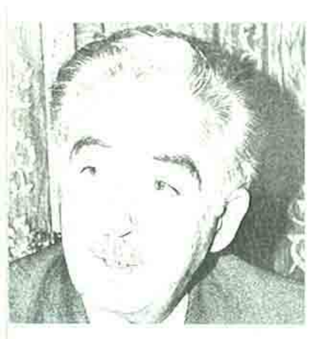
● «**الأصول الأدبية في كتاب البيان والتبيين**»، تأليف **الدكتور محمد علي بركات**، صدر عن **مكتبة الرسالة الحديثة بعمان**.

نافذة

فنوننا العربية والإسلامية

لقد امتازت أمتنا العربية منذ العصور القديمة والوسطى بإبداعاتها المختلفة في الفنون والعلوم والآداب ومختلف أصناف الفكر والثقافة، وهذا ما نراه اليوم فيما تبقى من معالم **السومريين والبابليين والآشوريين في العراق والفراعنة في مصر** وما تبقى من حضارات **الجزيرة العربية والشام والمغرب**، وقد ازداد هذا الإبداع تطوراً وتفنناً وازداد أكثر عمقاً وفكراً وجمالية بعد **فجر الإسلام** وخاصة في عصر الفتوحات المتعددة، وفي القرون التي تلتها خاصة في فترة **الأمويين والعباسيين والفاطميين**، حيث كانت موضع استلهام أمم العالم الأخرى. فمع انتشار الدين الإسلامي واتساع رقعة **الدولة الإسلامية** في المشرق والمغرب كانت الفنون الإسلامية في تطور واتساع وأكثر شمولية في البلاد العربية، فنجد أن المساجد والأضرحة والصناعات الشعبية والنسيج قد اكتسبت جميعاً نقوشاً وزخارف ابتدع بها وتفنن بها نفر من أمهر فناني العرب والمسلمين الأوائل، فالمساجد احتوت على شتى صنوف النقش والارابيسك والكاشاني المستمدة معانيها من آيات **القرآن الكريم**، كما احتوت على النقوش النباتية والهندسية الملونة فكانت البديل للنقش والزخرفة في فترة سبقت الإسلام، إلا أن الإسلام حرّم تصوير الإنسان والحيوان فكان عكس ما كان سائداً في **عصر الجاهلية** وما سبقه من عصور وفترات استعملت الرسوم الأدمية والحيوانية على واجهات المعابد والقصور كما هو الحال في **اليمن والعراق والشام ومصر**، كما احتوت المساجد ومراكز العبادة والعلم الإسلامي والعتبات المقدسة المتواجدة في **الحجاز والعراق وسورية ومصر وإيران وتركيا والهند** وغيرها على الكتابات الخطية المختلفة ونقوش خشبية بديعة كما صنعت فيها الأبواب المشكلة والمنابر والنوافذ والسقوف أضيفت إليها مواد أخرى كالجواهر والذهب والفضة والعاج والزجاج، ففي الحجاز استعملت النقوش والزخارف المتواجدة على أوجه المسجد الحرام وضريح الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وغيرها من الخشب والجص والحجر، أما في مصر وسورية وإيران وتركيا والهند فقد احتوت مساجدها وقصورها الإسلامية وعتباتها أصناف الزخرفة والخط والهندسة المعمارية كانت متوحدة في طرازها وأشكالها وقياساتها ولو حدثت بعض الاتجاهات في هندسة العمارة الإسلامية إلا أنها تبقى متوحدة في رونقها وإبداعها وفنونها المعمارية، فقد استعمل فيها الارابيسك والكاشاني الملون والبرونز الأصفر والزجاج والطابوق المحفور والجص، أما في العراق فقد أضيف إلى ذلك مادة الذهب الحقيقية فترى المآذن والقباب والأروقة قد غلفت جميعها بالذهب الخالص وزينت في ذات الوقت بالنقوش والكتابات القرآنية وغيرها وهذا ما يراه كل منا في **بغداد وسامراء وكربلاء والنجف الأشرف**، وانتقل هذا الأسلوب فيما بعد إلى إيران وتركيا، ومن فنوننا الأخرى التصوير، فالتصوير له أساليب واتجاهات ومدارس اختلفت عن بعضها إلا أنها كانت في تجارب متبادلة إحداها مستفيدة من الأخرى **كمدرسة بغداد** للتصوير **والمدرسة الصفوية ومدرسة بخارى** وغيرها، وكانت الرسوم هي المادة الوحيدة التي زينت بها **المخطوطات العربية والإسلامية** القديمة، كما دخلت الرسوم بعض المساجد والأضرحة **كالمسجد الأموي بدمشق ومسجد الصخرة في القدس** ومساجد أخرى في القاهرة وتونس، أما فنون الخط التي يتمثل بها الفن الإسلامي ويفتخر بها فكان لها ابداع وحضور في كل أثر عربي إسلامي وقد ازدادت أشكال الخط العربي عددها حتى وصلت إلى أكثر من اثني عشر صنفاً كان أشهرها الرقعة والكوفي والمثلث والديواني والمغربي والبسملة واستعمل الخط في تحرير المخطوطات وكتابة القرآن الكريم في مصاحف شريفة مزينة بالجمال والإبداع إضافة إلى دخولها في هندسة العمارة العربية والإسلامية التي لا زالت بارزة بمجدها في البلاد العربية والأندلس والمشرق الإسلامي فلنعمل على إعادتها من جديد بعيداً عن مآثر الغرب التي انزوت أشكاله بين مآثرنا ونعيد روح مجدها وأصالتها.

علي عبد المطلك العراقي
الشطرة ـ محافظة الناصرية
العراق



★ جاك بيرك ★

فرنسا

وفاة بيير كليران

توفي عن (٨٣) عاماً **الرسام والنحات الفرنسي (بيير أوجين كليران)** وقد ترك أكثر من **ألف لوحة وتمثال**، ومن المعروف بأن (كليران) متأثر في أعماله الفنية **بالفنان العالمي (سيزان)** وذلك باستخدامه للألوان الزاهية، وفي أثناء حياته يرجع له الفضل في تكوين عدة مدارس للفن في كل من إفريقيا واليابان، فقد مارس هذا العمل وهو في الخامسة عشرة من عمره.

معرض عن الفن والحضارة

أقيم في **باريس** معرض عن (**الفن والحضارة في الإمبراطورية البلغارية**) وقد تضمن نماذج من فن **السيراميك والأيقونات والمجوهرات** التي كانت تمتلكها هذه الإمبراطورية في نهاية القرن السابق وحتى سقوطها في يد الإمبراطورية العثمانية، كما ضم المعرض المخطوطات التي تصور التراث الثقافي التي كانت تتمتع به هذه الإمبراطورية والتي تعتبر جزء من الدولة البيزنطية.

وفاة بول روبير

توفي عن (٧٠) عاماً **صاحب أشهر قاموس فرنسي بعد (لاروس) و (لبتريه) «بول روبير»**، ومن المعروف بأن (**روبير**) ولد في سنة ١٩١٠ م، **بالجزائر** ثم درس الحقوق وعمل في المحاماة، وفي سنة ١٩٣٩ م، بدأ يفكر في عمل **قاموس (فرنسي إنجليزي)** وظل يعمل طويلاً حتى أصدره بتشجيع من **الأكاديمية الفرنسية**، وقد

اليوم و الغد

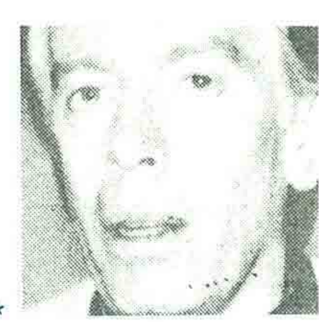
● مظلة لآلة التصوير ●

من أصعب الأمور على المصورين وخاصة الهواة منهم الذين لا يملكون أدوات مكلفة أن يقوموا **بالتصوير العادي أو السينمائي** في جو ماطر عاصف، فلا بد للتصوير في مثل هذه الحالات من استعدادات ووسائل خاصة. وقد تخصصت شركة (EWA) في إنتاج أجهزة زهيدة الثمن للهواة. وآخر اختراع ظهر في السوق عبارة **عن مظلة واقية من البلاستيك الشفاف** يمكن أن توضع على (الكاميرا) بحيث لا يصيبها البلل وتسمح بالتصوير تحت المطر.



● العدسات الاحتياطية ●

عادة ما تبيع الشركات المنتجة لآلات التصوير أجهزة ملحقة بها، يستطيع المصور استخدامها لأغراض **التصوير (البانورامي)** أو للتصوير عن بعد، ومنها **العدسات** القابلة للتغيير أو العدسات الاحتياطية. وقد قامت **شركة (مينولتا)** بتصميم أداة صغيرة، رخيصة الثمن، تتألف من مجموعة عدسات عينية وموشور مصحح لوضع الصورة، يمكن تركيبها على العدسات القابلة للتغيير، ويمكن استخدامها كمنظار مقرب تبلغ قوة تقريبه خمس مرات إلى عشرين مرة، كما يمكن استخدام مجموعة العدسات الاحتياطية لعمل مجهر له قوة تكبير تتراوح بين ٢٠ إلى ٩٠ مرة حسب نوع العدسة المستخدمة.



★ كينيث تينان ★

صدر له بعض الكتب إضافة لذلك القـاموس والقـواميس الأخـرى مثـل [illegible]

* أحدث الكتب *

● « **الإسلام إزاء التحدي** » ، تأليف **الدكتور جـاك بـيرك** ، صدر عن **دار غاليمار بباريس** .

● « **ما قبل التاريخ** » ، تـأليف **جـاك جيـلان** ، صـدر في **باريس** .

● « **الألم** » ، تأليف **روبير أنـدريه** ، صـدر عـن دار **غـاليمار بباريس** .

بـريـطـانـيـا

وفاة كينيث تينان

عن عمر يناهز الثالثة والخمسين **توفي الناقد الإنجليزي « كينيـث تينان »** ، وقد شـغل في حيـاته منصـب **المديـر الأدبي للمسرح الوطني** ، وكانت له منزلته في ميدان النقد المسرحي ، وظهر بمكانة ممتـازة بين **الأوساط الأدبية والفنية** ، فلقد اعتبره كثير من النقاد أعظم ناقد [illegible] عن خــلال تأثيراته الجمالية والنظرية التي استبدل من خـلالها التعلـق بمظاهر الحيـاة الأرستقراطية السائدة في المسرح الإنجليزي بـواقعية جـديدة عـبر دراسـاته لكتَّـاب جدد قدموا اسهامات كبيرة في تغيير الحيـاة المسرحيـة الإنجليـزية الحديثة أمثال « **جون اوزبورن** » و « **أرنـولد ويسـكر** » و « **هـارولد بنتر** » وغيرهم من جيل كتَّـاب المسرح الذين ظهروا في الخمسينات ، ومن المعروف بأن « كينيث » ولد عام ١٩٢٧ م .

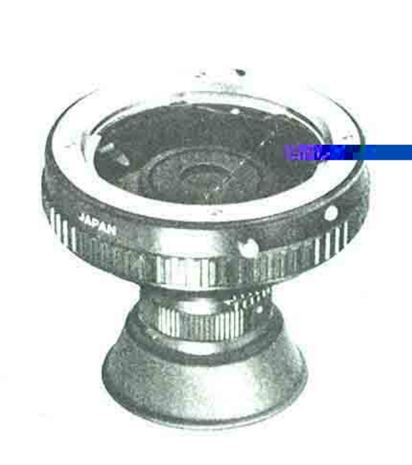
* أحدث الكتب *

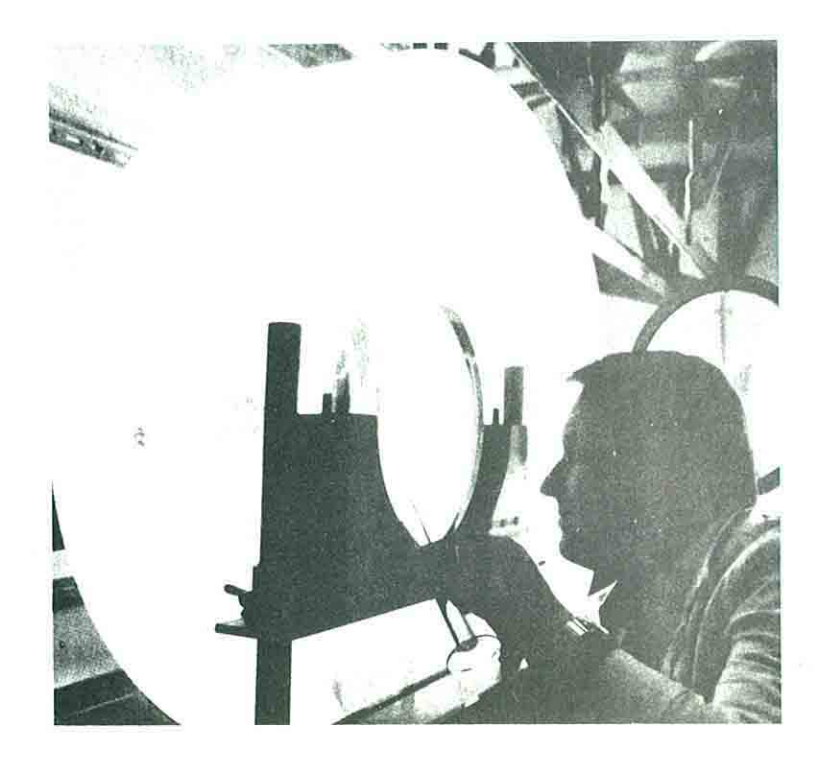
● « **التصوير والمجتمع** » ، تأليف **جـيزيل فـرنيند** ، صـدر في **لندن** .

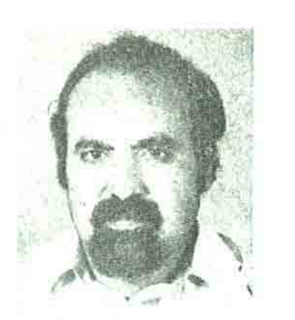
● عدسة صقيلة يزيد قطرها عن المتر ●

قامت شركة Schott لصناعة **العدسات العلمية** ، بتطبيق عملية صهر طويل على الـزجاج البصري المسمى (ب ك ٧) BK7 ، واستطاعت إنتاج عدسات قطر الواحدة منها (١٠٥٠) مم وسماكتها (٢٥٠) مم وزجاج هذه العدسات متناسق ومتجانس بشكل لم يسبق للصناعة أن عرفته ، إذ لم يكن بالإمكان الحصول على تجانس كامل إلا بعمليات معقدة . وتستخدم هذه **العدسات المتجانسة** في أغراض علمية خاصة مثل **المصافي الضوئية الملونة** ، وعمليات استقطاب النور في **أشعة لازر** وكذلك في عمليات **الإندماج النووي** .

وهكذا يساهم هذا النوع من العدسات في تطوير مصادر الطاقة الجديدة .







★ د. حسن طافش ★

● « **قصص عربية قصيرة** » ، ترجمة **سعد البزار** ، صدرت عن **مجلة أور بلندن** وضمن منشوراتها ، وهي ترجمة لعدد من القصص القصيرة العربية لعدد من القصاصين .

إيطاليا :

موريس وجائزة بانكاريللا

منح الكاتب الفرنسي المعاصر (موريس) جائزة « **بانكاريللا** » وذلك عن كتابه (**لويزيان**) ، وهذه الجائزة واحدة من **أكبر أربع جوائز أدبية إيطالية** تقدمها رابطة **أصحاب المكتبات الإيطالية لأحد الكتّاب الإيطاليين أو الأجانب كجائزة سنوية** ، ومن المعروف بأن الكاتب (**أرنست همنجواي**) قد حصل عليها في سنة ١٩٥٣ م ، وذلك عن روايته « **العجوز والبحر** » ، كما حصل عليها (**باسترناك**) في سنة ١٩٥٨ م ، عن روايته « **دكتور زيفاجو** » ، وكذلك الكاتب (**إيزك سانجر**) في سنة ١٩٦٨ م ، عن (**أسرة موسكات**) .

معرض للفنانين العرب

أقيم في (**روما**) معرض **للفنانين العرب** بقاعة (**كانوفاتشو**) ، وقد حوى المعرض مجموعة من (١٢٠) لوحة ومنحوتة لأربعين فناناً من مختلف البلدان العربية ، وقد نظم هذا المعرض بواسطة **مكتب الجامعة العربية (بروما)** وبالتعاون مع **السفارات هناك** .

المدينة والريف
في الأدب العربي الحديث

ذلك هو **عنوان ندوة** دعا إليها **معهد دراسات البحر الأبيض المتوسط** الذي يتخذ من (**روما**) مقراً له كل من **نجيب محفوظ ، الطيب الصالح ، نازك الملائكة ، أدونيس ، الدكتور لويس عوض ، جبرا إبراهيم جبرا** ، وقد عقدت هذه الندوة خلال شهر أكتوبر (تشرين الأول) عام ١٩٨٠ م .

أسبانيا :

قاموس عربي حديث

قام أحد أساتذة اللغة العربية في جامعة (**كاولاينا الشمالية**) الإسبانية « **خوليو كورتي** » وهو إسباني ، بتأليف **قاموس عربي حديث** يضم **مئة وتسعين ألف لفظة** ، جامعاً فيه **المفردات** التي يستخدمها **الرجل المثقف** خلال **القرنين التاسع عشر والعشرين في العالم العربي** ، وكذلك اللغة التي تستخدمها حالياً **الصحافة المكتوبة** من العراق شرقاً حتى المغرب غرباً ومن سورية شمالاً إلى السودان جنوباً .

سويسرا :

معرض فني عن عسير

أقام **الدكتور (حسن طافش)** ـ وهو أستاذ يعمل **بكلية التربية بأبها التابعة لجامعة الرياض** ـ معرضاً عن **التراث الشعبي وطراز المباني والمناظر الطبيعية بمنطقة عسير** ، احتوى المعرض على عدد (٤١) لوحة زيتية ومائية ، وقد أقيم تحت إشراف **المكتب التعليمي بسويسرا** ، استمر قرابة الشهر .

الصين :

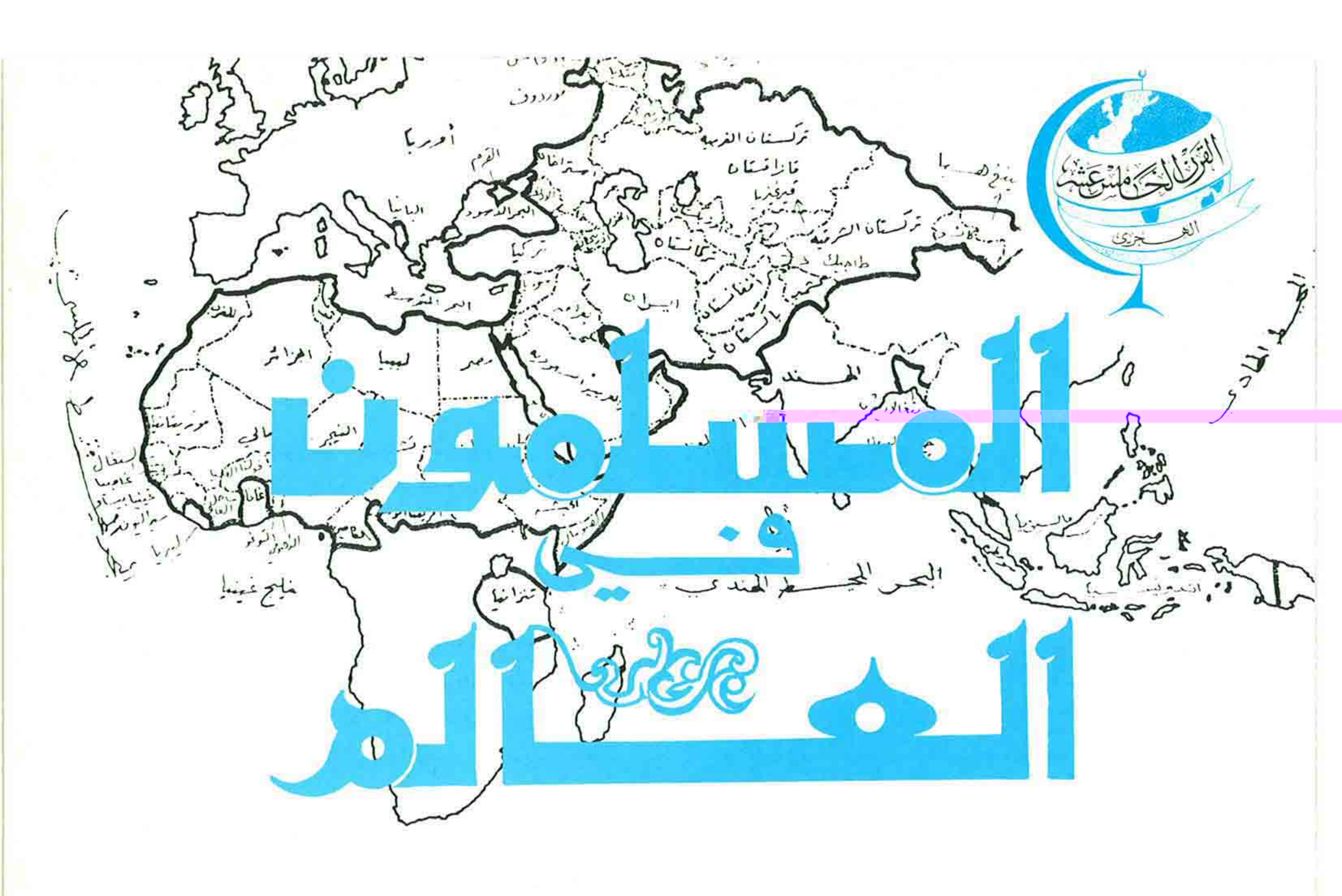
معرض فنـي

أقيم في (**تايبيه**) معرض فني لعدد من **الفنانين السعوديين** الذين قاموا بزيارة للصين ، وقد عرض فيه العديد من اللوحات التي تمثل **التراث الشعبي** ، وكذلك التطور الذي تعيشه **المملكة العربية السعودية** .

روسيا :

* أحدث الكتب *

● « **الإسلام والمسلمون في البلد السوفياتي** » ، تأليف المفتي **ضياء الدين باباخان (رئيس الإدارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وكازاخستان)** ، صدر عن **دار التقدم بموسكو** .



المسلمون في العالم

بقلم : محمود شاكر

يشكل المسلمون في العالم ثاني مجموعة عقيدية من حيث العدد بعد النصارى ، إذ يقدر عددهم بحوالي تسعمائة مليون نسمة ، وهو ما يزيد على خمس سكان المعمورة الذي زاد على اربعة مليارات إنسان ، وتعيش اغلبيتهم على أرض العالم الإسلامي الذي تزيد مساحته على ربع مساحة الأرض جميعها ، وبذا فهم حتى الآن لا يشكلون الرقم الذي يتناسب مع ما يحتلون من مساحة على الرغم من أن تزايدهم يفوق تزايد أية مجموعة ثانية .

يعيش أكثر من ثلثي المسلمين اليوم على أرض يُتمم بعضها بعضاً ، وهو ما يعرف بالعالم الإسلامي وهو الذي تبلغ نسبة المسلمين في أية دولة أكثر من ٥٠ ٪ من سكانها ، وبذا فأرض المسلمين مجتمعة بعضها مع بعض ، على حين أن النصارى البالغ عددهم أكثر من مليار وربع المليار يقطن نصفهم في أوروبا ، وثلثهم في أميركا وبين الجزءين مساحات مائية واسعة يزيد عرضها على آلاف الكيلومترات ، ويتوزع الباقي في أرجاء القارات الثانية .

موقع العالم الإسلامي

يقع العالم الإسلامي في **البر القديم** فيشغل أكثر من ثلث مساحة **آسيا** وثلثي مساحة **إفريقية** على حين لا يشغل إلا رقعة محدودة من قارة **أوروبا** تمتد على أرض **ألبانيا** وحوض **نهر الفولغا وشبه جزيرة القرم** ، وتمتد أرض العالم الإسلامي من **المحيط الأطلسي** في غرب إفريقية إلى **المحيط الهادي** في شرق آسيا ، ومن جنوب **خط الاستواء والمحيط الهندي** إلى خط عرض ٥٥° شمالا في **بلاد التتار** ، وهذا الجزء من المعمورة بتوسع دائم مع انتشار الإسلام ، فكلما زاد اعتناق الناس لهذا الدين توسعت أرضه ، إذ إن العالم الإسلامي عالم فكرة لا عالم حدود إذ ليس له حدود طبيعية يتوقف عندها لا يتعداها كما هي الحال في الدول ذات الحدود الطبيعية ، وفي الوقت نفسه قد تتراجع أرضه — لا سمح الله — وذلك إذا أصابت المسلمين نكبة دهماء كما حلّ في الأندلس في القرون التي خلت ، وجزر البحر الأبيض المتوسط .

توزيع السكان المسلمين

يقدّر عدد سكان العالم الإسلامي اليوم بـ (٧٢٥) مليون نسمة ، يشكل المسلمون بينهم أكثر من ٨٩٪ من السكان ، إذ يصل عددهم إلى (٦٥٩) مليون نسمة ، أما الباقي فهم أقليات يسكنون بين ظهرانيهم ، وهم من النصارى واليهود والوثنيين والبراهميين والبوذيين والكونفوشيين وديانات أخرى ، فهم أقليات متعددة لا مجموعة متضامنة منسجمة في الفكر متفقة في العقيدة .

يعيش **ثلثا المسلمين في آسيا** ، ويتوزعون في (٢٩) دولة أكثرها مستقل ، وتبلغ نسبتهم في هذه القارة ٢٧٪ من السكان ، ويقطن **الثلث الباقي في إفريقية** ويتوزعون في ثلاثين دولة ، إلا أنهم يشكلون **٥٩**٪ من سكان هذه القارة لذا نستطيع أن نقول : **إن إفريقية قارة مسلمة** ، ويقيم **عشرون مليوناً في القارة الأوروبية** ، ولا يوجد سوى ألبانيا دولة مستقلة إلا أن أكثر الباقي إنما هم من سكان حوض الفولغا حيث توجد سبع جمهوريات ذات استقلال ذاتي ، وترتبط بموسكو مباشرة ، وهذه الجمهوريات هي : **تتاريا ، وباشكيريا ، وأدمورت ، وموردوف ، والجوفاش ، وماري ، واورنبورغ** ، هذا بالإضافة إلى شبه جزيرة القرم .

ويعيش مع المسلمين أعداد **من النصارى** يصل عددهم إلى (٢١) مليوناً ويشكلون ٦,٥٪ من سكان العالم الإسلامي ، ويتوزعون بشكل متساو تقريباً بين آسيا وإفريقية ، وهناك ستة ملايين من النصارى في قارة أوروبا يقيمون في بلاد المسلمين .

ويقيم مع المسلمين ثلاثة ملايين **من اليهود** أي يشكلون ٠,٣٪ من سكان العالم الإسلامي ، ثلثاهم في آسيا والباقي في أوروبا وإفريقية ، ويحاول اليهود التجمع في فلسطين التي أضحت تضم ما يقرب من هذا الرقم إذ جاءتها أعداد من أوروبا وأمريكا والاتحاد السوفييتي ، ومدت اليهود بإمكانات فكرية وطاقات كبيرة من العلم ورؤوس الأموال الضخمة ، هذا وإن **أكثر اليهود الذين كانوا في البلاد العربية قد انتقلوا إلى فلسطين بطرق مشروعة أو غير مشروعة ، ذهبوا وهم في سني العمل والإنتاج ، وخلفوا وراءهم العاجزين وأصحاب المصالح لغايات معروفة .**

ويسكن مع المسلمين أحد عشر مليوناً **من الوثنيين** ، ثلثاهم في إفريقية في المناطق الجنوبية من العالم الإسلامي من تلك القارة ، والباقي في آسيا في الجزء الجنوبي الشرقي من هذا العالم في هذه القارة أي في **أندونيسيا وماليزيا** ، وتبلغ نسبة هؤلاء الوثنيين ١,٢٪ من سكان العالم الإسلامي .

ويقطن ثلاثة عشر مليوناً **من البراهميين** ، وبذا تبلغ نسبتهم ١,٥٪ من السكان ، وكلهم في آسيا إذ إن إفريقية لا يوجد فيها أحد يعتنق هذه الديانة إلا إذا كان قد هاجر إليها من جنوب شرقي آسيا .

ويعيش مع المسلمين أيضاً سبعة ملايين من **الكونفوشيين** ، والكنفوشية ديانة أهل الصين ، وتقوم على تقديس أفكار كونفوشيوس وعبادة الآباء والأجداد ، وتبلغ نسبة أصحاب هذه الديانة ما يقرب من ٠,٩٪ من سكان العالم الإسلامي .

وهناك ثلاثة ملايين من **البوذيين** ، وثلاثة ملايين آخرين من أصحاب ديانات أخرى من بدائيين وغيرهم ، وتشكل كل مجموعة ٠,٣٪ من السكان ، وعلى هذا يكون في العالم الإسلامي :

المسلمون	٦٥٩ مليوناً ويشكلون	**٨٩ ٪ من السكان**
النصارى	٢٣ مليوناً ويشكلون	**٦,٥٪ من السكان**
اليهود	٣ ملايين ويشكلون	**٠,٣٪ من السكان**
الوثنيون	١١ مليوناً ويشكلون	**١,٢٪ من السكان**
البراهميون	١٣ مليوناً ويشكلون	**١,٥٪ من السكان**
كونفوشيون	٧ ملايين ويشكلون	**٠,٩٪ من السكان**
بوذيون	٣ ملايين ويشكلون	**٠,٣٪ من السكان**
ديانات أخرى	٣ ملايين ويشكلون	**٠,٣٪ من السكان**
	٧٢٢ مليوناً	١٠٠٪

وبالمقابل من هذه الأقليات التي تعيش في العالم الإسلامي فإن **هناك أقليات مسلمة تعيش خارج حدوده وأكثرها تقيم بجوار بلاد المسلمين إلا أن الحدود السياسية هي التي فصلت بين هؤلاء المسلمين وبين إخوانهم في الأمصار الإسلامية .** وإذا كان عدد الأقليات غير المسلمة في العالم الإسلامي لا يتجاوز الثمانين مليوناً فإن الأقليات المسلمة خارج حدود العالم الإسلامي تبلغ أكثر من ضعف هذا الرقم إذ يصل عددها إلى ١٦٢ مليوناً ، وأكثر هذه الأقليات تقيم في قارة آسيا وأعظمها في بلاد الصين والهند والفيليبين وتايلاند ، **ولا توجد دولة لا تضم عدداً من المسلمين** ، ويصل تعداد الأقليات المسلمة في قارة آسيا إلى ١٣٣ مليوناً ، أما في إفريقية فيزيد عدد هذه الأقليات على ١٧ مليوناً أكثرهم يقيم في المناطق المتاخمة لأمصار العالم الإسلامي ، وكلما ابتعدنا نحو الجنوب قلّت نسبة المسلمين ، وهي تصل إلى ثلث مجموع السكان تزيد قليلاً أو تنقص قليلاً في كل من **أوغندة ، وموزانبيق ، وكينيا ، وملاغاشي ، وملاوي ، وبوروندي ، والغابون ، وغانا ، وليبيريا ، وغينيا الاستوائية** . أما في أوروبا فلا تقيم أقليات كبيرة إذ لا يتجاوز عددها سبعة ملايين معظمها يعيش في **يوغوسلافيا** التي تبلغ نسبة المسلمين فيها ١٥٪ ، **وبلغارية** التي يسكن فيها ١٤٪ من المسلمين من سكانها ، وهناك ثلاثة ملايين في أميركا موزعين على بلدان القارة ، وما يقرب من مليون يقيم في جزر **قارة أوقيانوسيا** المتناثرة في المحيط، وإن كانت دولة **أوستراليا** تأخذ العدد الأكبر منهم لكثرة سكانها على حين يقل القاطنون في بقية الجزر .

الأقليات المسلمة

وعلى هذا تتوزع الأقليات المسلمة في القارات على الشكل التالي :

[illegible]	في قارة آسيا .
١٧,٥٠٠,٠٠٠	في قارة إفريقية .
٧,٠٠٠,٠٠٠	في قارة أوروبا .
٣,٠٠٠,٠٠٠	في قارة أميريكا .
١,٠٠٠,٠٠٠	في قارة أوقيانوسيا .
١٦٢,٠٠٠,٠٠٠	

ويجب أن نلاحظ أن أكثر الإحصاءات في العالم تحاول أن تقلل من شأن المسلمين ونسبتهم وبخاصة في المناطق التي يعدون فيها أقليات ، وفي آسيا وأوروبا تحاول الدول الشيوعية أن تخفض أعدادهم لسياستها الخاصة التي تقوم عليها ، وفي إفريقية لسيطرة النصارى على كثير من الحكومات وليس في مصلحتها إلا إنقاص عدد المسلمين لبقائها في الحكم ، وهذا شأن الدول الاستعمارية في آسيا وإفريقية وفي كل بقعة حلّوا فيها .

إن هذه الأقليات المسلمة التي تعيش خارج نطاق العالم الإسلامي لتعد الدعم الأول لقضايا المسلمين واللسان الناطق باسمها داخل البقاع التي تقيم فيها ، وتكون كذلك على قدر تمسكها بالإسلام ومعرفتها بأحكامه ، وهذا يعود إلى معرفتنا نحن بها وبأوضاعها ومشكلاتها ثم مساندتها في قضاياها وإمدادها بالمعونات الفكرية والمادية .

ويمتاز العالم الإسلامي بأن سكانه يرتبطون بعضهم مع بعض بعقيدة واحدة على خلاف أصحاب العقائد الذين توجد بينهم خلافات كبيرة فالنصرانية يوجد بين أتباعها تباين كبير في التصور الديني وطبيعة السيد المسيح والأناجيل المتعددة والطقوس وما إلى ذلك من شعائر وأمور دينية على عكس المسلمين فإنهم جميعاً أصحاب فكر واحد وعقيدة واحدة ، وما يوجد بين أهل السنّة والشيعة لا يكاد يذكر بين ما يوجد عند النصارى

من كاثوليك وأورثوذوكس وبروتستانت ونساطرة و. . . صحيح أن هناك خلافات ما بين السنّة والشيعة إلا أنها تكاد تكون في أمور فرعية ، ولربما كان هناك أمور يجدر الوقوف عليها إلا أن أصحابها الذين يظهرون التقية لا يكادون يصرحون بها . ومع هذا **فأهل السنة** يؤلفون الغالبية

العظمى من سكان العالم الإسلامي وتصل نسبتهم إلى ٩٣,٨ ٪ ، ويؤلف **الشيعة** الرقم الباقي وهو ٦,٢ ٪ . ويوجد الشيعة في آسيا فقط أما إفريقية فلا توجد الشيعة فيها إلا من كان قد هاجر إليها ، ولعل أهم البلدان التي يتركز فيها الشيعة هي :

إيران	ويبلغ عددهم ٢١ مليوناً	ويشكلون	٦٤ ٪
باكستان	ويبلغ عددهم ٧ ملايين	ويشكلون	١٠ ٪
العراق	ويبلغ عددهم ٥ ملايين	ويشكلون	٤٠ ٪
طاچكستان	ويبلغ عددهم ٣ ملايين	ويشكلون	٩٨ ٪
الهند	[illegible] ٢ مليون	ويشكلون	٣٥ ٪
بقية البلاد	ويبلغ عددهم ٣ ملايين		
مجموع الشيعة في العالم الإسلامي	٤١	ويشكلون	٦,٢ ٪ من السكان
مجموع السنّة في العالم الإسلامي	٦١٨	ويشكلون	٩٣,٨ ٪ من السكان
مجموع المسلمين في العالم الإسلامي	٦٥٩		

أما المجموعات المتعددة الأخرى التي تدّعي الإسلام ظاهراً فإنها تنحصر في رقع صغيرة من الأرض ، ولا يزيد عددها على ثلاثة ملايين ، وإن كان لها دور في بعض البلدان ، وهم بهذا الرقم لا تصل نسبتهم إلى ١/٢ بالمائة ، وهذا الرقم لا ينظر إليه عادة ، وبذا يكون سكان العالم الإسلامي منسجمين بعضهم مع بعض في العقيدة والتصورات الدينية بصورة كاملة ، وبذا فهم يؤلفون أمة واحدة . فالأمة مجموعة من البشر تعيش بعقيدة واحدة .

لغة المسلمين

إن العادات والتقاليد الموجودة في أرجاء العالم الإسلامي جميعها إنما تنبع من العقيدة لذا فهي واحدة وأنى سار المرء يجد هذه العادات مع بعض التغييرات التي جاءت عليها مع الزمن . ويمكن أن نضيف إلى هذا **أن أكثر سكان العالم الإسلامي يعرفون اللغة العربية حيث هي** لغة القرآن كتابهم جميعاً ولغة العبادات ، إذ لا تصح عبادة امرئ من أية مجموعة كان إلا باللغة العربية لذا فهم حريصون على تعلمها سواء أكان ذلك في المدارس والجامعات على أنها لغة ثانية أم بالتلقين والمدارس الدينية وعند المشايخ وفي حلقات العلم على أنها لغة الدين ، وقد كانت السائدة والشائعة في أنحاء العالم الإسلامي كلها عندما كان للمسلمين دورهم ، فلما نشأت **العصبيات القومية** ، وقامت كل مجموعة تدعو [illegible]رازها والتركيز عليها للحفاظ على بقائها في الحكم وإلا فلا داعي لوجودها ، عندها ضعفت اللغة العربية وفقدت مركزها الأول الذي كانت تحتله ، ومع ذلك فقد بقي حرفها هو المعمول به في أكثر اللغات التي عرفت في العالم الإسلامي شأن التركية والفارسية والبشتو في بلاد الأفغان والأوردو في باكستان ولغة أندونيسيا والماليزيين وغيرهم ، وعندما جاء **الاستعمار** وسيطر على العالم الإسلامي فكرياً بعد سيطرته

السياسية عمل على تغيير الأحرف العربية من عدد من اللغات ، كان أولها من اللغة التركية التي بدّلها **مصطفى كمال** بعد إلغائه الخلافة وعندها تجرأ الاستعمار على ذلك ، فغير **الهولنديون** كتابة اللغة الأندونيسية **والروس** كتابة لغات أواسط آسيا من **أتراك وداغستان وشاشان وشراكس وتتار** وغيرهم ، **ولا تزال بقية اللغات إلى اليوم تكتب بالحرف العربي مثل لغة جنوبي الفيليبين وفطاني والأوردو والبشتو والفارسية .**

دور التاريخ الإسلامي

وإلى جانب اللغة يقف **التاريخ الإسلامي** الذي له صفة التقدير ونظرة الاحترام من جميع سكان العالم الإسلامي ويدرس في كل أرجائه ، كما أن كل مصر يدرس تاريخ دخول الإسلام إليه . وهذا كله ما يجعل أقوى الروابط تشد المسلمين في العالم بعضهم إلى بعض .

يعدّ الإسلام البشر كلهم من سلالة واحدة ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين** ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿ **الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين** ﴾[2] .

ويعد الإسلام أصل البشر واحداً ، ابتدأ بخلق **آدم عليه السلام** ، ثم توزع الناس من بعده وتفرقوا في الأرض فأثّرت فيهم البيئات فأعطتهم ألواناً حسب حرارتها ، وأثّرت على أجسامهم فأعطتهم ملامح خاصة وطبعتهم بسمات معينة ، وتطورت لغة كل جماعة حسب الأشياء الموجودة في بيئتها والتي أعطتها أسماء خاصة وعرفتها بها دون غيرها ، وبهذا التوزع الجماعي وجدت الألوان الحالية والعروق المعروفة والشعوب الموجودة واللغات القائمة .

أجناس العالم الإسلامي

يضم العالم الإسلامي مجموعة من العروق والألوان والشعوب ، فالإسلام لا يختص بعرق دون آخر ، ولا بجنس ، ولا بلون ، ولا بقوم وإنما يشمل الناس كافة ، ولا يفاضل بين هذه المجموعات ، ولا يميز إحداها عن الأخرى ، إذ يرفض الإسلام كل ما ينشأ عن فوارق البيئة من لون أو لغة أو جنس أو ثروة .

يشمل العالم الإسلامي **مجموعة القوقازيين** التي تنتشر في جنوب غربي آسيا وشمالي إفريقية ومنطقة القوقاز ، **ومجموعة المغول** التي توجد في جنوب شرقي آسيا وأواسطها وتركيا ، **ومجموعة الزنوج** التي تتكاثر في إفريقية المدارية والاستوائية .

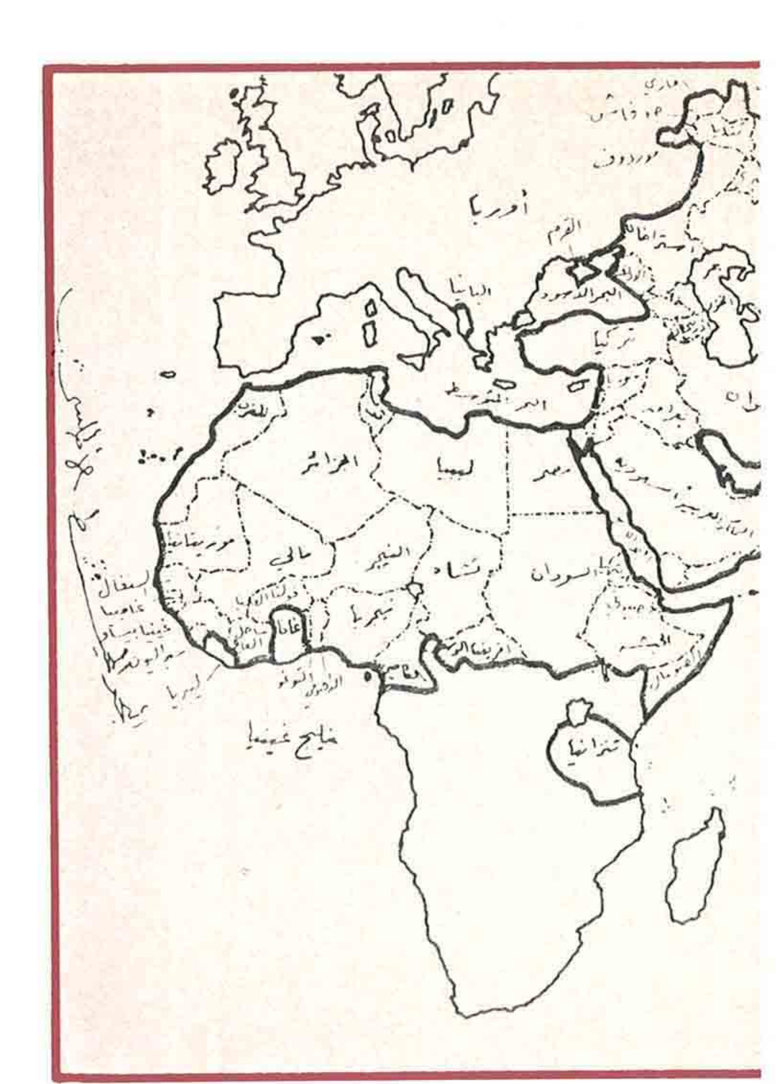


يضم العالم الإسلامي **العرق الآري** الذي يعيش أتباعه في الأفغان وإيران والقوقاز ، ويقطن **الساميون** في جنوب غربي آسيا وشمالي إفريقية ، وينتقل **الحاميون** في شرقي إفريقية وجهات محدودة في شماليها .

وتنتشر على أرض العالم الإسلامي عدة ألوان فالأسود لون الزنوج والأصفر لون المغول والأتراك ، والأبيض لون بقية الجماعات .

وتنتسب إليه عدة أقوام وشعوب من عرب ، وترك ، ومغول ، وفرس ، وهنود ، وماليزيين ، وفولاني ، وهاوسا ، وبانتو ، وأحباش ، وماندنيغ وغيرها كثير ، وقد اختلطت هذه الشعوب والأقوام كلها بعضها مع بعض إذ إن الإسلام هو الذي يجمع بين أبنائها ويوحد بين أفرادها ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى .

ولما كان الإسلام يقوم على المساواة فإنه يحارب فكرة الحرب بين الأمم ، والنزاع بين الشرق والغرب ، والقتال بين الأجناس ، والصراع بين العروق ، وإنما يدعو فقط إلى الجهاد الذي هو قتال الظلم والطغيان والاستبداد والوقوف في وجه



الدعوة والحرية الدينية ، ومن هذا المنطلق فإن الإسلام بعيد عن الخلافات التي قامت أو تقوم باسم الشرق والغرب والصراعات التي حدثت بين الأمم فهو ليس شرقياً ولا سامياً ولا أبيض وإنما للناس جميعاً ، ويرفض زج أتباعه في هذه الدوامة كما يحلو لبعض المؤرخين أن يفعلوا ذلك ليقف الغربيون ضده ، وليحاربه الآريون ، وليبتعد عنه الزنوج .

والإسلام فوق اعتباره المساواة بين بني البشر فإنه يكرم هذا المخلوق أياً كان نوعه أو جنسه أو عرقه أو لونه أو عقيدته ﴿ **ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** ﴾[٣] ولقد استخلف الله الإنسان في هذه الأرض ليعمرها ويستثمر خيراتها وسخّر له كل ما في هذا الكون ليستطيع أن يقوم بواجبه .

والإسلام يقدم الخير للبشر جميعاً ، فيحرّم العمل غير المشروع ، وما فيه ضرر للناس من احتكار وغش وربا ، وينهى عن السؤال ، وهذا ما يستدعي عدم وجود البطالة ، والدولة مسؤولة عن ذلك وعليها معالجتها ، سواء بالبحث على العمل والترغيب فيه ، أم بمنع الجلوس بلا عمل وفرض العقوبات على العاطلين وملاحقتهم ، وقد تتدخل الدولة الإسلامية في بعض الأعمال فتوجهها لما فيه مصلحة الأمة والخير العام لبني البشر ، وتطلب توزيع المعامل ، وتجبر أصحاب المعامل على توفير النواحي الصحية في بناء معاملهم ، وتأمين حقوق العمال .

والإسلام لا يعترف بوجود طبقات ، وكل طبقة جزء من المجتمع ، ولا يكون التفاضل بالغنى والثراء ، أو بنوع العمل الذي يقوم به صاحبه سواء أكان إدارياً أو يدوياً ، محترماً أو وضيعاً وإنما التفاضل بالتقوى ثم بالإخلاص في العمل . وكل ما يؤدي الإنسان من عمل إنما يقصد خير الأمة أولا ثم بني البشر جميعاً ، وكل هذه الجوانب تبقى نظرية إن لم توجد جماعة تحملها وتطبقها وعندها تبدو صلاحيتها وفعاليتها ، وهذا دور الدولة المسلمة أو الجماعة التي تتولى شؤون المسلمين في البلاد التي توجد فيها أقليات مسلمة أو حكومات غريبة عن عقيدة السكان .

والمسلمون يستطيعون أن يقدموا الخير للعالم كله لكثرة أعدادهم ـ كما سبق أن تكلمنا ـ كما ويملكون إمكانات كبيرة من رؤوس الأموال التي هي عصب الحياة ، ويعيشون على أراض واسعة تحتل وسط العالم ، وتتحكم بممراته البحرية ومراكزه التجارية ، وتنتج الخيرات الكثيرة ، وتدفن في ثراها الكنوز ، وتحوي أرضها النفع العميم .

منتجات العالم الإسلامي

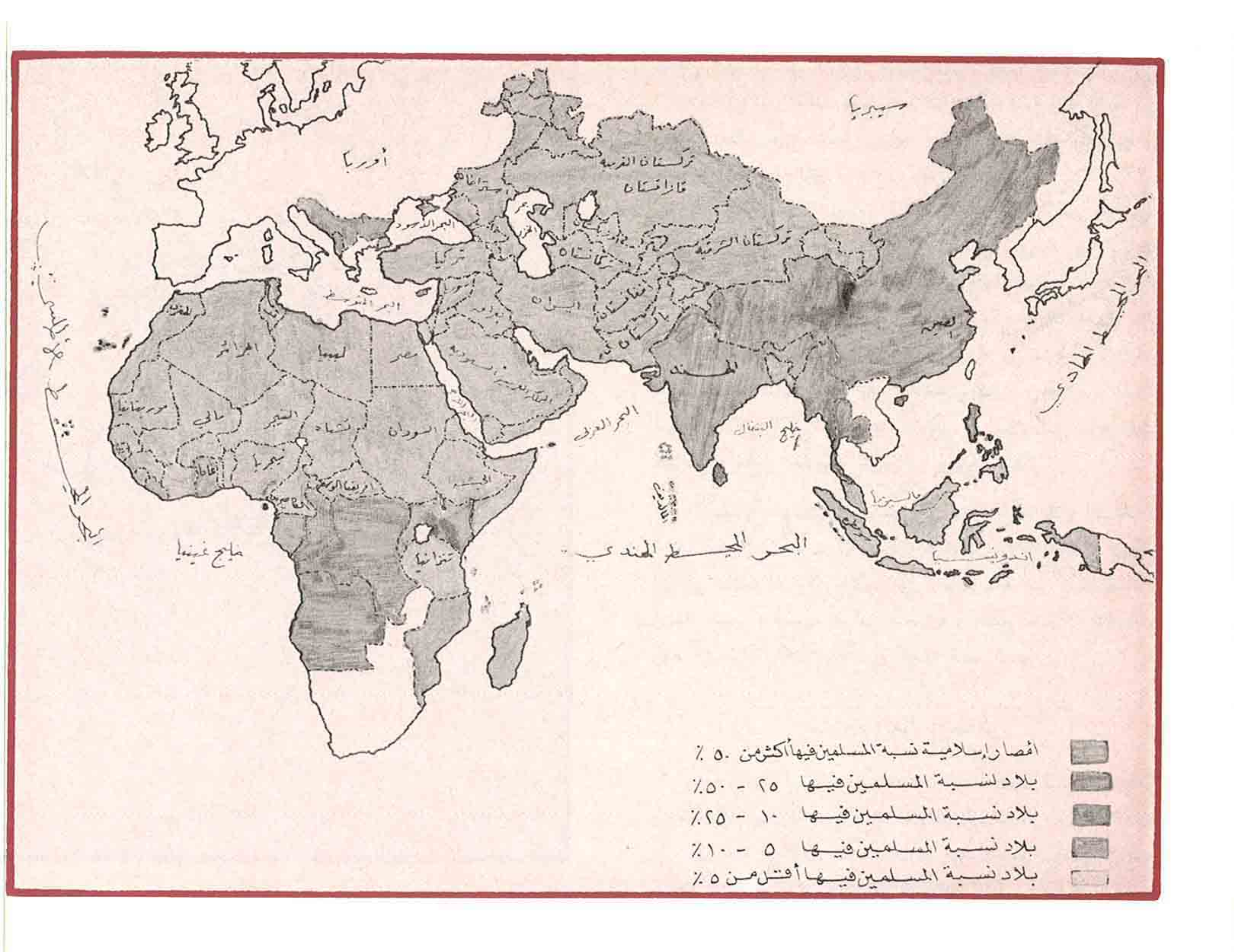
وتقدم البلدان الإسلامية التي يعيش عليها المسلمون اليوم **منتجات زراعية** كثيرة ومتنوعة نتيجة لتباين المناطق المناخية الموجودة فيها ، إذ ذكرنا أن العالم الإسلامي يمتد من جنوب خط الاستواء وحتى درجة العرض ٥٥° شمالا ، فتقدم البلدان الإسلامية ١٣ ٪ من **إنتاج القمح** في العالم وهو الغذاء الأول لبني البشر وتعد مناطق أواسط آسيا وتركيا وباكستان وإيران وأفغانستان ومصر والجزائر والمغرب وسورية والعراق أهم مناطق زراعته ، ويحتل العالم الإسلامي المرتبة الثانية بإنتاج القمح بعد روسيا ، إذ يقدم ٣٨ مليون طن .

وتعطي البلدان الإسلامية ٣٩ مليون طن من **الأرز** الذي يعد الغذاء الرئيسي لكثير من شعوب العالم . وبذا تحتل المرتبة الثالثة في العالم بعد الصين والهند وتقدم نسبة ١٤,٣ ٪ من الإنتاج العالمي ، وأهم مناطق إنتاجه أندونيسيا وبنغلاديش وباكستان ومصر وماليزيا .

وتنتج ٨ ملايين طن من **الذرة** ، وتحتل بذلك المرتبة الخامسة في العالم بعد الولايات المتحدة وروسيا والبرازيل والمكسيك ، وتعطي ٣ ٪ فقط من الإنتاج العالمي ، وتعد أندونيسيا ومصر ونيجيريا أهم مناطق زراعتها .

وتنتج ٤٠ مليون طن من **قصب السكر** ، وتحتل بذلك المرتبة الثالثة في العالم بعد الهند والبرازيل ، وتعطي ٩ ٪ مما يقدم العالم ، وأهم مناطق زراعته بنغلاديش وأندونيسيا ومصر .

وتعطي كميات من **الشمندر السكري** تقدر بـ ١٢ مليون طن تحتل بها المرتبة السادسة في العالم ، وتعد تركيا ومناطق تركستان من أهم



البلدان في العالم الإسلامي التي تنتج هذه المادة ، وتعادل هذه الكمية ٥ ٪ من إنتاج العالم أجمع .

وتكاد تقدم ٩٩ ٪ من **إنتاج التمور** في العالم ، وتأتي هذه المادة من العراق والمملكة العربية السعودية وإيران ومصر والجزائر والمغرب وتونس وليبيا والسودان وموريتانيا .

وتعطي ١/٣ مليون طن من **زيت الزيتون** ، وتحتل بذلك المرتبة الثانية بعد إيطالية ، وترتفع أحياناً إلى الأولى ، ولكنها تعد أول البلدان تصديراً لهذه المادة ، وأهم مناطق إنتاج هذه المادة تركية وتونس وسورية والمغرب ولبنان وليبيا والأردن .

وتقدم ١/٢ مليون طن من **البن** ، وهو ما يعادل ١٢,٥ ٪ من الإنتاج العالمي ، وتحتل بذلك المرتبة الثانية بعد البرازيل ، وتعد بلدان ساحل العاج وأندونيسيا والحبشة وتانزانيا ثم اليمن من البلدان المنتجة له في العالم الإسلامي .

وتعطي ١٠٠,٠٠٠ طن من **الشاي** ، وتحتل بذلك المرتبة الرابعة في العالم بعد الصين والهند وسيلان ، وهذا الإنتاج يعادل ٧ ٪ من الإنتاج العالمي ، وأهم البلدان المنتجة لهذه المادة أندونيسيا وبنغلاديش .

وتحتل المرتبة الأولى في العالم **بإنتاج الكاكاو** بتقديم ٧٥٠,٠٠٠ طن ، وتعطي ٤٨ ٪ من إنتاج العالم ، وأهم مناطق إنتاجه نيجيرية وأندونيسيا والداهومي (بنين) وماليزيا وسيراليون والتوغو وساحل العاج والكاميرون .

كما تحتل المرتبة الثانية في العالم **بإنتاج جوز الهند (النارجيل)** بعد الفيليبين ، إذ تعطي ١,١٥٠,٠٠٠ طن ، وتمثل ٣٥ ٪ من إنتاج العالم وأهم مناطق زراعته أندونيسيا وماليزيا وجزر المالديف وزنجبار والداهومي (بنين) .

وتتربع على المرتبة الأولى **بإنتاج النخيل الزيتي** حيث تقدم ١,١٥٠,٠٠٠ طن من هذه المادة ، ويمثل هذا الرقم ٨٠ ٪ من إنتاج العالم ويزرع بشكل رئيسي في نيجيريا وأندونيسيا والداهومي (بنين) وماليزيا وسيراليون والتوغو وساحل العاج والكاميرون .

وتحتل المرتبة الأولى أيضاً **بإنتاج المطاط** ، ويمثل إنتاجها المقدر بمليوني طن ٨٠ ٪ من إنتاج العالم ، وتعد ماليزيا وأندونيسيا ونيجيريا أهم

مناطق إنتاجه .

وتحتل المرتبة الأولى بإنتاج **الفلفل والكينا وبقية التوابل** ، وتعد أندونيسيا أهم مناطق إنتاج هذه المواد .

وتنتج البلدان الإسلامية ٤٣ ٪ من **إنتاج القطن** في العالم إذ يقدر إنتاجها بسبعة ملايين طن وتحتل بذلك المرتبة الأولى بين بلدان العالم ، وأهم مناطق إنتاجه هي : أوزبكستان من جمهوريات تركستان وباكستان ومصر وبنغلاديش ، وطاجكستان وتركمانستان وأذربيجان وقيرغيزيا وقازاقستان وتركيا وسورية والسودان وإيران .

وفي الوقت نفسه تحتل المرتبة الأولى **بإنتاج بذرة القطن** إذ تعطي ٤٠ ٪ من إنتاج العالم من هذه المادة .

وتعطي ٧٥ ٪ من إنتاج مادة **الجوت** التي تقدم بنغلاديش ٧٥ ٪ منها من إنتاج العالم .

وأما **الفول السوداني** فتحتل المرتبة الأولى بين بلدان العالم وتقدم ٢٧ ٪ من إنتاج الأرض حيث تعطي ٣,٧٥ مليون طن ، ويزرع في نيجيريا والسنغال والسودان وأندونيسيا ومالي وغامبيا والنيجر .

وتقدم كميات كبيرة من **الفواكه** وبخاصة **الحمضيات والعنب والمشمش والموز والأناناس والمانغو** .

وتعد البلدان الإسلامية غنية **بثروتها الغابية** المتوفرة بشكل خاص في البيئة الاستوائية مثل أندونيسيا وماليزيا والسودان وتانزانيا ، وفي المنطقة المعتدلة الدفيئة مثل بلاد المغرب وبلاد الشام ، وتحتل المرتبة الثالثة بالثروة الغابية بعد الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة .

أما **الثروة السمكية** فهي لا تزال قليلة بعد في العالم الإسلامي إذ لا تزيد على ٦ ٪ من إنتاج العالم حيث تعطي ١,٨ مليون طن ، وتأتي معظمها من أندونيسيا وباكستان والمغرب وماليزيا ومصر .

وفي البلدان الإسلامية ٢٠٠ مليون رأس من **الأغنام**، ويمثل هذا الرقم ٢٠ ٪ من عدد القطيع في العالم ، مع العلم أن عدداً منها من النوع الممتاز الذي يعرف باسم (**كراكول**) أو (**استراكان**) ويوجد في بلاد الأفغان وبلاد الطاجيك ، ويأتي على طليعة دول العالم الإسلامي في تربية الأغنام : تركيا ــ قازاقستان ــ إيران ــ أفغانستان ــ المغرب ــ العراق ــ أوزبكستان ــ السودان ــ قيرغيزيا ــ الجزائر ــ سورية .

ويتناقص ترتيب البلدان الإسلامية بالنسبة إلى **الأبقار** إلى المرتبة الرابعة بعد الهند والولايات المتحدة والبرازيل ، وتربي بلدان العالم الإسلامي ٨٢ مليون رأس وهو ما يمثل ٨,٢ ٪ من عدد القطيع العالمي ، ويأتي في طليعة الدول : السودان ــ وباكستان مع بنغلاديش وقازاقستان وأندونيسيا .

أما بالنسبة إلى **الطاقة** فإذا كانت البلدان الإسلامية قليلة الإنتاج بالنسبة إلى **الفحم** حيث لا تعطي إلا كميات ضئيلة منه لا تتجاوز (٦٥) مليون طن ، وهذا الرقم لا يعطي إلا نسبة صغيرة بالنسبة إلى إنتاج العالم الذي يصل إلى ملياري طن ، إلا أن البلدان الإسلامية تقدم ٦٠ ٪ من إنتاج العالم **من النفط**، وهو المادة المعتبرة اليوم والأساسية بالنسبة إلى الصناعة ووسائل النقل ، وأكثر من هذه النسبة من الاحتياطي ، وتعد دول الخليج العربي ومنطقة بحر الخزر ثم مكامن الصحراء الكبرى في ليبيا والجزائر ثم نيجيريا وأندونيسيا أهم البلدان المنتجة والمصدرة للنفط . ثم هناك **الغاز الطبيعي** الذي يكثر في إيران وماليزيا والجزائر وأندونيسيا والكويت وباكستان والدول الأخرى المنتجة للنفط .

كما تقدم البلدان الإسلامية كميات كبيرة من بقية المعادن النافعة والثروات وأهم هذه المواد موضحة في الجدول التالي :

المادة	الإنتاج العالمي بالطن	إنتاج البلدان الإسلامية بالطن	نسبة الإنتاج	المرتبة العالمية
الحديد	٢٥٠,٠٠٠,٠٠٠	٢٨,٠٠٠,٠٠٠	٪١٢	٣
النحاس	٤,٠٠٠,٠٠٠	١,٠٠٠,٠٠٠	٪٢٥	٢
المنغنيز	٨,٠٠٠,٠٠٠	١,٩٠٠,٠٠٠	٪٢٤	١
القصدير	١٧٩,٦٠٠	١٠٠,٤٠٠	٪٥٦	١
الكروم	٢,٥٠٠,٠٠٠	١,٠٠٠,٠٠٠	٪٤٠	١
البوكسيت	٣٠,٠٠٠,٠٠٠	٧,٠٠٠,٠٠٠	٪٢٣	١
الرصاص	٢,٠٠٠,٠٠٠	٢٠٠,٠٠٠	٪١٠	٥
الفوسفات	٨٥,٠٠٠,٠٠٠	٢١,٠٠٠,٠٠٠	٪٢٥	٢

★ ★ ★

هذا بالإضافة إلى ثروات أخرى .

وهكذا نستطيع أن نقول : إن المسلمين اليوم يقدمون للعالم الخير بما يحملون من قيم ومبادئ ، ويقدمون الخير المادي بما تحويه أراضيهم من كنوز وخيرات .

الهوامش

١ ــ سورة المؤمنون ، الآيات ١٢ ــ ١٤ .
٢ ــ سورة السجدة ، الآية ٧ ــ ٨ .
٣ ــ سورة الإسراء ، الآية ٧٠ .

كيف تتحقق لنا حضارة إسلامية

إن الحضارة الإسلامية حسب هذا الظن ـ أو هذا الزعم ـ هي حضارة تلتمس فقط في بطون الكتب وقاعات المتاحف !! .

لكن الحضارة الإسلامية متجددة دوماً ، أو **قابلة للتجدد دوماً** ، لأنها ترتكز إلى قيم حضارية أصيلة في معجزة الإسلام الخالدة : كتابه وما يقترن به من سنّة رسوله صلوات الله عليه . . . وهي قيم حضارية أطلقت حضارة الإسلام (التاريخية) المتعارفة في قرونها الماضية ، وحفظت القدر الضروري من طاقات المسلمين أفراداً ومجتمعات ودولا في عصور الضعف والاضمحلال ، وأعانتهم على غوائل الجهالة والتخلف والانحراف والانحلال ، وهجمات الصليبيين والمغول والاستعماريين القديم والجديد . . . وهذه القيم الحضارية نفسها كفيلة بتجديد حضارة إسلامية معاصرة إذا فهمها المسلمون ووعوها والتزموا بها وحققوها في واقع حياتهم : **﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء . تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ﴾** (سورة إبراهيم ، الآيتان ٢٤ ـ ٢٥) .

إن الإسلام الذي كرم الإنسان ـ ركيزة الحضارة وأداتها ـ والذي صور الحياة الإنسانية على هذه الدنيا كريمة طيبة رخية سخية قد عبأ طاقات الإنسان النفسية والفكرية والبدنية لإقامة الحضارة على الأرض بهداية الباريء عز وجل فاطر الإنسان وخالق الكون **﴿ ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾** (سورة الإسراء ، الآية ٧٠) ، **﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون . وعلّم آدم الأسماء كلها ﴾** (سورة البقرة ، الآيتان ٣٠ ـ ٣١) . وبما وهب الله الإنسان من قدرات نفسية وعقلية وبدنية ، لا يفتأ يتعرف على النواميس والقوى الكونية ويستخدمها ويستثمرها **﴿ الله الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناءً وصوّركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين ﴾** (سورة غافر ، الآية ٦٤) ، **﴿ وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون . وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يتذكرون . وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون . أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون . وإن تعدُّوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم ﴾** (سورة النحل ، الآيات ١٢ ـ ١٨) .

وإذ تتقرر كرامة الإنسان في رسالة الإسلام ، فإن هذا **الدين يضمن حقوق الإنسان كما يلزمه واجباته في تعامله مع الإنسان الآخر ومع الجماعة والدولة** على أساس من العقيدة وبتحديد من أحكام الشريعة . والحضارة تتطلب **حرية الفرد وتضامن الجماعة وانتظام الدولة وتقابل الحقوق والواجبات** وتحقيق التوازن والتناسق والتكامل بين الجانبين . وكل هذه الأصول مرعية في دين الإسلام الذي يجعل الخضوع المطلق للخالق وحده ، ويجعل علاقة الفرد بالفرد ، والفرد بالجماعة ، والفرد والجماعة بالدولة ، والدولة بغيرها من الدول ، والعلاقات المقابلة لذلك كله ، محكومة بشريعة الله التي لا تحابي ولا تتحامل **﴿ والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون ﴾** (سورة الشورى ، الآية ٣٨) ، **﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً . يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾** (سورة النساء ، الآيتان ٥٨ ـ ٥٩) .

الحضارة الإسلامية التي تحققت فعلاً وواقعاً في التاريخ ، ليست التحقيق الوحيد للحضارة الإسلامية على أرض الواقع ، وليست إنجازاً تاريخياً مضى زمنه وانقضت الظروف التي يمكن أن تخرج مثله ... بحيث لا يملك مسلمو اليوم إلا التفاخر بما فات ومضى وانقضى أو التباكي عليه !.. وبحيث تتوالى القرون فتزيد الآماد التي تفصل مسلمي اليوم عن ماضيهم الزاهر الذي يفخرون به أو يتباكون عليه ، ويضيف كل قرن جديد مسافة وحاجزاً ، لأنه يبعد الماضي (التاريخي) الذي يظن أناس أنه لن يتكرر أو ليس له أن يتكرر !!

معاصرة ؟؟

بقلم : د . محمد فتحي عثمان

وكتاب الإسلام يُحمِّل الإنسان **مسؤولياته العقلية في التفكير وطلب المعرفة** واستيعاب ثمراتها والتعبير عنها ونقلها وإشاعتها ، فالقرآن يخاطب الذين يعقلون ويتفكرون ويتذكرون وأولي الألباب ويكرم الذين أوتوا العلم ويحتكم إلى البرهان ، وقد كانت أولى آياته نزولا **﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم ﴾** (سورة العلق ، الآيات ١ ـ ٥) ، **﴿ خلق الإنسان علمه البيان ﴾** (سورة الرحمن ، الآيتان ٣ ـ ٤) ، **﴿ ألم نجعل له عينين . ولساناً وشفتين . وهديناه النجدين ﴾** (سورة البلد ، الآيات ٨ ـ ١٠) ، **﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا ﴾** (سورة الإسراء ، الآية ٣٦) ، **﴿ وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ﴾** (سورة النحل ، الآية ٧٦) . وما أصدق الكلمات المنيرة الهادية لمفكر الإسلام الراحل **مالك بن نبي** في كتابه « شروط النهضة » : **« إذا كانت الوثنية في نظر الإسلام جاهلية ، فإن الجهل في حقيقته وثنية لأنه لا يغرس أفكاراً بل ينصب أصناماً** ـ وهذا شأن الجاهلية . فلم يكن من باب الصدفة المحضة أن تكون الشعوب البدائية وثنية ساذجة ... ومن سنن الله في خلقه أنه عندما تغرب الفكرة يبزغ الصنم ... » ! ولقد جاء كتاب الإسلام المبين ينعي على المقلدين والمعطلين لنعمة العقل والتفكير ، ويثير طاقات الحس والوجدان والإدراك لشتى ظواهر الكون الجلية لكل ذي عينين ونواميسه المعجزة التي يسبر غورها أهل العلم بالبحث والتدبر **﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء . إن الله عزيز غفور ﴾** (سورة فاطر ، الآيتان ٢٧ ـ ٢٨) ، **﴿ ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ﴾** (سورة الملك ، الآية ٣) ، **﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون ﴾** (سورة الحجر ، الآية ١٩) ، **﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ﴾** (سورة يس ، الآية ٤٠) ، **﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديراً ﴾** (سورة الفرقان ، الآية ٢) ، **﴿ فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً ﴾** (سورة فاطر ، الآية ٤٣) .

ولقد كانت مساجد المسلمين ومدارسهم ومكتباتهم ومستشفياتهم خير شاهد على نور العلم الذي اقترن بهداية الإسلام . **كذلك علمت رسالة الإسلام الجد في العمل ، وقررت بأن عمارة الأرض واجب الإنسان الذي جعله الله في هذه الأرض خليفة ،** والعمل لكسب الرزق هو في الإسلام عبادة يبتغي بها فضل الله . والعمل هو الذي يشيد صرح الحضارة ، وارتباط العمل بالإيمان يصل به إلى أبعاد لا تدركها بحال حوافز الكسب والانتفاع والطموح ، وأخوة المؤمنين خير ما يحقق التعاون على الخير والبر والمعروف ويبارك الجهود والثمار .

وقد أكدت تعاليم الإسلام أن التوكل على الله ليس تواكلاً ، بل هو قرين الجد في العمل يباركه ويزكيه وينميه ويقي العامل مزالق البطر وعثرات القنوط ، وأن الزهد هو فيما يملكه المؤمن من طيبات الدنيا بكده وكسبه الحلال فيتخلى عنه مختاراً بعد أن ملكه لصالح الجماعة أو الأفراد المحتاجين ، وليس الزهد فيما لم تصل إليه اليد أو يدخل في الملك . ولكم جد المسلمون في عمارة الأرض وزراعتها واستخراج ما في باطنها وفي تربية الحيوان وفي الصناعة وفي التجارة حيثما حلوا ، وشهدت روائع منجزاتهم حضارتهم الزاهرة .

ولقد جاء الإسلام يبيِّن قيمة « **الوقت** » والوعي بالزمن شرط الحضارة ﴿ **إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً** ﴾ (سورة النساء ، الآية ١٠٣) ، ﴿ **يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج** ﴾ (سورة البقرة ، الآية ١٨٩) ، وإذا كان « الإنسان » ، وهو أداة الحضارة ، قد أكرمه الله بالعقل والبيان والإرادة ، ووجهه بهدايته لاستثمار ما أنعم الله به عليه ، وكانت « الدنيا » هي الإطار المكاني لنشاط الإنسان على اختلاف مجالاته ، فإن الوعي « بالزمان » المتاح لحياة الفرد والجماعة هو قيمة أساسية لا بد منها لقيام الحضارة الإنسانية في هذه الدنيا . ولقد ذكر المفكر المسلم مالك بن نبي في معادلاته الرياضية التي حاول بها تحليل الحضارة متأثراً بتخصصه كمهندس أن : **الحضارة = إنسان + تراب + وقت** !

ولقد ربى الإسلام المؤمن على محاسبة نفسه على كل لحظة تمر في حياته حتى يكتسب منها خيراً ويدفع فيها شراً ، فمن لم يكن في زيادة فهو في نقصان ! وإذا اجتمع الوعي بالزمن مع الجد في العمل ، نبتت الحضارة ونمت وأزهرت وأثمرت ثمرات مختلفاً ألوانها ، وكانت غذاء وشفاء وبهجة !!

ولكم تعنى رسالة الإسلام **بتنمية الذوق وتربية الإحساس بالجمال** ، ولطالما وجه القرآن نظر المؤمن إلى تذوق « الجمال » في خلق الله إلى جانب التماس « النفع » ﴿ **أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج** ﴾ (سورة ق ، الآيات ٦ ــ ١١) ، ﴿ **والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون** ﴾ (سورة النحل ، الآيات ٥ ــ ٨) . ودين الله يؤكد أن تذوق الجمال والسعي للتجمل سمة الإنسان السوي المرهف الحس اليقظ الإدراك اللماح لروعة الخلق وعظمة الخالق وجليل نعمائه ، وشريعة الإسلام ترسم النطاق الصحيح للتذوق والتجمل على السواء ، وترسم المسالك القويمة لإبداع فني رشيد ، حتى لا يكون الغبن غواته وإغواء وهيماً وتيهاً وتعبيراً بغير مسؤولية !! ﴿ **ألم تر أنهم في كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا** ﴾ (سورة الشعراء ، الآيات ٢٢٥ ــ ٢٢٧) .

والإيمان ــ قبل ذلك وبعد ذلك ــ هو خيرُ ضمان لمواصلة الجهد في بناء الحضارة وخير حفاظ على طاقات الإنسان من التبدد في ثغرات الغرور عند النجاح واليأس عند الخيبة ، وهو « رصيد موجب » يعوض السلب والاستهلاك ، ويؤمن البشر من الضعف الكسير والقوة البطرة ، إذ يحكم صمامات النفس بعروة الإيمان الوثقى ﴿ **لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم** ﴾ (سورة الحديد ، الآية ٢٣) ، ﴿ **إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين** ﴾ (سورة القصص ، الآيتان ٧٦ ــ ٧٧) ، ﴿ **واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور . ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور** ﴾ (سورة لقمان ، الآيتان ١٧ ــ ١٨) ، ﴿ **ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون** ﴾ (سورة يوسف ، الآية ٨٧) .

وهكذا يتولى الدين تعبئة طاقات الإنسان المتعددة لبناء الحضارة ، ويصونها ويعمل على استمرار نشاطها . . . فتتوالى الصور التطبيقية المتغيرة للقيم الحضارية الإسلامية الثابتة ، وتتجدد ثمار الدين الخالد وآثاره . . .

إن الإيمان بالله شحنة حياة ، تتفاعل مع النفس والحس والوجدان والفكر ، وتنمو بين جوانح الفرد أولا ثم تهيج فتطفر إلى رحاب الأرض ، فتشع النور على الأفراد الآخرين ، وعلى المجتمع ، ثم على المجتمعات الإنسانية قاطبة ، فالحضارة جماعية بطبيعتها ، منتشرة بطبيعتها ، متواصلة بطبيعتها . . . إنها نمو ورقي وتطور وامتداد في العمق والعرض والطول ، وعقيدة الإيمان وتعاليم الإسلام كما جاءت في كتاب الإسلام ليست في الكلمات المحدودات وإنما في الحقيقة الهائلة التي تحملها الكلمات والطاقات الهائلة التي تفجرها الكلمات فتكون ﴿ **تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين** ﴾ (سورة النحل ، الآية ٨٩) ، ﴿ **قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً** ﴾ (سورة الكهف ، الآية ١٠٩) .

﴿ **يكاد زيتها يضيء ولو لم يمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس** ﴾ (سورة النور ، الآية ٣٥) .

فالإسلام كفيل بإطلاق الطاقات النفسية والفكرية والعملية ، الفردية والجماعية ، لبناء الحضارة ونمائها والحفاظ عليها . والحضارة الإسلامية قابلة للتجدد دوماً في أي زمان . . . **فكيف السبيل إلى أن يتحقق ما هو كائن « بالقوة » في أصول الإسلام حتى يصير كائناً « بالفعل » في واقع حياة المسلمين ؟؟**

إن أجيال الإسلام المعاصرة أخذت تعي حقيقة دينها الخالد وعطاءه المتجدد لخير الإنسانية جمعاء ، لكن يجب أن يقترن هذا « **الوعي** » بالحرص على « **العمل** » لتحقيق هذه القيم الحضارية التي يحملها الإسلام في واقع حياة المسلمين فكراً وسلوكاً ، وعلى « **نشر** » هذه القيم بين الناس أجمعين في عالمنا المعاصر في شتى مجالات الحياة .

والحضارة حياة مستمرة متتابعة موصولة ، ومناخ سائد يعيشه « المتحضر » حتى يستطيع الإسهام والمشاركة في « **التطور** » الحضاري ، وإثراء النتاج الحضاري ، وتعديل وجهة المسيرة الحضارية .

إن المسلم المؤمن بدينه وقيمه وحضارته ليس في وسعه أن يتخذ موقفاً سلبياً من حضارة قائمة يرفض بعض ما فيها حتى تموت، وهو يمني نفسه أنه عند الساعة المحتومة لانقضاء الحضارة القائمة سوف يتحرك فوراً لإقامة الحضارة التي يريدها !!

إن عمليات تطوير الفكر والمجتمع ليست مجرد «انقلاب» مباغت بل هي «تحويل» طويل الأمد ... والذين أسموا التغيير الإسلامي التاريخي «انقلاباً» كالأستاذ **المودودي** رحمه الله، إنما قصدوا التعبير عن «**جوهر التغيير**» ومدى اختلافه الجذري عن الأوضاع السائدة قبله، ولم يقصدوا التعبير عن «**طريقة التغيير**» بحال من الأحوال.

ولقد يقال إن المسلمين الأولين من مهاجرين وأنصار في **مكة والمدينة** كانوا «**بدواً**» وتحضروا فجأة حين تشربوا تعاليم الإسلام وأحالوها إلى واقع عملي... وتصور المهاجرين والأنصار على هذا النحو غير صحيح، وإنما كانت **البيئة المكية تجارية**، أكسبت أصحابها خبرات أساسية، وهيأت لهم الاحتكاك بالحضارات والثقافات المجاورة المعاصرة لهم على قدر ما يسَّرت ذلك وسائل الاتصال في عصرهم. وكانت **البيئة المدنية زراعية**، والزراعة تقتضي معارف تقنية وتعاملية.

والشعر الجاهلي يصور مستوى ثقافياً رفيعاً وإدراكاً واسعاً عميقاً، ومشاعر ناضجة، وأخلاقاً سوية مستقيمة في كثير من الأحيان. **وأخبار العرب** قبل الإسلام تدل على عقول حكيمة، وبديهة حاضرة، وإفادة حصيفة من الخبرات المتاحة المتراكمة، واستجابة ذكية لمختلف المؤثرات.

والتاريخ الاجتماعي للعرب يشير إلى أنهم لم يكونوا كلهم «بدواً» ولم يكونوا كلهم جهلاء، فما أخطر التعميمات السطحية المتجنية في هذا المجال![1].

ووصف العرب «بالأمية» في القرآن الكريم قد يقابل ما وصف به أهل الكتاب من نزول «الكتاب» عليهم، ولا يقابل معرفة القراءة والكتابة... وفي آيات القرآن نفسها بيان وبلاغ: ﴿ **هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين** ﴾ (سورة الجمعة، الآية ٢)، ﴿ **أن تقولوا إنما أنزل القرآن على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين. أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة** ﴾ (سورة الأنعام، الآيتان ١٥٦ ـ ١٥٧). ولقد كان اليهود يطلقون على العرب وصف «أميين» بمعنى «غير الكتابيين» لا «غير الكاتبين»: ﴿ **ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون** ﴾ (سورة آل عمران، الآية ٧٥). ولقد وصف القرآن اليهود الذين لا يعرفون حقيقة كتابهم وتعاليمه «بالأميين» أيضاً فقال بالحق سبحانه: ﴿ **ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون** ﴾ (سورة البقرة، الآية ٧٨).

على أنه من المعروف المقرر الآن أنه **ليس ثمة تناقض بين «الأمية» و«الثقافة»**، فللأمي خبراته ومصادر ثقافته غير المكتوبة التي لها وزنها وقيمتها. وقد أفاض في ذلك مؤرخو الحضارات والأنثربولوجيون والاجتماعيون ومن إليهم من الباحثين.

وإذا كان من بديهة العقل ومن تعاليم رسول الإسلام صلوات الله عليه، ألا يُخاطَب قومٌ إلا بما يفهمون حتى لا يُكَذَّبَ الله ورسوله، فهل من المقبول أن تُخاطب آيات القرآن بدواً حفاة عن المشكاة والمصباح الذي هو في زجاجة كأنها كوكب دري، وعن الصرح الممرد من قوارير، وعن السرر المرفوعة والأكواب الموضوعة والنمارق المصفوفة والزرابي المبثوثة؟[2] وهل تتسع لغة هؤلاء البدو الحفاة كما يتصور البعض جميع عرب شبه الجزيرة لمثل تلك المفردات الواردة من الآيات وهي كسائر القرآن بلسان عربي مبين، وما يرسل الله رسولا إلا بلسان قومه ليبيِّن لهم[3]؟؟ وهل يكون في وسع البداة الحفاة تذوق صور القرآن البيانية الراقية وإدراك إعجازه الأدبي؟؟

ولم يكن العرب الذين عاصروا مشرق رسالة الإسلام بمعزل عن الحضارات والثقافات من حولهم إيرانية أو هندية أو بيزنطية يونانية أو غيرها... وكانت رحلات العرب التجارية تتردد على اليمن والحيرة والشام، وتجاوز ذلك إلى ما جاورها من العراق وفارس ومصر وقد توغل إلى ما هو أبعد من ذلك. وكانت إمارتا المناذرة والغساسنة على صلة بالفرس والروم على التوالي... وكل هذه كانت سبلاً مفتوحة لاتصال العرب المستمر بالحضارات المعاصرة لهم قبيل الإسلام[4].

وحين استشار الخليفة الراشد **عمر بن الخطاب** في شأن تزايد الوارد إلى بيت المال من المغانم والخراج بعد الفتوح «**قال الوليد بن هشام ابن المغيرة**: قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دونوا ديواناً وجندوا جنداً **فدون ديواناً وجند جنداً**. فأخذ بقوله». وذهبت بعض الروايات إلى أن هذه المشورة استندت إلى سوابق الفرس لا سوابق الروم، وأن صاحبها قد يكون أحد المرازبة الفرس الذين والوا المسلمين أو غيرهم من الفرس[5].

ولقد أفاد المسلمون من سوابق النظم الساسانية والبيزنطية التي وجدوها في البلاد المفتوحة في كل مجال للاجتهاد، ما دامت توافق مبادئ الشريعة العامة وقواعدها الكلية، ولا تتعارض مع أحكامها الجزئية القطعية. وبدا ذلك الاقتباس المباح جلياً على صفحات تراثنا الفقهي:

«قال أبو يوسف: إذا كانت في البلاد **سنَّة أعجمية قديمة لم يغيرها الإسلام ولم يبطلها**، فشكاها قوم إلى الإمام لما ينالهم من مضرتها، فليس له أن يغيرها، وقال مالك والشافعي: يغيرها وإن قدمت، لأن عليه نفي كل سنَّة جائرة سنَّها أحد المسلمين فضلاً عما سن أهل الكفر»[6].

وقد خرج المسلمون من شبه الجزيرة في فتوحهم إلى مراكز حضارات

العالم من حولهم «فزحفوا إلى أمم فارس والروم وطلبوا ما كتب الله لهم من الأرض بوعد الصدق . . . فزخرت بحار الرفه لديهم» ، ولقد استفادوا من الخبرات الحضارية العملية المتنوعة التي وجدوها لدى أهل البلاد المفتوحة «ولما استعملوهم في مهنهم وحاجات منازلهم ، واختاروا منهم المهرة في أمثال ذلك والقومة عليهم ، فأفادوهم في علاج ذلك والقيام على عمله والتفنن فيه ، مع ما حصل لهم من اتساع العيش والتفنن في أحواله ، فبلغوا الغاية في ذلك ، **وتطوروا بطور الحضارة والترف في الأحوال** ، واستجادة المطاعم والمشارب والملابس والمباني والأسلحة والفُرُش والآنية وسائر الماعون والخرثي . . . »[٧] .

كذلك لم يتوان المسلمون عن الاستفادة من المعارف العلمية في البلاد التي فتحوها وهي معارف بطبيعتها إنسانية عالمية كما بيّن **ابن خلدون** بحق «**فالعلوم العقلية هي طبيعية للإنسان من حيث إنه ذو فكر ، فهي غير مختصة بملّة بل يوجه النظر فيها من أهل الملل كلهم ويستوون في مداركها ومباحثها ، وهي موجودة في النوع الإنساني منذ كان عمران الخليقة** .

ولما انقرض أمر اليونان وصار الأمر للقياصرة وأخذوا بدين النصرانية هجروا تلك العلوم (!) أو بقيت في صحفها ودواوينها مسجلة باقية في خزائنهم ، قد ملكوا الشام وكتب هذه العلوم باقية فيها . ثم جاء الله بالإسلام وكان لأهله الظهور الذي لا كفاء له ، وابتزوا الروم وملكهم فيما ابتزوه للأمم[٨] ، وابتدأ أمرهم بالسذاجة والغفلة عن الصنائع ، حتى إذا تبجحوا من السلطان والدولة وأخذوا من الحضارة بالحظ الذي لم يكن لغيرهم وتفنّنوا في الصنائع والعلوم تشوّقوا إلى الاطلاع على هذه العلوم الحكمية بما سمعوا من الأساقفة والأقسّة المعاهدين بعض ما ذكر فيها وبما تسمو إليه أفكار الإنسان فيها . فبعث **أبو جعفر المنصور** إلى ملك الروم أن يبعث إليه بكتب (التعاليم) . . . فقرأها المسلمون واطّلعوا على ما فيها وازدادوا حرصاً على الظفر بما بقي منها .

وجاء **المأمون** بعد ذلك وكانت له في العلم رغبة بما كان ينتحله ، فانبعث لهذه العلوم حرصاً ، وأوفد الرسل على ملوك الروم في استخراج علوم اليونانيين وانتساخها بالخط العربي ، وبعث المترجمين لذلك ، فأوعى منه واستوعب . وعكف النظّار من أهل الإسلام وحذقوا في فنونه . ا وانتهت إلى الغاية أنظارهم فيها ، وخالفوا كثيراً من آراء المعلّم الأول . . . »[٩] .

وشملت العلوم العقلية أو الحكمية : الرياضيات من حساب وهندسة ، والطبيعيات من فلك وفيزياء وكيمياء إلى جانب الطب وبالإضافة إلى المنطق . وكانت «التعاليم» في اصطلاح تصنيف العلوم ـ وقد وردت في ثنايا كلام ابن خلدون سالف الذكر ـ تعني فروع الرياضيات من حساب وهندسة وتعني الهيئة (مواضع الكواكب والنجوم ومسافاتها) كما تشمل الموسيقى .

* * *

ومن ثم ليس للمسلمين المؤمنين بدينهم وقيمهم وحضارتهم أن يعزلوا أنفسهم عن الحضارة الإنسانية في مرحلتها الراهنة انتظاراً لانهيارها وسقوطها ، وهم يحسبون أنهم يستطيعون وقتها القفز في الفراغ لإقامة الحضارة الإسلامية المجدّدة . فالحضارة لا تسقط أو تموت على ذلك النحو ، والحضارة لا تنشأ أو تقوم على هذا النحو . **وكل حضارة هي بعبارة أدق «طور حضاري» في الحضارة الإنسانية العامة** ، ومرحلة في المسيرة المتصلة المستمرة . ولا تقوم حضارة (أو طور حضاري) إلا في ظل حضارة سابقة (أو طور حضاري سابق) ، **فتستفيد من مناخه وتتمثل خير ما فيه ، ثم تحتويه وتتجاوزه بما تقدمه من قيم ومنجزات ذات خصائص تتعمق إلى الكيف والجوهر** ولا تقف عند حدود الكم والشكل .

والفرد أو الجماعة ، إذا عزلا نفسيهما عن المناخ الحضاري القائم والتيار الحضاري السائد ، يكونان قد حكما على نفسيهما بالتيبّس والتجمّد والانقراض ، لكن الحضارة الراهنة هي التي تبق إلى أجلها المقدور .

على أن هذا لا يعني بطبيعة الحال أن يقبل المسلمون كل جزئيات الحضارة القائمة ، فلم يأخذ المسلمون الأولون ميثولوجيا اليونان أو نحتهم ، والمسلمون في كل عصر لا بدّ أن يحكّموا قيمهم في تحديد الايجابيات والسلبيات وتقرير ما يأخذون وما يدعون . ولكن لا يُعقل أن يحرموا أنفسهم وفكرهم ومجتمعهم من أية خبرات إنسانية نافعة ، ومنها خبرات أهل الحضارة المعاصرة في نقد حضارتهم وتحليل أزماتها ومعضلاتها ، والشكاوى المرة التي طالما صعّدها المفكرون والأدباء والعلماء من تحوّل «الإنسان» في ظل التقدم التكنولوجي المهول إلى آلة أو رقم أو نمط مطّرد لا تفرّد فيه ، أو بالأحرى تحوّل الإنسان إلى حالة نمطية ـ أو حالة مرضية ـ متكررة : من التمزق والضياع والاغتراب ! ولم يفلح التراكم «الكمي» «الشيئي» «السطحي» للمنتجات المادية في مدافعة أزمات النفوس والعقول ـ وحتى الجيوب ـ التي تعانيها المجتمعات المتقدمة والنامية على السواء !

ومع ذلك فللحضارة الراهنة منجزاتها التي لها قيمتها غير المنكورة في مجالات الفكر السياسي والاجتماعي والاقتصادي ، فضلاً عن مجالات العلم التجريبي والتقدم التكنولوجي . والمسلمون محتاجون للإفادة من وسائلها المنهجية في البحث وأساليبها في العرض والنشر والإعلام ، ومؤسساتها السياسية والإدارية والقضائية والتعليمية والاقتصادية على المستويين الدوْلي والدُولي .

إن الإفادة من هذه الخبرات والمنجزات الحضارية الإنسانية العالمية ضروري للمسلمين ، لكي يعيشوا في المناخ الحضاري الحيوي للإنسان أولا ، ولكي يفكروا تفكيراً حضارياً رشيداً فيما ينشدون من الحضارة وما ينبغي من العمل للطور الحضاري الذي يطلبونه : ما تكون صورته المبتغاة ، وما تكون سبيل العمل لبلوغ الغاية المتوخّاة !

* * *

وإن تجدّد الحضارة الإسلامية لا يعني ضرورة استحضار كل ما كان من ماضي هذه الحضارة وإن كان زاهراً متألقاً ، فلكل زمان وبيئة بنية وتركيب ، وحاجات وتصورات ، **فليس ثمة شكلاً واحداً أو قالباً مفرداً لا بُدّ أن تصبّ فيه الحضارة الإسلامية** ، لتغدو

صورة جامدة مكرورة في كل مكان وزمان .... ولقد حققت الحضارة الإسلامية ، في إبّان إزدهارها في القرون الأولى للهجرة **« التنوّع في نطاق الوحدة »** Variety Within Unity ... **وهي تتنوع خلال الزمان كما تتنوع في أرجاء المكان ،** في حدود تعاليم الإسلام .

وتعاليم الإسلام تركت مجالا رحباً فسيحاً يسمى المباح حيث لا أمر أو نهي ... والمسلمون قادرون على الإبداع الفكري أو العملي في حدود هذا المجال الرحب الفسيح ما داموا لا يصادمون نهياً قاطعاً صريحاً ... وليس ما يبدعه جيل بعينه ملزماً لكل جيل ، ما دام الأمر أمر المباح ! وكان ما كان محلّ اجتهاد قابل لاجتهاد غيره قد يخالفه على أن يسلك النهج المشروع في الاجتهاد والاستنباط... ودائرة المباح متروكة لأي نشاط إنساني بنّاء في أي زمان أو مكان ، يستثمر المباح ويبدع فيه ما يحقق صالح الإنسان في ضوء المقاصد العامة للشريعة ... فلا تشترط حضارة الإسلام ، مثلاً ، طرازاً معمارياً معيَّناً ، أو علماً طبياً لا يتغيَّر ... ولا يشترط أن تثبت فنون الإسلام على « الأرابسك » التقليدي ، والحق إنّ له جماله الذي يتذوقه كل عصر وبيئة ، لكنه قطعاً ليس الصورة الوحيدة للإبداع الفني في مجال الزخرفة في كل حضارة تنتسب إلى الإسلام !!.

ما أحوج الإنسانية إلى « **الحضارة الإسلامية المعاصرة** »... الحضارة التي تعالج جذرياً أدواء الإنسانية وتملأ خواءها من الأعماق ، دون أن تتجاهل واقعها المعاصر وما تحقق فيه من مكاسب وإيجابيات ، ولا تجمد عند أشكال وقوالب تاريخية للحضارة الإسلامية في زمان أو مكان بعينها ، وإنما تحرص على الأصول الحضارية الثابتة الخالدة في الكتاب والسنّة ، وتجدّ في تفهمها خالصة من ينابيعها دون تأثر بما قد يكون شاب تفهمها فيما مضى من (ظرفية) بحكم (محدودية) الإنسان في كل زمان ومكان ، ما دام ليس هو الرسول المعصوم صلوات الله عليه ! .

وعلى المسلمين ألا يحجبوا أو يعوّقوا الحضارة الإسلامية المنشودة للعصر (بعدم المعاصرة) في التفكير أو في عرض الأفكار أو في الحوار عند اختلاف الأفكار ! .

ويوم ننصف أنفسنا وعقولنا وحضارتنا ، فإننا نمهد السبيل أمام هذه الحضارة لتحقق خلاص الإنسان مما يكاد يقضي على روحه وذاتيته وكيفيته المتفردة وجوهره المتميز الفذ الأصيل **﴿ يأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين . قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون . قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالا قل ءآلله أذن لكم أم على الله تفترون . وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون ﴾** (سورة يونس ، الآيات ٥٧ ــ ٦٠) صدق الله العظيم .

الهوامش

(١)تشير روايات **السنّة** المطهّرة إلى تفرقة مميّزة قائمة بين العرب في عصر البعثة النبوية بين البدو والحضر . فقد أتى رجل الرسول صلوات الله عليه بطعام هدية ، فتوقفت عن تناوله أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فطمأنها الرسول بأن الرجل كان ممن يتردد على عشيرته في مكة وله نفس عاداتهم . وقد أظهرت غزوة حنين ، مثلاً ، بعض الفوارق والاختلافات الحادة بين قبائل البادية وقريش . وقد ذكر ابن كثير في تفسير قوله تعالى **﴿ الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ﴾** (سورة التوبة ، الآية ٩٧) حديث الرسول صلى الله عليه وسلم الذي رواه ابن عباس : « من سكن البادية جفا » ــ أخرجه أحمد وأصحاب السنن عدا ابن ماجة وقال الترمذي : حسن غريب . وتضمّن تفسير ابن كثير للآية قوله : « ولما كانت الغلظة والجفاء في أهل البوادي لم يبعث الله منهم رسولا وإنما كانت البعثة من أهل القرى **﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى ﴾** . ولما أهدى الأعرابي للرسول علية الصلاة والسلام رد عليه أضعاف هديته حتى رضي ، لكنه قال صلوات الله عليه « لقد هممت ألا أقبل هدية إلا من قرشي أو ثقفي أو أنصاري أو دوسي » لأن هؤلاء كانوا يسكنون المدن فهم ألطف أخلاقاً من الأعراب . وفي حديث مسلم عن عائشة قالت : قدم أناس من الأعراب على رسول الله فقالوا : أتقبّلون صبيانكم ؟ لكنا والله ما نقبّل ! ؟ فقال الرسول : أو أملك إن كان الله نزع منكم الرحمة ! وفي خلافة عثمان رضي الله عنه نصح بعض الصحابة أبا ذر الغفاري رضي الله عنه حين اعتزل في « الربذة » أن يتردد على المدينة حتى لا يستغرقه التبدّي . واتهم « جفاة البدو » مع فئات أخرى بأنهم كانوا من أدوات الفتنة التي وصلت إلى قتل الخليفة الراشد الشهيد .

(٢) هذه الكلمات والعبارات وردت في الآيات الكريمة التالية : **﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور ﴾** (سورة النور ، الآية ٣٥) ، **﴿ قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرّد من قوارير ﴾** (سورة النمل ، الآية ٤٤) ، **﴿ في جنة عالية . لا تسمع فيها لاغية . فيها عين جارية . فيها سرر مرفوعة . وأكواب موضوعة . ونمارق مصفوفة . وزرابيّ مبثوثة ﴾** (سورة الغاشية ، الآيات ١٠ ــ ١٦) .

(٣) يقول سبحانه **﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ﴾** (سورة إبراهيم ، الآية ٤) ، **﴿ نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين ﴾** (سورة الشعراء ، الآيات ١٩٣ ــ ١٩٥)

(٤) صلات العرب قبيل الإسلام بالحضارات المعاصرة لهم حقيقة تاريخية مقررة ، لكنها لا تبدو واضحة لدى الكثيرين . ولقد أفاض فيها جواد علي في « المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام » وبيّنها صالح العلي في « محاضرات عن تاريخ العرب قبل الإسلام » ، ومحمد عزة دروزة في « عصر النبي وبيئته قبل البعثة » ، وغيرهم . ولأستاذي الجليل محبّ الدين الخطيب رحمه الله كتابات مبرزة في هذا المجال توزعت في عدة مواضع .

(٥) البلاذري : فتوح البلدان ــ بتحقيق رضوان محمد رضوان ــ القاهرة ، ص ٤٣٦ ، وقارن : ابن الطقطقي : الفخري ، ابن خلدون : المقدمة .

(٦) البلاذري : المصدر السابق ، ص ٤٣٥ .

(٧) مقدمة ابن خلدون ــ وهي الجزء الأول من تاريخه ــ طبعة دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة ــ بيروت ، ص ١٧٢ ، ٢٠٤ . و(الخرثي) : المتاع .

(٨) ابتزّ : أخذ قهراً .

(٩) مقدمة ابن خلدون ، ص ٤٧٨ ، ٤٨٠ ــ ٤٨١ .



أقام العرب دولتهم في شبه الجزيرة الإسبانية زهاء ثمانية قرون ، مذ فتح **طارق بن زياد** إسبانيا في سنة ٧١١ م ، إلى أن فقد العرب **غرناطة** آخر القواعد الإسلامية في سنة ١٤٩٢ م . وفي هذه الحقبة الطويلة حول العرب سائر الأقاليم التي تغلبوا عليها في شبه الجزيرة ، ولا سيما قسمها الجنوبي ـ **الأندلس** ـ حولوها من قفار موحشة إلى حقول وحدائق غناء ، وسطعت بها حضارتهم الإسلامية الزاهرة ، التي بهرت بعلومها وفنونها جيرانهم في شبه الجزيرة من الممالك النصرانية ، كما بهرت أمم الفرنج الأوروبية ، التي كانت تغمرها يومئذ موجة من الجهالة والتأخر .

الحضارة الأندلسية

إن تاريخ إسبانيا المسلمة ، ليقدم إلينا قصة طويلة مشجية من تقلب المصاير والحظوظ ، تتناوبها صور متباينة من القوة والعظمة ، والضعف والانحلال ، والاتحاد والتفرق ، والنعماء والضراء ، ولكن يميزها دائماً ذلك الطابع الحضاري المؤثر ، الذي جعل من الأندلس المسلمة ، أمة نموذجية عبقرية ، تتفوق على سائر أمم العصر بعلومها وفنونها .

تلقى العرب إسبانيا من **القوط** بلداً ، فرقه الخلاف والحروب الأهلية ، وغلب عليه المحل والخراب ، فلم تمض سوى حقبة صغيرة ، حتى بدأ يسوده السلام والطمأنينة والرخاء ، وبالرغم مما وقع في العصر الأول من المنازعات الأهلية بين طوائف الفاتحين أنفسهم ، فإن ذلك لم يمنع من استمرار **تيار الفتح الإسلامي** في الاندفاع نحو الشمال ، وعبور **جبال البرنيه** ، وغزو **فرنسا** واجتياحها حتى شواطئ **نهر اللوار** ، واحتلال ثغر فرنسا الجنوبية مدى حين . ولما انتهى **عصر الولاة** ، واستطاع **عبد الرحمن الداخل الأموي** أن يتغلب على الأندلس ، وأن يقيم بها أول إمارة تخضع لسلطان **بني أمية** ، بدأت الأندلس ، عصر السيادة القومية ، وأخذت شخصيتها تبدو في ثوبها الإسلامي العريق ، وتلتف حولها سائر القبائل والقوى ، وتتطلع إلى مزيد من القوة والمجد .

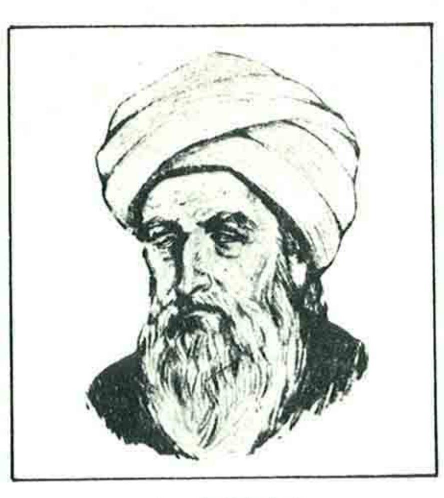
وانتهى عصر الإمارة ، وقامت الخلافة الأندلسية في سنة ٣١٦ هـ (٩٢٩ م) على يد **عبد الرحمن الناصر ، أول خلفاء بني أمية بالأندلس** ، وأعظمهم شأناً ، وأضحت **مدينة قرطبة** عاصمة الأندلس ، مركز الخلافة في الغرب الإسلامي ، وبدت خلافة قرطبة منذ أيام الناصر ، ثم أيام ولده **الحكم المستنصر** ، ثم عصر **الحاجب المنصور** ، المتغلب على الدولة ، في حلة ساطعة من العظمة والبهاء ، وتضاءلت إزاءها سائر ممالك إسبانيا النصرانية ، وأخذت تخطب عطفها وودها ، كما اتجهت إليها أنظار سائر ممالك الفرنج ، منذ **قسطنطينية** في المشرق إلى سائر ممالك الغرب النصرانية ، مثل **فرنسا وألمانيا** ، وأخذت تبادلها العلائق الدبلوماسية والسفارات ، وتعقد معها معاهدات المودة والصداقة .

وازدهرت **العلوم والآداب والفنون** في عاصمة الخلافة ، وفي حواضر الأندلس الكبرى مثل **إشبيلية وسرقسطة ، وجيان ، وبلنسية ، ومرسية** وغيرها . وغدت جامعات الأندلس ومعاهدها مقصد الطلاب من ممالك إسبانيا النصرانية ، ومن سائر أنحاء الممالك الأوروبية ، ولا سيما رجال الدين ، فنرى مثلاً **الراهب الفرنسي جربير** ، يقوم بالدراسة في الجامعات الأندلسية بقرطبة وإشبيلية ، ثم يظفر بعد ذلك بكرسي البابوية في سنة ٩٩٩م باسم **سلفستر الثاني** .

ونرى **العلامة الإيطالي جيراردو الكريموني** المتوفى سنة ١١٨٧م ، يدرس العلوم العربية في معاهد **طليطلة** ثم يغدو بعد ذلك أستاذاً لمدرسة ترجمة كتب العلوم العربية إلى اللاتينية ، ويقوم بترجمة عدد منها ، مثل **جداول الزرقالي ، وكتاب الفرغاني في الفلك ، وقانون الطب لابن سينا** وغيرها . ويقال إن ما ترجمه من كتب العلوم العربية



★ ابن رشد ★



★ أبو العلاء المعري ★



★ جابر بن حيان ★

...ية خلال ثمانية قرون

يربو على ستين كتاباً .

واشتهرت **مدرسة الترجمة الطليطلية** خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، وترجم كثيراً من آثار التفكير والعلوم العربية إلى **اللغتين العبرية واللاتينية** ، وكان لظهورها أثر كبير في تزويد حركة الاحياء الأوروبية بكثير من المراجع والمعلومات النفيسة . واستمرت الجامعات الأندلسية خلال ذلك تجذب رواد الدراسة من مختلف الأمم الأوروبية ،

وكانت آخرها **جامعة غرناطة** التي اشتهرت خلال القرن الرابع عشر بدراساتها الممتازة ، وكانت بالأخص مقصد الطلاب من مختلف أنحاء إسبانيا النصرانية .

دولة الطوائف

ولما انهارت خلافة قرطبة ، في أواخر القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) واضمحلت النظم السياسية والاجتماعية ، وسادت الثورة والفوضى أرجاء الأندلس ، ذوت الحضارة الأندلسية مدى حين ، حتى قامت **دول الطوائف** فوق أنقاض الدولة الأموية ، واستطاعت بالرغم من صغرها ، وتنافسها ، وتطاحنها في ميدان الحرب ، أن تعيد لمحة من بهاء الدولة الإسلامية ، وسطعت آيات الحضارة الأندلسية في قصورها ومنشآتها ، وأينعت في ظلها دولة التفكير والأدب ، وعرفت الأندلس في هذه الحقبة المضطربة من تاريخها طائفة من أعظم مفكريها وأدبائها وشعرائها ، مثل **الفيلسوف ابن حزم** المتوفي سنة ٤٥٦ هـ

بقلم : محمد عبد الله عنان

(١٠٦٤ م) ، **وابن حيان** أعظم مؤرخي الأندلس المتوفي سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٦ م) ، والشاعر الكبير **ابن زيدون** المتوفي سنة ٤٦٣ هـ (١٠٦٩ م) وعشرات آخرين من العلماء والكتاب والشعراء ، بل لقد كان ملوك الطوائف أنفسهم في طليعة العلماء والأدباء والشعراء مثل **الأمير العالم عمر بن الأفطس صاحب بطليمس** ، والشاعرين الكبيرين **المعتمد بن عباد** صاحب إشبيلية ، **والمعتصم بن صمادح** صاحب المرية .

عهد المرابطين

ولكن سرعان ما انكمشت هذه النهضة الفكرية والأدبية الزاهرة ، عقب مصرع دول الطوائف واستيلاء **المرابطين** على الأندلس في سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) ، وكان أولئك البربر الصحراويون قوماً غلاظاً ، يؤثرون مهاد الجندية والخشونة ، وتغلب عليهم الأفكار الرجعية العتيقة ، فلم تأخذهم مظاهر الحضارة الأندلسية المصقولة ، ولم تكن تهزهم أصداء الشعر والآداب الرقيقة . ومن ثم فقد طوردت في ظلهم الكتب العلمية والفلسفية ، وكتب الأصول المشرقية وفي مقدمتها **كتب الغزالي** ، فركدت في ظلهم دولة التفكير والأدب ، وذوى بهاء الحضارة الأندلسية . أجل سطعت في ظل دولتهم القصيرة الأمد في ميدان التفكير الأندلسي جمهرة من الشخصيات اللامعة من حفاظ وعلماء وكتاب وشعراء ، مثل **أبي بكر**



★ ابن باجة ★

الطرطوشي الفيلسوف السياسي المتوفي سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) صاحب كتاب «**سراج الملوك**»، **وابن بسام الشنتريني** صاحب «**الذخيرة**» المتوفي سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م)، **وابن قزمان أمير الزجل الأندلسي** المتوفي سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) والذي اقتبست **الأغاني القشتالية** كثيراً من مقطوعاته وأزجاله، ومن العلماء **أبو القاسم خلف بن عباس القرطبي الطبيب الأشهر** المتوفي سنة ٥١٩ هـ (١١٢٢ م)، **وأبو القاسم الزهراوي القرطبي**: Abul-Kasis، المتوفي سنة ١٠١٣ م. وقد كان أعظم جراح في الإسلام، وكان لطرائقه الجراحية أعظم تأثير على فن الجراحة في أوروبا حتى عصر الاحياء، **وابن باجة الطبيب الفيلسوف** المتوفي سنة ٥٣٣ هـ (١١٣٨ م) وهو المعروف باللاتينية: Avempace.

بيد أن ظهور هؤلاء وأضرابهم في هذه الفترة لم يكن إلا أثراً من آثار النهضة الفكرية والأدبية في ظل دول الطوائف، إذ يجب ألا ننسى أن الحركة الحضارية والفكرية، كانت في عهد دول الطوائف، وقبل مقدم المرابطين تجوز حركة اندفاع قوي، وأن العلوم والآداب قد ازدهرت في ظل قصور الطوائف ورعاية ملوكها ازدهاراً يدعو إلى الإعجاب، وإذن فقد كان من الطبيعي أن يستمر هذا الاندفاع وقتاً آخر قبل أن يخبو، وأن تحتفظ الحركة الحضارية والفكرية بقوتها مدى حين.

دولة الموحدين

وفي ظل **دولة الموحدين**، التي خلفت دولة المرابطين في حكم الأندلس، انتعشت الحضارة الأندلسية والتفكير الأندلسي. **وقد نشأ الموحدون كالمرابطين في مهاد الخشونة والتقشف، ولكنهم كانوا أوسع أفقاً، وأكثر قبولا لثمار التمدن. وكان لدولتهم بالأخص صبغة علمية دينية**، إذ كان مؤسسها **المهدي ابن تومرت** من أئمة التفكير الديني، وأبدى خلفاؤه **عبد المؤمن بن علي** وبنوه من الخلفاء اهتماماً بالعلوم والفنون، فأطلقت حرية التفكير والبحث، وكانت قد صفدت في عهد المرابطين، وأفرج عن كتب الغزالي وغيره من مفكري المشرق.

وفي تلك الفترة بالذات، أعني في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع للهجرة، بلغ التفكير الأندلسي ذروة النضج، وتفجرت ينابيع النبوغ، وظهرت طائفة من أعظم أقطاب العلم والأدب، وسطعت الحضارة الأندلسية وبلغت ذروتها. وكان في طليعة أقطاب العلم في هذا العصر **بنو زهر الإشبيليون**، وعميدهم الوزير والطبيب الأشهر **أبو العلاء زهر بن عبد الملك بن زهر**، ثم ولده **أبو مروان عبد الملك بن زهر** المتوفي سنة ٥٥٧ هـ (١١٦١ م) وهو المعروف باللاتينية باسم: Avenzoar ويعتبر ابن زهر أعظم طبيب ومشخص في العصور الوسطى بعد **أبي بكر الرازي**، ويعتبره تلميذه **ابن رشد**، أعظم طبيب بعد **جالينوس** ويعتبر كتابه «التيسير»، من أعظم مراجع الطب في العصور الوسطى. وكان لمؤلفاته، التي ترجمت كغيرها إلى اللاتينية في عصر مبكر، أثر عظيم في سير البحوث الطبية في أوروبا، وخلفه في مهنته ولده الطبيب الأشهر **أبو بكر ابن زهر** المتوفي سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٨ م). وظهر إلى جانب هؤلاء العديد من أقطاب الفلاسفة مثل **أبي بكر ابن طفيل الوادي آشي** المتوفي سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) وهو صاحب رسالة «**حي بن يقظان**» الشهيرة. **والإمام الفيلسوف أبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي** المتوفي سنة ٥٩٤ هـ (١١٩٨ م).

وقد كان ابن رشد بلا ريب أعظم فلاسفة الإسلام ومفكريه في ذلك العصر، وقد ولد بقرطبة سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م)، واتصل منذ فتوته **بأبي يوسف يعقوب بن عبد المؤمن**، المشرف على شؤون الأندلس، وكان الأمير مثل أبيه يجمع حوله أعلام المفكرين والعلماء. **وبرع ابن رشد في الفقه والطب والفلسفة، وتولى قضاء إشبيلية في سنة ٥٦٥ هـ.** ثم ولي قضاء قرطبة، واستمر **زهاء خمسة وعشرين عاماً يتقلب في مناصب القضاء والإدارة في ظل حكومة الموحدين بالأندلس والمغرب**، وتولى أثناء ذلك، إلى جانب أستاذه ابن طفيل **منصب الطبيب الخاص للخليفة**



★ ابن زيدون ★

أبي يعقوب يوسف ، ثم لولده الخليفة يعقوب المنصور بعد وفاته . واتهمه بعض خصومه من فقهاء الموحدين بالزندقة والخروج على شريعة الإسلام ، فأمر الخليفة المنصور بنفيه إلى مدينة اليسانة على مقربة من غرناطة ، وفرضت عليه رقابة شديدة . ثم عفا عنه ، واسترد مكانته في أواخر حياته ، واستدعي ثانية إلى مراكش عاصمة الخلافة الموحدية . وهنالك توفي بعد قليل في سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٨ م) .

وأعظم آثار ابن رشد هو شروحه لفلسفة أرسطو ، في المنطق وما وراء الطبيعة . وقد ترجمت إلى اللاتينية منذ القرن الثالث عشر ، وكانت مفتاح الدراسات الأرسطوطالية في العصور الوسطى . وقد كان يغمرها الغموض والخلك قبل أن يتصدى ابن رشد لشرحها . وغدت شروح ابن رشد في الوقت نفسه أساساً لكثير من المباحث الفلسفية ، التي ازدهرت أيام حركة الاحياء الأوروبي ، بل يرى مؤرخو الفلسفة أن الفلسفة الجدلية الأوروبية استمدت من العرب والفلسفة العربية ، أكثر مما استمدت من قسطنطينية التي كانت مستودعاً لتراث الفلسفة اليونانية .

وكتب ابن رشد في الطب مؤلفه « الكليات » وهو من أهم الآثار الطبية في العصور الوسطى . وقد ترجم إلى اللاتينية وغيرها من اللغات الأوروبية منذ القرن الثالث عشر . ولابن رشد طائفة كثيرة أخرى من الرسائل والبحوث الفلسفية والكلامية .

الزراعة والصناعة

هذا ، وقد كانت الأمة الأندلسية من أبرع الأمم في الزراعة والصناعة ، وكانت الزراعة منذ أيام الدولة الأندلسية الكبرى من أعظم موارد الأندلس . وكانت وديان إسبانيا الخصيبة التي تتخللها عدة من الأنهار العظيمة ، وتربتها البديعة ، وإقليمها المتقلب بين الحرارة والبرودة تفسح أعظم مجال لهذا الشعب العامل الذكي . وكان مسلمو الأندلس من أنبغ الشعوب في فلاحة الأرض وتربية الماشية وغرس الحدائق وتنظيم طرق الري ، ومعرفة أحوال الجو ، وكل ما يتعلق بفنون الزراعة وخواص النبات ، وكانت مزارعهم وحدائقهم مضرب الأمثال في الجودة والنماء .

وقد نقل العرب من المشرق وشمال إفريقية الى إسبانيا كثيراً من الأشجار والمحاصيل ، **كالقطن والأرز ، وقصب السكر والزعفران والنخيل** . وكانت بسائط الجزيرة في أيامهم رياضاً نضرة ، وكانت غياض **القمح** وغابات **الزيتون** ، وحدائق **البرتقال والتوت والكروم** ، من أبدع ما ترى العين في وديان الأندلس ومروجها النضرة .

وأما نبوغ أهل الأندلس في تنظيم وسائل الري والصرف ، واستجلاب الماء وتوزيعه بالطرق الفنية ، فما زالت تشهد به آثارهم الباقية إلى الآن ، في وديان الأندلس من القناطر والجداول الدارسة . وقد أقيمت أيام الدولة الأموية بعض القناطر الشهيرة ، وحفرت ترع ومصارف لا حصر لها ، في مختلف أنحاء إسبانيا ، وكلها مما يشهد لصانعيها بالمهارة والتفوق .

وكان لأهل الأندلس شهرة خاصة في غرس الحدائق وتنسيقها ، وقد كانت **حدائق الرصافة والزهراء والزاهرة** ، بدائع تشهد لهم بالبراعة وحسن الذوق . وما زالت هذه البراعة حتى اليوم علماً على جمال الحدائق الأندلسية . وقد اتخذت فنون الزراعة على يد الأندلسيين طابعاً علمياً وألفت فيها الكتب القيمة . وقد انتهى إلينا من آثارهم في ذلك كتاب « الفلاحة » **لابن بصال الطليطلي** (القرن الحادي عشر الميلادي) وكتاب « الفلاحة » أيضاً لتلميذه **أبي زكريا ابن العوام الإشبيلي** (أواخر القرن الثاني عشر) ، ومؤلف ثالث في الفلاحة أيضاً **للطغري الغرناطي** . وفي هذه الكتب كلها ما يدل على مبلغ ما وصل إليه مسلمو الأندلس من معرفة بخواص التربة ، واستخراج كنوز الأرض ، وطرق الري والصرف ، وأحوال الطقس وغيرها .

وقد كان من آثار غزوات البعوث الأندلسية المجاهدة في القرن العاشر الميلادي في جنوب فرنسا ، أن نقلت إلى هذه المنطقة بذور بعض المحاصيل والمواد الخام ، مثل القمح الأسمر ، الذي يعتبر حتى الآن من أهم المحاصيل الغذائية في جنوبي فرنسا . ومن آثارهم الصناعية **عملية استخراج القطران** الذي تطلى به قاع السفن ويحميها من العطب ، فهم الذين علموه لأهل **بروفانس** ، وما زال عندهم من الصناعات الذائعة وما زال اسمه الفرنسي Goudron (القطران) ينم عن أصله العربي .

وأما في **علم النبات** فقد اشتهر من علماء الأندلس عالمان عظيمان ، هما : **ابن الرومية الإشبيلي** المتوفي سنة ١٣٤٠م ، **وابن البيطار المالقي** المتوفي سنة ١٢٤٨ م ، وقد طاف كلاهما شمال إفريقية وبلاد المشرق في سبيل البحث عن الأصول النباتية ، وكان لبحوثهما في عالم النبات أعظم تأثير على البحوث الأوروبية في هذا الميدان .

وكذلك ضرب مسلمو الأندلس في الصناعة بأوفر سهم ، وكانت إسبانيا المسلمة أيام قوتها ، أعظم الأمم الصناعية في

أوروبا . **وكانت ثرواتها المعدنية من الحديد والرصاص والزئبق والذهب والفضة وغيرها ، تمدها بأسباب التفوق في هذا الميدان** . وقد اشتهرت الأندلس بنوع خاص بصناعة الأسلحة الممتازة ، تنتجها بوفرة ، وتصدرها إلى أمم أوروبا وإفريقية . وكذلك اشتهرت بصناعة **الصوف والحرير والأقمشة الملونة الممتازة** ، وصناعة **الجلود** الدقيقة التي برع فيها أهل قرطبة بنوع خاص .

وطبق مسلمو الأندلس تفوقهم في **الكيمياء** في ميدان الصناعة ، فبرعوا في **صنع الأدوية والعقاقير ، واستخراج العطور من الأزهار ، وتركيب الأصباغ** المختلفة ، ولا سيما اللون الذهبي ، وغيره من الألوان الزاهية ، وكانت **صناعة الحرير** صناعة زاهرة ، ولا سيما في **مالقة والمرية** ، وكانت من أعظم موارد الأندلس .

وقد نقلت المدن الإيطالية التي اشتهرت بصناعة الحرير في العصور الوسطى ، عن الأندلسيين معظم طرائقهم وفنونهم في هذه الصناعة المربحة . وكانت **مدينة فيرنزا (فلورنس)** تستورد كميات كبيرة من الحرير الخام من غرناطة حتى أواخر القرن الخامس عشر . ولبثت **صناعة الأواني** الخزفية الجميلة المزدهرة حتى العصر الأخير . وما زالت بقايا هذه الصناعة الأندلسية القديمة قائمة حتى اليوم في بعض المدن الأندلسية ، ولا سيما في إشبيلية ومالقة ، وما زالت المتاحف الإسبانية تغص بكثير من الأواني الخزفية الأندلسية والموريسكية البديعة الصنع والزخرفة .

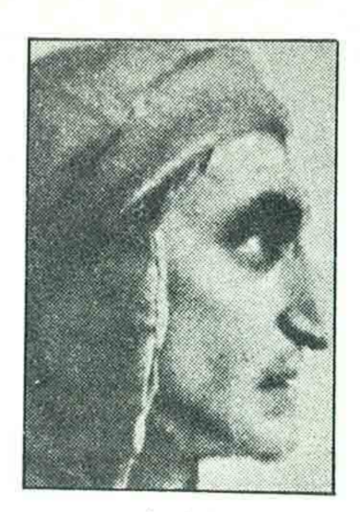
واشتهرت الأندلس أيضاً بصناعة الورق ، وأنشئت لها المصانع العظيمة ولا سيما في طليطلة وشاطبة ونقلها الإسبان عن المسلمين ، ثم انتقلت إلى أوروبا عن طريق فرنسا ، وذاعت فيها منذ القرن الثالث عشر ، وكان لهذه الصناعة مكانتها في مملكة غرناطة .

التجارة

أما **التجارة** فقد بلغت شأواً بعيداً في الأندلس ، وذلك لحسن موقعها وكثرة ثغورها ، وتوسطها بين أوروبا وإفريقية ، وانتظام صلاتها البحرية مع سائر **ثغور البحر المتوسط** ، وكانت علائقها التجارية تمتد حتى قسطنطينية ، وثغور **الشام والإسكندرية** ، وترسو سفنها التجارية في الثغور الإيطالية ، ولا سيما **جنوه وروما والبندقية** . وكانت ثغورها تزخر بمختلف الواردات من بلاد أوروبا وإفريقية والمشرق . وكان لتجار الأندلس سمعة عالية في حسن التعامل والأمانة والوفاء .

النهضة الأدبية

هذه صورة عابرة من الحضارة الإسلامية بالأندلس . وإذا كنا قد أشرنا إلى بعض الآثار التي خلفتها في الحضارة الاوروبية ، ولا سيما حضارة عصر الاحياء القريبة منها من الناحية الزمنية ، وإذا كانت هذه الآثار تجتمع بالأخص حول المؤثرات العلمية مثل الطب والكيمياء والفلك والنبات وغيرها ، فإن هذه المؤثرات تحتل كذلك مكانتها في **النواحي الأدبية** . فقد أشرنا مثلاً إلى اقتباس الأغاني القشتالية من أزجال ابن قزمان ، ويرى البحث الحديث أن يربط مثلاً بين **ملحمة دانتي** الرائعة «**الكوميديا الإلهية**» وبين **كتاب الغفران لأبي العلاء المعري** ، وبين **قصة ديفوني** «**روبنصن كروزو**» وقصص **السندباد البحري** ، وإن كان هذا التمثيل يرجع إلى آثار التفكير الإسلامي المشرقي ، بيد أن أعظم الآثار الأدبية الأندلسية يبدو قبل كل شيء في تكوين النزعة الشعرية في جنوبي فرنسا .



★ دانتي ★

وقد ظهرت هذه الآثار واضحة في الحركة الأدبية التي تعرف «**بحركة التروبادور**» : Troubadour التي ظهرت في جنوبي فرنسا ، وفي شمال إسبانيا وشمال إيطاليا ، منذ القرن الحادي عشر الميلادي ، وقوامها القريض الحربي والغنائي ، وزعماؤها فرسان شعراء وفنانون .

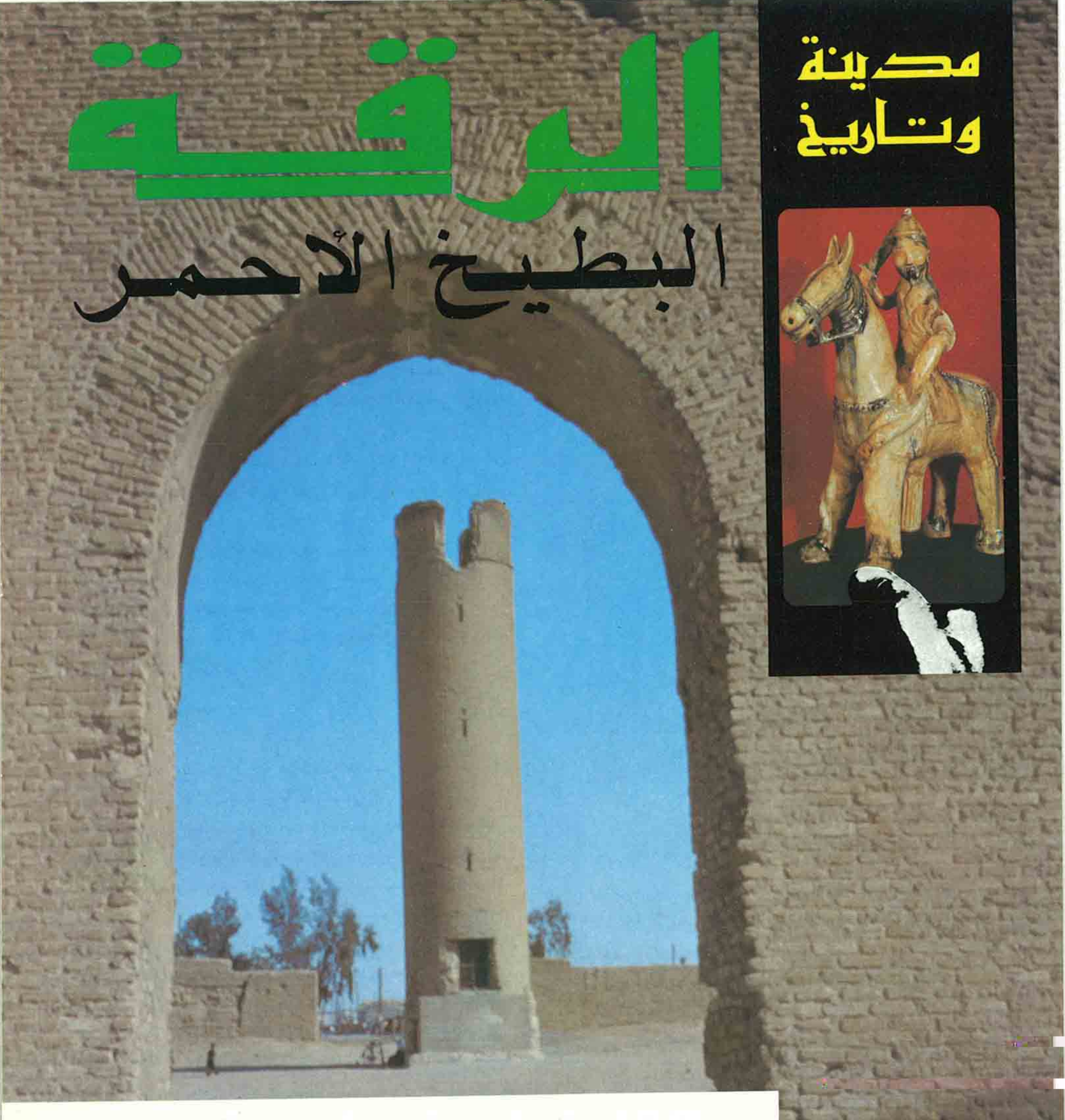
أضف إلى ذلك أن تأثير الحضارة الاسلامية الأندلسية في سير الحضارة الأوروبية ، لم يقف عند هذا العصر ولا عند هذه الحدود . فقد استمرت العلائق بعد ذلك طويلاً بين مسلمي الأندلس والأمم النصرانية المجاورة ، وكان للحضارة الأندلسية في تطورها العقلي والاجتماعي أعظم الآثار .

ثم إنا نستطيع أن نزيد على ذلك أن آثار هذه الحضارة قد طبعت شبه الجزيرة الإسبانية بطابعها الرائع ، وإننا نستطيع أن نلمس هذه الآثار في كثير من طبائع الشعب الإسباني وتقاليده ، ولا سيما في ولايات الأندلس الجنوبية فيما وراء نهر الوادي الكبير ، في قرطبة وإشبيلية وغرناطة ومالقة . ثم نلمسها واضحة في **اللغة الإسبانية ذاتها ، وهي تحتوي على المئات من الكلمات العربية المحرفة إلى الإسبانية** ، ونلمحها في طراز **العمارة القشتالية** حيث يقول لنا **الأستاذ جونثالث بلانثيا** إن البيت القشتالي لم يكن سوى صورة مطابقة من طراز البيت الأندلسي ، بفنائه الداخلي ، ونوافذه المطلة على الفناء ، وشجر البرتقال والنخيل قائم في وسطه ، وأن تقاليد الأسرة القشتالية ، كانت مشابهة إلى حد كبير تقاليد الأسرة المسلمة . ونحن نكتفي بقول هذا العلامة الإسباني الكبير ، دلالة على أصالة الحضارة الأندلسية وتأثيرها البعيد في شبه الجزيرة حتى يومنا .

الرقة

البطيخ الأحمر

مدينة وتاريخ



بقلم : د . عبد الرحمن حميدة

حياة المدن كحياة الأفراد من بني الإنسان ، تتقاذفها صروف الدهر بين رفع وخفض ، ويسار أو بوار ، ولكن مع فارق وحيد ، هو أن بعض المدن قد تنبعث من مرقدها في فترات متقاربة نسبياً في عمر الزمن لتمارس أدوارها الغابرة ، في حين يقول فيلسوف المعرّة في بني آدم :

تحطمنا الأيام حتى كأننا   زجاج ولكن لا يُعاد له سبك

وتنتسب مدينة الرقة إلى هذا النمط من المدن ، هذا علماً بأن حاضرها لا يزال أقل بريقاً من ماضيها بكثير . فهذه المدينة التي ارتقت منذ عشرين عاماً إلى رتبة عاصمة محافظة سورية كبيرة المساحة ، لا تضم حالياً أكثر من خمسين ألف نسمة ، ولكنها تعد ، مع ذلك ، **أهم مدينة على ضفة الفرات اليسرى في بلاد الشام ، لأن العرب يطلقون عبارة « الشامية » على كل المناطق الواقعة إلى الغرب من نهر الفرات .**

هذا وتقوم الرقة في سهل من الأرض فسيح ، شديد الانبساط ، لأن [illegible] ضفة ، أو ضحا[illegible] ينساح فوقها الماء وقت الفيضان أو المد كي ينحسر عنها فيما بعد في موسم الشح أو الصيهود .

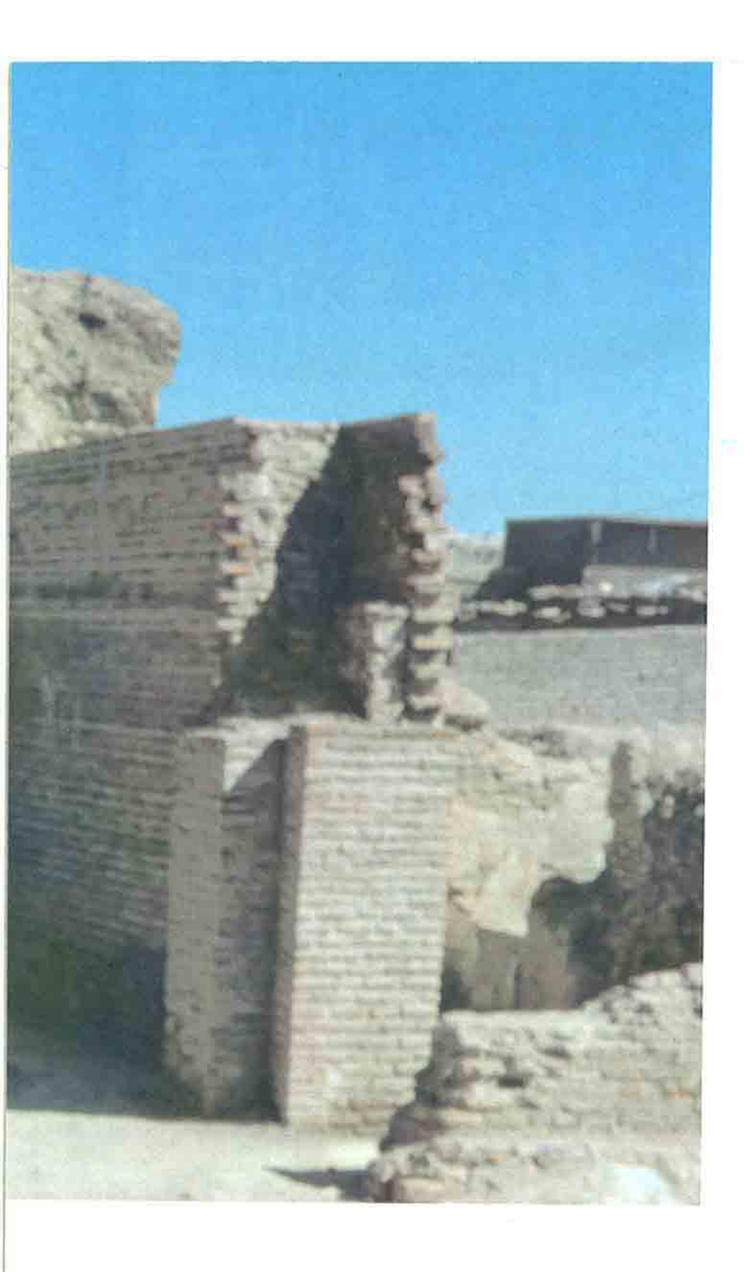
وتحتل هذه المدينة أواسط الزاوية المؤلفة من التقاء **وادي الفرات** برافده الصغير ، **نهر البليخ** ، الذي يعانق الفرات على مسافة ثلاثة عشر كيلومتراً إلى الشرق منها ، فوق بقعة تزخر بآثار الحضارات المتعاقبة القديمة من **آرامية وهللينيستية ورومانية وإسلامية .**

وتقوم الرقة إلى الشرق من حلب ، عاصمة بلاد الشام الاقتصادية ، على مسافة تبلغ مائة وثمانين كيلومتراً ، إلى الشمال الغربي من مدينة **دير الزور** ، أكبر مدينة عربية على الفرات ، والتي تبعد عنها بمقدار مائة وأربعين كيلومتراً ، أي على الطريق التجارية العريقة التي تربط **موانئ البحر الأبيض المتوسط** ببلاد الرافدين ، وبموانئ **الخليج العربي والهند والشرق الأقصى .** وعند نقطة من هذا الطريق تدعى « **المقص** » يتفرع طريق طوله ستة كيلومترات في اتجاه الشمال الشرقي ليتصل بجسر حديث البناء على الفرات يؤدي مباشرة إلى مدينة الرقة .

طبيعتها

تتمتع الرقة الواقعة على **درجة عرض** مرتفعة نسبياً ، بالموازنة مع باقي أرجاء العالم العربي ، أقول تتمتع بمناخ عذب منعش على العموم ، هذا على رغم تعرضها للرياح القارسة التي تنحدر هابطة من **هضاب الأناضول** الثلجية شتاء ، والتي تؤدي في بعض السنين إلى هبوط الحرارة إلى حوالي عشر درجات دون الصفر ، وفي حالات نادرة ، إلى تجميد مياه نهر الفرات ذاته ، كما حدث عام ١٩١١ م ، أو **عام الثلج** ، مثلما تبدو مدينة مفتّحة الصدر للرياح اللافحات التي تهب من القطاع الجنوبي ، أي من صحارى **جزيرة العرب وإفريقيا** ، كي ترفع الميزان الحراري فيها إلى حوالي ٤٧ درجة في شهر تموز (يوليو) ، في بعض السنين . ولكن إذا استثنينا هذه الدرجات الحرارية المتطرفة والنادرة ، وجدنا أن الرقة لطيفة المناخ ، إذ يساهم نهر الفرات العريض ، ولا سيما **البحيرة الاصطناعية** الممتدة خلف **السد** الحديث ، إلى الغرب من الرقة ، على مسافة ثمانين كيلومتراً ، بالإضافة إلى السهول المزروعة بجوارها ، في جعل ليالي الصيف غاية في اللطف ، إذ ليس من المستغرب أن يهبط ميزان الحرارة في ليالي الفصل القائظ إلى حوالي ١٥ درجة مئوية .

أما أمطارها التي تعادل أمطار العاصمة السورية ، أو ١٨٥ ميليمتراً ، فلا تكفي لقيام زراعة الديم ، أو البعلية ، أي المعتمدة على الأمطار ، ولكنها تسمح بوجود المراعي الطيبة في كل أنحاء منطقتها . ولكن الرقة تعتمد على نهر عظيم يقذف في كل نصف دقيقة من الزمن ما يكفي لاستهلاك مدينة كبيرة



كالرياض في كل يوم . لهذا قامت على ضفتيه زراعة كثيفة ، يحتل **القطن** فيها مكان الصدارة ، ويتلوه في الإنتاج **القمح** – ذهب المستقبل – **والخضار** بأنواعها .

وللرقة شهرة عريقة بزراعة **البطيخ الأحمر أو الأصفر** ، الذي كان يصدر إلى عاصمة العباسيين ، إذ لا يزال العراقيون يطلقون على البطيخ الأحمر اسم « **الرقّي** » نسبة إلى الرقة ، وهو الذي يدعى **الحبحب في الحجاز ، والجح في نجد ، والجَبَس في حلب ، والدبْشي في دير الزور ، والدلاع في كل أقطار المغرب العربي** ، مثلما كانت مشتهرة **بزيتونها وزيتها وصابونها المعطر** ، وقد اندثرت زراعته تماماً .

الرقة في غابر الزمن

لقد كانت الرقة ، نظراً لتوفر أسباب موائمة عديدة ، مركزاً لتجمع البشر منذ **العصور الحجرية القديمة** ، أي منذ حوالي ٨٠٠٠ سنة ، وموطناً لحضارات متتالية خلّفت بصماتها فوق منطقتها ، مثلما كانت مركزاً



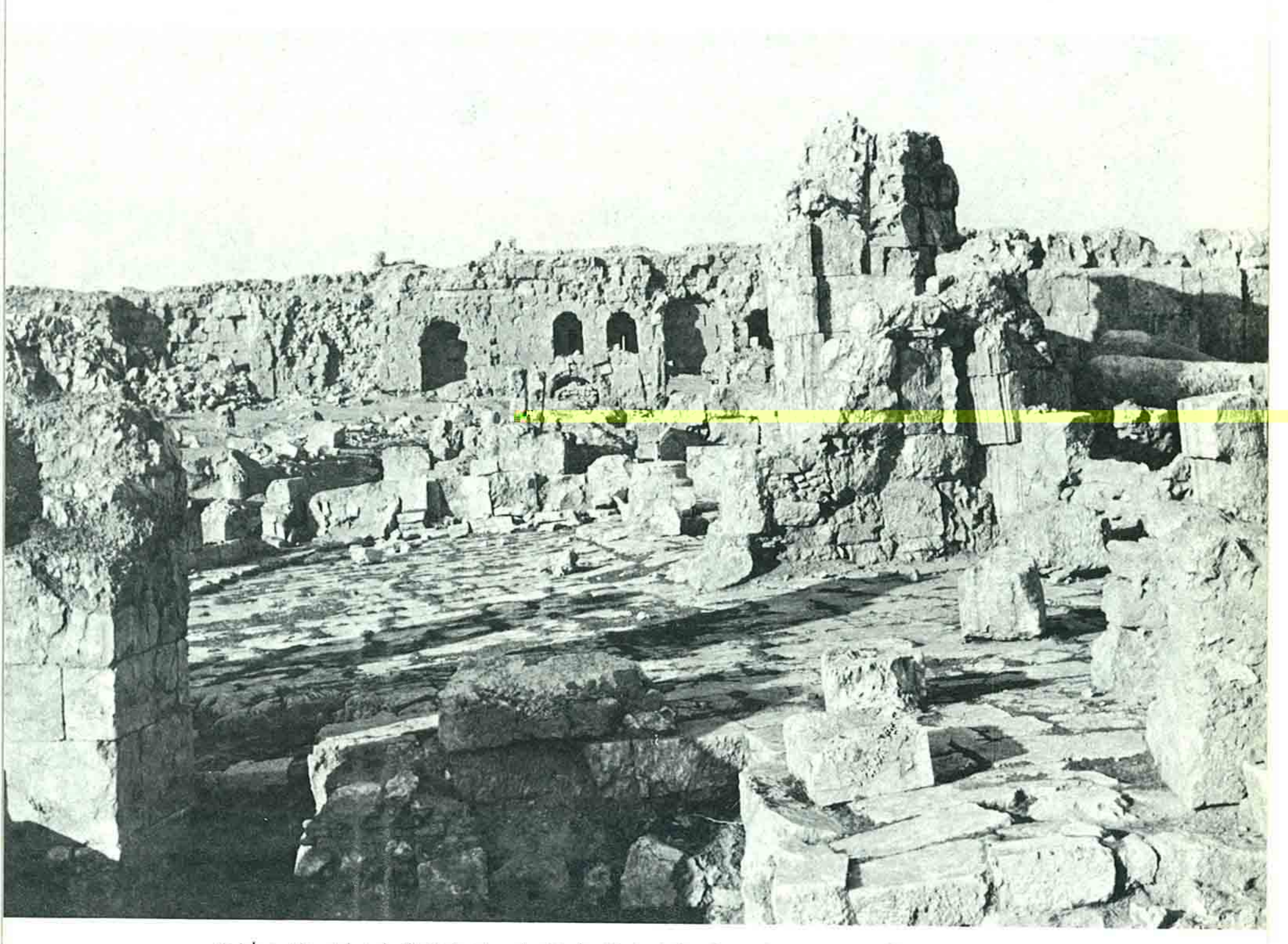
★ قصر البنات .. وقد تم التنقيب عنه في موسم ١٩٧٨ـ ٧٩م، على يد بعثة وطنية بإشراف رئيس الحفريات قاسم طوير ★

لتبادل السلع وتكديس الحاصلات والمؤن وتصديرها إلى بلاد كثيرة بواسطة الطريق المائي ، وهو الفرات ، والذي كان دائماً صالحاً للملاحة النهرية ، فاستخدمه **الحثيون** ونقلوا عليه سلعهم إلى **بابل** والخليج العربي والهند ، مثلما استخدموا الطريق البرّي الذي يواكب ضفة الفرات اليمنى الذي كانت تسلكه القوافل مارة بالموانئ النهرية الهامة مثل **قرقميش** ، أي (جرابلس) الحالية ، والتي كانت عاصمة الإمبراطورية الحثية الثانية ، ومدينة **ايمار** ، وهي (ترابساك) البيزنطية أو (بالس) العربية التي مر بها شيخ المعرَّة في رحلته إلى بغداد ، أو (سكنة) الحالية ، **ودورا** أو رويوس ، أو **الصالحية** الحالية .

وكانت منطقة الرقة مركز إمارة آرامية تدعى « بيت آدين » ، وكان مقرها تل برسيب المجاور للرقة ، وكانت إحدى الإمارات الآرامية على الفرات مثل إمارة رحبوت النهر (الرحبة = الميادين) ، وإمارة زوحي ولوقي (حلبية وزلبية) ، وكانت هذه الإمارات على اتصال وثيق فيما بينها ، وتؤلف حلفاً في وجه الدول المجاورة الطامعة ، وكانت تنضوي تحت زعامة آراميي دمشق ، وذلك خلال القرن الحادي عشر والعاشر والتاسع قبل الميلاد . وحوالي منتصف القرن التاسع قبل الميلاد اكتسح **الآشوريون** الإمارات الآرامية ، وهاجم **ملك آشور ناصربال بيت آدين** واستولى عليها ، وفرض عليها الجزية ، ونقل ٢٤٠٠ نسمة من سكانها الآراميين إلى **مدينة كالح** ، إحدى عواصم الآشوريين على نهر دجلة .

الرقة في العهد الهلليني والروماني

قبل أن يختارها **الرشيد** كمصيف له ، كان فوق موقع مدينة الرقة الحالية ، مدينة على قدر لا بأس به من الأهمية ، تحمل اسم **نيقفوريوم** ، ينسب بعض المؤرخين تأسيسها إلى **الإسكندر بن فيليب المقدوني** ، في حين يعزو الآخرون بناءها إلى **سلوقس الأول** ، وتقع تحت أنقاض المدينة الرومانية البيزنطية . ثم دعيت **كاللينيقوم ليونتوبوليس** ، باسم **سلوقس الثاني كاللينيقوس** ، الذي جدد المدينة القديمة في عامي



★ على بعد حوالي ٤٠ كيلومتراً عن الرقة تقع مدينة الرصافة الأثرية الرائعة . وقد كانت في الماضي البعيد مفتاح البادية والمقر الصيفي لبعض خلفاء بني أمية ★

٢٤٤ ــ ٢٤٢ ق . م ، وهو أحد قواد الإسكندر وواحد من حلفائه . ويدعم المؤرخون السريان هذه الرواية ، ولكن مؤلف **الدليل الأزرق الفرنسي** يقول إن المدينة دعيت كالينيقوس تكريساً لذكرى فيلسوف البتراء الوثني الذي يحمل نفس الاسم والذي قتل فيها .

ويقول **ابن العبري** في كتابه « **مختصر الدول** » : « **إن بطليموس** ، من ملوك الدولة اليونانية ، ملَكَ ستاً وعشرين سنة ، وفي زمانه بنيت قالينيوس ، وهي مدينة الرقة » . وكانت الثقافة اليونانية تتفاعل في الرقة مع السريانية والعربية .

وفي **عهد الإمبراطور جوليان** كانت المدينة الرومانية تقوم شرقي باب بغداد القائم حالياً في الرقة ، وكانت حصناً منيعاً في وجه الفرس ومركزاً تجارياً هاماً . ثم أطلق الرومان عليها اسم **قسطنطينو بوليس** نسبة إلى **الإمبراطور قسطنطين** . وفي سنة ٥٠٣ م ، دافع القائد **تيموستراتوس** ببسالة عن المدينة في وجه الفرس . وفي عام ٥٢٩ م ، منحها الإمبراطور امتيازاً تجارياً حقق لها الكثير من الرخاء عندما قرر حصر التجارة في مدن التخوم مع الفرس بمدينة **نصيبين وكاللينيقوس وآتاكساتا** .

وقد اكتسبت مدينة الرقة بعض الأهمية خلال الحروب بين البيزنطيين وبين الفرس الساسانيين مثلما نالت الرقة نصيبها من الفواجع والأحداث أثناء تلك الحروب ، لوقوعها على طريق الجيوش المتحاربة في كرها وفرها ، وفي زحفها أو انسحابها . ففي عام ٥٣١ م ، انهزم **الجنرال البيزنطي بيليزير** تحت أسوارها في وجه **الملك الفارسي كافاد الأول** الذي قضى نحبه بعد هذا النصر بقليل ، وخلفه **خسرو الأول** الذي حكم بين ٥٣١ و ٥٧٨ م ، والذي أمر بتوطين **قبيلة مضر** العربية في منطقة الرقة ، والتي دعيت **ديار مضر** في ذلك الحين .

ولكن **الإمبراطور جوستينيان** تمكن من أن يقيلها من عثرتها بعد أن طرد الفرس منها وشيد فيها أسواراً منيعة بسبب توالي الحروب بين الفرس والروم ، إذ كانت تؤول إلى هؤلاء تارة وإلى أولئك تارة أخرى . واستقرت بيد الروم بعد انتصارهم الأخير على الفرس كما تنبأ بذلك **القرآن الكريم** مسبقاً في **سورة الروم** ، ولعبت الرقة دوراً هاماً في هذه



★ جانب من الترميمات الجديدة للسور القديم ــ الرقة ★

الحروب .

وكان أهلها نصارى يعاقبة من القائلين بالطبيعة الواحدة للمسيح ، نسبة إلى **يعقوب البرادعي الحرّاني** المولود عام ٥٠٠ ميلادية ، المتوفي سنة ٥٧٨ م . وكانت الرقة مقر أسقفية وكان يقوم بجوارها دير مشهور هو **دير زكّى** ، شرقي **باب بغداد القائم حالياً في الرقة** ، وعلى مسافة ثلاثة كيلومترات من المدينة الحالية والذي لعب دوراً هاماً لا بأس به في « **أدب الديارات** » ، إذ كان يتردد عليه الشعراء **كالصنوبري** ، وكانت الملوك إذا اجتازت به نزلته أياماً لما اجتمع فيه من حسن العمارة وطيب الموقع وتوفر المأكل المتقن والراحة . ومن أجلّ من نزله أيام مجده **هارون الرشيد** الخليفة العباسي ، فاستطابه وبرّ أهله .

قال **البكري** في صدد وصفه لدير زكّى بكتابه (**معجم ما استعجم**) [illegible]

وشربا أياماً ، وخرجا إلى مصر ، فمات أخوه بمصر ، وعاد فنزل بهذا الدير فقال :

أيا سرْوتَيْ بستان زكّى سلمتما
ومن لكما أن تسلما بضمان
ويا سروتي بستان زكّى سلمتما
وغال ابن أمي نائب الحدثان

وقال الصنوبري من مقطوعة :

كم غدا نحو دير زكّى من
قلب صحيح فعاد وهو حزين
لو على الدير عجت يوماً
لألهتك فنون وأطربتك فنون
لائمي في صبابتي قدك مهلاً
لا تلمني إن الملام جنون

أما الأقوام التي استوطنت المنطقة ، منذ الألف الثالث قبل الميلاد حتى الفتح الإسلامي ، فقد كانت شعوباً سامية يغلب عليها العنصر العربي والذي

زحف على شكل موجات متعاقبة من الجزيرة العربية ، كانت أبرزها **مضر** قبل الفتح الإسلامي كما أسلفنا ، ثم تلتها **تغلب** ، وآخرها **عنزة وشمر** قبل قرن ونصف من الزمن .

الفتح العربي الإسلامي

فتح العرب المسلمون الرقة في عام ١٧ هـ ، أو ٦٣٨ م ، أي بعد انتقال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، إلى الرفيق الأعلى بستة أعوام ، **في خلافة أبي بكر** ، كما يذكر **الطبري** في « تاريخ الرسل والملوك » ووافقه على ذلك **ياقوت الحموي** في « معجم البلدان » ، في حين يرى **الواقدي** صاحب « فتوح الشام » **والبلاذري** مؤلف « فتوح البلدان » أن فتحها كان عام ١٨ للهجرة ، على يد **القائد عياض بن غنم** .

ويروي البلاذري أن الرقة كانت مدينة مسورة لها عدة أبواب ، منها باب شمالي اسمه باب الرها . ويقول الواقدي : « سار عياض إلى الجزيرة سنة ١٨ هـ ، وانتهت طليعته إلى الرقة ، فأغاروا على حاضر كان حولها للعرب ، وعلى قوم من الفلاحين ، فأصابوا مغنماً ، وهرب من نجا من أولئك فدخلوا مدينة الرقة . وأقبل عياض في عسكره حتى نزل باب الرها في تعبئة ، فرمى المسلمين حتى جرح بعضهم ، ثم إنه تأخر عنهم لئلا تبلغه حجارتهم وسهامهم ، وركب فطاف حول المدينة ، ووضع على أبوابها روابط ، وبث السرايا فجعلوا يأتون بالأسرى من القرى وبالأطعمة الكثيرة . وكانت الزروع مستحصدة . فلما مضت خمسة أيام وهم على ذلك ، أرسل بطريق المدينة إلى عياض يطلب الأمان . فصالحه عياض على أن يأمن جميع أهلها على أنفسهم وذراريهم وأموالهم ومدينتهم . وقال عياض : « الأرض لنا قد وطئناها وأحرزناها » . فأقرها في أيديهم على الخراج . ووضع الجزية على رقابهم ، فألزم كل رجل منهم ديناراً في كل سنة وأخرج النساء والصبيان ، ووظف عليهم مع الدينار أقفزة من قمح وشيئاً من زيت وخل وعسل ، ثم إنهم فتحوا أبواب المدينة وأقاموا للمسلمين سوقاً على باب الرها .

وكتب عياض لأهل الرقة عهداً هذا نصه :

« **بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عياض بن غنم أهل الرقة يوم دخلها : أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم لا تخرب ولا تُسكن ، إذا أعطوا الجزية التي عليهم ، ولم يحدث مغيلة ، ولا أن يحدثوا كنيسة ولا بيعة ، ولا يظهروا ناقوساً ولا باعوثاً ولا صليباً . وكفى بالله شهيداً . وختم عياض بخاتمه** » .

وقد سجل **سهيل بن عدي** القائد الذي كان في جيش عياض ، فتح الرقة بهذه الأبيات :

وصادفنا الفرات غداة سرنا
إلى أهل الجزيرة بالعوالي
أخذنا الرقة البيضاء لما
رأينا الشهر لوح بالهلال
وأزعجت الجزيرة بعد خفض
وقد كانت تخوف بالزوال
وصار الخرج ضاحية إلينا
بأكناف الجزيرة عن تقال

وكان مجيء عياض إلى الرقة في جيشه عن طريق بالس ، أي من الغرب ، فنزل عياض على بالس ، وكان القائد **خالد بن الوليد** قد فتحها صلحاً بعد فتحه لـ **قنسرين** ، جنوبي حلب . فأقام عياض على بالس وسرح **سهل بن عدي** كطليعة إلى الرقة . فنزل على حصارها وكان عليها بطريق اسمه **يوحنا** ، كان من قبل صاحب رأس العين وكان قد استعد

★ مثال من الزخارف الجصية التي وجدت في حفريات الرقة ★



ويذكر **المقدسي في كتابه «أحسن التقاسيم»** جامعها في محلة البزازين ويقول إنه كان فيه شجرتا عنب وشجرتا توت .

وكانت الرقة ، منذ أن فتحها العرب ، مؤلفة من عدة «رقات» متقاربة ، هي الرقة البيضاء ، وهي أكبرها والمقصودة في بحثنا ، والرقة السوداء على مسافة فرسخ واحد منها إلى الشرق ، وتسمى الرقة المحترقة ، والرقة المعوجة وتقوم فوق موقعها اليوم قرية رقة سمرا على ضفة الفرات الشرقية .

وقد ذكر **الشاعر الأموي عبد الله بن قيس الرقيات** الذي كان ينزل الرقة في سنة ٧٠ هـ ، الرّقتين في بيت من قصيدة يمدح بها **عبد الله بن جعفر بن أبي طالب** في عهد الخليفة **عبد الملك بن مروان** :

ذكرتك إن فاض الفرات بأرضنا
وجاش بأعلى الرّقتين بحارها

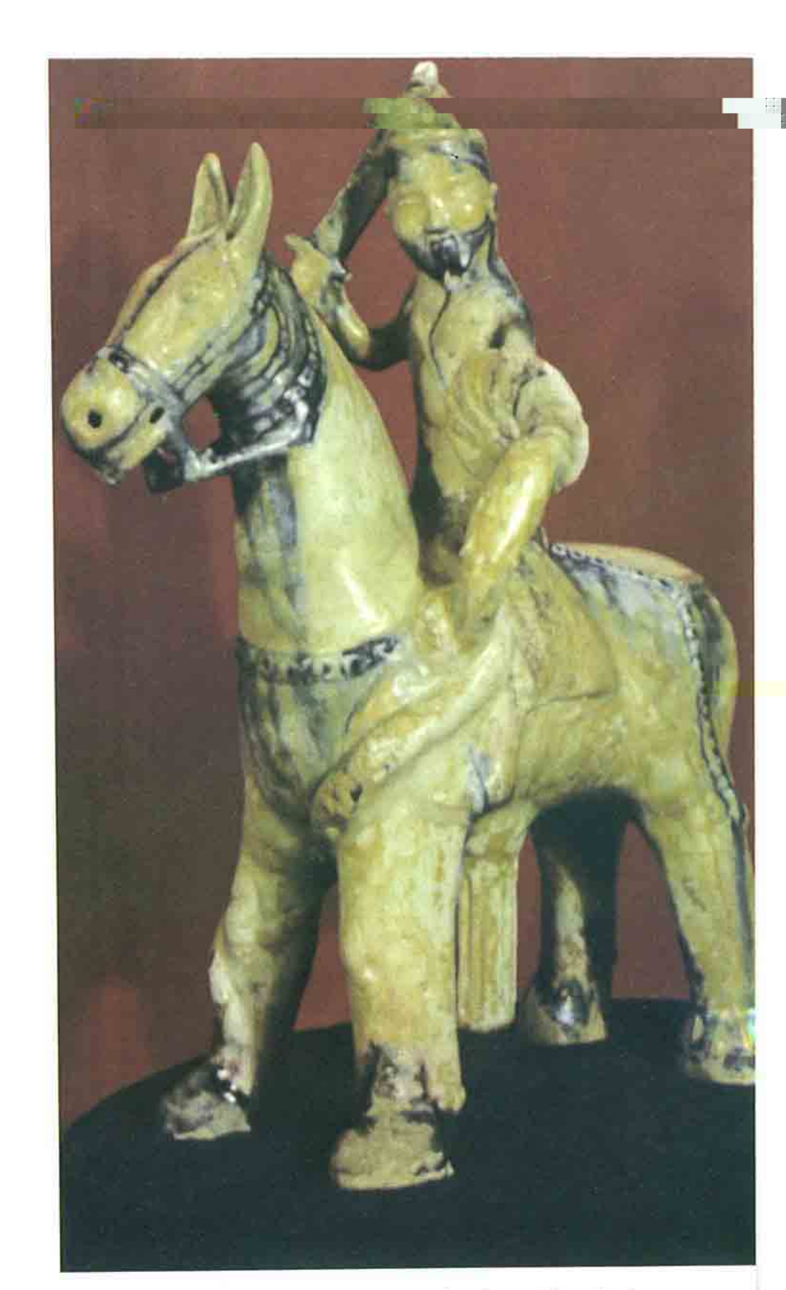
وانحازت الرقة إلى جانب الوالي **معاوية بن أبي سفيان** في النزاع الذي نشب بينه وبين الخليفة **علي بن أبي طالب** وكان أميرها **سماك بن مخرمة الأسدي** في طاعة معاوية ، فسار إليه علي بن أبي طالب بجيشه بعد انتصاره في **موقعة الجمل** وكاد أن يبطش بها لما حال أميرها بينه وبين عبور الفرات ، فتجاوزها ، ولكن مدير شرطته **الأشتر النخعي** هددها ، فوافق أهلها أخيراً على عبور الجيش إلى أن التقى بمعاوية وجيشه في **صفين** ، واستمر القتال مائة وعشرة أيام ، وكانت أعظم الوقعات ليلة الهرير في ٢٨ تموز(يوليو) سنة ٦٥٧ م ، التي حمل فيها الأشتر النخعي فزعزع جيوش الشام عن مراكزها . وكانت الفئتان قد سئمت القتال وكرهه الكثيرون من المعسكرين ، ونزل علي بن أبي طالب مكرهاً على قبول التحكيم الذي كان نصراً حاسماً لمعاوية واعترافاً به .

الرقة في العصر الأموي

عني الأمويون بالرقة واتصل تاريخهم بها طيلة مدة عهدهم في الشرق بين عام ٤١ و ١٣٢ هـ . فقد كانت محطتهم إلى **أرمينية** التي فتحها **حبيب بن مسلمة** بأمر من **الخليفة عثمان** ، كما كان لمعاوية نفسه خلال ولايته على الشام في عهد الخليفتين عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان غزوات في بلاد الروم ، فبلغ **عمورية** وأسكن الحصون التي في طريقه جماعات من أهل الشام والجزيرة .

وهكذا عاشت الرقة في كنف الدولة الإسلامية الأولى عامرة مزدهرة بفضل موقعها الجغرافي الممتاز ومركزها التجاري وحاصلاتها الزراعية المتنوعة ، فكانت تموّن الجيوش وتمد المناطق الاخرى بخيراتها الوفيرة . وكانت تشرف على القبائل العربية في الجزيرة الفراتية والتي كانت مركزاً من مراكز الخوارج منذ تاريخ خروجهم على الإمام علي في (صفّين) . فكانت تشرف على الجزيرة الفراتية كلها التي كانت درعاً للشام وقاعدة لانطلاق الجيوش إلى الشمال والشرق .

وقد اهتم الأمويون بها حتى أن الكثير من أمرائهم كانوا ينزلون فيها ، وكان لبعضهم قصور في ضواحيها ، ومزارع على **البليخ** وفي نواحي أخرى ، فكانت عامرة في عهدهم ، ونزلها بعض الصحابة وبعض التابعين والكثير من المحدثين مثل **وابصة بن معبد الأسدي ، ويزيد بن الأدهم ،**



★ «فارس الرقة» ــ تمثال خزفي مطلي بالذهب ، وقد عثر عليه داخل السور ★

للحرب وعبأ آلة القتال . وقد اتخذ عياض من الرقة قاعدة لفتوحاته في الجزيرة الفراتية ، إذ فتح الرها ورأس العين على صلح واحد . وكانت الرقة عند فتحها على أيدي المسلمين العرب ذات أسوار وعدة أبواب وكانت كثيرة الغلات ولها سوق هامة . ولم يؤذها الفاتحون ، بل أبقوا أراضيها في أيدي أهلها ورتّبوا عليها تكاليف الأمن من خراج وجزية ، واستأنفت الرقة حياتها الاعتيادية وهي تنعم بعدالة حكم العرب ومن نعمة الاستقرار فضلاً عن خصوبة أرضها ووفرة مياهها وموقعها الجغرافي الممتاز ، مما منحها أهمية تجارية فريدة .

وبعد وفاة عياض بن غنم ، فاتح الرقة ووالي الجزيرة ، ولّى **عمر بن الخطاب سعيد بن عامر بن خديم** سنة ٢٠ هـ ، فبنى فيها مسجداً من الآجر استعمل في بنائه أنقاض الرخام القديم في المدينة العتيقة التي كانت شرقي الرافقة والتي ضاعت معالمها قبل ربع قرن ، وهي **الرقة البيضاء** المذكورة في الكتب التاريخية والجغرافية القديمة .

وسالم بن وابصة ، وميمون بن مهران أبو أيوب ، وجعفر بن برقان . فكانت حركة الحديث ناشطة في الرقة ، فنزلها الكثير من الفقهاء والعلماء والأدباء ، وأخذ الطابع العربي يغلب عليها لكثرة من نزل فيها من العرب في ذلك العهد ، هذا بالإضافة إلى من كان فيها من العرب في ضواحيها وبواديها .

وتوسعت الرقة وأرسلت إليها المياه في عهد **هشام بن عبد الملك** المتوفي سنة ١٢٥ هـ ، أو ٧٤١م ، من قناتين سمّيتا « **الهني والمري** » ، تستمدان الماء من الفرات . وقد بنى الخليفة هشام مقابلها على الضفة الشامية قصرين سرعان ما قامت حولهما المنشآت العديدة ، فتحول المكان إلى ضاحية جميلة دعيت « **واسط الرقة** » .وكان ينزل بها هشام في طريق سفره إلى « **الرصافة** » حيث كان يقيم أكثر وقته .

وقد أنشأ هشام جسراً بين تلك الضاحية والرقة ، مؤلفاً ـ على الأرجح ـ من زوارق مثبتة بألواح خشبية ، ولكن يبدو أنه لم يدم طويلاً ، إذ لم يرد له ذكر في مؤلفات الرحالة ، وإنما ذكره **المستشرق هونيغمان** نقلاً عن **ميخائيل السوري أو ديونيسوس تل محرس** ، وكان يرتكز على عضادات حجرية لا يزال يظهر بعضها في **موسم الصيهود** ، أي موسم شح المياه في شهر أيلول (سبتمبر) ، يعتقد البحاثة أنها من بقايا ذلك الجسر .

وقد سجّل **الشاعر الأموي جرير** عناية هشام بالري وبالمشاريع الزراعية بعدة قصائد ، يمدح بها هشاماً وهو مقيم في الرصافة ، جاء في إحداها :

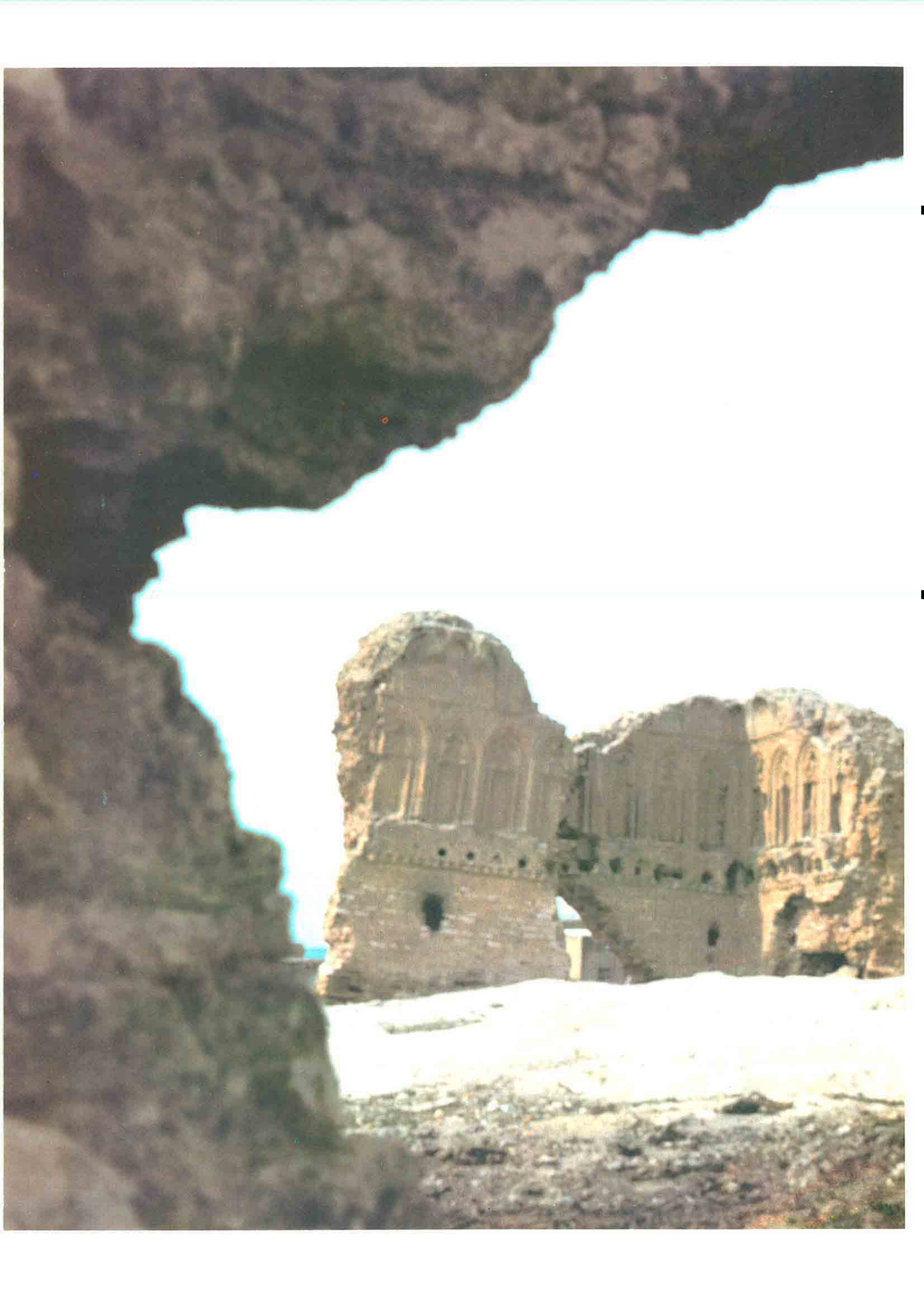
شققت من الفرات مباركات
جواري قد بلغن كما تريد
بها الزيتون في غلل ومالت
عناقيد الكروم فهن سود
فتمت في الهني جنان دنيا
فقال الحاسدون هي الخلود
يعضون الأنامل إن رأوها
بساتينا يؤازرها الحصيد
ومن أزواج فاكهة ونخل
يكون بحمله طلع نضيد

* قصر البنات *

وفي آخر العصر الأموي مشى على الرقة **الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي الصفري** الذي غلب على العراق وسار للقاء **مروان بن محمد** في جيوش عظيمة ومعه **سليمان بن هشام بن عبد الملك** في جمع مواليه ورجاله سنة ١٢٨ هـ ، فأرسل مروان بن محمد عسكراً لمحاربته ، فانكسر الخوارج وقتل الضحاك .

ولما لحقت الهزيمة بمروان بن محمد ، آخر خلفاء بني أمية في الشرق ، أقام **عبد الله بن علي ، القائد العباسي** بالرقة ، وأنفذ أخاه **عبد الصمد** في طلب مروان الذي سار إلى دمشق ومنها إلى البصرة ، وفيها قبض عليه وقطع رأسه وأرسل إلى عبد الله بن علي في الرقة ، فأرسله هذا بدوره إلى **أبي العباس السفاح** في العراق أول الخلفاء العباسيين ، وعندما ألقي أمامه تمثل بهذا البيت :

لو يشربون دمي لم يرو شاربهم
ولا دماؤهم للغيظ ترويني



الرقة في العهد العباسي

نستشف مما سبق أهمية الرقة ومنطقتها في العهد الأموي من الناحية الاقتصادية ومن الناحية الاستراتيجية باعتبارها قاعدة لانطلاق الجيوش باتجاه أرمينية وبلاد الروم ، مما لفت إليها انتباه الخليفة العباسي **أبي جعفر المنصور** ، فأمر أن تبنى فيها سنة ١٥٥ هـ (٧٧٢م) مدينة جديدة دعاها **« الرافقة »** . وقد أراد أن تكون ذات مخطط مستدير كمخطط بغداد ، ولكنها أتت على شكل حدوة الحصان بسبب مرور نهر الفرات إلى الجنوب منها .

وكان اهتمام الخليفة بمشروعه العمراني هذا عظيماً حتى أنه أرسل ولي عهده **محمد المهدي** كي يشرف بنفسه على أعمال البناء ، وكان الخليفة العباسي يرمي من وراء ذلك استغلال موقعها الجغرافي والاقتصادي ، لتحويلها إلى مركز عسكري للجيوش الصائفة ، فتشرف بذلك على الجزيرة الفراتية وعلى الثغور الشمالية ويصد غارات الروم البيزنطيين ، ولا يستبعد أن الخليفة كان يرغب في إبعاد الجيش الخُراساني عن بغداد خشية الشغب والقلاقل بين فرق الجيش ولا سيما **بعد اغتيال أبي مسلم الخراساني** .

وهكذا **بنيت الرقة على نمط بغداد في التخطيط ، وفي استعمال مادة البناء نفسها** وهي الطابوق ، وقامت إلى جانب الرقة البيزنطية — الأموية على مسافة ٣٠٠ ذراع إلى الشمال الغربي . فشيدت أسوارها من الطابوق على هيئة أسوار بغداد ، أي تتألف من سور مضاعف داخلي وخارجي بينهما فصيل ، وحفر حول السور الخارجي خندق ، وكان عرض السور الخارجي يبلغ ٤,٥ أمتار ، وكان أساس السور من الحجر الكلسي . **وشابهت بغداد في بيوتها وأبوابها ، وجعل للمدينة بابين ، الأول في الزاوية الجنوبية الشرقية ، لا يزال قائماً حتى اليوم ويسمى باب بغداد** ، وكان البابان من الطابوق . وكان يقوم إلى جانب كل منهما برج مستدير نصف قطره ٧,٨ أمتار . **ولا يزال برج الباب الأول ماثلاً** ، في حين اندثر برج الباب الثاني ، وهو **باب الجنان** ، بسبب اعتياد سكان الرقة حتى فترة ما بين الحربين العالميتين على أطلال الرقة في استخراج الطابوق اللازم لبناء بيوتهم ، وقد رآه **الأستاذ الأثري هرتزفيلد** سنة ١٩٠٨م ، وكان لها باب ثالث في الجهة الشمالية يسمى **باب أورفة** .

ويذكر الرحالة **ابن حوقل** ، في معرض كلامه عن المهدية في تونس : « ولها بابان ليس لهما فيما رأيته من الأرض شبيه ولا نظير إلا البابين اللذين على سور الرافقة وعلى مثالهما عملاً » .

وقد بني المسجد في وسط المدينة وقامت حوله الأسواق التجارية . وقد ذكر **المقدسي** من هذه الأسواق **سوق الصاغة** ، كما ذكر **الاصطخري** عن المسجد أنه جامع كبير ، تُقام فيه صلاة الجمعة . ويذكر **ياقوت الحموي** أن المنطقة كانت تروى من ماء نهر البليخ .

هرون الرشيد والعصر الذهبي للرقة

هذا ويسهب الجغرافيون والمؤرخون العرب ، ولا سيما الاصطخري ، في حديثهم عن وفرة المياه وكثرة المزارع والرخاء الاقتصادي الذي كانت تنعم به المنطقة ، بعد أن استصلحت الأراضي حول الرافقة وتحولت إلى حدائق وبساتين تروى بواسطة جداول المياه المشتقة من البليخ والفرات بآن واحد ، كما يتكلمون عن توسع الرافقة خارج السور ، لأن الخليفة هرون الرشيد بنى قصراً كبيراً دعاه **قصر السلام** وأسماه الناس **القصر الأبيض** .

وسار على غراره الأمراء والوزراء ومن أتى بعده من الخلفاء ، ببناء القصور حتى بلغ اتساع الرقة مساحة بلغ قطرها عشرة كيلومترات . وقد أطلق ياقوت الحموي اسم الرقة الوسطى على الرقعة الكبيرة العامرة بين الرقتين القديمتين والرافقة ، مثلما دعاها **العالم الأثري الفرنسي دونان** ، « مدينة الرشيد » ، وهو أول من قام بأعمال التنقيب فيها . وقد تكلم ياقوت أيضاً عن إنشاء الربض بين الرقة القديمة والرافقة ، وهو ضاحية فيها السوق الكبير لبيع الرقيق والمحاصيل المتنوعة والماشية .

وقد أنشد الشعراء في قاعات قصر السلام وأبهائه أجمل الشعر وأجزله وأسنى المدائح في العاهل العربي العظيم الرشيد .

قال **أحمد بن يسار الجرجاني** الشاعر : دخلنا يوماً على الرشيد بالرقة ، وقد فرغ من قصره الأبيض ، أنا **والتيمي وابن رزين وأشجع السلمي** ، فأنشده التيمي قصيدة يذكر فيها نقفور ووقعته ببلاد الروم فكان كأنه ينثر به درراً ، ثم أنشد أشجع :

قصر عليه تحية وسلام
نشرت عليه جمالها الأيام
فيه اجتلى الدنيا الخليفة والتقت
للملك فيه سلامة ودوام
قصر سقوف المزن دون سقوفه
فيه لأعلام الهدى أعلام
نشرت عليه الأرض كسوتها التي
نسج الربيع وزخرف الأوهام

وكان الرشيد متكئاً فاستوى جالساً ، ودنوت منه فأنشدته بعد أشجع :

زمن بأعلى الرقتين قصير
لم ينه للحادثات غرير
لا تبعد الأيام إذ زمن الصبا
غض وإذ غض الشباب نضير

فأعجب بشعري وقال : قل للمغنين يعملوا ألحاناً في غزل هذه القصيدة ، وخرجت لنا صلة فاقتسمناها .

وأوعز لبعض رجال دولته أن يبنوا قصورهم بجانب قصره فبنوا . وأمر بإنشاء كل ما يلزم فيها من وسائل الراحة والترف كميادين سباق الخيل وملاعب الصولجان وموانئ السفن والحرقات والحدائق المزدهرة على ضفتي الفرات ، فأصبحت من المدن الجميلة .

وقال **أبو الفرج الملطي** بتاريخ « الدول السرياني » في سنة ٧٩٠م ، « ارتحل هرون الرشيد من بغداد إلى الرقة يريد الإقامة فيها ، فزاد في عمارتها وغرس في ضواحيها جنائن كثيرة وجلب لها نهراً من الفرات ونهراً ثانياً من سروج ، وقد اشترى مياه قرى سروج من أصحابها ، واحتفر لها نهراً جديداً » .

وكان الرشيد يستعذب هواء الرقة في الصيف ، فكان يحب الاستراحة فيها في طريقه إلى غزوة أو حجة . وكان مجيء الرشيد



★ باب بغداد ★

في بـدايته لأغراض عسكرية وسياسية ودينيـة وقـومية ، **وكان يريح فيها جيشه ويمونه منها** . ومن الرقة كان يـراقب الجـزيرة ، إحـدى قواعـد الخـوارج مذ خرجوا على علي بن أبي طالب ، وكان الرشيد يخشـاهم ، حتى لقد هـدد أحدهم وهو **الوليد بـن طـريف ملـكه** . وجـاء بـطش الرشيد بالبرامكة عـاملاً آخر في ايثاره الإقـامة في الـرقة نهـائياً ، لـولا أن اضطرته حركة **رافع بـن الليـث** بـخُراسان للخـروج إليـه لقمعهـا وموتـه هنـاك .

وغزا الرشيد الروم الذين نقضوا العهد لتأديبهم ، بعـد أن قـطع **نقفـور** الجزية ، وطـالبه برد مـا سُبق أن استلمه من أموال من الملكة السابقة ، وكتب إليه الرشيد عبارة هي أشبه بالبرقيات في أيامنا ، جمعت فأوعت « **الجـواب مـا تراه دون ما تسمعه** » وذلك سنة ١٩٠ هـ (٨٠٦ م) ، وعـاد مـكللاً بغـار النصر ودخل الرقـة باحتفال مهيب يوم العيد بعد أن جعلهـا عـاصمة مملـكته المترامية الأطراف .

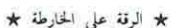
ولأول مرة بعد زمن طويل يجلس الـرشيد بقصره مجلسـاً عـامـاً ويـسـمح للشعراء بالإنشاد بـين يديه ، وكان الهدف البعيد من إنشاء المدائح في المواسم هو الدعـاية السياسية للخليفة ، فدخلوا عليـه وفيهـم **أشـجع الـسـلمي** فأنشد :

لا زلـت تنشر أعيـاداً وتـطويها
تمضي لهـا بـك أيـام وتمضـيها
ولا تقضت بـك الـدنيا ولا بـرحت
يطوي بـك الـدهر أيـاماً وتـطويها
ليهنـك الفتـح والأيـام مقبلـة
إليـك بـالنصر معقـوداً نـواصيها
أمست هـرقلة تهوي مـن جـوانبها
ونـاصر الله والإسـلام يـرميها
ملـكتها وقتلـت النـاكثين بهـا
بنصر مـن يملك الـدنيا ومـا فيهـا

ما روعي الدين والدنيا على قدم
بمثل هرون راعيه وراعيها

فأمر له بعشرة آلاف دينار وقال : لا ينشدني أحد بعده . فقال أشجع : « والله لأمره الا ينشدوا أحب من بعده أحب إليّ من صلته » .

ويزيد ورود البشائر من نشوة انتصاراته في بلاد الروم . فقد وصلته أخبار سارة بعد أن غزا قائده **حميد بن معيوف أمير سواحل الشام ومصر** بأساطيله **جزيرة قبرص** واستردها من الروم بعد حصار طويل وقتال ، وسبى من أهلها ستة عشر ألف رجل من بينهم أسقف الجزيرة نفسه ، واستاقهم إلى الرقة ، فتولى بيعهم في سوقها **أبو البختري القاضي** فاستقبل الرشيد هذه الأنباء بوجه طافح بالبشر ، ودعا ابن معيوف إليه وقربه منه ، ثم أمره بالعودة مرة أخرى إلى قبرص ومحاربة أهلها الذين نكثوا العهود وقتلوا الحامية ، فعاد وأرجعهم إلى طاعته ، وسبى خلقاً كبيراً منهم .



وبعد أيام الرشيد الزاهرة مرت على الرقة أحداث مؤلمة مثل حركة **نصر ابن شبث** الذي قام بها ضد المأمون ، فاحترق ربضها وبعض أبنيتها . وكان المأمون أمر **طاهر بن الحسين** سنة ٢٠١ هـ ، ببناء جدار الرقة والرافقة كيلا يقتتل الفرس وعرب الشام الذين كانوا يسكنونها .

وبعد أن كانت الرقة مصيفاً لخلفاء بني العباس أصبحت ، فيما بعد ، ملجأ لهم بعد أن فقدوا كل سلطة فعلية وتحولوا إلى دمى بأيدي أمراء الجيش من مختلف الأقوام التي اشتملت عليها بلاد الخلافة .

في عهد **المتقي** الذي حكم بين عام ٣٢٩ و ٣٣٣ هـ ، بلغت الخلافة العباسية الحضيض . فقد كان يحكم أمير الأمراء في بغداد والتدبير كله بيد وزيره **أبي عبد الله الكوفي** ، وكان **أبو بكر محمد بن رائق** إلى جانب الخليفة المتقي يذود عنه **الديلم** وغيرهم ، فخلع عليه المتقي وسماه أمير الأمراء .

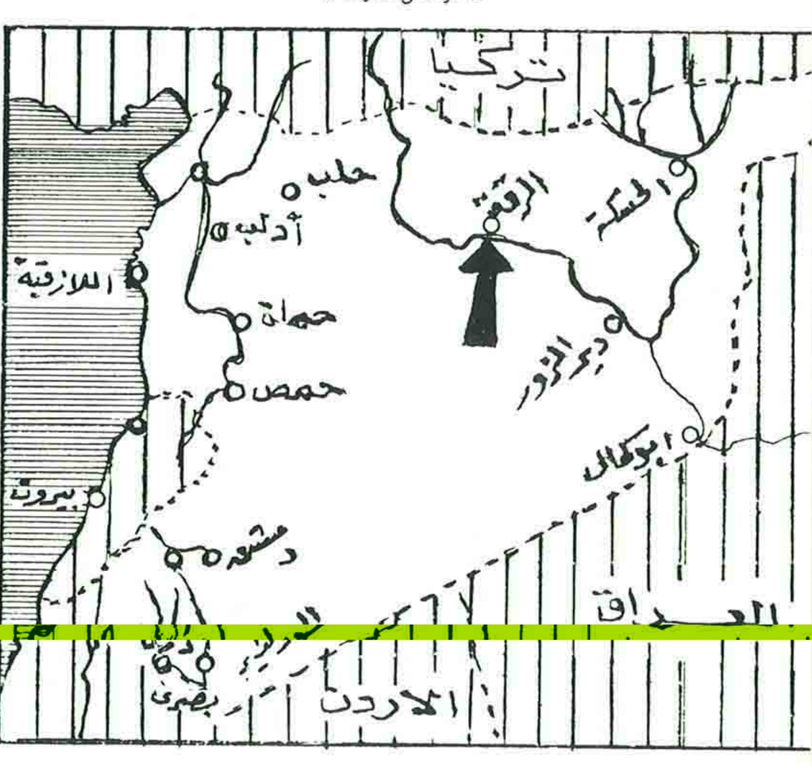
وكانت **ديار مضر** ، أي منطقة الرقة ، في حكم ابن رائق الذي كانت له الشام ، ثم اتفق مع **محمد بن طغج الأخشيد** صاحب مصر بعد حروب على أن تكون له حمص وحلب .

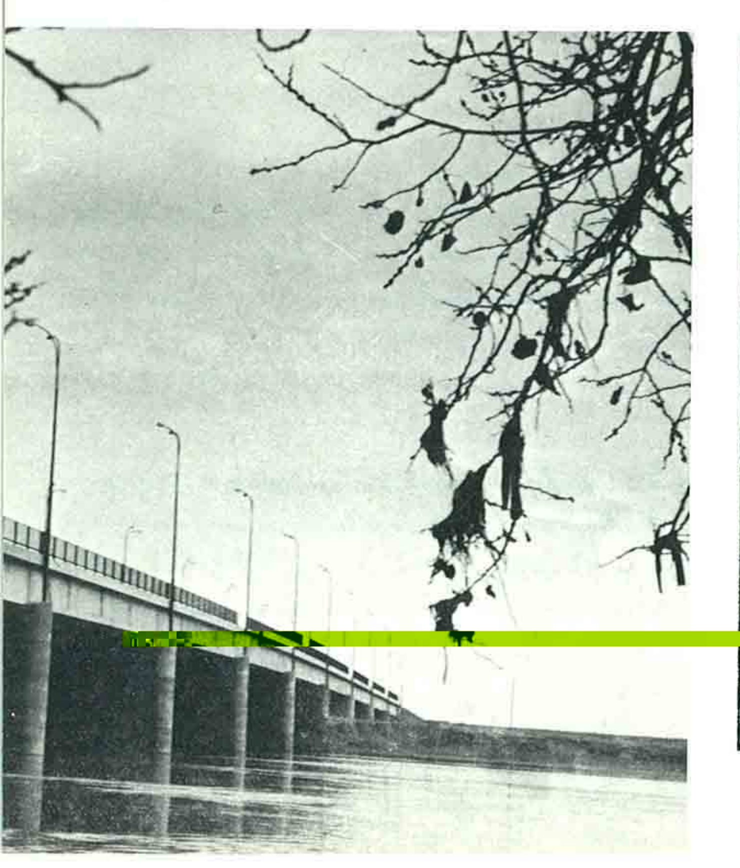
وعلى أثر استيلاء البريدي على بغداد هرب المتقي وابن رائق إلى الموصل التي كانت بيد **ناصر الدولة الحمداني** الذي قتل ابن رائق بين يدي المتقي سنة ٣٣٠ هـ ، ليحل محله في إمرة الأمراء . وسمى المتقي ناصر الدولة أمير الأمراء ، وكان معه أخوه فلقبه **سيف الدولة** وسار المتقي مع بني حمدان ودخلوا بغداد وهرب منها البريدي إلى واسط .

ثم عاد ناصر الدولة إلى الموصل تاركاً إمارة الأمراء ، فاختار المتقي القائد الديلمي توزون مكانه ، وكان جلفاً غليظ القلب فخافه المتقي ، فارتحل إلى الموصل في نسائه وعبيده وتبعه **توزون** ، فرحل الخليفة إلى **نصيبين** ثم إلى الرقة ، وكانت من أملاك ناصر الدولة يتولاها مع حلب وديار مضر والعواصم نيابة عنه **أبو بكر محمد بن مقاتل** .

وفي محرم عام ١٣٣ هـ ، اجتمع الأخشيد محمد بن طغج ، صاحب الشام ومصر ، بالمتقي على ضفة الفرات في مواجهة الرقة ، فأشار عليه الأخشيد بالسير معه إلى الشام ومصر ليكون بين يديه فلم يجبه ، فأشار عليه بالمقام مكانه بالرقة خشية عليه من توزون إذا هو سار إلى بغداد ، وضمن له إن أقام في الرقة أن يمده بالأموال فلم يقبل . ولما ضاق **الحمدانيون** ذرعاً بالخليفة ، اضطر هذا لمراسلة توزون أمير الأتراك في بغداد في الصلح ، فأظهر الرغبة

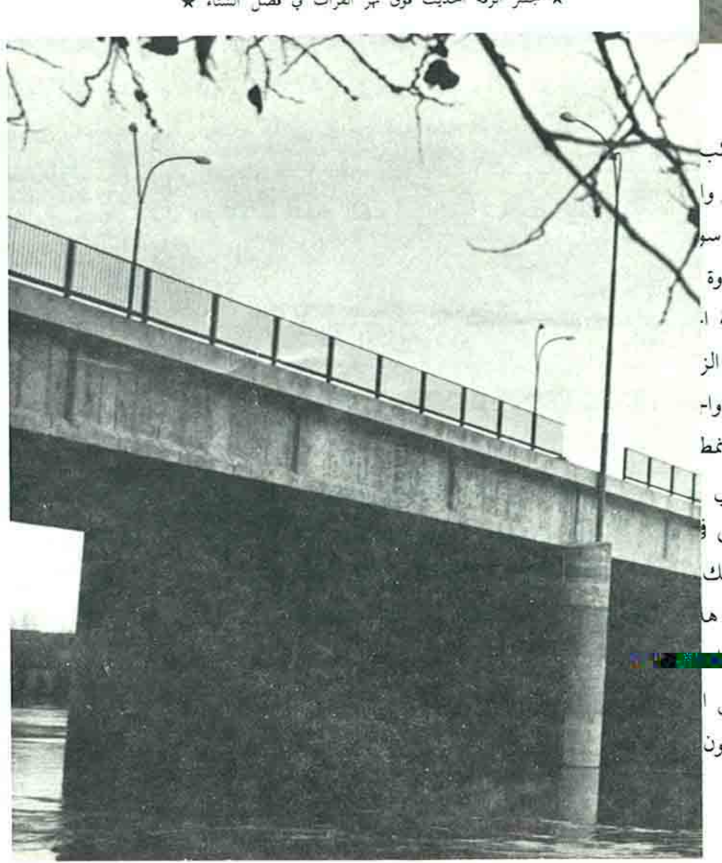
★ الرقة على الخارطة ★





★ الرقة الحديثة .. شوارع مستقيمة وأبنية من الأسمنت المسلح ★

★ جسر الرقة الحديث فوق نهر الفرات في فصل الشتاء ★



وحلف للمتقي وأشهد على حلفه كتابة .

فانحدر المتقي من الرقة في الفرات إلى بغداد لأربع بقين من المحرم عام ٣٣٣ هـ ، ووصل السندية على **نهر عيسى قرب بغداد** ، وخرج إليه توزون يستقبله في الظاهر ، وغدر به وقبض عليه وخلعه من الخلافة ثم سمل عينيه ، فلما صاح المتقي وصاح من عنده من الحريم والخدم أمر توزون بقرع الطبول لئلا يسمع أحد صراخهم وعويلهم .

الرقة في مسيرة الانحطاط

عانت الرقة الكثير من حكم الحمدانيين . فقد رأى سيف الدولة فيها ازدهار العمران ونشاط الصناعة والتجارة والزراعة ووفرة الخيرات ، فحسد أهلها على ما في أيديهم ، وأرهقها بالضرائب لتسديد نفقات حروبه وبلاطه وليمنح الأموال الطائلة لمادحيه من الشعراء . ولم يقنع سيف الدولة بفرض الضرائب الثقيلة على أهل الرقة واستصفاء أموالهم ، بل عمد إلى نزع أبواب الرقة الحديدية الجميلة وأرسلها إلى حلفائه **القرامطة** في هجر عام ٩٦١ م ، كما قال **مسكويه** المؤرخ . وكان سيف الدولة يتردد على الرقة من حين لآخر .

واضطرب الأمر في الرقة بعد موت سيف الدولة ، إذ استبدَّ بها

بكجور ، غلامه ، وانحاز للفاطميين ، ولكن **سعد الدولة** سار إليه عند (بالس) وضرب عنقه وصلبه ، وتقدم إلى الرقة وفيها أولاد بكجور وحرمه وأمواله ، فاستولى على أمواله وعاد إلى حلب ، فأصابه الفالج في طريقه ، ومات في الرابع من رمضان ٣٨١ هـ ، وحمل في تابوت إلى الرقة ودفن في المشهد بظاهرها ، وهو **مشهد ويس القرني** .

وفي عام ٣٧٢ هـ ، آلت الرقة إلى **شبيب بن وثاب النميري** حليف المرداسيين ، وفي عام ٤٧٧ هـ ، استولى **شرف الدولة أبو المكارم مسلم ابن قرواش** أحد أمراء الدولة العقيلية على الرقة . ولكن **بنو نمير** استولوا على الرقة وقتلوا **علي بن سالم العقيلي** ، وراحت النكبات تتوالى عليها وعلى أخواتها من مدن الفرات بسبب اضطراب الأحوال السياسية .

وفي سنة ٥٢٢ هـ ، آلت الرقة إلى **أتابك عماد الدين زنكي** ، وفي سنة ٥٣٩ هـ ، راح **الصليبيون الفرنجة** الذين استولوا على **الرها** يقومون بغارات على الجزيرة الفراتية والرقة . وانتعشت الرقة نوعاً ما واستردت بعض ازدهارها التليد في عهد **نور الدين زنكي ، وبنى فيها سنة ١١٦٦ م ، جامعاً ومنارة مستديرة لا تزال قائمة حتى الآن داخل سور الرقة ، ولا يزال جدار من جدران الجامع قائماً .**

ولما سقطت **بغداد** بأيدي المغول عام ١٢٥٨ م ، وهو العام ذاته الذي سقطت فيه **قرطبة** بأيدي الإسبان ، فتدهورت أحوال الرقة وشلّ الرعب أهلها وراح القادرون منهم يغادرونها إلى الشام ومصر . وبعد عام واحد استولى التتار على **حران** ثم كبسوا الرقة وقتلوا أهلها ودمروها .

وفي عهد **المماليك** كانت الرقة خراباً يباباً ، فلم يرد لها ذكر في حوادث عصرهم . وقال **المؤرخ أبو الفداء ملك حماة** سنة ٧٣١ هـ = ١٣٢١ م ، في كتابه « تقويم البلدان » : « والرقة في زماننا خراب وليس بها أنيس » .

ولم تعد الحياة إلى الرقة إلا في مطلع القرن الفائت ، ولكن بصورة بطيئة ، إلى أن أخذت شرايين الحياة تدب في أوصالها بدرجة أكبر **بعد الحرب العالمية الثانية** ، وعلى الأخص بعد إنجاز **مشروع سد الفرات** قبل بضعة أعوام وهاجر إليها الكثير من أبناء منطقة حلب ، وراحت تتوسع حسب مخطط عمراني حديث شطرنجي دون أن تتمكن الخدمات من مجاراة سرعة حركة البناء فيها ، مما دعا أديبها الكبير **الدكتور عبد السلام عجيلي** إلى القول : « إن كل ما في الرقة زفت إلا شوارعها » مع كل ما في العبارة من دعابة وسخرية مواطن غيور .

دور الرقة الثقافي والعلمي

كان للخليفة هرون الرشيد مجالس كثيرة يعقدها في المناسبات في (قصر السلام) ، أو (القصر الأبيض) ، عندما كان يقيم في الرقة . وكانت له مجالسه الخاصة التي كانت تعقد في أوقات فراغه ، منها المجالس العلمية ويحضرها الفقهاء والعلماء ، والأدبية ويجتمع فيها رواة الأدب والشعر والأخبار ، وأكثر ما تكون مجتمعة يؤمها الفقيه واللغوي والنسابة والراوية والأديب . وكان يعنى بمجالسه هذه ويختار المتفوقين ، فأراد يوماً أن يضم إليه شيخاً من شيوخ الأدب واللغة البصريين فجيء له **بالأصمعي وأبي عبيدة** ، فاختار الأول بعد مقابلة ومحادثة هي أشبه بالاختبار .

ومن بين المجالس الخاصة **المجلس الطبي** ، ويجتمع أعضاؤه عندما يكون الرشيد متوعك الصحة أو بسبب مرض أحد أفراد أسرته وخاصته . وكان طبيبه **جبريل بن بختيشوع** يصحبه في حلّه وترحاله ويسهر على صحته ، وكان يقصد الرقة ويقيم معه .

وكان من شعرائه **(أبو العتاهية ، ومروان بن أبي حفصة ، وأبو نواس)** وهم أمراء الشعر في عصرهم ، ومن مطربيه **إبراهيم الموصلي وابنه إسحق** وضاربه **زلزل** وزامره **برصوم** ومضحكه ومؤنسه **ابن أبي مريم المدني** .

وجاء أبو تمام إلى الرقة والخليفة المعتصم فيها ، وكان **الطائي** من أكثر الناس عبثاً ومزاحاً ، وذهب **أبو تمام** إلى العراق من الرقة ، منحدراً في نهر الفرات حتى بلغ بغداد ليمدح خلفاء بني العباس .

أما على الصعيد العلمي ، فقد كان **البتّاني** أكثر من عاش فيها شهرة ، وهو **محمد بن جابر بن سنان أبو عبد الله الحراني المعروف بالبتّاني** ، نسبة إلى قرية بتان التي ولد فيها حوالي العام ٢٣٥ هـ ، بجوار مدينة حران . وقد هوى الرصد وأنفق فيه أموالا كثيرة وأمضى حياته في مدينتي الرقة وانطاكية . **وبدأ تجاربه في مرصد الرقة** سنة ٢٦٤ هـ ، وأقام على عمله مدة ٤٢ سنة .

وقد كانت له اكتشافات عديدة في الفلك والرياضيات . وقد أثبت أسماء الكواكب الثابتة في زيجه لسنة ٢٩٩ هـ ، وتوفي سنة ٣١٧ هـ . وقال عنه ابن العبري في تاريخه « مختصر الدول » : « هو أحد المشهورين برصد الكواكب ولا يعلم أحد في الإسلام مبلغ علمه » ، وترجم زيجه إلى اللاتينية وطبع سنة ١٥٣٧ م ، وأعيدت طباعته في **روما** سنة ١٧٩٩ م .

وقال عنه **طوقان** في كتابه « **الخالدون العرب** » ، المطبوع في بيروت سنة ١٩٥٤ م : « **البتّاني من عباقرة العالم الذين وضعوا نظريات هامة وأضافوا بحوثاً هامة مبتكرة في الفلك والجبر وعلم المثلثات . ونظرة إلى مؤلفاته والأزياج التي صنعها تبين خصب قريحته وترسم صورة عن عقليته الجبارة** » ، فكان من أبرز علماء القرن العاشر الميلادي الذين أسدوا أجلّ الخدمات إلى العلوم ، على الرغم من عدم وجود آلات دقيقة كالتي نستعملها الآن ، فقد تمكن من إجراء أرصاد لا تزال محل دهشة العلماء ومحط إعجابهم . وعده **كاجوري** من أقدر علماء الرصد ، وقال عنه **سارطون** : « إنه من أعظم علماء عصره وأنبغ علماء العرب في الفلك والرياضيات » . وقال عنه **لالاند العالم الفرنسي** : « إنه من العشرين فلكياً المشهورين في العالم كله » .

معالم الرقة الأثرية

لقد عانت آثار الرقة الكثير من الإهمال والتخريب ، ولا سيما بسبب تنقيب هواة جمع الآثار ، واعتماد سكان الرقة حتى عهد قريب منا على أطلالها في استخراج الطابوق المشوي لبناء منازلهم وأسواقهم .

وإذا كانت الرقة إحدى مدن بلاد الشام من حيث موقعها الجغرافي ، فهي تنتسب على الصعيد الفني إلى المدرسة العراقية إلى حد كبير حتى إن الأثري **الأستاذ محمد أبو الفرج العش** يرى أن مدرستها تمثل مرحلة انتقالية بين **الفن الأموي والفن السامرائي** مثلما تحوي اتجاهات محدثة توفق بين **الفن العباسي والفن الفاطمي** ، ونضج الفن الإسلامي فيها وأخذ طابعه المميز في العهد الأتابكي الأيوبي .



★ جامع الرقة مع المئذنة والرواق ★

ولا تزال خرائب الرقة تحتل مساحة عظيمة ويمتد أكبر ميدان لأطلالها على مسافة كيلومتر واحد شمالي ضفة الفرات . وهي عبارة عن بقايا مدينة الرافقة التي تضم سوراً من الطابوق النيء والمدعوم بأبراج مستديرة ويتخذ سورها شكل حدوة الحصان .

وتشغل المدينة الحالية ذات التخطيط الحديث الزاوية الجنوبية الغربية . ولا يزال يقوم في الزاوية الجنوبية الشرقية باب المدينة المسمى الآن **باب بغداد** . وتزدان واجهة هذ الباب المهيبة بزمرة من المحاريب مما يجعلها تمت بصلة النسب إلى نمط الأبنية الساسانية في بلاد ما بين النهرين لمماثلتها لطاق كسرى في ضواحي العاصمة العراقية .

ولا نزال نرى في داخل السور بقايا قصر يحتوي على إيوان بديع ذي مقرنصات ، وكذلك جامعاً فسيحاً لم يبق منه سوى واجهة قاعة الصلاة والمنارة . وقد بني هذا المسجد ــ كما يعتقد ــ في عهد نور الدين زنكي في عام ١١٦٦ م . أما داخل المدينة ذاتها فلم يكن قبل عشرين عاماً خلت أكثر من أكوام من الأنقاض التي قلبها الباحثون عن التحف الهواة رأساً على عقب ، والذين كانوا يبحثون عن الأواني الخزفية التي اشتهرت بها الرقة في العصر الإسلامي ، ولا سيما في القرن الثاني عشر والثالث عشر ، وإلى هذا العصر يعود **تمثال فارس الرقة** المصنوع من القيشاني المطلي برقاق الذهب .

وفي خلال أعمال التنقيب عام ١٩٤٤ م ، **تمكن الأستاذ م . دونان الفرنسي** أن يكتشف قصراً يقع على مسافة ٤٠٠ متر شمال السور ، في حين اكتشف العاملون في **المديرية العامة للآثار السورية** قصراً آخر في شرق السور على مسافة ٢,٥ كيلومتر من باب بغداد . ويتخذ هذا القصر شكل مستطيل طوله ١٦٨ متراً وعرضه ٧٥ متراً . وللقصر سور مدعوم بشونات شبه دائرية ، وكان هذا السور يحمي ويضم ثلاث حدائق . وكان يشتمل القسم الشرقي من القصر على غرف الخليفة الخاصة المرتصفة حول باحات صغيرة ، في حين كان القسم الغربي مخصصاً ــ كما يبدو ــ للحياة العامة والاستقبالات مع باحات كبيرة كانت إحداها مرصوفة بصفائح زجاجية تتميز بنقوشها الشطرنجية الشكل . ويبدو أن القصر قد شيّد في بداية القرن التاسع الهجري بأمر الخليفة المعتصم أو في عهد أخيه المأمون .

هذه لمحة عن تاريخ مدينة الرقة التي شهدت كثيراً من الأحداث ، نوردها للجيل المعاصر ، للتعرف على ماض ربما لم يطلع عليه الكثيرون .

مِن وحي العصر الجديد

IP2

باركر ١٠٥ الجديد

باركر ١٠٥ هوَ آخر مُبتكرات باركر وأروعها على الإطلاق . فهوَ مطليّ بالذهب كليًا وبكثافة . شكله جبّار وجذّاب . يُعطيك شعُورًا خاصًا بحَيث تلمسُ أناملك الذهبَ . هَذه المادة السحرّية وأنت تدوّن مجرى الأحداث . باركر ١٠٥ مختلف كليًا عن جميع الأقلام . ضعه بين يديك وشارك عصرك .



الوكلاء: جمجوم للوكالات العامّة جدة ـ ص.ب ٢١٢٧ ـ تليفون ٢٣١٩٠/٢٣١٩٥ ـ الفروع: الرياض ـ ت ٢٧٢٤٢ ـ الخبر ـ ت ٨٦٤٢٧٧٥

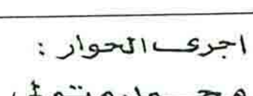


«**إن ديننا متين فأوغل فيه برفق ..**» صدق رسول الله فالإسلام دنيا ودين وشدة ولين .. جمع كتابه (**القرآن**) علم الأولين والآخرين .. وما تعدو قضايا الإسلام والمسلمين على مر العصور والأجيال إلا دلالة قاطعة على قوة هذا الدين الحنيف وعلى عمق عقيدته وسلامة شريعته .. وما تحدي الإسلام لكل التحديات والصعاب على مر العصور إلا دليل على مدى صلاحيته لكل زمان ومكان إلى أن تقوم الساعة ..



• أول لفظ نزل من القرآن (اقرأ)

يعتبر تقرير حق وفرض واجب على كل مسلم



ورغم مرور أربعة عشر قرناً من الزمان على قيام دولة الإسلام إلا أنه ما زالت هناك العديد من القضايا الحيوية التي يجب أن نضع النقاط فوق الحروف بالنسبة لها .. لهذا توجهنا ببعض هذه القضايا إلى أحد المفكرين الإسلاميين وهو الأستاذ **عبد الرزاق نوفل** لكي يجلو لنا ما غم علينا من أمورنا الدينية ويزيح ستائر التعتيم التي فرضت علينا في أوقات المعاناة وينير الضوء الأخضر لنعبر بقضايانا المعاصرة إلى بر الأمان على هدي من كتاب الله (**القرآن**) وسنَّة رسوله صلى الله عليه وسلم . وبدأ حوارنا معه بمنزله عن الإنسان المعاصر وقضية الإيمان وسألناه ..

البحث عن الإيمان

• في معترك الحياة العصرية الصاخبة والمعاناة اليومية من أجل متطلباتها ، كيف يمكن للمسلم تجديد نشاط إيمانه كي يظل مسلماً قوياً فالمسلم القوي خير وأحب إلى الله من المسلم الضعيف ..؟

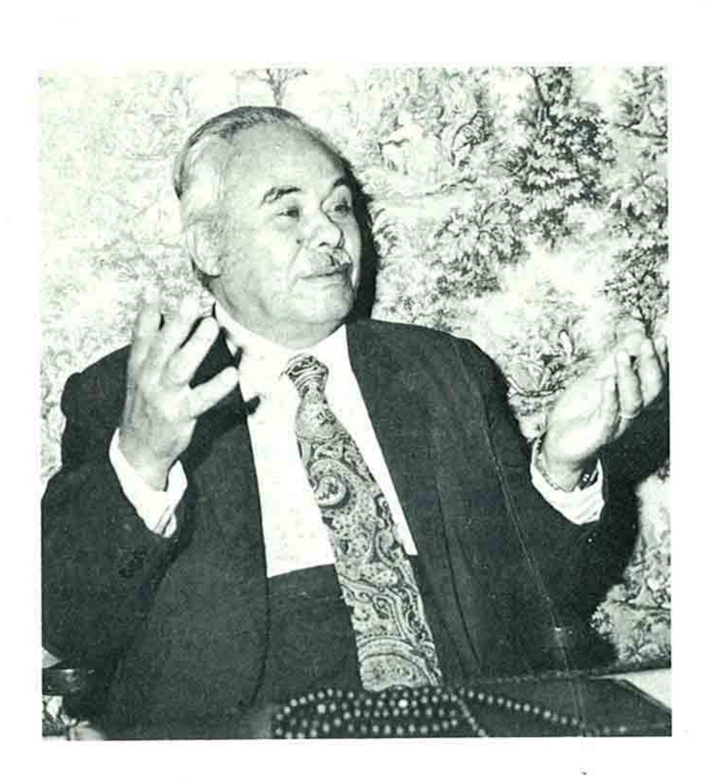
ـ كما يبحث الإنسان عن الرزق يجب عليه أيضاً أن يبحث عن الإيمان وذلك بالنظر والتدبر في مخلوقات الله حتى يطمئن وإذا اطمأن ثبت إيمانه وبذلك يستطيع الإنسان المؤمن مجابهة الحياة العصرية والانتصار على كل مشاكلها .. وعلى كل مسلم بجانب النظر والتدبر أن يتثقف ويثقف .. فأول لفظ نزل من القرآن (**اقرأ**) بمعناها الواسع أي اقرأ لنفسك واقرأ لغيرك وقال الرسول صلى الله عليه وسلم .. «**أغد عالماً أو متعلماً محباً أو مستمعاً ولا تكن الخامس فتهلك**» .

القرآن أسلم دستور

• ما الدروس المستفادة التي تدل على إعجاز القرآن في مخاطبة كل جيل بلغة عصره .. وكيف نوصل المفاهيم الإسلامية لأطفالنا بأفضل الطرق حتى نضمن لأجيالنا المقبلة حياة سوية وناجحة ..؟

ـ نزل القرآن الكريم للعالمين وللأجيال أجمعين وفيه من أبواب الإعجاز التي لا تنفذ إلى أن تقوم الساعة .

.. فإذا كان إعجاز القرآن البلاغي والبياني قد هدى الناس ـ ممن تفهموا هذا الإعجاز ـ للإيمان بالله والدخول في الإسلام .. فإن من لم يستطيعوا أن يتذوقوه لا بد أن يجدوا فيه ما يعجزهم .. لذلك وجدنا بعد **عصر البلاغة** ، وفي **عصر التشريع** ، أن العلماء والفقهاء



من وحي العصر الجديد

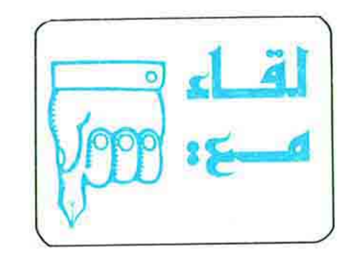
IP2

بارڪر ١٠٥ الجديد

باركر ١٠٥ هوَ آخر مُبتكرات باركر وأروعهَا على الإطلاق . فهوَ مطليّ بالذهبْ كليًا وبكثافة . شكله جبّار وجَذّاب . يُعطيك شعُورًا خاصًا بحَيث تلمسُ أناملك الذهبْ . هَذه المادة السحرّية وأنت تدوّن مجرى الأحدَاث . باركر ١٠٥ مختلف كليًا عن جميع الأقلام . ضعه بَين يَديك وشارك عَصرك .



الوكلاء : جمجوم للوكالات العامّة جدة - ص.ب ٢١٢٧ - تلفون ٢٣١٩٠/٢٣١٩٥ - الفروع : الرياض - ت ٢٧٢٤٢ - الخبر - ت ٨٦٤٢٧٧٥



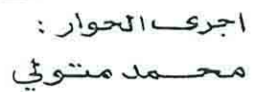
« **إن ديننا متين فأوغل فيه برفق ..** » صدق رسول الله فالإسلام دنيا ودين وشدة ولين .. جمع كتابه (**القرآن**) علم الأولين والآخرين .. وما تعدو قضايا الإسلام والمسلمين على مر العصور والأجيال إلا دلالة قاطعة على قوة هذا الدين الحنيف وعلى عمق عقيدته وسلامة شريعته .. وما تحدي الإسلام لكل التحديات والصعاب على مر العصور إلا دليل على مدى صلاحيته لكل زمان ومكان إلى أن تقوم الساعة ..

عبد الرزاق نوفل



• أول لفظ نزل من القرآن (اقرأ)

يعتبر تقرير حق وفرض واجب على كل مسلم



اجرى الحوار :
محمد متولي

ورغم مرور أربعة عشر قرناً من الزمان على قيام دولة الإسلام إلا أنه ما زالت هناك العديد من القضايا الحيوية التي يجب أن نضع النقاط فوق الحروف بالنسبة لها .. لهذا توجهنا ببعض هذه القضايا إلى أحد المفكرين الإسلاميين وهو الأستاذ **عبد الرزاق نوفل** لكي يجلو لنا ما غم علينا من أمورنا الدينية ويزيح ستائر التعتيم التي فرضت علينا في أوقات المعاناة وينير الضوء الأخضر لنعبر بقضايانا المعاصرة إلى بر الأمان على هدي من كتاب الله (**القرآن**) وسنّة رسوله صلى الله عليه وسلم . وبدأ حوارنا معه بمنزله عن الإنسان المعاصر وقضية الإيمان وسألناه ..

البحث عن الإيمان

● في معترك الحياة العصرية الصاخبة والمعاناة اليومية من أجل متطلباتها ، كيف يمكن للمسلم تجديد نشاط إيمانه كي يظل مسلماً قوياً فالمسلم القوي خير وأحب إلى الله من المسلم الضعيف ..؟

ـ كما يبحث الإنسان عن الرزق يجب عليه أيضاً أن يبحث عن الإيمان وذلك بالنظر والتدبر في مخلوقات الله حتى يطمئن وإذا اطمأن ثبت إيمانه وبذلك يستطيع الإنسان المؤمن مجابهة الحياة العصرية والانتصار على كل مشاكلها .. وعلى كل مسلم بجانب النظر والتدبر أن يتثقف ويثقف .. فأول لفظ نزل من القرآن (**اقرأ**) بمعناها الواسع أي اقرأ لنفسك واقرأ لغيرك وقال الرسول صلى الله عليه وسلم .. « **أغد عالماً أو متعلماً محباً أو مستمعاً ولا تكن الخامس فتهلك** » .

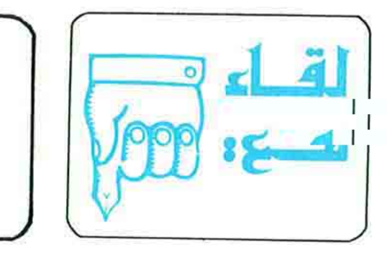
القرآن أسلم دستور

● ما الدروس المستفادة التي تدل على إعجاز القرآن في مخاطبة كل جيل بلغة عصره .. وكيف نوصل المفاهيم الإسلامية لأطفالنا بأفضل الطرق حتى نضمن لأجيالنا المقبلة حياة سوية وناجحة ..؟

ـ نزل القرآن الكريم للعالمين وللأجيال أجمعين وفيه من أبواب الإعجاز التي لا تنفذ إلى أن تقوم الساعة .

.. فإذا كان إعجاز القرآن البلاغي والبياني قد هدى الناس ـ ممن تفهموا هذا الإعجاز ـ للإيمان بالله والدخول في الإسلام .. فإن من لم يستطيعوا أن يتذوقوه لا بد أن يجدوا فيه ما يعجزهم .. لذلك وجدنا بعد **عصر البلاغة** ، وفي **عصر التشريع** ، أن العلماء والفقهاء







● ظاهرة الأطباق الطائرة تنم عن حقيقة وورد ذكرها في القرآن وهي إلتقاء أهل السماء بأهل الأرض

● لي أمل ورجاء وصلاة ودعاء أن يعيد المسلم صياغة نفسه على هدي من القرآن والسنة

الدعوة في أهدافها مع روح الإسلام وأهدافه..؟

ــ العلمانية تعني فصل الدين عن الدولة.. وهذا أمر لا يوافق عليه الإسلام بل يشجبه لأنه قام على عكسه فإن أول مسجد أقامه الرسول صلى الله عليه وسلم صاحب النبوة والزعامة الدنيوية ليكون دار عبادة وعلم وحكومة ومكاناً لاستعراض الجيش وحل مشاكل الناس.. وسار الإسلام على هذا المنهاج الإسلامي.

الاقتصاد الإسلامي

● هل الاقتصاد الإسلامي في اعتقادكم يعتبر حلاً لمشاكل المسلمين الاقتصادية..؟

ــ إن الأخذ بمفهوم الاقتصاد الإسلامي والعمل على تحقيق أهدافه إنما يحقق للعالم حلاً لمشاكله شريطة أن يدرس علماء الإسلام هذه الوسائل الجديدة في عالم الاقتصاد كالبنوك والتأمين والشركات.. ووضع ما هدف إليه القرآن والسنّة موضع التنفيذ.. فقد هدف القرآن إلى حماية الملكية الفردية، وعدم طغيان رأس المال والعمل على أن يكون المال لأهله عامة وفرض على المسلمين حق العمل وحدد أنصبة الميراث والصدقات والزكاة حتى لا تتزايد ثروات الأغنياء ويزداد فقر الفقراء..

الأطباق الطائرة

● كثر الجدل في ظاهرة الأطباق الطائرة، فالبعض يقول إنها مجرد خيالات أو انعكاسات ضوئية تأتي من بعيد وتأخذ هذه الأشكال.. وفريق يقول إنها أسلحة حديثة يختبرها العلماء في الخفاء.. وفريق ثالث يقول إنها مخلوقات من كواكب أخرى تريد الاتصال بنا.. فما قولكم في هذه الظاهرة..؟

ــ إن أول أثر لهذه الظاهرة حدث في عام ١٩٠٧م، حيث حدث حريق في **سيبيريا** عرف بعد ٤٠ سنة أنه بفعل **إشعاعات ذرية** بعد أن قيل إنه بسبب نيازك أو نجم ملتهب.. وفي هذا الوقت كان العالم لم يعرف بعد انشطار الذرة..

ولقد أجمعت الآراء في كافة الدول على رؤية الأطباق الطائرة وهناك محاكمات حدثت في **ألمانيا** مع عالم اتصل بملاحي الأطباق الطائرة، وفي **فرنسا وأميريكا** آلاف التقارير عن هذه الظاهرة.. **والقرآن وجه النظر لدراسة السماوات وما فيها في أكثر من ٣٠٠ آية.. وغزو الفضاء قد جاء به القرآن نصاً وتفصيلاً**.. وفي ١٣ آية شريفة يذكر أن هناك مخلوقات من الكواكب في السماء، وأنها تسبح وتسمع وتتكلم.. وأن الله قد قرر بأنه سيجمع أهل الأرض بأهل السماء إذ قال:

﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير ﴾.

صدق الله العظيم



بالنسبة للمسلم المعاصر، وهو يستقبل قرنه الهجري الجديد، يُعدّ (التاريخ الإسلامي) (خبرة) من أهم الخبرات وأقدرها في الوقت نفسه، على تحديد ملامح طريقه صوب المستقبل، ومنحه الإمكانات الحركية الواعية على مواصلة المسير حتى يأذن الله بالنصر لدينه في الأرض وتنفيذ كلمته في العالم.

من رصيد رحلة الأربعة عشر قرناً

بقلم: د. عماد الدين خليل

إنه ما من دارس جاد لمعطيات هذا التاريخ إلا وهو يتبيَّن، عبر مجرياته الغنية الزاخرة، عدداً من السمات والمؤشرات التي اختصت بها، فمنحته شخصيته وملامحه الخاصة، ومكنته من الاسهام الفعَّال في حركة التاريخ البشري كله.. وهي نفس السمات والمؤشرات التي يمكن أن تعطي لمسلمي العالم اليوم دورهم الكبير المنتظر، عبر القرن الطالع، في صياغة مستقبل البشرية، وتجنيبها كل ما من شأنه أن يفتت جهدها، ويدمّر سعادتها وتوحدها، ويقودها إلى مواقع التعاسة والتمزق والشقاء.

إن رؤية المسلم المعاصر اليوم، وبرنامج حركته، كما أنهما يستمدان من الأسس النظرية للأيديولوجية الإسلامية: كتاب الله سبحانه، وسنّة رسوله صلى الله عليه وسلم، وتشريعات كبار فقهائه، فإنهما تأخذان — كذلك — من معطيات تاريخه الزاخر بالتجارب والخبرات.

ولن يتسع المجال — هنا — لاستعراض وتحليل كافة ملامح هذا التاريخ، وأوجه ابداعه وتميزه.. ونكتفي — من ثم — بمجرد إشارات موجزة إلى أكثرها أهمية وتأثيراً.

العقيدة والحركة

منذ اللحظة التي تم فيها أول لقاء بين **رسول الله صلى الله عليه وسلم** وبين الوحي الأمين، حيث أمر بأن (يقرأ).. حدث لقاء آخر يوازيه، وسيقدر له أن يلعب دوره الخطير على مدى تاريخ الإسلام والبشرية.. لقاء بين **العقيدة والحركة**.

إن الآيات الأولى من **سورة العلق** هي البداية التي تحمل دلالتها في هذا الاتجاه ﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم** ﴾.. إن القراءة هنا، بالنسبة لرجل أمي كمحمد عليه الصلاة والسلام، لا تعني أبداً متابعة كلمات مرسومة على صفحات الأشياء، وإنما متابعة المعاني والقيم المحفورة على صفحات الكون والعالم، حيث كل الأسهم والمؤشرات تقول بوجود الله وتؤكد وحدانيته، وحاكميته المتفردة، وهيمنته، وكلمته التي لا راد لها.

إنها، بمعنى من المعاني، طلب التحرك باتجاه هذه الدلائل، للوصول الأكثر عمقاً وإدراكاً إلى الله.. وإن تكوين الإنسان المسلم، بدءاً من رسول الله نفسه وانتهاء بآخر رجل سيقدر له أن ينتمي إلى هذا الدين، لا يتحقق إلا باجتياز هذه البوابة الكبيرة.. ولقد استغرقت عملية الاجتياز للتحقق بالقناعات العميقة الراسخة، ثلاثة عشر عاماً هي مدى **العصر المكي** كله حيث كان القرآن، والرسول الكريم صلى الله عليه وسلم يبنيان الإنسان المسلم تمهيداً للدور الذي سيليه.

ومع هذا الأمر الإلهي للرسول عليه الصلاة والسلام بالحركة صوب **الكون والعالم**، طلب منه بعد قليل أن يتحرك صوب **الإنسان** لكي يدعوه ﴿ **يا أيها المدثر. قم فأنذر. وربك فكبر....** ﴾.. وكانت الظروف التاريخية (المرحلية) تقتضي أن تتم هذه الحركة بأكبر قدر من السرية والكتمان.. ولما أن تم بناء القاعدة الصلبة التي ستأخذ على عاتقها مهمة مد الدعوة إلى أوسع مساحة ممكنة، جاء الأمر الإلهي

الثالث إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أن (يتحرك) علانية إلى الناس كافة بدءاً بعشيرته الأقربين ﴿ **فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين** .. ﴾ ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** .. ﴾ فكان ذلك الاجتماع الحاشد الذي دعا إليه الرسول عليه الصلاة والسلام وأعلن فيه ــ لأول مرة ــ أبعاد دعوته.

في دعوات القرآن الثلاث لرسوله الأمين عليه الصلاة والسلام، عبر سنيّ الدعوى الأولى، يتبين هذا الارتباط الوثيق بين العقيدة والحركة.. وحتى الصيغ التعبيرية والمفردات اللغوية التي اعتمدت لتوصيل التعاليم القرآنية إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، كانت مشحونة بهذا المعنى الخطير: ﴿ **اقرأ** .. ﴾ ﴿ **قم فأنذر** .. ﴾ ﴿ **فاصدع بما تؤمر** .. ﴾ فليست الحركة فحسب ــ إذن ــ ولكنها الحركة الواعية بالقراءة، المخططة باتخاذ الحيطة في السنين الأولى، العنيفة الحاسمة المستقيمة بدعوة الناس كافة إلى الحقيقة الكبرى التي قدر لها أن تقلب الإنسان والعالم وهي (**شهادة لا إله إلا الله**).

ثم كانت هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه رضي الله عنهم إلى المدينة، حركة باتجاه آخر.. اتجاه تكوين **الدولة الإسلامية** بالتشريع العقيدي بعد أن تم اجتياز مرحلة بناء الإنسان المسلم بالتصور العقيدي وقناعاته المتوغلة في الأعماق.. وهكذا يستمر التدفق الحركي للعقيدة الإسلامية منذ لحظات الانبثاق الأولى.. ونحن نعرف جميعاً كيف كانت سنيّ **العصر المدني** العشر حركة دؤوبة من أجل ترسيخ الكيان الجديد، والدفاع عن مقدراته، وضرب كل القوى التي تشكل خطراً عليه.. حتى والرسول عليه الصلاة والسلام يعاني من الحمى القاسية في مرضه الأخير الذي أدى به إلى الوفاة.. نجده عليه الصلاة والسلام يمدّ بصره البعيد إلى ما وراء الحدود ويعد العدة لجيش جديد يتوغل في عمق الأرض العربية في الشمال لكي يضرب عدواً من المواقع المتعاونة مع العدو البيزنطي.

وجاء الراشدون رضي الله عنهم لكي يواصلوا الطريق، استناداً إلى القاعدة التي سهر الرسول وأصحابه على تكوينها، وينتقلوا بالحركة الإسلامية إلى مرحلة جديدة، كان القرآن الكريم قد أكدها منذ العصر المكي، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام قد رسم ــ عملياً ــ مؤشراتها الأولى في عدد من الوقائع والأحداث، تلك هي المرحلة العالمية.

لقد حول الراشدون رضي الله عنهم استراتيجية (**الجهاد**) صوب الأهداف المركزية التي بدأ الرسول عليه الصلاة والسلام التحرك نحوها في أعقاب **صلح الحديبية**، بالكلمة حيناً والسلاح حيناً آخر، والتي جاءت (**الردة**) بمثابة عائق وقتي عن مواصلة التحرك في سبيلها.. تلك هي السعي من أجل تنفيذ **عالمية الإسلام**، وإسقاط كافة النظم الباغية، وازاحة كافة الطواغيت من مراكز السلطة، وإلغاء كافة التشريعات الوضعية التي صمّمها ونفذها حفنة من المتألّهين في الأرض، وتحقيق البديل الوحيد لذلك كلّه: ألا تكون فتنة للناس، وأن يكون الدين، المنهج والتشريع، لله.. أي أن يحرر الناس من كافة الضغوط والمؤثرات التي يمارسها الطواغيت في العالم، وأن يسود الأرض تشريع عادل واحد، لا تحيّز فيه أو ميل لطبقة أو جماعة أو فئة أو أمة.. ذلك هو شرع الله.

وعبر طريق الجهاد القاسي الطويل، ومنذ لحظات الفجر الأولى، كانت العقيدة، بالنسبة للإنسان المسلم والجماعة المسلمة، بمثابة الدافع والهدف.. فهي تحركهم من الداخل بعطائها الدائم ومطالبها المستمرة، وهي تناديهم من الخارج لكي يتحركوا إلى الأهداف الكبيرة التي جاء هذا الدين لكي يُجعل العالم يتحقق بها، فيكون عالماً جديراً بالإنسان الذي كرمه الله تعالى.

ترى.. كم من الحركات التاريخية عبر قرون الإسلام الأولى لم تتمخض عن العقيدة الإسلامية وتنبثق عنها؟ نعم.. لقد ابتعد بعضها ــ بهذا القدر أو ذاك ــ عن روح العقيدة ومسلماتها ورؤيتها، لكنه ظل في تيّاره الأشمل والأرحب مرتبطاً بها، مستمداً قدرته على الفعل والامتداد والديمومة من دفعها وقدرتها على الفعل والإنجاز... وحتى تلك الحركات القليلة التي شذَّت ــ بالكلية ــ عن أي قدر من التوافق والإنسجام والتناغم، إن هي، في نهاية التحليل، إلا رد فعل لهذا الاتجاه أو ذلك.. لموقف عقيدي أملى عليها، لسبب ما، اتخاذ موقفها هي الأخرى.. وما أكثر الأسباب.

إن مساحات واسعة من تاريخنا ــ إذن ــ لا يمكن ــ بحال ــ رؤيتها وتحليلها إلا على ضوء هذه العلاقة المتبادلة بين العقيدة والحركة.. وإذا كان عصر الرسالة يمثل ــ ولا ريب ــ انطباقاً باهراً بين القطبين، فلأنه عصر النبوة، حيث قاد الرسول عليه الصلاة والسلام أخطر حركة في التاريخ، من أجل التحقق بالعقيدة الجديدة، وعلى كل المستويات، ابتداءً من أصغر التجارب والممارسات اليومية وانتهاءً بتغيير خرائط العلاقات والقيم والأشياء على مدى العالم كلّه.

الأصالة الحضارية والانفتاح

تحرك المسلمون ــ إذن ــ إلى العالم، وعبر عقود من الزمن تمكنوا من صياغة حضارة تميَّزت بالأصالة التي تستمد ديمومتها من حماية الذات وعدم الذوبان في الكيانات الغريبة التي تدمِّر الشخصية الحضارية للأمة وتلغي ملامحها وسماتها.. ولكنها لم تنغلق ــ يوماً ــ على معطيات الحضارات الأخرى، بل فتحت صدرها ــ دونما عقد ولا حساسيات ــ على العالم الواسع، وأخذت وتمثلت كل ما هو إيجابي فعَّال في الحضارات الأخرى.

ومنذ اللحظات الأولى، أخذ الإسلام على عاتقه مهمة تكوين جماعة مؤمنة متحضرة، تعرف كيف تحقق التقابل الفعَّال بين أصالة الذات العقائدية، وبين الانفتاح على معطيات الأمم والشعوب.

لقد جاء الإسلام إلى أمة بادية في الصحراء تنتشر في مساحاتها

الشاسعة مدن نقلت ، عن فارس وروما واليونان ، جوانب حضارة لم تستو على سوقها . . بقايا نظم عمرانية واقتصادية واجتماعية لم تتعد يوماً صيغها الخارجية وتتحول إلى قيم متأصلة في كينونة الإنسان العربي ذاته ، إلى قوى مبدعة تتيح له القدرة على التغيير الحضاري بمفهومه الأصيل الواسع .

وفي عقود من السنين محدودة تمكن الإسلام من أن يحول العرب إلى أمة متحضرة خرجت إلى أطراف الأرض تحمل علمها الجديد وحضارتها المتوحدة لكي ترسم للعالمين مصيراً جديداً . . انطلقت إلى تخوم حضارات شاخت ، وعلوم وهنت ، وأفكار طغى عليها ركام الرؤى المشوهة والأضاليل .

خرج المسلم من الصحراء وهو يحمل قيمه الجديدة الحية وتعاليمه الواضحة البينة ، ومعتقداته المتفردة الفذة ، وتصوراته الكلية الشاملة وتوحده الذاتي العجيب ، وطموحه الإيماني الذي لا يقف عند حد إلا ليتجاوزه إلى حدود أبعد وأماكن أكثر نأياً . . وهو يحمل سلوكه الأخلاقي الذي شدّ أنظار المتخبطين في عبودية كسرى وقيصر .

خرج المسلم من الصحراء لكي يصوغ بهذا كله حضارته الجديدة ، وعلمه الحركي الذي أشعلته في ذهنه فتيلة الإيمان . . انطلق المسلم إلى العالم ، مع إخوانه ، يحمل تعاليم الله ورسوله ، تثبيتاً لمفاهيم التوحيد في كل مكان ونشراً للعدل والمساواة في كل أرض ، وتفجيراً للطاقات الحضارية والعلم الصحيح في فؤاد كل إنسان ، وانفتاحاً نادراً على كل ما يمكن أن تقدمه الحضارات القديمة من قيم ومعطيات تساعد الإنسان في تأكيد وتعميق هذه القيم جميعاً ابتداءً من التوحيد المطلق لله سبحانه وانتهاءً بصياغة حضارة تضم جناحيها على منجزات البشرية منذ أن قدح الإنسان الحجر بالحجر فتطايرت الشرارة الأولى وإلى أن يشاء الله **فيبتكر المسلمون من بعد ويكتشفوا ويخترعوا ويقدموا للبشرية معطيات حضارة أخلاقية متوحدة لم تعرف يوماً تفريقاً وثنائية وازدواجاً بين العلم والدين . . الحضارة التي أمدّت عالم الغرب فيما بعد ، عن طريق الجسور التي أقامتها الأحداث بين العالمين ، بطرائق لا حصر لها في ميادين البحث والتجربة ، وأتاحت له أن يصل ـ بما أضافه إليها من مبتكرات ومعطيات ـ إلى العصر التقني الحاضر كما اعترف بذلك الباحثون الغربيون أنفسهم .**

لقد كان الإيمان الذي فجّره الإسلام في العقول والقلوب بمثابة دافع حضاري ، فضلاً عن كونه الأساس المبدئي ، أو المعامل الذي يشدّ القيم المبعثرة والإرادات مختلفة الاتجاه وأعمال الناس ومنجزاتهم إلى هدف محدّد ، ويضع لها الإطارات التي تجعل من مجموع هذه القيم والأهداف والإنجازات والأعمال وحدة حضارية متميزة ، فهو فضلاً عن هذا كله يقوم بدور المحرك ، أو الدافع الداخلي الذي يدفع الإنسان والجماعات في نطاق الحضارة الواحدة إلى التقدم دوماً بحضاراتهم صوب آفاق جديدة ومكاسب أكثر غنى ، عن طريق استغلال إمكانات الزمان والمكان إلى أقصى مدى ممكن . . ذلك أن إيمان الناس يعني رغبتهم في تقديم مزيد من الأعمال ، والمسارعة في الخيرات كي ينالوا ثواب الله وينجوا من عقابه على التفريط بما منحهم من إمكانات قبل فوات الأوان ، تلك المسارعة التي ترد مراراً في **القرآن الكريم** كصفة ملازمة للمؤمنين والتي تعني ضرورة الإسراع في استغلال الإمكانات المسخّرة للإنسان من مال أو سلطة ، وزمان أو مكان ، وقوة أو علم .

الاستجابة للتحديات

وعبر المسيرة الطويلة ، وفضلاً عن التحديات الحضارية ، جابه تاريخنا تحديات من مستويات أخرى : سياسية وعسكرية ودولية . . وكان قديراً دائماً على الاستجابة لهذه التحديات ، وعلى تنويع أنماط هذه الاستجابة بأكبر قدر من التكيف والمرونة ، لكي ما يلبث أن يوقف زحف القوى المضادة في الداخل والخارج حيناً ، وينتصر عليها حيناً ، ويحتويها ويتمثلها أحياناً . . . وكانت العقيدة من وراء هذا كله ، وفي موازاة هذا كله ، هي سبب الأسباب ! !

إن تاريخ الإسلام هو تاريخ صراع متنوع طويل المدى عميق النفس بين شعوب الإسلام وبين الخصوم . . . إنه ما من أمة في العالم تعرّضت لهذا القدر من الهجمات العنيفة المتلاحقة التي كانت تضرب الشاطئ الإسلامي كالبحر العاتي . . موجة إثر موجة . . دون أن تترك للمسلمين الفترة الزمنية الكافية لكي يلمّوا أشتاتهم ويلتقطوا أنفاسهم ويستجمعوا قواهم .

الوثنية العربية . . الفرس . . البيزنطيون . . الصليبيون . . المغول . . الإسبان . . قوى الاستعمار القديم . . ثم الجديد . . الصهاينة . . وأخيراً قوى الوفاق الدولي الذي يسعى لكي يطبق على عالم الإسلام الراهن بكماشته العاتية .

وكان عالم الإسلام ، عبر مساحات واسعة من هذه التحديات ، يملك القدرة على المجابهة ويخرج من المعارك الطاحنة صامداً أو منتصراً . . يوقف الغزاة ، أو يهزمهم ويردهم على أعقابهم . . أو يحتويهم ويتمثلهم .

صحيح أن هذه المعارك طويلة المدى قد استنزفت الكثير الكثير من طاقات المسلمين المتجددة ، وامتصت جانباً كبيراً من قدرتهم على الفعل والإنجاز الحضاريين ، الأمر الذي قد يفسر لنا جانباً من أسباب التعثر الحضاري الذي شهده عالم الإسلام في قرونه الأخيرة . . . إلا أن الأمة الإسلامية لم تفقد ، عبر هذا الصراع الطويل ، وإلى فترة قريبة نسبياً ، أيّما شيء . . لا الأرض ولا العقيدة ولا القدرة على الامتداد .

ليس هذا فحسب . . بل إن تاريخنا تميز بخصيصة أخرى تكاد تكون سمة من سماته الاصيلة . . إنه ما إن يتلق هزيمة في جانب ما من الزمان أو المكان ، حتى يهرع لتحقيق انتصارات جديدة في جبهات جديدة يعوض بها عن خسائره تلك . . وأحياناً يكون التعويض أكبر حجماً من الخسارة . . ويخرج عالم الإسلام منتصراً بحساب الخسائر

والأرباح !! .

ونظرة إلى مؤشرات **الامتداد العثماني** في قلب أوروبا الشرقية أيام محنة المسلمين وانحسارهم في الجانب الغربي من القارة .. وإلى خرائط انتشار الإسلام في أمداء واسعة من آسيا وإفريقيا ، زمن الضغوط الاستعمارية التي لا ترحم ، والاحتلال القاسي الذي افترس الكثير من مساحات عالم الإسلام .. تعطينا بعضاً من المؤشرات العديدة التي تؤيد هذا التحليل .

إن تاريخنا في قدرته الفذة على الرد يجيء بمثابة تحقق في الزمان والمكان لتعاليم كتاب الله ﴿ **قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين . هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين . ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . إن يمسسكم قرح فقد مسّ القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتّخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين** ﴾[1] .

﴿ **ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم في الأرض** ﴾[2] .

﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنّهم من بعد خوفهم أمناً** ﴾[3] .

الالتزام

ومن وراء ركام الأحداث والتغيرات السياسية والعسكرية التي شهدها تاريخنا عبر قرونه الطويلة ، ومن وراء قيام الدول والسلالات الحاكمة وسقوطها ، ومن وراء تأرجح القيادات العليا للحكومات الإسلامية بين التسبب والالتزام .. من وراء هذا وذاك كان هناك (مجتمع) إسلامي ملتزم ظل على وفائه للعقيدة التي صنعته وأعطته مكاناً في العالم ، وتمثله لقيمها وتعاليمها ، في سعيه اليومي وممارساته المعاشية وعلاقاته الاجتماعية .. ولئن دل هذا على شيء فإنما يدل على واقعية الإسلام وقدرته على التماسّ الدائم مع الحياة الاجتماعية ، وتغطيته لسائر متطلبات النشاط متنوع الجوانب للإنسان المسلم .. ولئن حدث أن شذ بعض الأفراد أو القطاعات الاجتماعية عن التزامها التام أو النسبي بقيم الإسلام وتعاليمه ، بين الحين والحين ، فإن هذه البقع السوداء المحدودة لم تكن لتغطي على المساحة البيضاء الأوسع في الحياة الإسلامية حيث التوحد مع أهداف الشريعة والالتزام بقيمها ومعطياتها .. ومن ثم فإنها لا تعدو أن تكون بمثابة الاستثناء من القاعدة الأثقل والأوسع والأهم .. ولن يحكم على المجرى العام للحياة الإسلامية من خلال الزبد الذي يطفو على وجهها بين الحين والحين .

إننا هنا بإزاء ميزة ذات أهمية بالغة ، ففي التجارب الوضعية يسقط الإنسان نفسه ، هذا الكائن المتفرد الفعّال ، بمجرد سقوط دولته وحضارته ، وتكون النكسة – بالتالي – أعمق وأشد خطراً .. أما في الإسلام فجائز أن تسقط الدولة أو الحضارة ، ولكن الإنسان المسلم والمجتمع المسلم يستمران على المقاومة والتماسك أطول فترة ممكنة ، بسبب توفر الحوافز الذاتية والقيم الخلقية التي يولدها الدين والضمير الديني مما لا نجده في التجارب الوضعية . فهاهنا تكاد تكون القضية طردية : كلما ازدادت الدولة والحضارة تدهوراً وانهياراً ازداد الإنسان (المواطن) تفسخاً وتحللاً وغياباً .. أما في الإسلام فإن الإنسان والمجتمع يظلان يحتفظان بنوع من التماسك الداخلي ، وربما ازداد هذا التماسك قوة ومقدرة على البقاء كرد فعل إيجابي لغياب الدولة والحضارة ، وإن كان ذلك لا يستمر إلى النهاية بحكم تكوين الإسلام نفسه ، حيث ترتبط وتتداخل دوائر الإنسان والدولة والحضارة .

إن ما ذكرناه قبل قليل عبَّر عن نفسه ، في العصور الإسلامية التالية بظهور عدد من الحركات الإسلامية ، صوفية وسياسية ، سعت إلى تعزيز التماسك الفردي والجماعي بوجه التشتت السياسي والحضاري ، وهو أمر لا نجد له مثيلاً في التجارب الوضعية ، فيما حققه من نتائج .

إن الدول والحضارات الوضعية كثيراً ما تعاني السقوط من الداخل . في أعقاب تدهور يصيب الإنسان في ذاته ، والمجتمع في علاقاته . وهذا التدهور كثيراً ما يقود الأغلبيات الساحقة إلى السلبية والدمار ، ويقود القلة الفذة إلى الانشقاق والتمرد .. والظاهرتان معاً تهددان بالسقوط السياسي والحضاري .. أما في الإسلام ، فصحيح أن الإنسان – كما يؤكد الإسلام نفسه – هو محور قيام الدول والحضارات أو تدهورها وسقوطها ، إلا أن تاريخنا يعلمنا حقيقة أخرى ، وهي أن الكثير من تجاربنا التاريخية سقطت في أعقاب ضربة خارجية قاسية ، وهذه الضربات كثيراً ما كانت تؤدي إلى مزيد من التماسك الإنساني الفردي والجماعي (كما حدث للمجتمع الإسلامي في عصر الغزو الصليبي) إلا أن ضربات كهذه كانت تعمل إفساداً وتدميراً على نطاق الدولة والحضارة ، سيما في تلك الفترات التي لم تتكافأ فيها القوى العسكرية وقدرات التسليح .. وهكذا كانت الغزوات الخارجية تخلف وراءها دولاً منهارة وكيانات حضارية تلفظ أنفاسها .. إلا أنها لم تخلف إلا في القليل إنساناً مسلماً ممزقاً ولا مجتمعاً إسلامياً متدهوراً .. وبدلاً من ذلك كانت تخلف (المجاهد) وأنماط السلوك الاجتماعي العالي المستمد من قيم الإسلام وأخلاقياته .

ولكن هل أن بقاء الإنسان والمجتمع المسلم بدون دولة أو حضارة يمكن أن يظل طويلاً ؟ أبداً .. فهما سرعان ما يتعرضان لعوامل التحلل التي سمّمت الأجواء الخارجية ، ورغم طول فترة مقاومتها إلا أن الجراثيم لا بدّ وأن تنقل العدوى إليهما فيتجهان صوب التحلل والدمار . ولذا كان هناك ارتباط متين – في الإسلام – بين الدولة والحضارة من جهة وبين الإنسان والمجتمع من جهة أخرى .. ولن يتم التوحد والتقدم والتماسك إلا بوجود هذه الأقطاب الأربعة : ابتداءً من الإنسان صانع الحضارة ، فالمجتمع مشكل قيم الحضارة ومنفذها ، فالدولة حارسة الكيان الحضاري ،

فالحضارة نفسها التي لن تكسب استقلالها وحيويتها وامتدادها المتجدد إلا بتوفر الإنسان الفعال (المحسن) والمجتمع الحركي (المجاهد) والدولة القوية (الراشدة) .

من أجل ذلك شهد التاريخ الإسلامي ، منذ نهاية عصر الراشدين وطيلة القرون الأربعة عشر التالية ، محاولات عديدة لإقامة الدولة الراشدة ، المرة تلو المرة ، محاولات قادها ــ حيناً ــ رجال كبار وجدوا أنفسهم في مواقع المسؤولية ، فاعتمدوها للانقلاب على الأوضاع الفاسدة وإعادة صياغة الحياة بما ينسجم وقيم الإسلام واطروحاته ، وقادتها ــ حيناً آخر ــ تنظيمات جماعية سعت لتحقيق الهدف نفسه .

إن تجربتيْ **عمر بن عبد العزيز** (٩٩ ــ ١٠١هـ) و **نور الدين محمود بن زنكي** (٥٤١ ــ ٥٦٩هـ) ــ على سبيل المثال ــ تأتيان شاهداً تاريخياً مقنعاً على أن الإسلام كنظرية قدير في أية لحظة تتوفر فيها النية المخلصة والإيمان الصادق والإلتزام المسؤول والذكاء الواعي ، على التماسّ مع واقع الحركة التاريخية وصياغتها ، أو إعادة صياغتها ، على ضوء معطيات الإسلام كتاباً وسنّة واجتهاداً ورصيداً تشريعياً . . وعلى أن الجماهير الإسلامية ، مهما صدّت عن الاتصال المباشر بموارد فكرها وعقيدتها وتاريخها ، فإنها تظل تحمل في عقولها وقلوبها ووجدانها ذلك التواصل الدائم والتناغم العميق مع هذا الدين الذي كرمها الله به ، والذي لن تجد معه في أي بديل قد يجيء من هنا أو يؤتى به من هناك إلا التغرّب والتمزق والانقطاع .

إنها جماهير قرون الالتزام الطويلة ، ليس مع عقيدة كعقائد تحمل (الخرافة) التي تسقط بها في بدء الطريق ، أو (العتمة المادية) التي تضل معها في منتصف الطريق ، ولكنها عقيدة المنطق البشري والتوازن المعجز بين مطالب الروح العليا وضرورات المادة وشدّها . . إنها لا تجد ما تضيّعه هناك : العقل أو الروح أو الجسد . ومن ثم تظل تحمل الاستعداد للعودة إلى العقيدة التي ما ضيّعتها ــ إذ تفرقت بها السبل ــ العودة التي كانت تتحقق كرد فعل تاريخي من خلال بروز تحدٍّ خارجي أو داخلي خطير ، أو في أعقاب ظهور قيادة واعية مؤمنة . . العودة التي كانت تخرج بها ــ دوماً ــ من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها .

التوازن الفذ

وثمة أخيراً وليس آخراً ما يعد ملمحاً من ملامح تاريخ الإسلام والحضارة الإسلامية وأكثرها خصوصية وارتباطاً بالشخصية الإسلامية في العالم .

إنه (التوازن) . . التوازن في كافة الاتجاهات وعلى كافة الجبهات . . إنه بأطرافه المتقابلة وثنائياته المتوافقة . . بمثابة السدى واللحمة . . هذا التوازن الذي يتصادى هنا وهناك . . في النظرية والتطبيق على السواء . . إنه في صميم فكر الإسلام وفي قلب صيرورته التاريخية .

إن القرآن الكريم يقولها بصراحة ووضوح ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً** ﴾[٤] .

والوسطية هاهنا ليست موقعاً جغرافياً أو مكاناً محدداً من قارات العالم . . ولكنه موقف عقائدي ، واستراتيجية عمل ، ورؤية نافذة لموقع الإنسان في الكون والعالم . . إنه القدرة الدائمة على التحقق بالتوازن وعدم الجنوح صوب اليمين أو الشمال . . ومن خلال هذه القدرة يتحقق مفهوم الشهادة على الناس ، لأنها تطل عليهم من موقع الإشراف المتوازن الذي لا يميل ولا يجور . . تشرف عليهم وهي تتحرك على الصراط . . وهي تمسك بالميزان الحق الذي تزن به كل صغيرة وكبيرة في هذا العالم فتميز بين الطيب والخبيث ، وتفرز الذهب من التراب ، وتبيّن الحق من الباطل .

ورغم أن هذا التوازن قد تعرض على المستوى التاريخي للتأرجح بين الحين والحين إلا أنه في إطار التجربة الإسلامية يظل ، من بين سائر التجارب الأخرى في العالم ، أكثرها وضوحاً ، والتزاماً ، وتألقاً .

إن التاريخ الإسلامي يتميز عن غيره من التواريخ بمعالم وسمات أصيلة تهبه شخصية مستقلة ، فهو يعبِّر ــ أكثر من غيره ــ عن حصيلة أوسع لقاء خلّاق بين السماء والأرض وعن طموح الإنسان المؤمن لإعادة سير التجربة البشرية في مجراها الطبيعي وانطلاقتها نحو هدفها المرسوم في الكون . التاريخ الذي يصور لنا الجهود الكبيرة التي بذلها المسلمون لتشكيل مصير العالم وفق منهج متفرد يجمع في إطار واحد الظاهر والباطن ، والحضور والغياب ، والطبيعة وما وراء الطبيعة ، والتراب والحركة ، والمادة والروح ، والقدر والاختيار ، والأخلاقية والمنفعية ، والوحدة والتنوع ، والفردية والجماعية ، والعدل والحرية ، والوحي والتجريب . . ويفتح أمام الإنسان الطريق لتقديم أقصى ما عنده من طاقات في بناء حضارة غير متأرجحة ولا مهزوزة ، حضارة تنساح فاعلية صنّاعها على كل المساحات وسائر القطاعات وتنبثق عن إيمان عميق بدور الإنسان في الكون ، وهدفيّة فاعليته وتوازنها .

ترى أيتسع المجال لاستعراض وتحليل هذه الثنائيات المتوازنة في مجرى تاريخنا وحضارتنا ، وتقديم الشاهد عليها ؟ .

لا أظن ذلك ولعل مقالة مستقلة أخرى تفي بالغرض ، بإذن الله .

تلك هي ملامح من رصيد رحلة الأربعة عشر قرناً . . وهي تمنحنا الكثير ، وتعلمنا الكثير . . . أفنطمح ، ونحن نطل على قرن جديد ، أن نستعيد بعضاً من هذه الملامح ونزيدها عمقاً وعطاءً وأن نضيف عليها ملامح ومعطيات أخرى ؟ !

الهوامش

(١) سورة آل عمران ، الآيات ١٣٧ ــ ١٤١ .
(٢) سورة القصص ، الآيتان ٥ ــ ٦ .
(٣) سورة النور ، الآية ٥٥ .
(٤) سورة البقرة ، الآية ١٤٣ .

الدعوة والدعاة



جاء الإسلام ختاماً لرسالات السماء ، وقد بعث محمد صلى الله عليه وسلم للناس كافة وهو رسول الله وخاتم أنبيائه ، ولا نبي بعده ، بقوله تعالى :

﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾

(سورة الأحزاب ، الآية ٤٠) .

فإذا كانت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم هي آخر رسالات السماء ، وإذا كان الإسلام دين البشرية كافة ، فإن **الدعوة إلى الإسلام وإعلام الناس به باقية ما بقي في الأرض غير الإسلام ديناً ، وما كان الرسل من قبل إلا مسلمين وداعين إلى الإسلام ، فالإسلام هو دين إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء من يذكرون ومن غاب ذكرهم ، وهو دين العالمين ، دين كل زمان ومكان ، لأنه دين التوحيد .**

ويبقى الإعلام بالإسلام والدعوة إليه واجب المسلمين في كل زمان ومكان حتى يتم الله دينه فلا دين غيره .

﴿ إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب . فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ﴾ (سورة آل عمران ، الآيتان ١٩ ، ٢٠) .

وكان منهاج الإعلام الإسلامي وحياً من عند الله :

﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ (سورة يونس ، الآية ٩٩) .

﴿ فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً إن عليك إلا البلاغ ﴾ (سورة الشورى ، الآية ٤٨) .

﴿ فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين ﴾ (سورة النحل ، الآية ٨٢) .

﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾ (سورة البقرة ، الآية ٢٥٦) .

﴿ قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ (سورة النور ، الآية ٥٤) .

فليس في منهاج الدعوة الإسلامية ولا في الإعلام بها عنت ولا إرهاق ، وما على الداعي بدعوة الإسلام ، أسوة برسول الله ، إلا أن يعلم الناس ويبلغهم رسالة الله إلى خاتم أنبيائه ، ولهم بعد ذلك في تعاليم الإسلام بعد أن يعلموها ويعرفوا حقيقتها ما يجذبهم إليها ، فقد جاء الإسلام خطاباً للعقل وجعله حكماً في كل شيء ، فهو ركيزة الإيمان ، وهو السبيل إلى معرفة الخير والشر ومعرفة الحق والباطل :

﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون ﴾ (سورة البقرة ، الآية ١٧١) .

ويفسر **الشيخ محمد عبده** هذه الآية بقوله :

« إن الآية صريحة في أن التقليد بغير عقل ولا هداية هو شأن الكافرين ، وأن المرء لا يكون مؤمناً إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به ، فمن ربي على التسليم بغير عقل والعمل ولو صالحاً بغير فقه فهو غير مؤمن ، فليس القصد من الإيمان أن يذلل الإنسان للخير كما يذلل الحيوان ، بل القصد منه أن يترقى عقله وترتقي نفسه بالعمل ، فيعمل الخير النافع المرضي لله ، ويترك الشر لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرته » .

وحيث تقوم الدعوة إلى الإسلام على العقل والتفكير والتدبر في خلق الله ويكون الإيمان بقدرة الله إيماناً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا يعتوره شك من أي منحى ، **ويفرق القرآن بين الإسلام بعد الإيمان والإسلام دون إيمان في قوله** تعالى :

﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ﴾ (سورة الحجرات ، الآية ١٤) .

فالإيمان إدراك في العقل يتحول إلى إحساس روحي تمتلئ به نفس الإنسان ، وتزداد به النفس امتلاء كلما نزع به التأمل إلى إدراك هذا الاتساق الرائع فيما يجري عليه الكون من سنن تمسك به ليس فيها تبديل ولا تحويل .

جوهر الإسلام

ولا يستوي الإيمان في النفس على وفاق ما لم يستو جوهر العقيدة — أي عقيدة — مع العقل ومدركاته الكلية لسنن الكون ، ويقوم جوهر العقيدة الإسلامية على التوحيد ، وهو ما يؤكده هذا الثبات في سنة الكون ، فالوجود الكلي الواحد المتسق الثابت الذي لا يتغير معناه إله واحد عظيم منفرد لا مثيل له ، وإنه الخالق لهذا الكون ومبدعه وإلهه الذي لا شريك له .

ويقوم التوحيد على فكرة بسيطة في ذاتها لا يجد العقل عناء في إدراكها ، ولا تحس الروح جفوة لها ، يقررها الإسلام بطريقة قلما وجد مثلها في أي دين آخر ، فهو يقرر أن — **لا إله إلا الله** — ولقد ذهب في دعوته للتوحيد إلى حد إنكار كل الأديان إلا ديناً واحداً ، ولهذا يرفض رد العقيدة الدينية إلى الفرد ، فما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، فالإسلام هو دين إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء من يذكرون ومن غاب ذكرهم ، وهو دين العالمين ، دين كل زمان ومكان لأنه دين التوحيد .

﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ (سورة البقرة ، الآيتان ١٦٣ — ١٦٤) .

﴿ قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ (سورة الأنعام ، الآية ١٠٤) .

في الإسلام

بقلم : د . حسين فوزي النجار

وكثيراً ما حفل القرآن الكريم بمثل ذلك : **لآيات لقوم يعقلون ، لآيات لأولي الألباب ، لآيات لقوم يتذكرون .**

فإذا انتقلنا إلى الدنيويات نرى شريعة تعلو على أي شريعة سواها ، حين تقنن للناس معاملاتهم وسلوكهم ، وعلاقة كل منهم بالآخر في إطار من القيم العليا للفرد وللمجتمع ، هي مرقاة لتوفير الحياة وإعلاء الكرامة الإنسانية . وقد عاش العالم **أربعة عشر قرناً** أو تزيد ، منذ بعث الإسلام ، لا يجد فيها نأمة من خير أو غفلة عن حق ، ولا يرى فيما سنه الإنسان ، وما جهد لبلوغه البشر ، وما سعت إلى تحقيقه المجتمعات الإنسانية في كفاحها الطويل لتوفير الحياة وإعلاء الكرامة الإنسانية ، وإقامة مجتمع الخير والسلام والعدالة والأخوة ما يعلو عليها أو يفوقها .

وقد جاء الإسلام والدنيا تفيض بالإحن والرزايا ، فالناس قلة من السادة المنعمين بالثروة والنفوذ ، والآخرون من سواد الشعب أقناناً يسحقهم الفقر ويطحنهم الاستبداد ، ففي **فارس** كان **الكهنة والدهاقين** ــ كما يقول مؤلف « روح الإسلام » ــ هم وحدهم الذين ينعمون بالثروة والنفوذ ، والكثرة لاغبة مستعبدة . وفي **روما** كان **القيصر** وحظاياه ورجال الدين والأشراف ، هم الرافلون في النعيم ، بينما الشقاء والتعاسة يخيمان على الناس جميعاً ، وكان القانون للأغنياء ضد الفقراء .

فلما جاء نبي الإسلام العظيم نفخ في بوق الحرية وأعلن التبعية لله وحده ، وأن الناس متساوون ، ولا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أحمر إلا بالتقوى .

﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير** ﴾ (سورة الحجرات ، الآية ١٣) .

وترد هذه الآية الكريمة لتجب التفاوت العنصري بين الناس ، وتقضي على التمايز والاستعلاء بين الشعوب والقبائل ، لا يسبقها في ذلك سابق ، ولم يلحق بها بعد لاحق ، وما زالت الشرائع والقوانين دونها بكثير ، فقد أنكر الإسلام أن يكون التعدد في الأمم والشعوب مدعاة للتنابذ والتفاخر أو التعصب والنعرة العنصرية ، وإنما هو وسيلة للتعارف والتكافل والتعاون ، وليس اختلاف الناس سبباً لتمايزهم ، فكلهم لآدم ، وكلهم في الإنسانية سواء ، لتستقيم معه حياة الناس على الألفة والود .

ولا يكون التفاوت بين الناس إلا في العلم والفضائل والعمل الصالح لخير الفرد ولخير المجموع ، في قوله تعالى :

﴿ **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات** ﴾ (سورة المجادلة ، الآية ١١) .

﴿ **قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون** ﴾ (سورة الزمر ، الآية ٩) .

ولا يقف الإسلام ضد **التقدم الاجتماعي** ، وليس فيه ما يأخذ جانب السلطة ضد الفقراء والكادحين ، أو المساكين بلغة القرآن الكريم ، بل كان عوناً لهم على حقوقهم ، فأنصفهم قبل أن ينصفوا أنفسهم . ومن قضاة الإسلام من وقف في الحق لضعيف ضد الخليفة نفسه ، وأنكر الإسلام الطبقية حين نبذ القبلية والعنصرية والتفاخر بالأنساب والأحساب والجاه وسعة الرزق ، وإن لم ينكر التباين في المآثر وفي التفاوت العقلي والخلقي ــ كما قلنا ــ وسوّى بين الناس جميعاً في أخوة إسلامية جامعة ، ونبذ القبلية والشعوبية **وقال بالدولة العالمية التي تجتمع رايتها في ظل الإسلام ، حيث تعلو شريعة الحق ، تضع للمسلم مثلما تضع لغيره من حق الأمان والرعاية وكفالة القانون** ، وفوض تراكم رأس المال والملكية الخاصة بما قرره من أحكامها ، وإن لم يجب النزعة إلى الثراء والسعي لكسب المال ، والعمل المثمر والربح الحلال ، وسدد ضربة قاضية إلى العبودية والقنية والرق .

بمثل هذه التعاليم وتلك الشريعة السمحاء والإيمان الذي يتقبله العقل ولا يضنى به الفكر ، شقّت الدعوة الإسلامية طريقها إلى العالم ، وأقبل الناس على الإسلام تحدوهم القدوة والمعرفة ، فعن طريق المعرفة عرف الناس **التوحيد** وهو جوهر الإسلام وفي التوحيد أدرك المسلمون ضلال **الشرك** وما كانوا فيه يعمهون ، ورأوا في سمو **العقيدة** ما يؤدي إلى **الإيمان** المستنير ، فحيث ينعم الإنسان النظر ويطيل التأمل ، يدعوه إنعام النظر وطول التأمل إلى اليقين بالله جلت قدرته ، وأنه والأرض التي يعيش عليها ذرة في هذا الكون الهائل من خلق الله ، حين يجري على سنن تمسكه وإلى غاية لا يعلمها غير بارئها ، وإن ما في الكون من آياته دليل على وجوده جل شأنه ، وأنه الخالق المصور الذي يحيط بكل شيء علماً ، وإليه يرجع الأمر كله . يقول تعالى :

﴿ **وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون . وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون . ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون . سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون . وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون . والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون . وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون . وخلقنا لهم من مثله ما يركبون . وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون . إلا رحمة منا ومتاعاً إلى حين** ﴾ (سورة يس ، الآيات ٣٣ ــ ٤٤) .

وعن طريق القدوة عرف الناس مجتمعاً إسلامياً لا قنية فيه ولا عبودية ولا عنصرية ولا أثرة ولا أنانية ولا شفاعة في غير الحق ، والناس فيه سواسية أمام الله وأمام شريعة لا يشوبها باطل ولا يعتورها حيف ، فعندما جاء **أسامة بن زيد** شفيعاً **لفاطمة المخزومية** عند الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان أسامة من أحب الناس إليه ، مبرراً شفاعته بأنها تنتمي إلى بني مخزوم رهط **خالد بن الوليد** ، وهم بطن من أشرف بطون **قريش** ، وأن إقامة الحد عليها سيجلب عليها وعلى آلها العار ، أنكر الرسول شفاعته على حبه له وانتهره قائلاً : « أتشفع في حد من حدود الله » ؟ ، ثم قام وخاطب الناس قائلاً : « **إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها** » .

وأخذ الخلفاء الأوائل أنفسهم قبل أن يأخذوا الناس بهذا الحق دون هوادة ، فلم يؤثروا أنفسهم بمأثرة ليست لغيرهم ، وإنهم ليرضون من العيش بالخشن الجاف حتى لا يكون للحاكم من بعد حق يمتاز به على الناس ، والضعيف عندهم القوي حتى يأخذوا الحق له ، والقوي عندهم الضعيف حتى يأخذوا الحق منه .

كان هذا دستور الإسلام في الحكم وبه تواصى الخلفاء فيما بينهم ، فمن رسالة **عمر بن الخطاب** إلى **أبي موسى الأشعري** ، وهي الرسالة التي جمعت أكثر أحكام الإسلام في القضاء ، والتي لم يخرج عنها دستور القضاء في أي بلد من البلدان به قضاء عادل من بعد ، ولم تعل عليها شريعة للقضاء في أي بلد متمدين

في وقتنا هذا ، قوله :

« آس ــ أي سوي ــ بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف في حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك . البينة على من ادعى واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً ، أو حرم حلالاً ، ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت اليوم فيه عقلك وهديت فيه إلى رشدك أن ترجع إلى الحق ، فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل . . . » .

وعمر هو القائل : « متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » ، عبارة قيلت في الثورة الفرنسية بعد ذلك بثلاثة عشر قرناً ، وهو القائل للرعية : « إني لم أستعمل عليكم عمالا ليضربوا أبشاركم وليشتموا أعراضكم ويأخذوا أموالكم ، ولكني استعملتهم عليكم ليعلموكم كتاب ربكم وسنّة نبيكم . فمن ظلمه عامله بمظلمة فلا إذن له علي ، لبرفعها إلي حتى أقصه منه » .

وفي وصيته للخليفة من بعده يقول :

« اجعل الناس عندك سواء لا تبال على من وجب الحق ثم لا تأخذك في الله لومة لائم ، وإياك والمحاباة فيما ولاك الله » .

وقد سئل عما يحل للخليفة من مال الله فقال :

« إنه لا يحل لعمر من مال الله إلا حلتين ، حلة للشتاء وحلة للصيف وما أحج به وأعتمر ، وقوتي وقوت أهلي كرجل من قريش ليس بأغناهم ولا بأفقرهم ، ثم أنا بعد رجل من المسلمين » .

وغضب منه **علي بن أبي طالب** حين خاطبه بكنيته بينما خاطب خصمه الذي جاء بشكواه باسمه وكان يهودياً ــ والخطاب بالكنية أسلوب في التوقير ــ فقال عمر : أكرهت أن يكون خصمك يهودياً وأن تمثل معه أمام القضاء ، فقال : لا ، ولكنني غضبت لأنك لم تسو بيني وبينه ، فخاطبته باسمه وخاطبتني بكنيتي .

انتشار الإسلام

تلك هي القدوة التي حملت الناس زرافات ووحداناً على اعتناق الإسلام ، وكانت القدوة هي التي تحمل الناس من غير المسلمين إلى معرفة القيم والمبادئ التي تحكم هؤلاء البعض ممن ينزلون بينهم أو هؤلاء القوم ممن يجاورونهم ، فيعرفون أنهم يقيمون على دين يحكم ما هم عليه من مبادئ وقيم ، فتكون المعرفة بعد القدوة مدخلا لاعتناق الإسلام ، **وما كان الدعاة في الإسلام إلا قدوة تجذب إليهم غيرهم** ، ثم كانت المعرفة عندهم هدياً لمن ينشدها . **فالإسلام لا يحتاج لغير التعريف به ، وفي المعرفة الإسلامية لمن يعقلها أعظم دعوة للإسلام** ، وقد كانت زاداً لأئمة الإسلام في دعوتهم ، ويذكر **ابن خلكان** في هذا الصدد أن عشرين ألفاً من المسيحيين واليهود والمجوس قد تحولوا إلى الإسلام يوم وفاة الإمام الأكبر **أحمد بن حنبل** ، كما أسلم على يد **محمد بن الهذيل** مؤدب **المأمون** ثلاثة آلاف .

ويذكر **أبو الفرج الجوزي** ، الفقيه السني ، وكان أعلم أهل زمانه في القرن الثاني عشر الميلادي ، أن عشرين ألفاً قد اعتنقوا الإسلام على يديه ، بل كان من **الصليبيين** الذين جاءوا للقضاء على المسلمين واستخلاص **بيت المقدس** من أيديهم من تحولوا إلى الإسلام بعدما رأوا من عدالة المسلمين وسماحتهم وحسن صنيعهم ما جذبهم إليه .

ومما يذكر عن اعتناق **بركة خان** (١٢٥٦ ــ ١٢٦٧ م) الزعيم المغولي ورئيس القبيلة الذهبية ــ وكان أول من أسلم من أمراء المغول ــ أنه التقى ذات يوم بتاجرين مسلمين في عبر للتجارة قادمة من **بخارى** ، فسألهما عن الإسلام ، فشرحاه له شرحاً وافياً حمله على اعتناقه ، وتبعه جيشه على الإسلام ، وقيل إن جنوده قد غدوا وهم يحملون سجادة الصلاة معهم أينما ساروا ، ولم يعد في جيشه من يشرب الخمر ، وغدت مجالسه وهي حافلة برجال العلم والدين ، وقد حالف بركة خان **الظاهر بيبرس سلطان مصر** حينذاك .

وقد شهدت هذه الفترة من تاريخ **المغول** لقاء حاداً بين المسيحية والإسلام ، إلا أن الإسلام قد ظفر بما لم تظفر به المسيحية في جذب المغول إليه ، وكان الفضل في ذلك للفقهاء والتجار ، وكثيراً ما كان المغول يتحولون إلى الإسلام بعد اعتناقهم المسيحية ، فقد شب « **تيكودار أحمد** » (١٢٨٢ ــ ١٢٨٤ م) أول من اعتنق الإسلام من **ايلخانات المغول** في **فارس** مسيحياً قبل إسلامه ، وعمد في صباه باسم « **نقولا** » فلما بلغ سن الرشد اعتنق الإسلام على يد بعض المسلمين الذين كلف بدينهم ، وكانت له مراسلات مع سلطان مصر **قلاوون** ، ذكرها **القلقشندي** في كتابه « **صبح الأعشى** » وقد طلب فيها محالفته .

ويعلق « **توماس أرنولد** » في كتابه « **الدعوة إلى الإسلام** » على اعتناق تيكودار أحمد للإسلام بقوله : « إن من يرس تاريخ المغول وفظائعهم ليرتاح عندما يراهم وقد تحولوا مرة واحدة إلى أسمى عاطفة إنسانية وإلى حب الخير . . . » .

وكما أسلم تيكودار أحمد ، كان إسلام « **غازان** » (١٢٩٥ ــ ١٣٠٤ م) سابع ايلخانات المغول وأعظمهم شأناً ، وتحوله عن **البوذية** إلى الإسلام ، ويقال إنه كان كثير النظر في الأديان وشرائعها كثير الحوار مع أئمتها ، وأقبل على الإسلام عن إيمان ، وعمل في حماس على حمايته وإعلاء شريعته ، واقتفى جنده أثره ، وكان طوال حياته مثال الحاكم المسلم الصالح ، ومنذ ذلك العهد غدا الإسلام دين ايلخانات فارس .

وكان لهؤلاء الدعاة من الفقهاء المقيمين ومن الرحالة والتجار الجوابين من الفضل في **انتشار الإسلام بالهند ومالي وجزر ملديف** أكثر مما كان لحاكم أو سلطان ، وما زالت آثار الدعاة وأضرحتهم قائمة في تلك البلاد يعمل الناس على صيانتها .

وكما كان انتشار الإسلام في **آسيا الوسطى والشرقية** ، كان انتشار الإسلام في **إفريقية** حمله التجار **العرب** إلى **وادي النيل** كما حملوه إلى إفريقية ، فحيث استعصى على الفاتحين العرب فتح مملكة النوبة المسيحية ، فوقفت سداً بينهم وبين **السودان** ، لم تستعص على التجار العرب فاقتحموها بتجارتهم وماشيتهم ، وانسابوا منها نحو السودان ، حيث وجدوا في فجاجه المترامية ما ينشدونه من الماء والكلأ والمراعي المعشبة الواسعة بعيداً عن **الجباية والخراج** ، ولم يكن ثمة فرق بين طبيعة بلادهم وطبيعة السودان الإقليمية والمناخية ، فليس البحر الأحمر إلا كسراً التوائياً في أرض واحدة شطرها شطرين هما السودان وبلاد العرب ، فتشابها جواً وهضاباً وفجاجاً ، **وكان أول اتصال للعرب بالسودان عن طريق عيذاب على البحر الأحمر وانتشروا بين النوبة ودنقلة ، وحين هرب بنو أمية من وجه العباسيين ، كان لهم في أرض الجزيرة بالسودان ملجأ أمين .**

وفي أواخر القرن الثالث عشر الميلادي كان الإسلام قد عم **بلاد النوبة** الدنيا ، وأصبح صاحب دنقلة من رعايا صاحب مصر وصار يخطب على منابر بلاده « بخليفة العصر وصاحب مصر » . وأخذت موجات من القبائل العربية تتدفق على السودان حتى بلاد **الحبشة ودارفور** ، ونزح كثير من **عرب جهينة** إلى السودان ، **وكانت القبائل العربية في هجرتها إلى مصر ، كهجرتها إلى السودان ، تقيم حيث يطيب لها المقام ، وكثيراً ما تفرقت بطونها بين السودان ومصر ، واعتنق أهل « سنار » الإسلام على يد التجار ، وكان لبني الكنز نفوذهم حتى عيذاب .**

كما كان للفرق **الصوفية** دورها الكبير في انتشار الإسلام في القارة الإفريقية **كالقادرية والتيجانية والشاذلية** ، وكان **للدعوة المهدية أثر بالغ في نشر الإسلام بين القبائل الزنجية في الجنوب** ، كما كان لأتباع **محمد عثمان الميرغني** مثل هذا الأثر في **كردفان** كما دخل في طريقته كثير من أبناء النوبة ودنقلة .

وقد حمل الإسلام إلى القارة الإفريقية نظماً جديدة قضت على الكثير من عاداتهم القديمة ، وعلمهم القراءة والكتابة ، فسادت الثقافة الإسلامية وأخذوا بالسنّة الكريمة ، وتطبيق ما نصت عليه الشريعة الإسلامية في الوصية والزواج وغيرهما من المعاملات .

وجوب الدعوة

فإذا كان الإسلام دين الناس كافة وإنه ختام رسالات السماء ، فإن الدعوة

الإسلامية حق على كل مسلم ، « وتكليف للأمة الإسلامية بها لا يتخلى عنها مؤمن – كما يقول **الشيخ محمد أبو زهرة** في كتابه « الدعوة إلى الإسلام » – ولا يتركها أمين » ، وعلى الداعية أن يكون بصيراً بالأمور « يأتيها من طرقها المسلوكة في رفق ، ليناً في دعوته ، يأتي الأمور من مصادرها ومواردها ، مؤمناً بها على بينة من أمرها ، لا تأخذه في الحق هوادة ، وليس للباطل عنده إرادة » وما من مسلم إلا وهو شاهد على الناس ، تقتضيه هذه الشهادة أن يدعوهم إلى الحق ، وهي شهادة قائمة مستمرة في أعناق المسلمين ، حتى يعم الإسلام الأرض ، وتحق دعوة الله على الناس ، وفي قوله تعالى :

﴿ وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس ﴾ (سورة الحج ، الآية ٧٨) .

﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون . ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ﴾ (سورة آل عمران ، الآيتان ١٠٤ – ١٠٥) .

فالدعوة إلى الإسلام واجبة بإجماع **الصحابة** ، لا يقعد بها أن تعاليم الإسلام وسماحته خير داع له ، أو أن **البلاغ** قد تم ، فما دام في الناس من لا يعرف حقيقة الإسلام ، فإن وجوب التعريف به قائم في أعناق المسلمين آحاداً وجماعات ، **وما دام الإسلام دين البشرية عامة ، دين إبراهيم وموسى وعيسى ، فقد وجب التعريف به لدى كل من لا يعرفه ، فإن البلاغ لا يتم إلا بتعريف الناس بالعقيدة وفحواها ، وهو واجب المسلمين في كل زمان ومكان ، حتى يتم الله دينه ، فلا دين غيره بقوله تعالى :**

﴿ إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب . فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ﴾ (سورة آل عمران ، الآية ١٩ – ٢٠) .

فالتعريف شرط البلاغ ، والناس بعد ذلك أحرار فيما يرون ، وقد خلق الله الإنسان وميزه بالعقل والإدراك والمعرفة ، وترك له حرية الإرادة فيما يرى وفيما يختار .

﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين ﴾ (سورة المائدة ، الآية ٦٧) .

وما كان للرسول عليه الصلاة والسلام أن يحمل الناس على الإسلام قهراً ، وإن كان عليه ألا يني في البلاغ ، وهو شأن الدعاة من بعده . **فلا فرق في الدعوة إلى الإسلام بين الماضي والحاضر ، فقد بدأت الدعوة إليه منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم على أسس منهجية ثابتة ، سداها التعريف بالدين الجديد ، ولحمتها ما يقوم عليه الإسلام من عبادات جوهرها التوحيد ، ومن معاملات تنتظم في إطارها العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي يقوم عليها نظام الجماعة الإسلامية كأكمل ما يكون النظام ، ومن أخلاقيات أو قيم تقوم على حقيقة ثابتة لا تتغير هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر** ، وهي قيم تجمع عليها المذاهب الإسلامية ولا تختلف عليها الفرق ، وإن اتخذت كل فرقة منهاجها الخاص للدعوة ، فإنها تجمع على ما جاء به الإسلام من عبادات ومعاملات وقيم .

وأول ما تقوم عليه الدعوة الإسلامية هو المعرفة الصحيحة بقواعد الإسلام وشريعته ، وقد قام بها الصحابة والتابعون في صدر الإسلام ، كما وضع منهاجها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، فقد كان عليه الصلاة والسلام يبعث إلى القبائل بعد أن تسلم من يقرئها القرآن ويفقهها في الدين ، وكان الخلفاء من بعده يوصون ولاتهم بالتعريف بالإسلام والإعلام بحقيقته ، وكان القدوة والمعاملة نبراس الدعوة في انتشارها وامتدادها « **فإن المعاملة العادلة – كما يقول الشيخ أبو زهرة – تجذب القلوب وتدنيها ، فإذا علموا أنها من الدين الجديد فتحت قلوبهم له ، وصغت إليه واستجابت له** » .

فالدعوة إلى الإسلام واجبة بإجماع الصحابة – كما قلنا – وهي فرض عين وفرض كفاية على كل قادر عليها وواتته الفرصة إليها . وقد قام بها الأفراد والجماعات بعد أن قعد عنها الخلفاء والولاة بعد عصر الراشدين . فإذا كانت الدولة تقوم بها كفاء الناس ممن لا يقدرون عليها مادياً أو علمياً ، فإن ذلك لا يحول دون الباقين ممن يقدرون عليها والقيام بها .

وقد حمل التجار والرحالة ، وهم يجوبون الأقطار ، رسالة الإسلام إلى كل منتجع يقيمون فيه أو يمرون به ، **فعلى يد التجار الحضارمة انتشر الإسلام في شرق إفريقية وفي أندونيسيا وجزر الملايو** ، كما كان الرحالة ، من أمثال **ابن جبير وابن بطوطة** داعين بأشخاصهم إلى الإسلام أينما يقصدون . وكانوا جميعاً في حلمهم وترحاهم قدوة في سلوكهم ، وفي ترفعهم عما يشين ، وفي تواضعهم ومحاسنتهم لغيرهم ، واختلاطهم بهم على الود والرعاية والتواضع ما جذب غيرهم إليهم ، ففي أخلاق الإسلام لمن يجتذبها ما يحبب الاقتداء بها ، وفي تعاليمه ما يجذب الناس إليه ، فمن المأثور أن حكيم العرب « **أكثم بن صيفي** » حين بلغه أمر الإسلام ، أرسل ولده يسألون محمداً صلى الله عليه وسلم عما يدعو إليه ، فتلى عليهم قوله تعالى :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ (سورة النحل ، الآية ٩٠) .

فلما رجع الولد لأبيهم تلوا عليه الآية ، فقال : « إن هذا إن لم يكن ديناً فهو في أخلاق الناس أمر حسن » .

والأخلاق الإسلامية – كما يرى **ول ديورانت** ، مؤلف « قصة الحضارة » – هي التي فتحت القلوب المغلقة للإسلام ، فلم تمض بضع سنين على البعث ، حتى أصبح الإسلام عقيدة الملايين من البشر ، **ولم يمض قرن من الزمان حتى ارتفعت راية الإسلام في أرجاء العالم القديم وأوقع أبناء البادية الهزيمة بجيوش كسرى وقيصر . ودوى صوت صاحب غار حراء – كما يقول سيد أمير علي – بين قارات ثلاث ، واستعربت أمم بأكملها حين حملت الفتوح الإسلامية أعظم موجة بشرية خرجت من الجزيرة العربية في حماس دافق لم يشهد له التاريخ مثيلاً من قبل** ، وفيض من الإيمان الزاخر حطم كل السدود والقيود التي تقف دونه ، فلم تقتصر موجة النزوح العربي على أرض **الهلال الخصيب** بل جاوزتها إلى **وادي النيل** والشمال الإفريقي وفارس وآسيا الوسطى ، فاستعربت تلك البلاد واتخذت من العربية لغة ومن الإسلام ديناً ، ولم يشهد العالم من قبل ديناً حمل معتنقيه على ثقافته ولغته كما كان الإسلام بين ما دان به من الأمم التي أصبحت تعرف بالأمم الإسلامية ، أو بلفظ أدق « **الأمة الإسلامية** » ، حيث جب الإسلام كل تفرقة عنصرية أو لغوية ، ونبذ الشعوبية ودعا إلى الوحدة العالمية في ظل شريعة بلغت أسمى درجات الرقي .

وما زال الإسلام « بما فيه من مزايا يقدمها لأصحابه » – كما يقول **ولفرد بلنت** في كتابه « **مستقبل الإسلام** » – قادراً على اجتذاب الناس إليه ، هي مزايا تفوق كل ما تستطيع المسيحية والحضارة الأوروبية أن تقدمه ، فبينما لا يجد المبشر المسيحي ، وهو يتعثر بدعوته وسط الأدغال الإفريقية ، ما يمنحه للإفريقي الأسود إلا ما يمنيه به من أخوة في الحياة الآخرة ، ويضن عليه بالكرامة ولا يقبل أن يجالسه أو يتزوج من زنجية ، يتقدم الداعية المسلم من أبناء **مراكش** ، فيقول للزنجي : « تعال اجلس معي ، خذ ابنتي زوجة لك ، واعطني ابنتك ، فكل من ينطق بشهادة الإسلام كفء لي في الدنيا والآخرة » ، ويمضي (بلنت) فيقرر بألا « مفر من أن تصبح إفريقية لقمة سائغة للإسلام ، وما ذلك ببعيد » .

وما الحياة بأشد حاجة إلى تعاليم الإسلام كحاجتها اليوم ، إذ عجزت المسيحية الغربية عن أن تمد حضارة الغرب ، حضارة العلم والآلة والسيطرة على أسرار الطبيعة ، بالقيم الروحية التي تمنحها القوة والاستمرار ، كما تمنحها القدرة على مجابهة طغيان الشيوعية والمذاهب المادية الضالة ، التي تعصف بها وتوردها موارد البوار ، مما يدعونا إلى تجديد الدعوة إلى الإسلام والتعريف به ، يقوم بها الآحاد والجماعات فرض عين وفرض كفاية ، كما كانت من قبل .

عالمية الدعوة

وإذا لم يكن هناك غير إله واحد ، لما ثمة أديان أخرى إلا أن تكون جميعاً ديناً من نبع واحد ومن سدرة تنتهي إليها كل حقيقة في الكون ، وإذا كان الإسلام هو دين السماء منذ اتصلت السماء بالأرض ، وكان ختام رسالات السماء ، فقد اكتملت به رسالة الأنبياء ، وكان محمد صلوات الله عليه خاتمهم جميعاً ، وتمت برسالته نعمة الله على عباده ، وكان ختام ما خاطب به المسلمين بعد خطابه الجامع في حجة الوداع تلاوة قوله تعالى :

﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ (سورة المائدة ، الآية ٣) .

فلا غرو بعد ذلك أن يكون الإسلام دين الأمم جميعاً ، وأنه للناس كافة :

﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين . ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾ (سورة ص ، الآيتان ٨٧ ـ ٨٨) .

﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ (سورة الصف ، الآية ٩) .

﴿ تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ﴾ (سورة الفرقان ، الآية ١) .

﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون . إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين . وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين . قل إنما يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون ﴾ (سورة الأنبياء ، الآيات ١٠٥ ـ ١٠٨) .

﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (سورة سبأ ، الآية ٢٨) .

وأول ما تعنيه كل هذه الآيات وغيرها أن الإسلام دعوة للعالم أجمع ، وأن دعوى عموم الرسالة قائمة حتى يعم دين الله الأرض جميعاً .

ولقد وضع محمد صلى الله عليه وسلم قبل أن تمضي به الحياة إلى الرفيق الأعلى السبيل إلى **عالمية الدعوة** ، وخط لها طريقها إلى اقتحام العالم ، وكان قد أفصح عنها حين قال : « **إن بلالا أول ثمار الحبشة ، وإن صهيباً أول ثمار الروم ، وإن سلمان أول ثمار الفرس** » ، وكان سلمان عبداً نصرانياً بالمدينة أسلم في السنة الأولى من الهجرة ، فكان **أول من أسلم من الفرس** ، وفي هذا دليل على أن الإسلام ليس للعرب وحدهم بل إنه لهم ولغيرهم من الأمم ، ولم يكن مما يدور في أحلام العرب أن الإسلام سيقتحم بهم الدنيا إلى ما وراء الجزيرة العربية في موجة عارمة من الفتوح الإسلامية الباهرة ، وأنه سيشق طريقه في مدى قرن من الزمان ـ كما يقول **توماس أرنولد وسيد أمير علي** ـ إلى الدنيا الواسعة .

وفي قوله عليه الصلاة والسلام : « **كل نبي بعث إلى قومه ، وأنا بعثت للأحمر والأسود** » ما يدل دلالة صريحة على دعوى عموم الرسالة وعالمية الدعوة الإسلامية .

وما كان **صلح الحديبية** إلا بداية تأليف قريش ليجتمع العرب صفاً واحداً على الدعوة قبل أن يتجه بها الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الخارج ، فقد عقده الرسول مع قريش على ألا يدخل عليهم **مكة** عامه هذا ، غصباً ، بينما المسلمون من حوله يضيقون بعنت قريش حتى ليذهب عمر بن الخطاب ، وكأنما قد أعجم عليه صبر النبي على أهل مكة ، إلى **أبي بكر** في أعقاب محادثات الصلح ويدور بينهما الحديث التالي :

ـ **عمر** : يا أبا بكر ، أليس برسول الله ؟!

● أبو بكر : بلى .

ـ **عمر** : أولسنا بالمسلمين ؟!

● أبو بكر : بلى .

ـ **عمر** : فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟!

● أبو بكر : يا عمر الزم غرزك ، فإني أشهد أنه رسول الله .

ـ **عمر** : وأنا أشهد أنه رسول الله .

وانقلب عمر إلى النبي وهو مغيظ محنق ، وحدثه بمثل ذلك فلم يلن من عزمه ولا صبره على قريش ، وقال لعمر : « أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني » فقد كان عليه الصلاة والسلام يرى أن عرب الجزيرة قد دانوا له ، وأن الإسلام على وشك أن يجمعهم إليه ، وأن عليهم بعد ذلك أن يشقوا طريقهم بالإسلام إلى الدنيا الواسعة ، أما قريش وهذا شأنها بين العرب ، وتلك قرابتها من الرسول ومن المهاجرين ، وهذه مكة أم القرى محج العرب إلى بيت الله الحرام أول بيت وضع للناس مباركاً وهدى للعالمين ، وقد جعله الله مثابة للناس وأمناً ، فليس لمحمد عليه الصلاة والسلام بحكمته وما هداه الله إليه ، أن يكون لهم قاهراً ، وإنه ليترضاهم حتى يأتي وقت يسلمون له بغير قتال ، ويسلمون دون هوان ، وليكون لهم من بعد ما كان منهم في فتوح الإسلام ونصره ، وهو ما يفسر لنا وحي الله إليه وهو في طريقه بالمسلمين راجعين إلى المدينة في سورة الفتح :

﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً . ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً . وينصرك الله نصراً عزيزاً ﴾ (سورةالفتح ، الآيات ١ ـ ٣) .

ففي العام التالي كانت **عمرة القضاء** ، وفيها نزح القرشيون عن مكة نزولا على صلح الحديبية ، بينما انحدر المسلمون إليها يتقدمهم الرسول ، وقد أخذ **عبد الله بن رواحة** بزمام ناقته **القصواء** ، وأهل مكة ينظرون إليهم من حيث كانوا فوق **أبي قبيس وحراء** ومن فوق كل مرتفع يطل عليها ليروا المسلمين وقد انفرجت شفاههم عن نداء واحد« **لبيك لبيك** » متوجهين ـ كما يقول **الدكتور هيكل** في كتابه « **حياة محمد** » ـ بالقلوب والأرواح إلى وجه الله ذي الجلال ، محيطين في هالة من رجاء واكبار بهذا الرسول الذي بعثه الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله . . . . وفي حماسة هذه الساعة أراد عبد الله بن رواحة أن يقذف في وجه قريش بصيحة ، فصده عمر ، وقال له الرسول : « مهلاً يابن رواحة ، وقل لا إله إلا الله وحده ، نصر عبده ، وأعز جنده ، وخذل الأحزاب وحده » أو كما قال . فنادى بها ابن رواحة بأعلى صوته ، ورددها المسلمون من بعده ، فتجاوبت بأصدائها جوانب الوادي ، وارتفعت رهبتها إلى قلوب الذين تسنموا الجبال حوله .

وبدت بوادر النصر الذي أوحى به الله إلى نبيه في صلح الحديبية ، ووقف **خالد بن الوليد** فارس قريش وسيف الله المسلول من بعد في جمع من قريش يقول : « لقد استبان لكل ذي عقل أن محمداً ليس بساحر ولا شاعر ، وأن كلامه من كلام رب العالمين ، فحق على كل ذي لب أن يتبعه » .

وفزع **عكرمة بن أبي جهل** لما سمع ، وقال : لقد صبأت يا خالد . فيقول له خالد : لم أصبؤ ولكني أسلمت . ويرد عكرمة قائلاً : والله إن كان أحق قريش ألا يتكلم بهذا الكلام لأنت . ويسأل خالد : ولم ؟ ويجيب عكرمة : لأن محمداً وضع شرف أبيك حين جرح ، وقتل عمك وابن عمك ببدر ، فوالله ما كنت لأسلم ولاتكلم بكلامك يا خالد . . أما رأيت قريشاً يريدون قتاله . ويرد خالد : هذا أمر الجاهلية وحميتها ، لكني والله أسلمت حين تبين لي الحق . وأسلم من بعد خالد **عمرو بن العاص ، وعثمان بن طلحة** حارس الكعبة ، وكثير آخرون من أهل مكة .

فلما كان **فتح مكة** ، بانت حكمة ما ذهب إليه الرسول صلى الله عليه وسلم في

صلح الحديبية من تأليف قريش صلحاً حتى لا تكون ترة من قتال لا خير فيه لغالب أو مغلوب . فقد اجتمع العرب على الدعوة ، وخاضوا ملحمة الجهاد ، وكان أعلام الشرك في قريش هم أعلام الفتوح ، فخالد بن الوليد قد أصبح بطل الفتوح المعلم ، وعكرمة بن أبي جهل ، وكان آخر من أسلم وآخر من قاوم من قريش وأمطر المسلمين في فتح مكة سهاماً من نباله ، كان من بعد بطل كتيبة الموت في **معركة اليرموك** وصاحب النداء الذي غز بالمسلمين إلى النصر في **معركة اليرموك** ، حين رأى الروم يزيحون المسلمين عن مواقعهم ، فيصيح في وجه الروم : « قاتلت مع رسول الله في كل موطن وأفر منكم اليوم » وينقلب إلى أصحابه فينادي : « من يبايع على الموت » ويبايعه **ضرار بن الأزور والحارث بن هشام** في أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم بينهم ولده **عمرو بن عكرمة** ، اندفعوا نحو الروم مستبسلين يطلبون الشهادة في سبيل ربهم ، وزلزلت هجمتهم صفوف الروم ، وأصابت الجراح عكرمة وابنه عمرو ، فلما تم النصر للمسلمين جيء بهما إلى خالد وقد اتخذ مكانه في رواق قائد الروم ، فوضع رأس عكرمة على فخذه ورأس عمرو على ساقه وجعل يمسح عن وجهيهما ويقطر في حلقيهما الماء حتى استشهدا ، وأصيبت عين **أبي سفيان** بسهم أخرجه منها **أبو خيثمة** ، وأبو سفيان هو من نعلم موقفه من المسلمين قبل فتح مكة .

وهكذا كان صلح الحديبية ثم دخول مكة سلماً تأليفاً لقريش على الدعوة ليكون لهم هذا الفتح المعلى في فتوح الإسلام ، وبصلح الحديبية كانت الدعوة الإسلامية قد بلغت من النضج ما يجعلها دين الناس كافة ، وبه اطمأن الرسول إلى وضع الإسلام في الجزيرة العربية وآن له أن يتجه بها إلى الخارج ، فكانت كتبه إلى **هرقل وكسرى والمقوقس ونجاشي الحبشة** وإلى **الحارث الغساني** وإلى باذان **عامل كسرى في اليمن** يدعوهم فيها إلى الإسلام ، وكانت تلك هي البادرة الأولى لعالمية الدعوة الإسلامية .

وكانت البادرة الثانية **غزوة مؤتة** ثم **غزوة تبوك** وما كان بعد ذلك من فتح الشام والعراق ثم انسياح العرب بالدعوة الإسلامية إلى ما وراء **الشام والعراق** . فإذا قيل إن غزوة مؤتة كانت بسبب قتل رسول النبي صلى الله عليه وسلم إلى عامل بصرى ، إذ قتله أعرابي من غسان باسم هرقل ، إذ كانت بسبب إرسال خمسة عشر رجلا إلى **ذات الطلح** ، على حدود الشام ، يدعون إلى الإسلام . . فكان جزاؤهم القتل لم ينج منهم غير رئيسهم ، فإنها كانت لسبب أكثر من هذين السببين ويفوقهما بمراحل ، هو توجيه أنظار المسلمين إلى طريقهم في الانسياح بالدعوة إلى العالم الواسع ، بعد أن عرف أن الجزيرة العربية قد دانت بالإسلام أو هي على وشك أن تدين به ، بل إن بعثة ذات الطلح قد سبقت غزوة مؤتة ، وكما كانت هجرته عليه الصلاة والسلام إلى المدينة إنسياحاً بالدعوة إلى منتجع آخر ، فكذلك كانت بعثة ذات الطلح ، وكما كانت **غزوة بدر** بعض ما نجم عن الهجرة إلى المدينة ، كانت معركة مؤتة بعض ما نجم عن الاتجاه بالدعوة إلى حدود الشام وما حدث في ذات الطلح ، فقد عرف المسلمون أن محمداً صلى الله عليه وسلم يرود بهم الطريق إلى اقتحام العالم الفسيح بدعوة الإسلام ، وأن الشمال حيث تتصل الأرض بما وراءها هو طريقهم إليه وليس الجنوب حيث يقف البحر دونهم .

وما كان عليه الصلاة والسلام يجهل ما يمكن أن يصيب هذه القلة من المسلمين في غزوة مؤتة إذا ما التقاهم الروم بجحافلهم الكثيفة فنادى بقوله : « إن أصيب زيد **فجعفر بن أبي طالب على الناس ، وإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس** » . ونراه لا يكتفي بذلك بل يوصي بما يكون عليه أدب الحرب في الإسلام ، ألا يقتلوا النساء ولا الأطفال ولا المكفوفين ولا الصبيان ، وألا يهدموا المنازل ولا يقطعوا الأشجار ، فكانت هي الأخرى رؤيا واضحة للقاءات قادمة جهاداً في سبيل الله ، على المسلمين أن يكونوا فيها مثالا لما جاء به الإسلام ارتفاعاً بالإنسان إلى المثل الأعلى في دنياه ، وفي كل ما يقوم بينه وبين الناس من وفاق أو خلاف .

وحين عاد خالد بن الوليد بغزاة مؤتة إلى المدينة ، وقد لقوا ما لقوا ، حثاهم الناس بالتراب ، وقالوا لهم : « يا فرار ، فررتم في سبيل الله » ، فيقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله » . وفي هذا إيذان بالعودة إلى تلك البقاع ، فليس هناك من سبيل آخر لانسياح الإسلام إلى العالم غيرها ، ولم ين أن يوجه أنظار المسلمين إليها ، فلم يلبث بعد مؤتة غير قليل ، حتى بعث عمرو بن العاص يستنفر العرب إلى الشام وأمده **بأبي عبيدة ابن الجراح** وفي رجاله أبو بكر وعمر ، وتقدم عمرو بن العاص فشتت جموع أهل الشام الذين أرادوا حربه ، وأعاد بذلك هيبة المسلمين في تلك الناحية ، كما أعاد إلى المسلمين ثقتهم بأنفسهم بعدما لقوه في مؤتة .

ثم كانت تبوك بعد فتح مكة وإذعان العرب لسلطان الدين الجديد ، غزواً أراد به الرسول صلى الله عليه وسلم أن يعرف الروم أن العرب المسلمين غير عرب الجاهلية ، وأنهم لهم ند وقرين ، وأنهم أقوى مما يظنهم الروم ، كما أراد به أن يوحي إلى العرب أنه غير وان عن طلب الشام وما وراء الشام ، لا يمنعه عن ذلك حر الهجير ولا بعد المسافة ، ولا شدة الروم الذين عرفوا بوفرة عدتهم ، وكثرة عديدهم وكانوا قد غلبوا الفرس منذ قليل . وحين استنفر الناس للغزو ، كان الوقت صيفاً ، وللهاجرة في جوف الصحراء العربية وقد أليم ، والطريق من المدينة إلى تبوك غير هين ولا سهل ، ويحتاج إلى الطاقة أكثر مما يحتاج إلى الجلد ، وإلى الماء مما هو إلى المؤونة ، **وكأنه عليه الصلاة والسلام أراد أن يعلم المسلمون ألا يقف في سبيل الدعوة إلى الله رهق ولا مال** ، وكان قد طلب إلى الأثرياء أن يشاركوا بمالهم في تجهيز الجيش ، ولعله أراد أيضاً أن يعرف المسلمون من منهم الصادق في إيمانه ومن أقبل منهم على الإسلام رغباً ورهباً ، رغباً في الدنيا الجديدة التي تقبل على المسلمين ، ورهباً من هذه القوة الجديدة التي تودي بكل قوة تقف دونها ، وليعلم الناس المنافقين منهم والصادقين ، ولكي يكون لبذل المال في الجهاد ما للجهاد بالنفس من ثواب .

وكان عليه الصلاة والسلام قد أعلن عن عزمه على غزو الروم وأن يتجهز المسلمون لذلك مخالفاً بذلك تقاليده في سابق غزواته ، حين كان يتوجه في كثير من الأحيان بجيشه إلى غير الناحية التي يقصدها تضليلاً للعدو حتى لا يفشو خبر مسيرته ، وأرسل إلى القبائل يدعوها لإمداد الجيش بأكثر ما يمكن أن تمده به من المقاتلين ، وكأنما أراد بإعلانه هذا وبدعوته كافة القبائل لقتال الروم ، أن يهيئ العرب للمستقبل الموعود وللرسالة التي ألقيت على عاتقهم لنشر الإسلام في أقصى ما تستطيع رواحلهم أن تحملهم إليه من بقاع وحمله إلى أبعد ما يشاء الله من أرجاء العالم الواسع حتى يعم دين الله العالمين .

ولبى النداء من لباه ممن صدق إيمانه ، أما الآخرون من المنافقين فقد أخذوا يلتمسون الأعذار في الظاهر بينما راحوا فيما بينهم يهزأون بدعوة محمد إياهم لهذا الغزو البعيد ، يشقون إليه الفيافي المحرقة الحارة ، ونزل فيهم قول الله تعالى :

﴿ وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون . فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون ﴾ (سورة التوبة ، الآيتان ٨١ ــ ٨٢) .

ولما قال **للجد بن قيس** ، أحد بني سلمة : « يا جد هل لك العام في جلاد بني الأصفر ؟ » قال : « يا رسول الله ، أو تأذن لي ولا تفتني ، فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل أشد عجباً بالنساء مني ، وإني أخشى إن رأيت نساء **بني الأصفر** ألا أصبر » ، فأعرض عنه الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفيه نزلت الآية :

﴿ ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ (سورة التوبة ، الآية ٤٩) .

ثم عرف الرسول أن جماعة ممن يكيدون للإسلام قد أخذوا يحرضون الناس على القعود والتخلف عن القتال ، وإنهم يزيدون المنافقين نفاقاً ، لم يشأ أن يتهاون معهم ، وكانوا يجتمعون ببيت **سويلم اليهودي** ، فبعث إليهم طلحة ابن عبيد الله في نفر من أصحابه ، فحرق البيت عليهم ، فلاذوا بالفرار ولم يعودوا لمثلها من بعد .

وأقبل الفقراء والأغنياء يلبون النداء ، وقد ازدادوا يقيناً أن الرسول صلى الله عليه وسلم يرود بهم الطريق إلى ما شاء الله أن يحملهم بالدعوة التي بعثت فيهم ،

وأن عليهم يقع عبء البلاغ ليحملها المسلمون كافة وحداناً وجماعات إلى الدنيا الواسعة ، وأنفق ذووا اليسار من مالهم على تجهيز الجيش ، أنفق **عثمان بن عفان** وحده ألف دينار ، وأنفق غيره كل على قدر طاقته غير ضنين ، وتقدم كل قادر على نفقة نفسه بعدته وحاجته ، وجاء كثير من الفقراء ينشدون ثواب الجهاد ، فصحب منهم الرسول من استطاع ، واعتذر إلى الباقين وقال : « لا أجد ما أحملكم عليه » ، فتولوا والحزن يعصف بأفئدتهم ، والدموع تفيض من مآقيهم أسى ألا يجدوا ما ينفقون ، وألا يكون لهم إلى الجهاد سبيل ، ولبكائهم أطلق عليهم اسم **البكائين** .

وكان هذا الجيش اللجب الذي اجتمع لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثين ألفاً ، وسمي **جيش العسرة** ، لما واجه الرسول من عناء تكوينه ، سار محمد عليه الصلاة والسلام على قيادته ، ولم تكن المدينة ، ولا أرض العرب قد شهدت مثل هذا الجحفل الجرار يثور النقع وتصهل الخيل فيموج صهيلها بأصوات المسلمين تعلو بتكبيرة الإسلام ، وقد ارتقت نساء المدينة سقفها يشهدون هذا الجيش اللجب يتقدمه عشرة آلاف فارس ، مخترقاً البيداء صوب الشام لا يقف دونه حر أو ظمأ أو خوف مسغبة لا يخشى في سبيل الله لقاء قوم ما كانوا يفكرون من قبل في لقائهم لما عرفوه عنهم من كثرة عديدهم وعدتهم ، ويتحرك من الخوالف والقواعد من أخذ بلبه هذا الجلال في مسيرة الإيمان ، فهذا **أبو خيثمة** قد راعه هذا المنظر وقد رأى امرأتيه قد رشت كل منها عريشها وبردت له فيه ماء وهيأت له فيه طعاماً فيقول : « رسول الله في الفح والريح والحر وأبو خيثمة في ظل بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء في ماله مقيم ، هيئا لي زاداً حتى ألحق به » ، فهيأتا له زاده ولحق بالجيش ، ورأى غيره ما في التخلف والتقاعس من عار الخوف ومذلة القعود فلحقوا هم الآخرون بالجيش في مسيرته .

وبلغ الجيش **الحجر** ، وبها أطلال بقية من **منازل ثمود** منقورة في الصخر ، ثم انطلق إلى تبوك ، فلما انتهى إليها وعرف أن الروم قد آثروا الانسحاب ، لم يشأ أن يتبعهم ، اكتفى بتأمين الحدود ، وصالح أهل الجرباء ، وأذرح على الجزية ، كما جاءه **يوحنا بن رؤبة صاحب أيلة** بالهدايا وصالح الرسول صلى الله عليه وسلم على الطاعة والجزية .

[illegible] المسلمين للوثوب إلى ما هداهم إليه من سبيل للانسياح والانتشار ، أما وقد أمن جانب أيلة ، فقد عمل على أن يأمن جانب **أكيدر بن عبد الملك الكندي النصراني أمير دومة الجندل** إذا جاءت جيوش الروم من ناحيته وقدم لها العون ، فبعث إليه خالد بن الوليد في خمسمائة فارس ، وانقلب بعد ذلك راجعاً إلى المدينة ، وانقض خالد على (دومة) في غفلة من مليكها ، وكان قد خرج لصيد بقر الوحش ، ولم يلق خالد مقاومة تذكر ، فأسر (أكيدر) ، وفتحت له (دومة) أبوابها ، فساق منها ألفي بعير وثمانمائة شاة وأربعمائة وسق من بر وأربعمائة درع وذهب بها ومعه أكيدر حتى لحق بالنبي صلى الله عليه وسلم في المدينة ، حيث عرض الإسلام على أكيدر فأسلم وأصبح للمسلمين حليفاً . وكان ما غنمه خالد من دومة هو كل مغانم المسلمين من غزو تبوك .

ولم يع كثير من أهل المدينة ما حققه غزو تبوك من كسب سياسي وإعلامي ، وكل ما بدا لهم أن الجيش قطع هذه المشقة الطويلة ، وعانى ما عاناه من جهد وتعب ، ثم عاد لم يغنم ولم يأسر ، بل لم يقاتل ، وكل ما قام به أنه ثوى إلى تبوك قرابة عشرين يوماً ثم قفل راجعاً ، إلا أن ما جاء به خالد ومعه أكيدر في حلة من ديباج موشى بالذهب ذهل لمرآها أهل المدينة قضى على تندر المستهزئين والمتخلفين بجدوى الحملة ، وإن كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أخذهم بالشدة حيناً وباللين حيناً آخر ، وذهب المتخلفون يعتذرون إليه وقد شاب الكذب معاذيرهم ، فأعرض عنهم تاركاً لله حسابهم ، إلا أن ثلاثة منهم صدقوا الله ورسوله ، فأقروا بتخلفهم واعترفوا بذنبهم ، هم **كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال ابن أمية** . ورأى الرسول صلى الله عليه وسلم ألا يفلتهم من العقاب حتى يتوب الله عليهم ، وأمر أن يعرض المسلمين عنهم خمسين يوماً لا يكلمهم أحد ولا تصل بينهم وبين مسلم تجارة ، حتى نزل فيهم قوله تعالى :

﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم . وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ﴾ (سورة التوبة ، الآيتان ١١٧ ــ ١١٨) .

وكانت تبوك آخر غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم ، أما وقد أتمها وسار على رأس الجيش إلى مشارف الشام ، مخرج المسلمين إلى الدنيا الواسعة ، فقد ترك للذين يأتون من بعده من الصحابة والتابعين ومن يقومون على أمر المسلمين ، أن يتموا دعوته ، وأن يتخطوا بها أرض العرب إلى غيرها ، ليعم دين الله الأرض ومن عليها . وكانت تبوك برهاناً عملياً على دعوى عموم الرسالة ، وأن الدعوة إلى الإسلام قائمة حتى يتم الله نوره على العالمين ، وأنها باقية حتى كمال الإسلام .

ما بعد تبوك

وغرست تبوك في العرب ثقتهم بأنفسهم ، وقد كانوا من قبل يرون أنفسهم دون الفرس ودون الروم ، إلا أن المسلمين بهذا الجيش اللجب وقد أعدوا له أحسن الإعداد وقطعوا مفازة تهلك دون قطعها الأنفس ، ثم قفلوا راجعين دون حرب بعد أن انسحب الروم إلى داخل بلادهم ، إما هيبة من اللقاء ، كما يرى البعض ، وإما استدراجاً للمسلمين لمتابعتهم في معاقلهم حيث يحاربون وهم يستندون إلى خطوط مواصلات جيدة ومؤن وفيرة تعوز جيش المسلمين ، بعد أن نأت به المفازة عن قواعده في المدينة ، وامتدت به مواصلاته هذا الامتداد البعيد لا يأمن معه انسحاباً سليماً حين يقطع العدو عليه خط رجعته ، وكانت حكمة الرسول أن أمر بالعودة ، إلا أن هذه الحكمة قد تغيب على الكثيرين كما غابت عنهم حكمة الغزو ، والقصد البعيد الذي يرمي إليه الرسول صلى الله عليه وسلم من ورائه ، أما وقد غابت هذه الحكمة عنهم ، وإنها ليست لتأمين حدود العرب الشمالية فحسب ، وإنما هي لانسياح المسلمين بالدعوة إلى ما وراء الجزيرة العربية ، فقد كان على الرسول صلى الله عليه وسلم أن يعيد الكرة لغزو تلك البلاد التي لا منفذ للمسلمين سواها للانسياح بدعوة الإسلام إلى العالم الواسع ، فأمر بالإعداد مرة أخرى لغزو الشام ، وليتجاوز الجيش هذه المرة مؤتة وتبوك إلى **البلقاء والداروم من أرض فلسطين** ، وأمر على الجيش **أسامة بن زيد** ، وكان يومئذ حدثاً لا يكاد يعدو العشرين من عمره ، وجعل فيه المهاجرين الأولين ومنهم أبو بكر وعمر ، وحدد له غايته لا يتجاوزها ، وأن يتمها دراكاً حتى لا تسبق إلى أعدائه أنباؤه ، فإذا أتم له الله النصر لم يطل بقاءه بينهم وعاد غانماً مظفراً .

وبينما الجيش على أهبة المسير ، لحق الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام بالرفيق الأعلى ، وكان عليه الصلاة والسلام ، وقد اشتد عليه المرض ، قد أمر بأن ينفذ بعث أسامة ، وروي عن أسامة أنه قال : « لما ثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم هبطت وهبط معي إلى المدينة ، فدخلت على رسول الله وقد أصمت فلا يتكلم ، فجعل يرفع يده إلى السماء ثم يضعها علي ، فأعرف أنه يدعو لي » .

ولما ولي أبو بكر أمر المسلمين أمر بانفاذ بعث أسامة على الرغم مما رآه المسلمون من وقفه بعد أن انتقض بعض العرب على المسلمين ، وقال أبو بكر : « والذي نفس أبي بكر بيده لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته » ، ولما طلب الأنصار « أن يولى أمرنا رجلاً أقدم سناً من أسامة » ، وحمل عمر بن الخطاب رسالة الأنصار إلى أبي بكر ، فوثب عليه أبو بكر وأخذ بلحيته وقال مغضباً : « ثكلتك أمك وعدمتك يابن الخطاب ، استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرني أن أنزعه » ، ورجع عمر إلى الناس ، فسألوه عما صنع ، فقال : « أمضوا ثكلتكم أمهاتكم ما لقيت بسببكم من خليفة رسول الله » .

وأعلن أبو بكر على الناس : « ليتم بعث أسامة . ألا يبقين بالمدينة أحد من جند

أسامة إلا خرج إلى عسكره بالحرف » ، وقد وقف خطيباً بعد أن رد المعترضين منهم وقال : « يا أيها الناس ، إنما أنا مثلكم ، وإني لا أدري لعلكم ستكلفوني ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطيق ، إن الله اصطفى محمداً على العالمين وعصمه من الآفات ، وإنما أنا متبع ولست بمبتدع ، فإن استقمت فتابعوني ، وإن زغت فقوموني » .

ولما آن له أن يودع الجيش وقف في رجاله خطيباً وقال : « **أيها الناس قفوا أوصكم بعشر فاحفظوها عني : لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام ، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليه ، وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقاً ، اندفعوا باسم الله ، أقناكم الله بالطعن والطاعون** » .

وقال لأسامة والجيش على أهبة المسير : « اصنع ما أمرك به نبي الله صلى الله عليه وسلم ، ابدأ ببلاد قضاعة ، ثم ائت آبل ، ولا تقصرن في شيء من أمر رسول الله ، ولا تعجلن لما خلفت عن عهده » .

وفيما روي عنه عليه الصلاة والسلام حين انتصر العرب على الفرس في يوم « **ذي قار** » أنه قال : « هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم ونصرت عليهم بي » ذلك أنه بعث عام ذي قار . وفيه ما يمكن أن يوحي بأن رسالته بادرة انتصار العرب على جيرانهم الأقوياء من الفرس والروم .

وقد صدق ما غاب عن القوم من حكمته عليه الصلاة والسلام بغزو مؤتة وتبوك وبعث أسامة إلى البلقاء، والداروم في فلسطين ، فلم يمض عامان على بعث أسامة حتى كانت جيوش المسلمين تجتاح فارس وبلاد الروم .

ولم يكن تفكير المسلمين في غزو الروم وفارس وليد الأحداث الطارئة أو لشغل العرب عن ثاراتهم وعصبيتهم وأضغانهم كما يرى بعض المؤرخين ، فإن تكن حروب الردة قد فلت من وحدتهم وناشت أطماعهم ، فإنها لم تكن مما أجمعت قبائل المرتدين عليها ، فقد كان فيها من رأى في ردتهم نقضاً لعهد عقدوه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم تكن في ذاتها ردة إلى الوثنية بعد أن قضى الإسلام عليها ، وإنما كانت خروجاً على طاعة المدينة وانكاراً لسلطانها ، وكان من أبنائها من تفاخر بهم الحجازيين **كعمرو بن معدي كرب صاحب الصمصامة** وفارس زبيد المعلم ، وكان منها من يحرص على سلطانه البدوي وعصبيته القبلية ، فكانت ردة استعلاء وطمع أكثر منها انكاراً لدين الحق . أما وقد هان أمرهم ، فلم يعد فيهم إلا من يرجو العفو ليكون خيراً لدين الله ، وقد أبلوا جميعاً في فتوح العراق والشام خير البلاء .

وإنما كان غزو الروم وفارس بعض ما وجه إليه الرسول عليه الصلاة والسلام أنظار المسلمين وما عمل له في حياته بغزو مؤتة وتبوك وبعث أسامة كما قلنا ، وهو ما أشار إليه أبو بكر ، حين دعا إليه عمر وعثمان وعلياً وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وأبا عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وزيد بن ثابت وجلة المهاجرين والأنصار والبدريين وغيرهم ، فتحدث إليهم وذكر لهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد صرف همته إلى الشام فقبضه الله إليه ، واختار له ما لديه « **والعرب بنو أم وأب وقد أردت أن استنفرهم إلى الروم بالشام** » ، ثم طلب إليهم رأيهم ، فقال عمر : « والله ما استبقنا إلى شيء من الخير قط إلا سبقتنا إليه ، قد والله أردت لقاءك بهذا الرأي الذي ذكرت ، فما قضى الله أن يكون ذلك حتى ذكرته الآن ، فقد أصاب الله بك سبل الرشاد . سرب إليهم الخيل في إثر الخيل ، وابعث الرجال تتبعها الرجال والجنود تتبعها الجنود ، فإن الله عز وجل ناصر دينه ومقر الإسلام وأهله ومنجز ما وعد رسوله » .

فلم تكن مؤتة أو تبوك أو بعث أسامة ليجتاح أرضاً من **فلسطين** لتأمين حدود العرب الشمالية ، فقد ظلت **الجزيرة العربية** بمأمن من غزو الروم والفرس ، وما كان بهم حاجة إلى المتاهة في فيافيها وإخضاع أهلها العارفين بدروبها ومفاوزها وقد طبعتهم البادية على أسلوب في الحرب ليس لعدوهم معرفة به أو طاقة عليه ، وقد هلك من قبل **جيش أبرهة** ، فإن رده العرب إلى أمر الله ، فقد رده الآخرون إلى فجاءات الصحراء وأسرارها التي تغيب عنهم ، وإنما كانت تلك الغزوات والبعوث إلى الشام ، لأن **الشام هي منفذ المسلمين بالدعوة إلى الدنيا الواسعة** ما دام الإسلام قد بعث للناس كافة ، وما دامت الدعوة إليه واجب المسلمين حتى يعم دين الله الأرض ومن عليها .

وقد ساقت الأحداث المسلمين إلى أبعد مما كانوا يأملون ، فقبل أن يخوض المسلمون مسالح الشام كان **المثنى بن حارثة الشيباني** قد خاض من نفسه مسالح العراق وأوقع الهزيمة بعمال فارس ، ولم تمض بضع سنين حتى كانت أعلام المسلمين ترفرف على الشام ومصر وفارس في موجة باهرة من الفتوح الإسلامية ، امتدت من بعد ، إلى **سد الصين** وإلى **سيف الأوقيانوس** ، وقامت الدولة الإسلامية باذخة شماء لتسود عالم العصور الوسطى ، فقد عرف خلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته من بعده ، طريقهم إلى نشر الإسلام ، وعرفوا كيف يدعون إليه حيث يقودهم الطريق إلى أرجاء الدنيا الواسعة ، وحيث تكون الدعوة إلى الإسلام نبراساً لما جاءت به رسالة السماء من الحكمة والموعظة الحسنة ، **فلا دعوة بغير إعلام ولا إعلام بغير عمل وجهد وخطة ومنهج ، وما من إعلام ينفذ إلى عقول الناس وقلوبهم بغير وسيلة ، وما من وسيلة إعلامية تثمر من غير حقيقة تستند إليها وتقوم بها** ، وما من معلم يسلك بدعوته بين الناس ويستهويهم ما لم يكن هو نفسه قدوة لما يدعو إليه ونبراساً لما يجمع الناس من حوله ، كما أنه لا تكليف من غير إعلام ، ولا ثواب ولا عقاب من غير علم ، بقوله تعالى :

، **وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا**﴾ (سورة الإسراء ، الآية ١٥) .

ولا يتم البلاغ من غير علم .

، **يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته** ز (سورة المائدة ، الآية ٦٧) .

فالإعلام شرط البلاغ ، ولكن الإعلام لا يتم بغير الحرية ، وما كانت الفتوح الإسلامية إلا لتأمين حرية الدعوة ، والناس بعد ذلك أحرار فيما يختارون ، وكان **الإسلام دعوة بالحق قبل أن يكون دعوة بالسيف** ، وقد غمرت دعوته آفاقاً لم تطرقها أسياف المسلمين ، وما زالت الدعوة إليه قائمة فرض عين وفرض كفاية على المسلمين آحاد وجماعات .

المصادر

١ ـ حياة محمد : الدكتور محمد حسين هيكل .
٢ ـ الصديق أبو بكر : الدكتور محمد حسين هيكل .
٣ ـ الإسلام والسياسة : الدكتور حسين فوزي النجار .
٤ ـ الدعوة إلى الإسلام : الشيخ محمد أبو زهرة .
٥ ـ انتشار الإسلام في القارة الإفريقية : الدكتور حسن إبراهيم حسن .
٦ ـ دائرة المعارف الإسلامية .
٧ ـ مروج الذهب للمسعودي .
٨ ـ الكامل لابن الأثير .
٩ ـ فتوح الشام للواقدي .
١٠ ـ دائرة معارف القرن العشرين ، للسيد فريد وجدي .
١١ ـ Arnold, Sir Thomas: The Preaching of Islam.
١٢ ـ Ameer, Sayed: The Spirit of Islam.
١٣ ـ C. de Perceval. Histoire des Arabes.
١٤ ـ Sedillat, Histoire des Arabes.



«كيف ننسى تاريخاً صنعناه بالدماء والشهداء، وبالتضحيات والبطولات،

وصنعه الله لهذا الشرق الإسلامي.. الذي حمل الراية، ورفع اللواء، وبلغ الرسالة، ونشر الثقافة والحضارة في العالم، على امتداد هذه القرون الأربعة عشر».

أضواء على

-١-

نحن الآن على مشارف القرن الخامس عشر الهجري.

وفي مطلع عام ١٤٠١ للهجرة النبوية.

نودع عاماً ونستقبل عاماً.

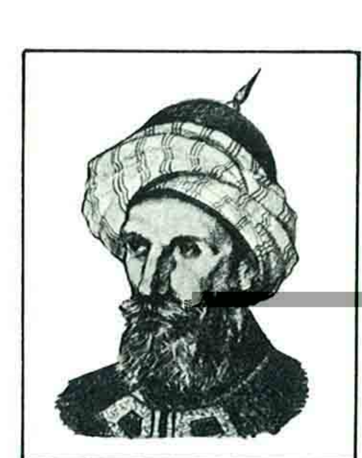
ونتذكر تاريخاً حافلاً مرّ به الإسلام والمسلمون خلال ألف وأربعمائة عام؛ ونتطلع إلى تاريخ جديد نكتبه نحن المسلمين المعاصرين، ونخطط به لعصر جديد، ومستقبل عتيد.

وما أكثر الذكريات، ما أحلاها وما أمرّها معاً؛ ما أجلّ ما صنع الشرق الإسلامي على امتداد الأيام والقرون، من أجل الإنسان والحياة والمعرفة والحضارة؛ وما أفدح ما لاقاه من أهوال ومحن وخطوب على طول الحقب والأجيال.. تاريخ طويل، وسجلّ حافل، وأيام لا تنسى من خَلَدِ الدهر، ومن عَقْل العصور.

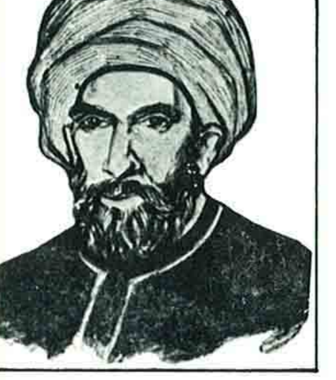
وكيف ننسى تاريخاً صنعناه بالدماء والشهداء؛ وبالتضحيات والبطولات.. وصنعه الله لهذا الشرق الإسلامي الذي حمل الراية، ورفع اللواء، وبلّغ الرسالة، ونشر الثقافة والحضارة في العالم، على امتداد هذه القرون الأربعة عشر.

إن ذاكرة الإنسانية لم تنس ولن تنسى **حقوق الإنسان** التي كفلها ورعاها الإسلام، والتي أقرها المسلمون في أوطانهم ودولهم طيلة أمد طويل، كان مخضباً بالدماء، وبالحروب، وبالاضطهاد، وبالاستعباد، وبأمثال محاكم التفتيش، وبما هو أسوأ من محاكم التفتيش.

وإن راية **الحرية والإخاء والمساواة** التي رفعها **محمد صلى الله عليه وسلم** وأصحابه لم تُنكس أبداً في ظلال حضارات الإسلام العظيمة، التي أضاءت الشرق والغرب، والتي بنت للإنسان وللإنسانية صروح الرفاهية والرخاء والسلام والطمأنينة والعدالة على مرور الأيام والأحقاب.



★ صلاح الدين الأيوبي ★



★ ابن طفيل ★

لنسأل **مكة والمدينة**، ولنسأل **دمشق والفسطاط والقاهرة**، ولنسأل **القيروان وفاس وقرطبة وإشبيلية**؛ ولنعد بالسؤال مرة أخرى إلى **بغداد وجرجان وأصفهان وشيراز**، وإلى **سمرقند وبخارى**، وإلى مختلف العواصم الإسلامية في كل مكان من الوطن الإسلامي الكبير: عما قدمت للبشرية من علماء وكشوف علمية ومؤلفات ونظريات وأفكار، وعما كان فيها من جامعات ومعاهد ومدارس ودور كتب ومراكز آداب وفنون؛ وعمن نبغ فيها من شعراء وأدباء وكتّاب ومفكرين وفلاسفة وفقهاء ومؤرخين ونقاد ومشرعين وقواد وغير ذلك..

ولنراجع ذاكرة التاريخ لتحصي لنا ما كان في المدن الإسلامية من متاحف وكنوز وآثار ومخطوطات؛ مما لم ير التاريخ له مثيلاً في شعب من الشعوب، ولا في مجموعة من مجموعات الأمم المتحضرة..

وعندما نستعرض تاريخنا لا بد أن نتساءل: هل جاد الزمان بمثل **أبي بكر وعمر وأبي عبيدة وعلي وعمرو بن العاص**؟.. وهل جاد بمثل **الرشيد والمأمون وصلاح الدين والمعز لدين الله**

بقلم : د . محمد عبد المنعم خفاجي

الطريق



★ هارون الرشيد ★



★ المتنبي ★

وسليمان القانوني ؟ . . أو بمثل **خالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص وبيبرس والملك المظفر قطز** ؟ . . وهل جاد بمثل **مالك والشافعي وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل** ؟ . . أو بمثل : **الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد وابن طفيل والغزالي** وسواهم .

وحدّث عن آلاف الأعلام الذين اشتركوا في بناء صروح التقدم والمعرفة والمدنية في العالم على مدى عصور طويلة .

يقول فلبي : « **إنه عند مفترق عصرين : عصر تعطلت فيه العلوم والفنون ، فغشى الدنيا كلها ظلام وجهل ؛ وعصر تألق فيه نجم المعرفة بعد كسوف طويل ، سوف ندرك مدى النهضة الفكرية الشاملة ، التي عاشها المسلمون ، وكانت بشيراً بحضارة إنسانية رفيعة ، تمثلت في تنقيب العلماء عن كنوز الماضي الدفينة ، حتى أصبحت علوم الإغريق بعد احتباسها في متناول العالم ، بعد أن نقل علماء المسلمين كتب الفلاسفة وعلماء الفلك والطب والنبات من الإغريقية إلى** العربية »[1] .

ولا ننسى أن الورق قد بدئ بإنتاجه في **سمرقند** ، **حيث أخذه المسلمون عن الصين** ، ومن **سمرقند** انتشر في بقية الأقاليم الإسلامية[2] .

وآثار حضارة **الدولة السامانية** (٢٦٢ ـ ٣٨٩ هـ : ٨٧٤ ـ ٩٩٩ م) في بخارى وسمرقند ؛ وكذلك آثار **الدولة الغزنوية** (٣٨٨ ـ ٥٨٢ هـ : ٩٩٨ ـ ١١٨٦ م) ما تزال ماثلة في متاحف العالم ، ومنها **متحف اللوفر بباريس** .

وحدّث عن النهضة الفكرية والأدبية في ظلال **دولة الحمدانيين** في حلب والشام (٢٩٣ ـ ٣٨٠ هـ : ٩٠٥ ـ ٩٩٠ م) على الرغم من المعارك الطاحنة التي دارت بينها وبين **الإمبراطورية البيزنطية** في ثغور الجزيرة وهذه الثغور كلها من الشام ، وكيف ننسى **المتنبي والفارابي وأبا فراس وابن خالويه والسلامي والوأواء الدمشقي والنامي والرفاء وابن نباته السعدي والصنوبري والخالديين** وسواهم ؛ وكان **سيف الدولة** يحيط نفسه بالشعراء ، ويقرب إليه الفلاسفة والعلماء ، وكان قصره في حلب يحفل بندوات الأدب والشعر ، وفي عهده كانت حلب تضارع بغداد منزلة ومجداً ؛ وقد كان سيف الدولة رائد العروبة في عصره ، وحامي حمى الإسلام ، وقاهر الروم البيزنطيين ، وقد وفد إليه العلماء من أمثال **أبي الفرج الأصفهاني** (ـ ٣٥٦ هـ) صاحب كتاب « **الأغاني** » المشهور ، وقد أهدى إلى سيف الدولة نسخة منه ، فأعطاه ألف دينار واعتذر إليه[3] ، ويقول **الثعالبي** في كتابه « **يتيمة الدهر** » ، إن عاصمة سيف الدولة ـ حلب ـ كانت مقصد الوفود ، ومطلع الجود ، وقبلة الآمال ، ومحط الرحال ، وموسم الأدباء ، وحلبة الشعراء ، ولم يجتمع بباب أحد الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ، ونجوم الدهر[4] .

وماذا عن **الفاطميين** في مصر وحضارتهم الزاهية فيها ؟ (٣٥٨ ـ ٥٦٧ هـ : ٩٦٨ ـ ١١٧١ م) ، وهم بناة **الأزهر** والآثار والمساجد الفاطمية الكبيرة الباقية على مدى الأيام .

وحدّث عن الجامعات الإسلامية القديمة التليدة ولا حرج : **الفسطاط ـ الأزهر ـ القرويين ـ الزيتونة ـ النظامية ـ** وسواها . . ولا يزال شيخها جميعاً وهو الأزهر باقياً ، وكذلك القرويون ، والزيتونة ؛ وكذلك **المستنصرية** في بغداد .

وهل ننسى جامعة الفسطاط ، الجامعة الأم ، التي قامت في مصر الإسلامية ، بعد الفتح الإسلامي مباشرة ، على يدي **عمرو بن العاص** أمير الفتح وأمير مصر آنذاك (توفي عام ٤٣ هـ ـ ٦٦٣ م) .

ـ ٢ ـ

وقد صاحب مسيرة التاريخ الإسلامي نشوء المذاهب الفقهية على يدي الأئمة الأربعة : أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل ؛ وجمع الأحاديث النبوية في الكتب

الصحاح المشهورة ، وفي كتب المسانيد الموثقة ، وظهور أعلام المحدثين ؛ وفي مقدمتهم : **الإمام البخاري** (١٩٤ ـ ٢٥٦ هـ : ٧٧٠ ـ ٩٦٦م) **ومسلم** (١٩٦ ـ ٢٦١ هـ : ٨١١ ـ ٨٧٤م) ، وسواهما .

وكان الإمام **أحمد بن حنبل** (١٦٤ ـ ٢٤١ هـ : ٧٨١ ـ ٨٥٥م) يعد من أئمة الفقهاء ومن أعلام المحدثين ، وكتابه « **مسند أحمد** » مشهور ومطبوع ؛ وكان من أكثر الناس دراية بكتاب الله ، وأوسعهم إحاطة بمعانيه ، وأعمقهم فهماً لأحكامه ؛ إلى تعمقه في الثقافة الإسلامية والعربية والأدبية .

وعلى يدي **الإمام أحمد** وعلى فقهه واجتهاده تخرجت أجيال من العلماء خدموا الإسلام والمسلمين في كل عصر وكل جيل ، وفي مقدمتهم : **أحمد تقي الدين بن تيمية** (٦٦١ ـ ٧٢٨هـ : ١٢٦٣ ـ ١٣٢٨م) ، **ومحمد بن قيم الجوزية** (٦٩١ ـ ٧٥١هـ : ١٢٩٢ ـ ١٣٥٠م) تلميذ الإمام ابن تيمية ، بل هو من ألمع تلاميذه ، والوارث لتراثه العلمي البليغ ؛ وعلى سننهم فيما بعد سار الإمام الشيخ **محمد بن عبد الوهاب** (١١١٥ ـ ١٢٠٦هـ : ١٧٠٣ ـ ١٧٩٢م) ، رائد الدعوة الإصلاحية السلفية وإمامها في العصور الأخيرة . ودعوته كانت « **الصرخة** المدوية ، والصيحة القوية ، التي نبهت الأمة من رقدتها ، ووجهت الأفكار إلى البحث ومناقشة الآراء وقرع الحجة بالحجة »[٥] .

- ٣ -

وقد كانت **محنة الحروب الصليبية** التي امتدت طويلاً ، وأنهكت العالم الإسلامي ، من أسباب وقوف نمو الحضارة الإسلامية ، وجمود حركة العلوم والآداب والفنون طيلة القرن السادس ، بل كانت سبباً من أسباب انتهاء دول إسلامية كبيرة ، وظهور دول أخرى حلّت محلها في حكم الرقعة الطويلة الممتدة في العالم الإسلامي .

وكان انتصار **صلاح الدين الأيوبي** على الصليبيين في معركة « **حطين** » المشهورة (٢٣ من ربيع الآخر ٥٨٣هـ ـ ٣ يوليو (تموز) ١١٨٧م) ، وهزيمة الصليبيين أمامه هذه الهزيمة الساحقة المدوية ، واستيلاء صلاح الدين على **بيت المقدس** إثر ذلك (في ٢٧ من رجب عام ٥٨٣هـ ـ ٣ من أكتوبر (تشرين الأول) ١١٨٧م) ؛ من أحداث التاريخ الإسلامي الكبرى ، التي هزت الشعوب الإسلامية هزاً عنيفاً ، من أقصى أطراف العالم الإسلامي إلى أقصاه ؛ وكان ظهور **صلاح الدين** من أهم معالم التاريخ في القرن السادس الهجري ، بل في جميع القرون ؛ ومع تفرغه للدفاع عن الشرق الإسلامي ، ولمقاومة الغزو الصليبي ودحره ، كان محباً للعلم والعلماء ، أنشأ المدارس والجامعات ، وشجع العلماء والطلاب ، ويقول **السيوطي** عنه : إنه رحل إلى الإسكندرية بولديه **الأفضل والعزيز** لسماع الحديث من الإمام السلفي[٦] ، ولم يعهد ذلك من ملك إلا **هارون الرشيد** ، فإنه رحل بولديه **الأمين والمأمون** إلى الإمام **مالك** لسماع كتابه « **الموطأ** » منه[٧] .

وحاقت بالمسلمين محنة أخرى هي **الغزو المغولي** للعالم الإسلامي ، وتدميرهم لبغداد ، وقضاؤهم على الخلافة العباسية عام ٦٥٦هـ ـ ١٢٥٨م ، بقيادة **هولاكو المغولي** شقيق إمبراطور الدولة المغولية **مانجوخان** في شرق آسيا[٨] ، ولقد اجتاح المغول العالم الإسلامي وطوّقوه تطويقاً كاملاً ، ودمروا مراكز الثقافة والحضارة في ربوعه ، ولم يقفوا عند بغداد ، بل زحفوا غربها إلى الشام وفلسطين ، قاصدين مصر لغزوها . وفي « **عين جالوت** » من أرض فلسطين دارت المعركة الرهيبة بين السلطان **الملك المظفر قطز** وبين جيش المغوليين وذلك في ٢٥ من رمضان عام ٦٥٨هـ ـ ٤ من سبتمبر (أيلول) عام ١٢٦٠م ، وانتهت المعركة بالنصر العظيم **للملك قطز** وجيشه الباسل الذي كان يقوده القائد المشهور **بيبرس** .

وبعد هذا النصر العظيم انتقلت الخلافة العباسية إلى مصر ، وحملت راية الدفاع عن العالم الإسلامي طيلة عصر المماليك .

وقد كان هذا النصر سبباً من أسباب عودة الثقة والأمان والطمأنينة إلى العالم الإسلامي ، وإقباله من جديد ومرة أخرى على العمل من أجل بناء الحضارة وتعمير البلاد من آثار التدمير المغولي .

ومن الأحداث الكبرى في تاريخ الإسلام أن إمبراطور المغول **غازان خان** أعلن إسلامه في الرابع من شعبان عام ٦٩٤هـ ـ ١٨ من يونيو (حزيران) عام ١٢٩٥م ، وبذلك آثر اعتناق الإسلام ، ودخل جميع رجال دولته في الدين الجديد ، وبذلك عاد المغول إلى التكفير عن ذنوبهم وخطيئاتهم التي ارتكبوها في كل مكان في أنحاء العالم الإسلامي .

وفي يوم الجمعة ١٥ من جمادى الآخرة عام ٦٩٠هـ ـ ١٥ من يونيو (حزيران) عام ١٢٩١م ، تحررت أرض فلسطين من الاستعمار الصليبي الأوروبي ، وعادت أرض فلسطين لأهلها من العرب بعد استعمار صليبي طويل للأرض المقدسة ، دام نحو قرنين من الزمان .

ومرت الأيام ، وكان فتح القسطنطينية على يدي **محمد الفاتح العثماني** عام ٨٥٧هـ ـ ١٤٥٣م ، من أهم أحداث التاريخ الإسلامي بل العالمي كله ، وكان من نتائج فتح القسطنطينية آنذاك انتشار النفوذ الإسلامي في شرقي أوروبا ، وخضوع كثير من الشعوب الأوروبية لحكم العثمانيين .

وقد مني العالم الإسلامي مرة أخرى بنكبة هزت أعماق كيانه وهي سقوط **غرناطة** ، وضياع **الأندلس** من أيدي المسلمين ، وذلك عام ٨٩٧هـ ـ ١٤٩٢م .

وكان فتح الأتراك العثمانيين لمصر ، ودخولهم القاهرة ، يوم الاثنين الثالث من المحرم عام ٩٢٣هـ ـ ٢٦ من يناير (كانون الثاني) عام ١٥١٧م ، ونقلهم الخلافة العباسية وكنوز **مصر** وآثارها وتراثها إلى **القسطنطينية** من أهم أحداث التاريخ الإسلامي الكبير .

ومن أهم معالم تاريخنا[٩] ظهور **الدولة السعودية** في الجزيرة العربية ، وظهور **الدولة السنوسية** في ليبيا ، وظهور **المهدي** في

السودان ، وظهور **محمد علي** وأسرته في مصر .

- ٤ -

ولقد دمر الاستعمار الأوروبي العالم الإسلامي تدميراً شديداً ، حيث قضى على معظم كنوزه وذخائره ومتاحفه ودور كتبه ، وقضى على الحركة العلمية والأدبية وعلى الثروات فيه ، وجعل الناس يعيشون في فقر مدقع ، وحارب الدين واللغة العربية حرباً شعواء ، ونشر دعوات التبشير في كل مكان ، كما نشر المدارس الأجنبية ومدارس الإرساليات التبشيرية في ربوعه .

واستنفد الجهاد من أجل تحرير الوطن الإسلامي من نير الاستعمار الغربي جهداً ووقتاً طويلاً ، واستلزم تضحيات هائلة لا نهاية لحدودها .

وقامت **دولة باكستان** ، ولكن أيدي الاستعمار فصلت عنها دولة سموها دولة البنغال ؛ وحارب التبشير والاستعمار الأقليات المسلمة في كل مكان ، وهاجمت الشيوعية العالمية العالم الإسلامي مهاجمة حاقدة ، ولا زالت تعيث في ربوعه وأراضيه فساداً حتى اليوم .

- ٥ -

ماذا نصنع ـ نحن المسلمين ـ ونحن على أبواب القرن الخامس عشر الهجري ؟

لا ريب أن العالم الإسلامي لا بد له من أن يوحد صفوفه ، ويجمع شمله ، ويرأب الصدع الذي لحق به .

ثم عليه أن يحافظ على تراثه وأصول نهضته ومقومات روحه ، وعلى أصالته بصفة خاصة .

وأهم واجب على المسلمين أن يتحرروا من استعباد المبادئ الهدامة لهم من إلحادية وشيوعية وعلمانية وغيرها .

ثم عليهم أن يسعوا بكل جهدهم وطاقاتهم للحاق بركب الحياة المعاصرة في العلوم والتكنولوجيا الحديثة وفي كل جانب من جوانب الحياة .

وعلى الجامعات الإسلامية أن تتعاون فيما بينها من أجل الدعوة إلى الإسلام ، ومن أجل محاربة التخلف والجهل والإلحاد في صفوف المسلمين .

ولا بد للعالم الإسلامي من العناية بمخطوطات كتب التراث والعمل على نشرها وتحقيقها .

وعليه أن يحارب البدع والخرافات والأوهام والتخلف بكل ما يستطيع ، مع الاهتمام الأكبر بجوهر العقيدة وتصحيحها في أذهان الناس .

والتكامل الاقتصادي والثقافي بين دول العالم الإسلامي ضرورة ملحة يقتضيها العصر والحاجة إلى القوة ، وإلى دفع الهجوم المستمر الذي تتعرض له الشعوب الإسلامية من أعدائها المتنمرين المتكالبين عليها وعلى كنوزها وخيرات بلادها .

ولا بد للعالم الإسلامي من تطبيق الشريعة الإسلامية تطبيقاً كاملاً وسريعاً وشاملاً لا هوادة فيه ، فالحكم بما أنزل الله ضرورة دينية واجتماعية وسياسية في وقت واحد ؛ وقيام المجتمعات الإسلامية على الأخلاق والفضيلة هو أمثل الطرق لتكوين الجماعات الدولية .

وأهم واجب على العالم الإسلامي الإيمان بالعدالة في كل شيء وإلزام كل المسلمين بها حكاماً ومحكومين ، والفصل في كل أمر كبير أو صغير وفق قوانين العدالة الحتمية الإلهية التامة .

ومن الضروري أن يكون نظام الاقتصاد في العالم الإسلامي موحداً وسائراً وفق النظام الاقتصادي الإسلامي ، حتى تعتدل الموازين ، وتستقيم الأمور ، ويتحقق الإصلاح الشامل .

وعندئذ سيصبح للمسلمين كيان ، وسيصير لهم شوكة وقوة ، وسيحترمهم العالم كله ، ما داموا ملتزمين بمبادئ الإسلام وإنسانيته وقيمه وفضائله وأصالته وطهره وتوحيده .

إن العالم الإسلامي هو القوة الجديدة التي يجب أن تظهر على مسرح الحياة الدولية ، والتي يجب أن تتسلح بالإيمان والأخلاق والفضائل ، وبالعلم والمعرفة الذين لا حد لهما .

وما دام المسلمون ينصرون الله ، فالله ناصرهم ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ .

الهوامش

(١) كتاب هارون الرشيد ، تأليف جون فيلبي ، ص ٦٠ ، بالإنكليزية .

(٢) ص ٢١ ، كتاب الفنون الإيرانية ، د . زكي محمد حسن .

(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان ، ص ٤٧٥ ، من الجزء الأول .

(٤) راجع ترجمة الثعالبي لسيف الدولة في الجزء الأول من (يتيمة الدهر) لأبي منصور الثعالبي .

(٥) ٢٠٢ قادة الفكر الإسلامي ، عبدالله بن سعد الرويشد ، نشر مكتبة عيسى الحلبي ، القاهرة .

(٦) من أشهر أعلام العلماء في العصر الفاطمي والأيوبي ، توفي عام ٥٧٦ هـ ، في الإسكندرية عن أكثر من مائة عام (راجع ٢/٧٣ قصة الأدب في مصر) .

(٧) راجع كتاب السيوطي « حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة » ، وكتابه الآخر « تاريخ الخلفاء » .

(٨) كانت عاصمتهم هي قره قوروم في شمال الصين . ويلاحظ أن فتح بغداد كلف الخلافة العباسية قتل مليون وثمانمائة ألف نفس في تقدير الذهبي في كتابه « دول الإسلام » ، أو ثمانمائة ألف نفس فقط في تقدير ابن الفوطي المؤرخ العراقي . ويروي ابن العماد الحنبلي أن القتل والسبي استمرا في بغداد أربعين يوماً (شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد) .

(٩) من أهم الدول الإسلامية التي قامت في الشمال الإفريقي : دولة المرابطين ـ دولة الصنهاجيين ـ دولة المرينيين ـ الأغالبة ـ الأدارسة ـ السعديين ـ الموحدين ـ الحفصيين ـ العلويين أو الفلاليين ـ الدولة الطولونية والأخشيدية والفاطمية والأيوبية والمماليك في مصر ـ ثم جاء الحكم العثماني لمصر ، وفي نهايته ظهر محمد علي .

"إن الفلسفة العربية لم تنجب عقلاً مبتكراً كعقل الغزالي"
" إرنست رنيان"

الغزالي وفلسفته

بقلم : جلال العشري

في مهرجان أبي حامد ، والعالم الأدبي يحتفل بذكراه ، يحلو لنا أن نبعث بتحية التقدير والإعجاب إلى ذلك الفيلسوف الصوفي الكبير الذي ارتفع بآرائه وتعاليمه إلى آفاق لم تشارفها جمهرة الفلاسفة والمتصوفة إن في الشرق أو في الغرب في القديم أو في الحديث حتى غدا مفكر العربية ، بل مفكر الإنسانية الجدير بأن يحتفل اليوم بذكراه .

ولو أننا حاولنا أن نرسم صورة **لأبي حامد الغزالي** ، لاستطعنا أن نراه في العقل الروحاني الملهم الذي لم تخدعه ألوف الظواهر عما يكمن وراءها من لباب ، ولا شغله وهم الزمان عن الارتفاع إلى العالم الأبدي ، ولا منعه وهج المادة البراق من الحنين الدائم إلى إدراك المطلق ومعرفة الله .

ولكي نقدر هذه الصورة حق قدرها لابد لنا أن نضعها في الإطار الخاص بها ، ذلك الإطار الذي صنعته حياة الرجل وآراؤه . **فالغزالي من أولئك الفلاسفة الذين تتصل حياتهم بفلسفتهم أشد الاتصال ، فلا يمكن أن نفهم فلسفتهم بمعزل عن حياتهم لأنهم يحققون في هذه الحياة نفس الفلسفة ، أو لأن نفس الفلسفة مستخلصة من هذه الحياة .** وحينما يتصدى الباحث لأمثال هؤلاء يجب عليه أن يعنى بظواهر حياتهم الرئيسية عساه أن يتبين المنحنى الذي سار عليه تطورهم الروحي . وأوضح مثال لهذا النوع من الفلاسفة **سقراط** في العصر القديم ، **وأغسطين** في العهد الوسيط ، **وكيركجارد** في العهد الحديث . فضلاً عن الغزالي الذي عاش طوال حياته عقلاً صاحياً يهيم في عالم الفكر ، وروحاً معذباً يحلق في سماء الدين ، فلم يستمتع بما في حياة سائر الناس من تجانس وتكرار وابتذال ، بل تحرر من أسرار الطبيعة ، وتخلص من قسر المجتمع ، واتخذ من تجاربه النفسية العميقة وأزماته الوجدانية الحادة مادة لتأملاته الفلسفية .

وهو يقص علينا ترجمة حياته الروحية في كتابه « **المنقذ من الضلال** » تلك الرسالة الصغيرة والجليلة معاً ، المليئة بالعبارات اللطيفة المتناقلة ، والتي تمثل اعترافات الغزالي الفلسفية من ناحية ، وتقابلها من ناحية أخرى في العالم الغربي رسالة **الفيلسوف الفرنسي ديكارت** « المقال في المنهج » وفرق كبير بين الاعترافات الفلسفية كما نجدها في « المنقذ » أو في « المقال » وبين الاعترافات الأدبية كما نجدها عند « **روسو** » أو « **تولستوي** » ، فالنوع الثاني من الاعترافات يكاد يكون خاصاً بحيث



★ الفارابي ★

يهم صاحبه أكثر مما يهم فرداً آخر سواه ، وإن اهتم به الآخرون فلما فيه من متعة وجمال عمادهما روعة العرض وصدق الانفعال . وذلك بعكس النوع الآخر من الاعترافات الذي يعنى بأمور تهم صاحبها بقدر ما تهم الناس لأنهم يقرؤون فيها مشكلاتهم . تلك المشكلات التي تتعلق بالوجود والله والإنسان ، والتي استطاع الفيلسوف أن يرتفع بها من الجزئي الخاص إلى الكلي العام ، وأن يعرضها عرضاً يلقي بها الضوء على الضمير الإنساني كله .

ونعود إلى الغزالي فنجده يقول في مطلع كتابه هذا : «كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبي وديدني من أول أمري وريعان عمري ، غريزة وفطرة من الله وضعتا في جبلتي لا باختياري وحيلتي حتى انحلت عني رابطة التقليد ، وانكسرت على العقائد الموروثة على قرب عهد سن الصبا» .

ثم حدثنا الغزالي عما عاناه في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق . . علماً استفاده أولا من **علم الكلام** ، وما اجتواه ثانياً من طرق أهل التعليم ، وما ازدراه ثالثاً من طرق التفلسف ، وما ارتضاه آخراً من طريقة التصوف . كما حدثنا عن الستة أشهر التي قضاها مريضاً يعاني آلام الشك ، حزيناً يقاسي مرارة الضياع ، حتى هتف به هاتف باطني أعاد إليه يقين الحقيقة العقلية ، وكشف له بهاء الحرية الروحية ، ومكنه من معرفة الله ، وكان هذا الهاتف هو النور الذي زرعه الله تعالى في قلبه ودعاه «إلى التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود» .

وكان عصر الغزالي عصر انحلال ديني وخلقي وعصر ضياع ، فأراد أن يأخذ على عاتقه عبء الإصلاح ، وبينما كان **الصليبيون** يتأهبون في الغرب لمهاجمة الإسلام ، كان الغزالي يتهيأ لأن يكون مناضلاً روحياً عن الدين الإسلامي ، وكما قدر **للفردوسي** أن يكون شاعر الفرس العظيم ، قدر لمواطنه الغزالي أن يكون عند جميع المسلمين «حجة الإسلام» .

والفلسفة الغزالية مبسوطة في ثلاثة كتب مشهورة نال بها الغزالي مكانة ومكانته في تاريخ الفكر الإنساني .

● أولها كتاب : «**تهافت الفلاسفة**» ، أي نقد المعرفة الإنسانية ويمثل القطب السالب في فلسفته .

● والثاني كتاب : «**إحياء علوم الدين**» ، وفيه نظريته في المعرفة .

● والأخير : «**كيمياء السعادة**» ، وفيه نظريته في الأخلاق .

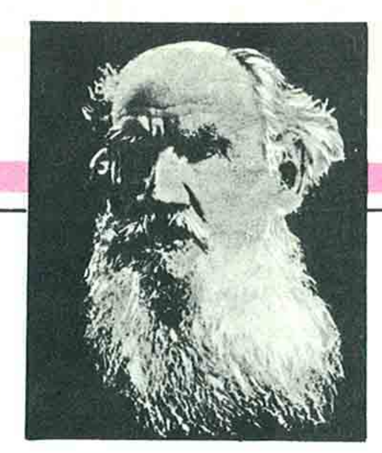
والركيزة المحورية التي تدور عليها آراء الغزالي هي نقده لمبدأ السببية ، ذلك النقد العبقري الذي ارتكز عليه في مهاجمة الفلاسفة الإسلاميين ، واثبات تهافتهم في ثلاث مسائل هي قولهم بأن العالم قديم ، وأن الله يعلم الكليات ولا يعنى بالجزئيات ، ثم انكارهم بعث الأجساد . وهو يناقش نظريات الفلسفة بمنطق الفلاسفة أنفسهم ، فيثبت قصورهم ويعلو عليهم ويفهم ما فاتهم أن يفهموه .

وقد ناقش الغزالي مسألة السببية ، فاستبعد أن يكون التتابع المشاهد في الوجود بين الأسباب والمسببات دليلاً على الضرورة التي يستلزم فيها وجود السبب ايجاد المسبب ، فالأشياء عنده مستقل بعضها عن بعض بحيث إن إثبات أحدها أو نفيه لا يتضمن إثبات أو نفي الآخر . والأسباب عنده مقارنات تجري بها العادة دون أن يكون في اقترانها دليل على أن السابق منها ينشئ اللاحق ، وإنما السبب هو الذي يحصل عنده المسبب ولا يلزم عقلاً أن يحصل به . أو كما قال في كتابه «تهافت الفلاسفة» :

« إن الاقتران بين ما يعتقد في العادة سبباً وما يعتقد مسبباً ليس ضرورياً عندنا . بل كل شيئين ليس هذا ذاك ولا ذاك هذا ، ولا اثبات أحدهما متضمن لإثبات الآخر ولا نفيه متضمن لنفي الآخر . فليس من ضرورة وجود أحدهما وجود الآخر ولا من ضرورة عدم أحدهما عدم الآخر ، وليس للفلاسفة من دليل على قولهم إلا مشاهدة حصول الاحتراق عند ملاقاة النار ، والمشاهدة تدل على الحصول عنده ولا تدل على الحصول به » .

وبذلك أحدث الغزالي ثورة في تاريخ الفلسفة لا تقل في عنفها وخطر نتائجها عن تلك الثورة التي أحدثها **كوبرنيكس** في علم الفلك ، **وكانط** في نظرية المعرفة ، إلا أنها ثورة لم يدرك الفكر الإسلامي أهميتها حتى الآن .

وفي موقف الغزالي هذا معارضة صارخة لمذهب **أرسطو** ، كما أخذ به **الفارابي وابن سينا** وغيرهما ممن جاء كلامهم تعبيراً عن الروح اليوناني أكثر من تعبيره عن روح الإسلام . فالجو الإسلامي المشبع بالتصور الديني ، القائل بإمكان وقوع المعجزة وأن الفاعل الحقيقي لكل شيء هو الله ، لا يمكنه أن يتقبل قانون السببية الذي يؤدي قبوله إلى عدم تصديق معجزات الأنبياء ، وإلى القول باستحالة الخلق من لا شيء ، وإلى اعتبار الله «محركاً لا يتحرك» ومفكراً لا يفكر إلا في نفسه ، ولا يعرف شيئاً عن وجود الإنسان . فأرسطو مثل **سبينوزا** يعتقد أنه بينما يتحتم على





★ تولستوي ★

★ سقراط ★

الناس أن يحبوا الله ، يستحيل على الله أن يحب الناس .

أما الغزالي فهو مدين بالجانب الأكبر من نقده إلى ما استوحاه من **القرآن الكريم** ، بحيث نرى المتكلمين من قبله **كأبي بكر الباقلاني** صاحب « إعجاز القرآن » ، ومن بعده **كعضد الدين الايجي** صاحب « المواقف » ، يميلون جميعاً إلى القول بهذا الرأي . **ومن الطريف أن هذا الرأي قال به الغزالي في القرن الحادي عشر للميلاد هو نفسه الرأي الذي قال به دافيد هيوم** بعد ذلك بحوالي ستة قرون . وسواء اطلع هيوم على كلام الغزالي أو لم يطلع عليه ، فمما لا شك فيه أن الغزالي كان أسبق ، وأن هيوم كما قال عنه **المستشرق الفرنسي رينان :** « لم يقل شيئاً أكثر مما قاله الغزالي » . . فالسببية عند هيوم معناها التتابع الملحوظ بين حادثتين أو مجموعتين من الحوادث ، تتابعاً يسمح لنا أن نتوقع حدوث المجموعة التالية إذا حدثت المجموعة الأولى ، دون أن يكون في المجموعة الأولى التي يقال لها « سبب » ما يحتم بالضرورة أن تصدر عنها المجموعة الثانية والتي يقال لها « مسبب » . فنحن في حدود مدركاتنا الحسية لا نشاهد ما بين الأحداث من ضرورة وإنما نشاهد ما بينها من تتابع . وليس لنا بأي حال من الأحوال أن نتجاوز حدود المدرك الحسي لاستطلاع ما وراءه من علاقة ضرورية تربط ما بين السابق واللاحق . وبذلك استطاع هيوم أن يضع الأساس الأول للتفكير العلمي المعاصر ، والذي يجعل العلم قاصراً على الوصف دون أن يتجاوزه إلى التفسير .

وجاء العلم الحديث مؤيداً لما ذهب إليه الغزالي ، **فالنظرية التموجية** كما قال بها « **دي بروي** » ، زعزعت مبدأ الحتمية العلمية وقضت على فكرة الضرورة في قوانين الطبيعة ، ونظرية « **الكم** » كما قال بها « **ماكس بلانك** » أثبتت أن الذرات تبعث الطاقة فيما يشبه القفزات ، بحيث لا يمكن تحديد النسبة بين الطاقة وبين تتابع الاشعاع ، ونظرية اللاتعين ، كما قال بها « **هيزنبرج** » قضت على مفهوم اليقين العلمي ، وأثبتت أن قوانين الطبيعة إحصائية أو احتمالية وليس إملائية أو يقينية ، أي أن حدوث الظواهر أصبح مجرد احتمال في نظر العلم .

وفي هذا كله ابتعاد عن مفهوم السببية بالمعنى الشائع فيما قبل الغزالي ، واقتراب من المفهوم الذي قال به الغزالي لأول مرة في تاريخ الفكر والفلسفة ، على أن الغزالي لم يكن يقصد بكتابه « تهافت الفلاسفة » مجرد نقد الفلسفة أو تجريح الفلاسفة ، وإنما هو أراد أن يثبت قصور العقل الإنساني عن الوصول إلى الحقيقة المطلقة من ناحية ، كما أراد أن يكشف من ناحية أخرى عن طريق أقدر على بلوغ المعرفة وتحقيق السعادة ، وذلك هو طريق القلب الذي يصطنعه المتصوفة .

وقد استطاع الغزالي بما له من حرارة الإيمان وبراعة الأسلوب وقوة الحجة أن يجعل من التصوف علماً إلى جانب ما فيه من عمل ، وأن يتسامى به إلى منهج ذوقي يوصل إلى المعرفة ، وطريق روحي يساعد على تحقيق السعادة .

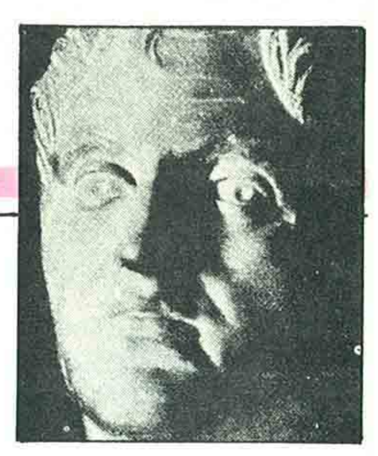
أما كيف وفق الغزالي في حركته هذه ، فهذا ما يقودنا إلى القطب الموجب في مذهبه ، أعني نظريته في المعرفة التي أودعها كتابه « إحياء علوم الدين » . فعند الغزالي أن أفراد الإنسان ليسوا سواء في القدرة على تحصيل المعرفة وبالتالي ليسوا سواء فيما ينبغي عليهم أن يعرفوه . فهناك للإيمان أو لليقين مراتب ثلاث :

●● **أولها** : إيمان العوام المستند إلى الخبر ، وهؤلاء لم يخلصوا بعد من قيود الحس ، ولهذا يجب عليهم أن يكتفوا بالقرآن والحديث ، وألا يتجاوزوا نصوص الكتاب والسنَّة إلى الفلسفة ، لأن النظر العقلي في أمور الدين ، كما يقول الغزالي ، يشبه خوض البحر ، ولا يجوز لمن لا يعرف السباحة أن يقترب من مزالق الشطوط .

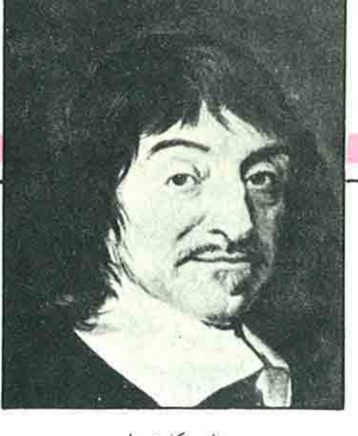
●● **وثانيها** : إيمان العلماء الذي يصلون إليه بالاستنباط ، وهؤلاء كمن يلقون بأنفسهم في البحر كي يتعلموا السباحة ، ولكنهم قد يقعون في الشك والكفر ، لهذا يجب عليهم ألا يتجاوزوا علم الكلام وما كتب في الرد على الفلاسفة .

●● **أما المرتبة الثالثة** : فهي إيمان العارفين وهؤلاء لا يقفون عند ظاهر النص ولا يكتفون بمنطق العقل ، بل يرتفعون إلى نوع آخر من العلم يزرعه الله في القلب فيشهدون الحق بنور اليقين . وهذه هي معرفة الصوفية التي تقوم على أساس من الذوق الروحي ، والكشف الإلهي ، وتحصل للواحد منهم إذا هو « قطع علاقة القلوب عن الدنيا . بالتجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى » . ولقد بلغ الغزالي نفسه هذه المرتبة ، ولكنه لما بلغها قال :

فكان ما كان مما لست أذكره
فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر



★ أرسطو ★



★ ديكارت ★

وفرق كبير بين التصوف الذي يقتصر على الرياضة والمجاهدة بقصد تقويم السلوك وتهذيب الأخلاق ، والتصوف الذي يتجه إلى البحث في مشكلات الطبيعة وما بعد الطبيعة ، ويعتمد على الحساسية النفسية ، واليقظة الفكرية ، والإلهام الروحي .

وشبه كبير بين ما ذهب إليه الغزالي وما يذهب إليه الفيلسوف الفرنسي المعاصر **هنري برجسون** في تفرقته المشهورة بين « **الأخلاق المغلقة** » و « **الأخلاق المفتوحة** » ، فالأولى بيولوجية تتخذ مادتها من الإنسان الأدنى ، وتخضع للضرورة الاجتماعية ، وتقوم على القسر الاجتماعي ، بينما الأخلاق الثانية روحية تعلو على مستوى العقل ، وتتجه نحو الحياة الصاعدة ، وتتخذ مادتها من الأبطال والمصلحين . وهؤلاء عند برجسون لديهم قدرات خاصة على الإحساس بانفعالات جديدة ، لأنهم يتصلون بالمصدر الأصلي للحياة الذي تصدر عنه شتى ضروب الإبداع ، ونحن نستجيب لنداء البطل لأنه لا يخاطب فينا العقل بقدر ما يحرك الوجدان ، ولا يدفعنا من الخلف بقدر ما يجذبنا من الأمام وكذلك المصلح ، وكذلك الغزالي .

ولا يقف الغزالي عند مجرد وضع نظرية في المعرفة ، بل هو يقيم عليها نظرية في الأخلاق حتى يكتمل له النسق المذهبي ، فالحياة النظرية أو المعرفة لا تستقيم حتى تكملها الحياة العملية أو الأخلاق . ولقد أودع الغزالي نظريته الأخلاقية كتابه «كيمياء السعادة» الذي ذهب فيه إلى أن **كل نوع من المعرفة له نوع من السعادة . وانتهى فيه إلى أن سعادة الإنسان إنما تكون في معرفة الله أكثر وأمتع مما تكون في معرفة أي شيء آخر** . فإذا كانت سعادة الحواس في مشاهدة المناظر الجميلة ، وسماع الأصوات الرخيمة ، وشم الروائح العطرة إلى آخر هذه الأمور .

وكانت سعادة العقل في دقة الاستدلال وقوة الخيال وتمييز الخطأ من الصواب ، فإن سعادة القلب في معرفة الله ، **ولا شك في أن السعادة التي تحصل عن معرفة الله أعظم من السعادة التي تحصل عن معرفة أي شيء آخر** ، إذ كلما كان موضوع المعرفة أجل وأشرف كانت المعرفة نفسها أدق والطف وكانت اللذة الحاصلة منها أقوى وأروع ، فعلى الإنسان إذن أن يسعى إلى معرفة الله ما دامت تلك هي أسمى مراتب السعادة .

وهكذا استطاع الغزالي أن يكون رجل عمل إلى جانب كونه رجل نظر ، **فأكمل الحياة النظرية بالحياة العملية ، وتوج المعرفة بالأخلاق** . ولذا عاد من طريق العزلة إلى دنيا العمل يعلم الناس سبيل الحق والإيمان . ونعود إلى ترجمته الروحية أو إلى « المنقذ من الضلال » فنراه يقول في خاتمة المطاف مفرقاً بين تعليمه قبل وبعد العزلة : « وأنا أبغي أن أصلح نفسي وغيري ، ولست أدري أأصل إلى مرادي أم أخترم دون غرضي ؟ ولكني أومن إيمان يقين ومشاهدة أنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » .

وهكذا نرى كيف أنه في عصر الغزالي كان العلم فاسداً لعدم قيامه على المنهج الصحيح ، وكيف كانت الأخلاق فاسدة لعدم وضعها على الأساس السليم ، وكيف كان النظر الديني فاسداً لعدم اتجاهه إلى الطريق القويم . ولهذا كله كان على الغزالي أن يضع فلسفة جديدة تبدأ من طريق مخالف للطريق الذي سار فيه الفلاسفة المشاؤون ، إذ كان عليه أن يبدأ لا من العقل بل من القلب لكي يصل إلى نفسه وإلى العالم وإلى الله .

والدعوة التي قام بها الغزالي في الإسلام شبيهة بتلك التي قام بها **كانط** في ألمانيا في القرن الثامن عشر ، عندما كشف كتابه « نقد العقل الخالص » عن قصور العقل الإنساني عن اثبات الحرية وخلود النفس ووجود الله . فقضى بذلك على المذهب العقلي الذي كاد يمحو العقيدة من الدين ، واليقين من المعرفة ، والمبادئ من الأخلاق .

وبعد . . فتلك صورة مصغرة لأبي حامد الغزالي ، إمام التصوف والفلسفة ، إلا أنها صورة نرى فيها كيف كان الغزالي فيلسوفاً يمتاز بملكة نادرة بين الفلاسفة ، هي ملكة النقد التي مكنته من وضع الأسس الأولى للنقد الفلسفي من ناحية ، والفلسفة النقدية من ناحية أخرى . وكيف كان صوفياً يتسامى بالتصوف إلى نظرية تؤدي إلى بلوغ المعرفة ، وطريقة تساعد على تحقيق السعادة .

وحسب الغزالي أن يقول عنه رينان : « **إن الفلسفة العربية لم تنجب عقلاً مبتكراً كعقل الغزالي** » ، وحسبه أيضاً أن يضعه **أويرمان** في صف **سقراط ، وأفلاطون ، ومالبرانش ، وليبنتز ، وكناط .**

والواقع أن المتأمل في فلسفة الغزالي الصوفية لا يسعه إلا أن يقدرها كل التقدير ، وأن يعجب بها كل الإعجاب ، ذلك لأنها فلسفة تعبر أروع تعبير عن الجانب الإلهي في الإنسان .

واقع ومستقبل الثقافة الإسلامية واللـ

القرن الخامس عشر الهجري

ومما يعزز الإسلام في القارة انتشاره انتشاراً داخلياً على يد أبناء إفريقيا أنفسهم ، أي أنها عملية نمو طبيعية منبثقة من الداخل ، وليست تبشير ارساليات مفروضة من الخارج . ولا عجب فهو حقاً دين الفطرة ، والقربى بينه وبين النفس الإفريقية قريبة . **ويقدر عدد المسلمين في إفريقيا الآن بنحو ١٧٠ مليوناً مقابل نحو ١٤٠ مليوناً عام ١٩٣١ م ، ونحو ٨٥ مليوناً عام ١٩٥١ م ، بينما لا يتكلم العربية سوى ١٠٠ مليون فقط. ومن الأهمية أن تتطابق حدود انتشار اللغة العربية في إفريقيا على حدود انتشار الإسلام وثقافته ، على اعتبار أنه من العسير ، بل يكاد يكون من المستحيل ، الفصل أو الحجز بين الثقافة الإسلامية في إفريقيا وبين اللغة العربية .**

وتأكيداً لهذا يجدر بنا التذكير بمفهوم الثقافة الإسلامية[٢] وهي مجموعة العلوم والمعارف والفنون التي عرفت للأمة الإسلامية على مدى تاريخها واختلاف عصورها . وللثقافة الإسلامية جوانب ثلاثة يتفرع عن كل منها علوم معارف وفنون . الجانب الأول من الثقافة الإسلامية هو **الجانب الديني** ، ويتفرع عنه علوم الدين والشريعة من تفسير وحديث وفقه وغير ذلك من كل ما له صلة بالعقيدة والشريعة أصالة أو تبعاً . والجانب الثاني هو **الجانب اللغوي** ويتفرع عنه علوم اللغة من نحو وصرف وبلاغة وأدب وغير ذلك من كل ما له علاقة باللغة العربية أصالة أو تبعاً . أما الجانب الثالث فهو **الجانب المادي** ويتفرع عنه كل العلوم الكونية من طب وفلك وطبيعة وكيمياء وجبر وهندسة وغير ذلك من كل ما يتصل بالكون ومظاهره .

وهذه الجوانب الثلاثة كلها يكمل بعضها بعضاً ، ويبدو واضحاً مدى ما تحتله اللغة العربية من أهمية في تكوين ، ومن مفهوم الثقافة الإسلامية ، فهي تشكل جانباً رئيسياً (الجانب الثاني) ، فضلاً عن كونها أداة التعبير عن الجانب الأول (وهو الجانب الديني) ، وأداة التراث للجانب الثالث وهو الجانب المادي .

وفضلاً عن هذا فإن اللغة العربية هي وحدها اللسان الذي يحل للمسلمين أن يستعملونه في صلواتهم . فإنه لا يجوز في الصلاة النطق بتكبيرة الإحرام وقراءة الفاتحة بغير اللغة العربية .

وبحثاً عن مستقبل اللغة العربية ودورها في انتشار الثقافة الإسلامية في إفريقيا من الأهمية أن نتعرف على تاريخ ومؤثرات اللغة العربية على خريطة اللغات الإفريقية .

اللغة العربية في إفريقيا

لقد كان اللسان العربي وعاء الدين الإسلامي أينما حل في كل أرض إفريقية . واتخذت لغة الضاد مكانها المرموق في إفريقيا حوالي عام ٨٥٠ م ، ووجدت سبيلها في يسر ووصلت قمة مجدها بعد ذلك مع انتشار الإسلام الذي ظل وحده لا ينازعه دين أكثر من خمسة قرون بين القرنين العاشر والخامس عشر . وخلال هذه القرون تركت اللغة العربية آثاراً

من ظواهر عالمنا المعاصر انتشار الإسلام في ربوع القارة الإفريقية انتشاراً سريعاً وكثيفاً ، فالإسلام يكسب كل يوم أرضاً جديدة في القارة ، ويعمر قلوباً إفريقية ظلت سنوات طويلة خاوية من الإيمان .

وتعترف إحدى الصحف الأوروبية [1] بأنه « ضمن كل عشرة إفريقيين يتخلون عن عقائدهم التقليدية يتجه سبعة منهم إلى الإسلام » . **ولا عجب أن يشير الكتاب والمبشرون الغربيون قبل سواهم إلى أن الإسلام هو دين المستقبل في قارة المستقبل « إفريقيا » .**

اللغة العربية في إفريقيا

بقلم : احمد يوسف القرعي

حضارية كبرى في كل أنحاء إفريقيا . ويشهد « **بازل دافيسون** » الكاتب المتخصص في الشؤون الإفريقية أن « **القراءة والكتابة عطية من عطايا العرب لإفريقيا أحدثت أثراً كان أكبر الأثر** » [3] ويكفي للتدليل على هذا أن نشير إلى ما قاله أحد المسؤولين في **زنزبار** من أن « كلمة تعريب في **اللغة السواحلية** ترادف كلمة تحضير أو تمدين وإذا أردنا أن نتحدث عن مشروع تطوير قرية زراعية مثلاً قلنا تعريب تلك القرية » .

ومن مؤثرات اللغة العربية في اللغات الإفريقية الأخرى نذكر اعتماد اللغة السواحلية (**في كينيا**) في نحو ٥٠ ٪ من كلماتها على العربية إما أصلاً أو اشتقاقاً . أما اللغة السواحلية في **أوغندا** فهي أساساً مزيج من لهجات البانتو مع اللغة العربية وتكتب بالأبجدية العربية .

واللغة التجرينية المستعملة في **اريتريا** كلغة محلية اقتبست كثيراً من اللغة العربية ، حتى أن الأعداد المستعملة فيها تبدو وكأنها شيء واحد .

وفي **جزر القمر** فإن اللغة القمرية تكتب بحروف عربية وتوجد فيها نسبة ٦٠ ٪ من الألفاظ العربية الأصيلة .

وفي غرب **إفريقيا** ظلت لغة **الهوسا** تكتب بالحروف العربية حتى عام ١٩٣٤ م ، بعد دخول الإنجليز نيجيريا ، وبعد استقلال نيجيريا عام ١٩٦٠ م ، قرر البرلمان النيجيري الكتابة وتدريس الهوسا بالحروف اللاتينية . ورغم هذا ما زالت آثار اللغة العربية واضحة في لغة الهوسا حتى اليوم ، ويبدو ذلك بوضوح في كثير من الألفاظ العربية ولا سيما ألفاظ العبادات . والشعر النيجيري نفسه من النادر أن تجد بيتاً من الشعر بلغة الهوسا يخلو من كلمة عربية أو استعارة عربية . وأحياناً نجد أبياتاً كاملة باللغة العربية ومعظمها حكم عربية مأثورة . والأدب والكتابات النيجيرية يتناول معظمها أموراً خاصة بالدين الإسلامي [5] .

وهكذا نستطيع القول من خلال هذه النماذج إن للغة العربية أرضية كبيرة في إفريقيا ، منذ دخلت في ركاب الدعاة والتجار المسلمين ، وأصبحت لغة الأدب والعلم والتعامل ، ويكفي أن ندلل على عمق مكانة هذه اللغة فنذكر أن أهم المراجع التاريخية مثل أضابير « أشانتي » و« كانو » في غرب إفريقيا ومحفوظات « كلوة » في شرق إفريقيا ، أكثرها باللغة العربية لغة وحضارة [6] .

وفضلاً عن التأثير العربي في اللغات الإفريقية فيتسامى المسلمون الإفريقيون بأسماء عربية إسلامية مثل محمد ، الأمين ، أبوبكر ، فاطمة ، خديجة . . . الخ مع تحريف جزئي أو تبديل اللفظ بما يتلاءم مع ذوق الإفريقي فأصبح محمد مثلاً : مامادو ومامادي ، وأصبح أبوبكر : باكار ــ وبوبكر ، وأصبحت فاطمة : فاطمو وفانتا ، وكذلك أصبحت خديجة : كاديتا وكاجتو وكاديا وكاجا . . . الخ

ويكرس كثير من الإفريقيين المسلمين حياتهم في تعلم اللغة العربية ،

وتنتشر المدارس القرآنية في كل مكان ، ويستمر الطالب في تعلم القرآن على لوحة خشبية مرتين أو ثلاث مرات أو أكثر ، وبعد ذلك يسمح له أن يقرأ كتب الفقه مثل **الأخضري والرسالة** وغير ذلك ، وحين يبلغ إلى مستوى معين يتسنى له فيه الإلمام ببعض كتب اللغة مثل **مقامات الحريري** . . . الخ

نحو مستقبل أفضل

انطلاقاً من الآثار الحضارية لكل من الثقافة الإسلامية واللغة العربية في إفريقيا ، كان يمكن أن تكون اللغة العربية هي لغة كل الإفريقيين ، لولا التدخل الاستعماري الأوروبي في العصور الحديثة ومحاولات الهدم والتشويه التي مارسها ضد الإسلام : ثقافة ولغة وحضارة .

وفي مرحلة جديدة يتعاظم فيها التضامن العربي الإفريقي ثمة مسؤوليات جديدة على الجانب العربي تحكمها من أجل الاهتمام ببقايا ثقافات عربية ما زالت قائمة في بعض الأقطار الإفريقية غير العربية منذ حركة الفتوح الإسلامية . ومن الأهمية ــ كما أشرنا ــ أن يتطابق حدود انتشار اللغة العربية في إفريقيا مع حدود انتشار الإسلام والثقافة الإسلامية . ويكفي أن نشير في هذا الصدد إلى عدد من النقاط :

● أولا : تعليم اللغة العربية لغير أبناء العربية في إفريقية في حاجة إلى دراسة عميقة حتى نصل إلى منهج قويم يراعى فيه الأصول التربوية والأسس السيكولوجية ، ويزداد عدد الراغبين في دراسة العربية من غير أبنائها يوماً بعد يوم . وكذلك فإن تعلم اللغة العربية لغير أبناء العربية في إفريقية في حاجة إلى إعداد المعلم المؤهل والكفء والمتخصص في تعليم اللغة العربية . وفي هذا المجال نشير إلى **معهد الخرطوم لإعداد المتخصصين في تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها** ، وهو يتبع أساساً **المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم** ، ويقوم المعهد أيضاً بإعداد دراسات ميدانية وإجراء بحوث علمية من شأنها أن تثري المنهج اللغوي وأن تيسر مهمة معلم اللغة العربية لغير الناطقين بها ، ويتحقق هذا الهدف في إطار وضع وتطوير مناهج تعليم وكتب اللغة العربية لغير الناطقين بها ومحاولة كتابة اللغات المحلية بالحروف العربية .

● ثانياً : وتعد قضية **تدوين اللغات الإفريقية بالحروف العربية** ذات أهمية حضارية في دفع وانتشار الثقافة الإسلامية في إفريقيا . ومن الأهمية في هذا الصدد **تصوير المخطوطات** المدونة بلغات إفريقية ومكتوبة بالحرف العربي ، وتوجد هذه المخطوطات في مكتبات إفريقية وعالمية مختلفة ، ونشر مجموعة مختارة من هذه المخطوطات .

● ثالثاً : إعداد معاجم ثنائية اللغة ذات مداخل عربية ، وتكون هذه المعاجم ذات حروف عربية في تدوين هذه اللغات ، وتعد هذه المعاجم على أساس الجهود المعجمية التي أعدها اللغويون الأجانب ، ويجب إكمالها وتعديلها ومراجعتها عن طريق اللغويين العرب والأفارقة . ويجري حالياً إعداد **معجم « عربي ـ هوسا »** وهي اللغة التي يتكلمها نحو ٤٠ مليوناً في غرب إفريقيا . وهو معجم من سلسلة معاجم للغات الإفريقية الكبرى مع اللغة العربية ، تشرف على إعدادها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم .

● رابعاً : مساعدة كل الدول الإفريقية التي تجعل اللغة العربية لغة رسمية ، أو لغة أولى ، أو لغة ثانية في مدارسها مثل **جمهورية جزر القمر** التي أعلنت في أغسطس / آب ١٩٧٧ م ، اللغة العربية لغة رسمية للدولة وتدريسها كلغة أساسية في المدارس الابتدائية والثانوية .

● خامساً : أن تسرع المؤسسات العلمية العربية في الاتصال الفكري عبر نقابات علمائنا وعلمائهم وقادة فكرنا وفكرهم للقضاء على العزلة الفكرية بين المثقفين المسلمينْ هنا وهناك .

وختاماً . . فإن المسلمين الإفريقيين ما زالوا يتطلعون إلى العواصم العربية وإمكاناتها الروحية الزاخرة ، وهذا هو قدر العرب على مر العصور .

الهوامش

(١) صحيفة « جورنال دي جنيف » السويسرية في ٢٦ فبراير / شباط ١٩٧٤ م ، مقال مترجم بجريدة الجرائد العالمية ، القاهرة ، ٦ مارس / آذار ١٩٧٤ م .

(٢) راجع بتوسع : د . محمد حسين الذهبي : الثقافة الإسلامية وأثرها في التوجيه ، مجلة الأزهر ، القاهرة ، عدد ربيع الآخر ١٣٩٣ هـ ، مايو / أيار ١٩٧٣ م .

(٣) انظر جمال محمد أحمد : وجدان إفريقيا . الخرطوم ، ١٩٧٤ م ، ص ٣٩ وما بعدها .

(٤) راجع نص فتوى لجنة الفتوى بالأزهر على سؤال من شاب صومالي يقول فيه هل يجوز أداء الصلاة بغير اللغة العربية . جريدة الأخبار ، القاهرة ، ١٥ أغسطس / آب ١٩٧٥ م .

(٥) لمزيد من التوسع راجع :

ـ شيخو أحمد سعيد غلادنت : حركة اللغة العربية في نيجيريا من ١٨٠٤ إلى ١٩٦٦ م . رسالة دكتوراه غير منشورة . دار العلوم ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٤ م .

ـ علي أبو بكر : الثقافة العربية في نيجيريا . رسالة دكتوراه غير منشورة بكلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٦٥ م .

(٦) راجع : عبد الحليم عويس : المسلمون في إفريقيا بين الحاضر والمستقبل . مقال بمجلة الأصالة الجزائرية ــ عدد فبراير / شباط ومارس / آذار ١٩٧٧ م ، ص ٦٨ .

الزهراوي
الرائد الأول للجراحة

بقلم : د. علي عبد الله الدفاع

هو أبو القاسم ابن عباس الزهراوي . عاش فيما بين ٣٢٤ـ ٤٠٤ هجرية (الموافق ٩٣٦ـ ١٠١٣ ميلادية) **وولد بالزهراء** لستة أميال شمال غربي **قرطبة بالأندلس** . وقد أجمع النسابة على أن الزهراوي **ينتمي إلى الأنصار** . وعاصر الزهراوي **عبد الرحمن الثالث** وكان طبيب بلاطه . نبغ الزهراوي في **الجراحة** ففاق أطباء عهده ،

ومارس **فن التشريح** بنفسه لأهميته في تطوير حقل الجراحة . ويقول عنه **جورج سارتون** في كتابه **المدخل إلى تاريخ العلوم** : « هو أبو القاسم خلف الزهراوي ، أول من نبغ في الجراحة بين العرب ، بل هو **فخر الجراحة العربية** ، ثالث الثلاثة من نوابغ الأطباء العرب ،

وهم **الرازي** ، **وابن سينا** ، **والزهراوي** كانوا بمثابة المصابيح التي أضاءت منها أوروبا قناديلها في العلوم الطبية » .

واستعملت النهضة الأوروبية مؤلفات علماء المسلمين العلمية ومن بينها مؤلفات الزهراوي كمراجع رئيسية لا يمكن الاستغناء عنها . **ولقب الزهراوي بأبي الجراحة** بين أطباء عصره لما قدمه من عمل وفير وقيم في هذا الحقل . ويقول **الدوميلي** في كتابه **العلم عند العرب** إن : « الزهراوي أشهر أطباء الأندلس في ذلك العصر ، بل من أعظم أطباء المسلمين أيضاً وربما كان الزهراوي أعظم الجراحين العرب والمسلمين على وجه الخصوص » .



★ أبو القاسم الزهراوي ★

وقد قضى الزهراوي معظم حياته يمارس مهنة الطب والصيدلة في مدينة الزهراء ونال شهرة عظيمة في هذا المجال ، كما استمر في دراسته للعلوم الشرعية والعلوم الطبيعية فأبدع فيها .

أعماله في الجراحة

كان الزهراوي دقيقاً في عمله ، إذا كان يعقم آلاته التي يستخدمها في عملياته الجراحية **بمادة الصفراء** للتأكد من تطهيرها قبل إجراء العملية . **وقد أثبت الطب الحديث أن مادة الصفراء تقلل من تواجد البكتريا .**

ودرس الزهراوي **الطب الجاهلي** كذلك وأخذ عنه بعض العلاجات والعمليات مثل **الكي** كوسيلة لعلاج آلام الخلوع والكسور وتسكين بعض الآلام الباطنية الناتجة من تورم الكبد وكذلك لايقاف النزيف . وكانت الجراحة تحتل مكانة راقية واحتراماً كبيراً في العالم الإسلامي كما نبه على ذلك المؤلف الكبير **كامبل** في كتابه **الطب العربي** : « **كانت الجراحة في الأندلس تتمتع بسمعة أعظم من سمعتها في باريس أو لندن أو ادنبره ، ذلك أن ممارسي مهنة الجراحة في سرقسطة كانوا يمنحون لقب طبيب جراح** (Medico-Surgeon) **. أما في أوروبا فكان لقبهم حلاق جراح** (Barber-Surgeon) **وظل هذا التقليد سارياً حتى القرن السادس عشر الميلادي** » .

وقام الزهراوي بجراحة **صابونة الركبة** ، واستخراج الحصاة من مثانة المرأة ، وشق القصبة الهوائية ، وتوسيع باب الرحم ، وعمليات البتر ، كما عالج بنجاح **الشلل** الناشئ عن كسر فقرات الظهر . **وهو أول من قام بربط شرايين الدم لمنع النزيف** . وقد اعتمد على **فن التشريح** واعتبره فرعاً من فروع الطب الضرورية . وتقول المستشرقة الألمانية **زيغريد هونكه** في كتابها « **شمس الله تسطع على الغرب** » .. « وقد درس الزهراوي علاج تشويهات الفم والفك باستعماله عقافة (صنابير) ، واستئصال العينية أو (البوليب أو الأورام الليفية) في الأغشية المخاطية ، ونجح في عملية شق القصبة الهوائية (تراكوتومي) وقد أجرى هذه العملية على خادمه ، ووفق أيضاً في إيقاف نزيف الدم بربط الشرايين الكبيرة ، محسناً بذلك عملياته الجراحية ، وهو فتح علمي كبير ادعى تحقيقه ، لأول مرة ، **الجراح الفرنسي الشهير أمبرواز باري** (Ambroise Paré) عام ١٥٥٢ م ، في حين أن أبا القاسم الزهراوي العربي قد حققه وعلمه قبل ذلك بـ ٦٠٠ سنة . كما أنه علم تلاميذه كيفية تخييط الجروح بشكل داخلي لا يترك شيئاً مرئياً منها ، والتدريز المثمن (نسبة إلى ثمانية) في جراحات البطن ، وكيفية التخطيط بإبرتين وخيط واحد مثبت بهما ، واستعمل الخيطان المستمدة من أمعاء القطط في جراحات الأمعاء . **وقد أوصى في كل العمليات الجراحية في النصف السفلي من الإنسان ، أن يرفع الحوض والأرجل قبل كل شيء** . وهذه طريقة اقتبسها الغرب مباشرة عن الجراح العربي واستعملها كثيراً حتى قرننا هذا ، فعرفت باسم الجراح الألماني القدير **فريدريك ترند ـ لنبورغ** (Frederich Trendelenburgh) . ولكن من يذكر أفضال الجراح العربي العظيم ؟! وعنه أخذنا أيضاً طريقة ترك فتحة في رباط الجبس في الكسور المفتوحة ، وأمد الجراحين وأطباء العيون والأسنان الأوروبيين بالآلات اللازمة للعمليات بواسطة الرسوم الجديدة التي وصفها » .



★ البيروني ★



★ الرازي ★



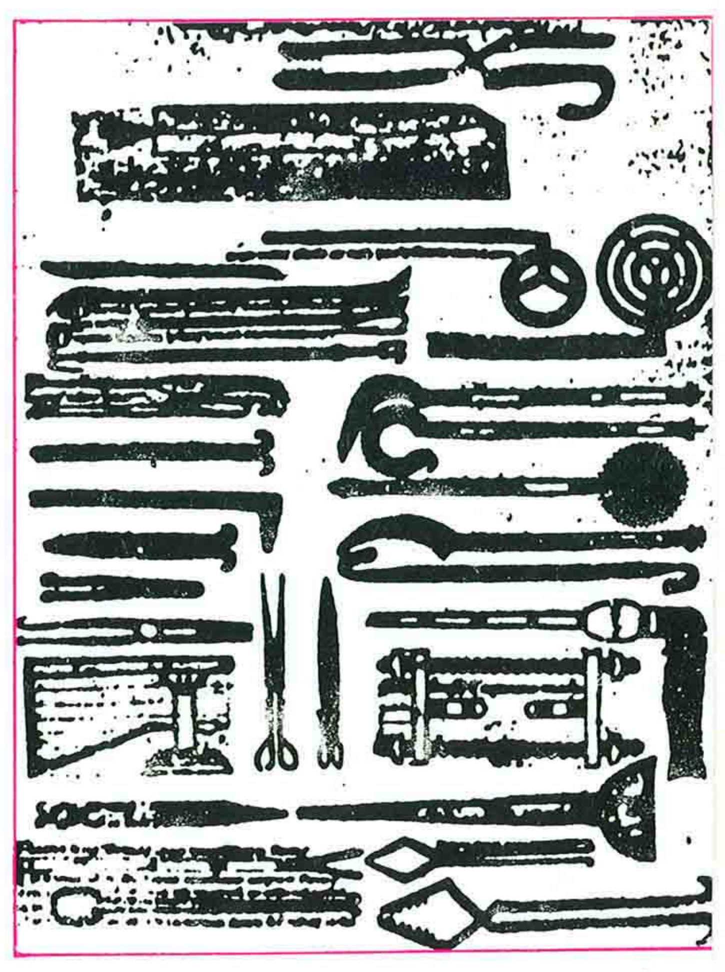
★ ابن سينا ★

دوره في تحضير العقاقير

وقد بحث الزهراوي في تحضير بعض العقاقير المعدنية والنباتية والحيوانية وأعطاها أسماء بخمس لغات هي :

(١) اليونانية .
(٢) السريانية .
(٣) الفارسية .
(٤) البربرية .
(٥) العربية .

وقد اعتمد على المراجع الأجنبية مثل كتب **ديسكوريد** ،



★ بعض صور الآلات التي استعملها أبو القاسم الزهراوي في عملياته الجراحية خلال أوائل القرن الخامس الهجري (الموافق أوائل القرن الحادي عشر الميلادي) ★

وجالينوس ، وبولس واهرن ، ومؤلفات أساتذته الأفاضل من علماء المسلمين مثل **الرازي ، وابن الجزار ، وابن خلجل** وغيرهم . كما تعلم الزهراوي من **البتاني** العالم المسلم المشهور ، **وابن البيطار** كيفية صنع الخبز المركب من أجود أنواع القمح ، وأيضاً استخراج الزيت من النبات . ويمدح **ابن أبي أصيبعة** الزهراوي في كتابه **عيون الأنباء في طبقات الأطباء** بقوله : «كان الزهراوي طبيباً فاضلاً خبيراً بالأدوية المفردة والمركبة جيد العلاج» . وأضاف محمد زهير البابا في مقالة بعنوان «**الأقرباذينات : أو دساتير الأدوية العربية**» ألقاها في الندوة

العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب التي عقدت عام ١٣٩٦ هجرية (الموافق ١٩٧٦ ميلادية) في **معهد التراث العربي/ حلب/ سورية**» يعتبر الزهراوي أول من استعمل الفحم في ترويق شراب العسل البسيط ، كما أنه أول من استعمل قوالب خاصة لصنع الأقراص الدوائية . وكان يميل إلى التعقيد في تحضير الأدوية وتعدد عناصرها بالرغم من أنه قال بأن الوصفات تضم عادة عدداً كبيراً من العقاقير المتشابهة بالتأثير ، لذلك فإن نقصان أحد أفرادها لا يغير بتأثير المجموع ، وقد سبقه إلى هذه الفكرة **البيروني**» .

مؤلفاته

وقد اهتم بالتأليف في حقل الطب فاستفاد من إنتاجه معاصرون ومن خلفهم من علماء المشرق والمغرب . وقد وصف الجراحة في تصنيفاته بأنها فن قائم بنفسه مستقل عن المداواة ومتصل بالتشريح . وألف كتابين أحدهما «**أعمار العقاقير المفردة والمركبة**» والآخر «**كتاب التعريف لمن عجز عن التأليف**» وهو دائرة معارف تحتوي على مجموع المعلومات المتعلقة بالطب في وقته ، وقد خصص جزءً من الكتاب للطب الداخلي ، وجزءً آخر لعلم **الصيدلة** ، وثالث لفن الجراحة ، ورابع لأمراض النساء .

ولقد أصبح الزهراوي أستاذ أطباء أوروبا عن طريق هذه الموسوعة لمدة خمسة قرون ، فكان الكتاب المعتمد في مجال الطب لسهولة الأسلوب وكثرة رسومه للآلات التي تستعمل في الجراحة آنئذ . ولقد نص الزهراوي في كتابه هذا ما يلي :

«لما أكملت لكم يا بني هذا الكتاب الذي هو جزء العلم في الطب بكماله وبلغت فيه من وضوحه وبيانه رأيت أن أكمله لكم بهذه المقالة التي هي جزء العمل باليد ، لأن العمل باليد (الجراحة) في بلادنا ، وفي زماننا معدوم البتة حتى كاد أن يندرس علمه وينقطع أثره ، والسبب الذي لا يوجد صانع محسن في زماننا هذا ، لأن صناعة الطب طويلة وينبغي لصاحبها أن يرتاض قبل ذلك في علم التشريح الذي وضعه (جالينوس) حتى يقف على منافع الأعضاء وهيئتها وأمزجتها واتصالها وانفصالها ، ومعرفة العظام والأعصاب والعضلات وعددها ومخارجها ، والعروق والنوابض والسواكن ومواضع مخارجها ، ولذلك قال **أبقراط** ، إن الأطباء بأسماء كثيرة وبأفعال قليلة لا سيما صناعة اليد ، وقد ذكرنا عن ذلك طرفاً في المدخل من هذا الكتاب ، لأنه من لم يكن عالماً بما ذكرنا من التشريح لم يخل أن يقع في خطأ يقتل الناس به» .

ويحتوي هذا الكتاب بتفصيل أكبر على المواضيع الآتية :

★ المقالة الأولى : **تركيب الأدوية .**

★ المقالة الثانية : **تقسيم الأمراض .**

★ المقالة الثالثة : **وصف المعاجين .**

★ المقالة الرابعة : **وصف الأدوية المفردة في جميع السموم .**

★ المقالة الخامسة : **وصف الأيارجات القديمة والحديثة وادخارها .**

★ المقالة السادسة : **وصف الأدوية المسهلة من الحبوب المرة .**

★ المقالة السابعة : **أدوية القيء والحقن .**

★ المقالة الثامنة : **الأدوية المسهلة اللذيذة الطعم .**

★ المقالة التاسعة : **أدوية القلب .**

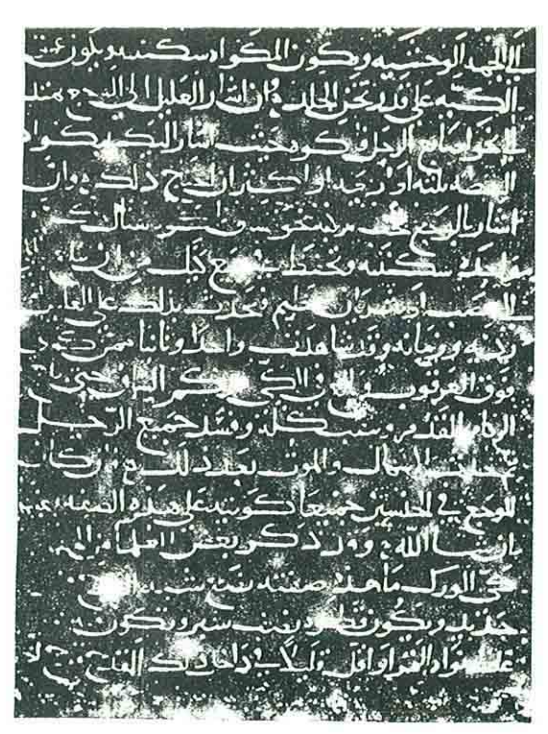
★ المقالة العاشرة : **الأطريفلات والبنادق المسهلة .**

★ المقالة الحادية عشرة : **الكمونيـــات .**
★ المقالة الثانية عشرة : **الأدوية المدورة للبن .**
★ المقالة الثالية عشرة : **الأشربة والسكنجبينات والربوب .**
★ المقالة الرابعة عشرة : **الدخانخ المطبوخات .**
★ المقالة الخامسة عشرة : **المربيـات .**
★ المقالة السادسة عشرة : **السفوغات بأنواعها .**
★ المقالة السابعة عشرة : **الأقراص المسهلة وغير المسهلة .**
★ المقالة الثامنة عشرة : **السعوطات والقطورات .**
★ المقالة التاسعة عشرة : **أدوية الزينة .**
★ المقالة العشــرون : **الأكحــال .**
★ المقالة الحادية والعشرون : **أدوية الفم والحلق .**
★ المقالة الثانية والعشرون : **أدوية الصدر والسعال .**
★ المقالة الثالثة والعشرون : **الضمــاد .**
★ المقالة الرابعة والعشرون : **صناعة المرهــم .**
★ المقالة الخامسة والعشرون : **الأدهان ومنافعهــا .**
★ المقالة السادسة والعشرون : **الأطعمة التي تعطى للمرضى .**
★ المقالة السابعة والعشرون : **خواص الأدوية والأغذية .**
★ المقالة الثامنة والعشرون : **صنـع الأدويــة .**
★ المقالة التاسعة والعشرون : **تسمية العقاقير بلغات متعددة .**
★ المقالة الثلاثـــون : **الكـــي .**

ترجم هـذا الكتاب من اللغة العربية إلى لغات كثيرة ، وفي فـترات مختلفة . فمثلاً في عـام ٨٩٩ هجـرية (الموافـق ١٤٩٥ م) **تـرجم إلى اللاتينية بالبندقية** ، وفي عام ٩٣٨ هجرية (الموافق ١٥٣٢ ميلادية) **ظهرت ترجمة أخرى في استراسبرج** ، وكذلك في عـام ٩٥٠ هجـرية (الموافق ١٥٤١ ميلادية) **ظهرت تـرجمة ممتازة في بـال** . والجـدير بالذكر أن الكتاب لم يترجم بأكمله في وقت واحـد ، فقـد ظهـر الجـزء الخاص بالعقاقير سنة ٨٧٦ هجرية (الموافق ١٤٧١ ميلادية) ، والخـاص بالجراحة سنة ٩٠٢ هجرية (الموافـق ١٤٩٧ ميلادية) ، والبـاطني سـنة ٩٢٥ هجرية (الموافق ١٥١٩ ميلادية) ، وأمـا الجـزء الخـاص بـأمراض النساء فقد تواجد سنة ٩٧٣ هجرية (الموافق ١٥٦٦ ميلادية) .

ويقول **جورج سارتون** في كتابه **المدخل إلى تـاريخ العلـوم** : « إن (خلف بن العباس الزهراوي) من مـدينة الـزهراء قـرب قـرطبة ، ويعتبر أشهر الجراحين المسلمين . وقد كتب موسوعة في الطب تتكون مـن ثلاثين جزءً سماها « **التصريف لمن عجز عن التأليف** » . وقد تنـاول في هذه الموسوعة بعض المواضيع الهامة في الـطب مثـل التعقيم والتـوليد وعلاج العين والأذن والأسنان واستخراج حصى المثانة بـالشق والتفتيت ، وصف علاج الكسور والخلع ، وأعطى وصفاً دقيقاً للشلل النـاشئ عـن كسر فقار الظهر ، كما أجرى عمليات عدة لإخراج الجنين الميت من رحم الأنثى » .

وفي الختام إن كان ابن سينا والـرازي قـد حلقـا في سمـاء أطباء الإسلام ، فقد نبغ أبـو القـاسم الـزهراوي في مجـال



★ من مخطوطة كتاب « التعريف لمن عجز عن التأليف » للزهراوي في المكتبة الهندية ــ لندن بريطانيا ★

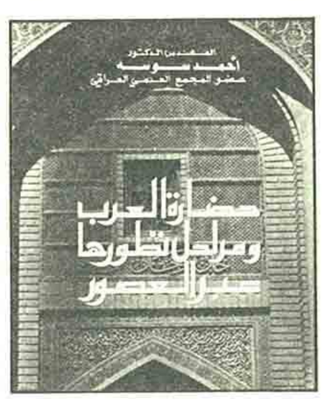
الجراحة نبوغاً كبيراً رغم أن « فن الجراحة » كان مكروهاً عند العامة في بلاد الإسلام أنذاك للآلام التي تنتج عنها ، وأما عند النصارى في أوروبا فكانت الجراحة محرمة . وبـرز الـزهراوي في أوروبا حـتى أصبح كتـابه « التصريف لمن عجـز عـن التأليف » يدرس في جميع جامعاتها إلى نهاية القـرن الحـادي عشر الهجـري (المـوافـق السابـع عشر الميـلادي) بعـد أن أصبح فن الجراحة مقبولا هناك .

وكانت من أكثر الترجمات الدارجة تلك الـتي قـام بهـا **جـيرارد كريمونا** . وقد أجمع المتخصصـون في الـطب في العصر الحـديث أن الزهراوي كان جراحاً ماهراً ذا خبرة واسعة حصل عليها من ممارسته لفـن الجراحة . ولذا **يعتبر الزهراوي واضع أسس الجراحة الحديثة** .

حذر الزهراوي الأطباء من إجراء العمليات الجـراحية إذا لم يـكونوا ملمين بصغائر الأمور وكبائرها في استعمال الآلات الجـراحية وتفننهـم في التشريح ، يتضح هذا مما ذكره في كتابه : « يتعـرض للـوقوع في الأخـطاء التي تؤدي إلى الموت كما رأيت ذلك يحـدث للـكثيرين » . واسـتعمل الزهراوي الكي في كثير من الحالات ، لـكنه لم يقلل مـن أهمية وفـائدة العلاج بالعقاقير ، فهو بهذا الطبيب النـاضج الـذي يحـاول أن يصـل إلى علاج المريض بأي طريقة ممكنة . ولذا فقد رفع الزهراوي شـأن الجـراحة وجعلها فرعاً طبياً خاصاً ذا مكانة سامية بين فروع الـطب الأخرى . ولا غرابة على الإطلاق إذا نعته أصحاب الخـبرة الجيـدة في الـطب بـأبي الجراحة .

ليت أطباءنا اليوم سمعوا بعض نصائحه حتى يسـلم مـن أيديهم المرضى الذين وضعوا كل آمالهم بين أيـديهم . ولنـا في سلفنا الصالح أسوة حسنة .

رحلة في كتاب



تأليف :

المهندس . د . احمد سوسه

عرض وتلخيص :

عبد الجبار محمود السامرائي

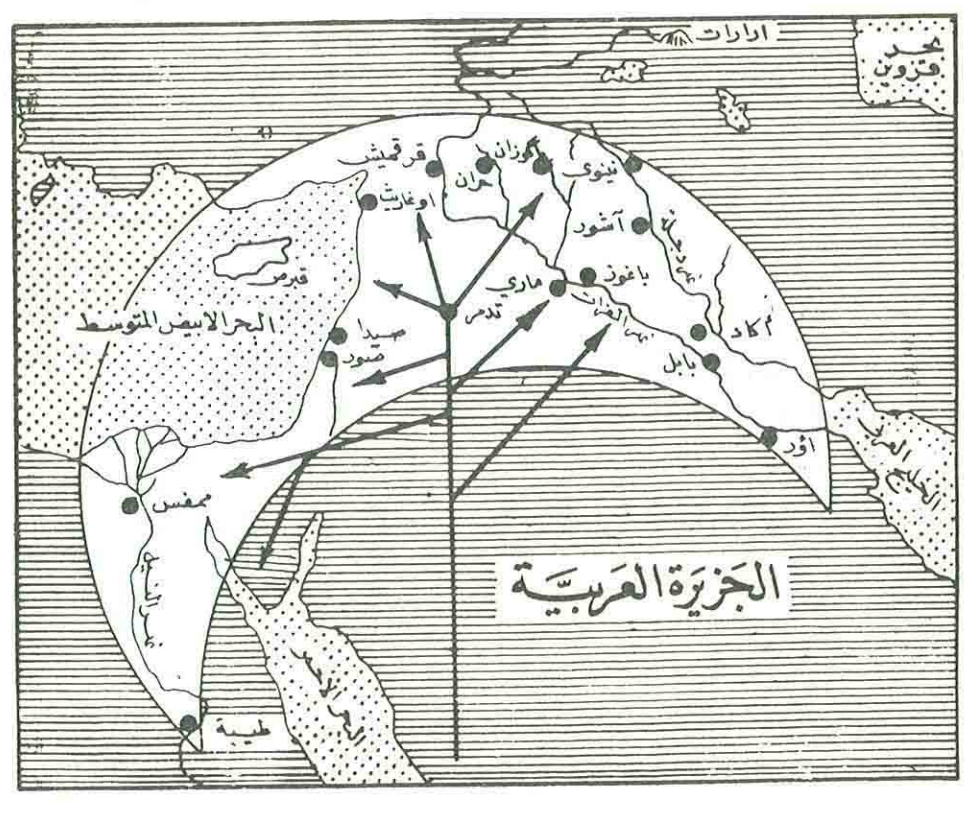
★ المهندس د. أحمد سوسة ★



أجمع العلماء على أن **شبه جزيرة العرب** هي مهد الحضارة العربية ، لأن قرائن دينية ولغوية وتاريخية وجغرافية تشير بوضوح إلى أن جزيرة العرب هي مهد الحضارات السامية ووطن الساميين الأوائل .

فالأكديون والعموريون والكنعانيون والفينيقيون والآراميون والآشوريون والعمونيون والأدوميون والنبطيون والعرب والصابئة والأحباش ، يعدون من الأقوام السامية التي تشترك في أسرة اللهجات السامية . وقد اعتبر البعض ، المصريين من الأقوام السامية في الأصل ، وأن وطنهم الأصلي إنما هو جزيرة العرب ، هاجروا منها واختلطوا هناك بزنوج وادي النيل .

★ الهجرات السامية العربية من جنوب الجزيرة العربية تتجه نحو الواديين العظيمين الفرات والنيل ★



وقد استند العلماء في دعم النظرية القائلة بأن الجزيرة العربية هي مهد الحضارة السامية العربية إلى البيانات التالية :

١ ـ أن البداوة عادة تسبق حياة التمدن والحضارة ، إذ لا يعقل أن ينتقل سكنة الريف والمزارعون من حياة التمدن إلى البداوة ، بل يحدث العكس . ولما كانت الشعوب السامية قد قضَت في أطوارها الأولى حياة بدوية ، فلا بد أن يكون وطنها وطناً صحراوياً . وجزيرة العرب هي أصلح المواقع لكي تكون ذلك الوطن السامي الأول .

٢ ـ أن معظم المدن والقرى التي أسست في مناطق **الهلال الخصيب** على أطراف الجزيرة العربية هي عناصر بدوية وطنها الأصلي جزيرة العرب استقرت فيها وأخذت تمارس الزراعة والتجارة ، ولا يوجد هناك محل غير جزيرة العرب بإمكانه أن يحتوي هذه العناصر ، لذلك . . وبالقياس ، تكون الجزيرة العربية هي التي غذت الشرق الأدنى بالساميين على موجات متتالية .

٣ ـ أن **اللغة العربية** (لغة جزيرة العرب الأم) حافظت على نسبة كبيرة من خصائص اللغة السامية الأصلية أكثر من أي لهجة من اللهجات السامية الأخرى ، لأن بلاد العرب لم تخضع يوماً من الأيام للأجنبي وسلطانه .

إن تسمية « سامية » أطلقت على الشعوب التي زُعم أنها انحدرت من صلب (**سام بن نوح**) ، وكان أول من أطلقها بهذا المعنى هو العالم النمساوي « **شلوتزر** » عام ١٧٨١ للميلاد ، فشاعت منذ ذلك الحين وأصبحت عند علماء الغرب علماً لهذه المجموعة من الشعوب ، وسرت إلى المؤرخين العرب وباحثيهم بطرق الاقتباس والتقليد ، على الرغم من أن هذه التسمية لا تستند إلى واقع تاريخي ، أو إلى أسس علمية صحيحة ، أو وجهة نظر لغوية . لذلك يجب تسمية هذه الأقوام ، بالأقوام العربية ، لتشمل كل من سكن الجزيرة العربية وخرج منها . لأن العرب والساميين شيء واحد .

ازدهار حضارة العرب في مرحلتها الأولى

تبدأ المرحلة الأولى من حضارة العرب القديمة في حوالي سنة ٤٠٠٠٠ قبل الميلاد ، وتنتهي في حوالي سنة ١٨٠٠٠ قبل الميلاد ، وقد عاشت هذه الحضارة ضمن حدود جزيرة العرب .

ففي هذه الفترة التي دامت حوالي عشرين ألف سنة (الدورة الجليدية الرابعة) كانت **أوروبا** مغطاة بالثلوج في حين كانت الجزيرة العربية تتمتع بجو معتدل رطب تكثر فيه الأمطار في كل المواسم شتاءً وصيفاً ، مما ساعد على نمو الغابات الكثيفة في المنطقة تحولت فيما بعد عصر الجفاف نتيجة للضغط إلى طبقات نفطية ، كما ساعدت هذه الظروف الملائمة على تكوين حضارة نهرية لا تقل شأناً عن **حضارة وادي النيل وحضارة وادي الرافدين** على الرغم من إمكاناتها المحدودة آنذاك ، إذ كانت الأودية الحالية أنهراً جارية تبعث عناصر الحياة وتنشر الخير والبركة في البلاد ، وكان هناك نهران كبيران يخترقان جزيرة العرب من أقصاها إلى أقصاها تقوم عليهما الزراعة التي تعتمد على الري الدائم .

وفي هذه الفترة انتقل سكان الجزيرة العربية من طور القنص والصيد إلى طور الفلاحة والزراعة التي تعتمد على الري للحصول على قوتهم اليومي .

وهناك دلائل تشير إلى أن الماشية بما فيها **الجاموس والماعز والضأن** دجنت واستخدمت اقتصادياً في **اليمن وبلاد العرب** القديمة قبل أن تدجن في **مصر والعراق** . كما أن **القمح والشعير** كان ينبت فيها بشكل طبيعي دون أن يزرع .

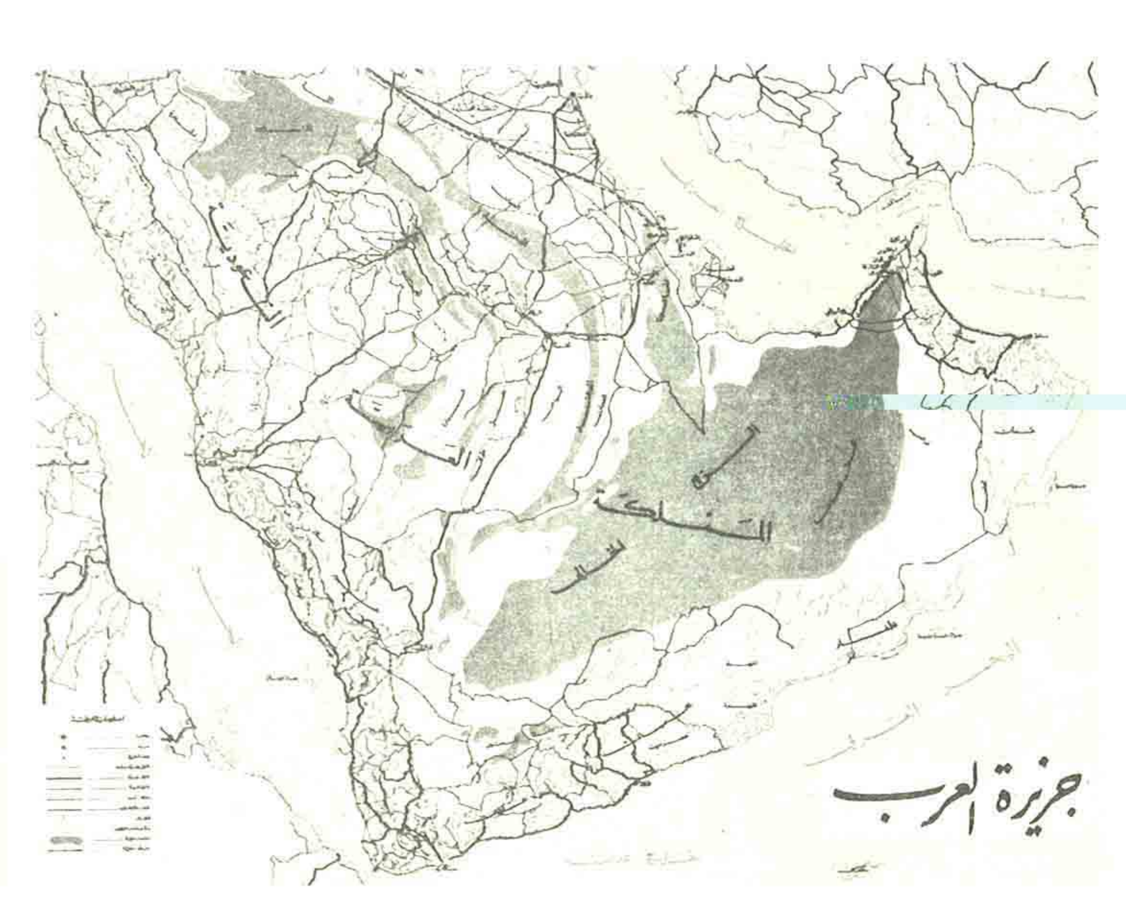
ومعلوماتنا عن هذا الدور الحضاري القديم في تاريخ حياة العرب في جزيرتهم محدودة جداً لا نعلم عنها إلا النزر اليسير ، لأن عصر التدوين لم يكن قد ظهر بعد ، ولكن الشيء الذي نعرفه جيداً هو أن سكان الجزيرة كيّفوا أنفسهم في هذه الظروف الملائمة مناخياً واستفادوا من هذه المعطيات والإمكانات ، واستخدموها في تكوين وتنمية أقدم مرحلة من مراحل حضارة العرب القديمة ، وذلك بفضل ما اكتسبوه من خبرة هندسية في الأعمال الزراعية التي تعتمد على الري ، وإلا ما كان بإمكانهم لولا هذه الخبرة أن ينشئوا أقدم وأعظم **الإمبراطوريات** في مستوطناتهم الجديدة التي استقروا فيها بعد هجرتهم من الجزيرة إثر حدوث الجفاف في المنطقة ، وبوقت قصير نسبياً ، كما سيتبين لنا من خلال الحديث عن حضارة العرب في مرحلتها الثانية .

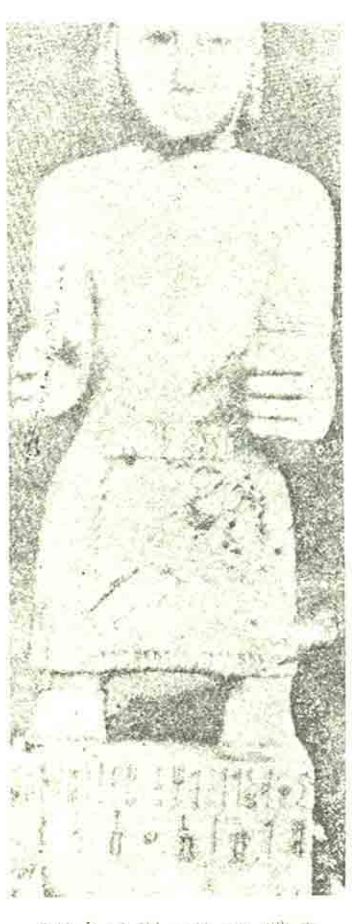
ويرى « **توينبي** » و « **جايلد** » أن عامل الجفاف الذي حل في أعقاب العصر الجليدي الأخير ، كان حافزاً في قيام الهجرات المتواصلة من جزيرة العرب ، وبالتالي نشوء الحضارات المهمة في وادي النيل ووادي الرافدين ، ويعد « توينبي » هذا الجفاف استثارة للجماعات البشرية من جانب البيئة الطبيعية الآخذة في الجفاف ، فانتقلت تلك الجماعات البدائية ، من طور الصيد وجمع القوت في العصور الحجرية القديمة ، إلى طور إنتاج القوت أي الزراعة وتدجين الحيوان وإلى طور الحضارة أيضاً . وهذا ما ينطبق أيضاً على النظرية القائلة بأن **البداوة أساس الحضارة** .

انتقال الحضارة العربية من جزيرة العرب

يرى الخبراء الاختصاصيون في شؤون البلاد العربية ، أن الهجرة من جزيرة العرب تمت في الأصل من منطقة جنوبي الجزيرة ، ومنها توجهت الجماعات النازحة من جزيرة العرب إلى الشمال ، ثم توزعوا على أطراف الهلال الخصيب في فلسطين وفي سورية وفي مصر وفي العراق . وبهذا يكون هؤلاء المهاجرون قد دخلوا العراق من الجهة الشمالية الغربية بعد أن انتقلوا إلى شمالي الجزيرة . أما سبب اختيار المهاجرين المنطقة الجنوبية من الجزيرة من دون بقية المناطق هو أن جنوبي الجزيرة كانت أرقى مناطق الجزيرة تمدناً وأكثرها كثافة سكانية .

وفي هذه المرحلة من مراحل حضارة العرب استطاعت القبائل العربية



★ خارطة جزيرة العرب ★

★ الملك «معد ايل» سلهان (يصدق ايل) ملك أوسان (عن مارجوليوث) ★

النازحة من جزيرة العرب ، بفضل الحضارة والخبرة في شؤون الري والزراعة اللتين اكتسبتها في وطنها الأصلي ، في خلال فترة الازدهار الذي شهدته بلاد **الشرق الأدنى في العصر الجليدي** الأخير ، من تأسيس الحضارات السامية العربية الكبرى في مستوطناتها الجديدة ، أي الكنعانية والعمورية والبابلية والآشورية والآرامية الكلدانية ، فأسست هذه القبائل في مدة قصيرة نسبياً لا تتجاوز ثلاثة آلاف سنة (في الفترة الممتدة بين منتصف الألف الثالثة والقرن السادس قبل الميلاد) أقدم الإمبراطوريات وأعظمها مما عرفه تاريخ العالم القديم في تاريخ البشرية ، أي الإمبراطوريات الساميات الأربع : الأكدية ، والبابلية ، والآشورية ، والكلدانية الآرامية .

إن الهجرات المتتالية التي انبعثت من جزيرة العرب وانتشرت في مختلف أنحاء الهلال الخصيب في هذه المرحلة من تطور الحضارة العربية ، كانت من أهم العوامل في تقدم الكيان الحضاري في الشرق الأدنى والسير به نحو التطور في مختلف الميادين : الزراعية ، والتجارية ، والسياسية ، والعسكرية ، والاجتماعية ، والثقافية ، والدينية ، ذلك الكيان الذي انبعثت منه أقدم الإمبراطوريات وأعظمها مما عرفه التاريخ ، **فالجزيرة العربية إذن ، هي بحق مهد الحضارات السامية العربية** ، فقد قذفت بأبنائها الأشداء إلى ما وراء الصحارى بحكم سنة **تنازع البقاء** لإيجاد حياة أفضل ، فهي والحالة هذه الينبوع الذي انبثقت منه جميع الحضارات العربية السامية في الهلال الخصيب .

وكانت مستوطنات شعب الجزيرة في عالمه الجديد تؤلف عالماً عربياً واحداً يتميز بقوميته العربية تعززه وحدة جغرافية واحدة مترابطة الأجزاء ، تضم الجزيرة العربية (الأم) وأبناءها في **بلاد المهجر** (وادي الرافدين وسورية ولبنان وفلسطين إلى مصر السفلى) ، وهو عالم متصل مفتوح السبل لأهله ، مرتبط بعضه ببعض بوشائج الأصل السامي العربي ، قائم بذاته ، يتكلم أهله لغة واحدة ، هي اللغة العربية الأم : منهم **أهل السواحل** خبروا البحار ، ومنهم **أهل البوادي** (أهل الوبر) احتضنوا الصحارى ، ومنهم **أهل المدن والقرى** (أهل المدر) احترفوا الزراعة والتجارة ، ومنهم الرعاة أصحاب المواشي ، فقد صهرتهم الوحدة الجغرافية في بوتقة المصير الواحد المشترك ، فتعاونوا على الرغم من اختلاف نزعاتهم ، على وضع أسس الحضارة السامية العربية الكبرى .

وقد شمل هذا العالم الجديد **حضارة ساحل البحر الاحمر والخليج العربي وخليج عمان** من الشرق ، **وبحر العرب وخليج عدن** من الجنوب ، والبحر الأحمر **والبحر المتوسط** من الغرب ، وجبال من الشمال ، فسيطر هذا العالم بجماله على طرق المواصلات الصحراوية ، كما سيطر بسفنه على طرق المواصلات البحرية . وكان كل ذلك قبل أن يشهد الشرق الأدنى غزوات **الأقوام الآرية** غير السامية ، وكان قد تجمع معظم المهاجرين أول الأمر على ضفاف نهر الفرات الغربية المجاورة للبادية (بادية الشام) وأسسوا أولى مستوطناتهم في سورية ،

وصاروا يعرفون هناك بالعموريين فأقاموا في سورية مملكة واسعة أطلق عليها البابليون تسمية (**عمورو**) كما أطلقوها على البحر المتوسط فقالوا (**بحر عمورو العظيم**).

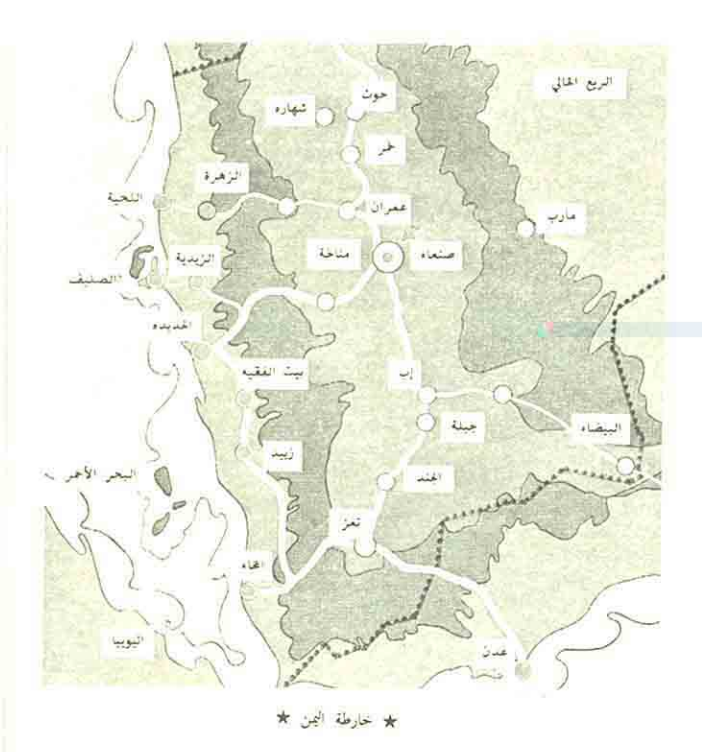
واتخذ العموريون مدينة (**ماري**) عاصمة لهم، وهي تقع اليوم على الضفة الغربية **لنهر الفرات** على بعد حوالي ١٥ كيلومتراً إلى الشمال من بلدة **البوكمال**، ولم يبق منها إلا الأطلال. ويشاهد اليوم مقابل بلدة (ماري) على الجانب الشرقي لنهر الفرات تل أثري يسمى «**تل باغوز**» يرجع تاريخه إلى الألف السادسة قبل الميلاد، وتمثل خرائب هذا التل بقايا أحد أقدم المستوطنات التي أقامها العموريون على ضفاف الفرات بعد نزوحهم من شبه جزيرة العرب. وكانت هذه المستوطنة تمارس الزراعة على الري مستمدة مياه الإرواء من الضفة اليسرى **لنهر الخابور**. وتوجد آثار سد قديم على نهر (الخابور) في نقطة على بعد خمسة عشر كيلومتراً شمالي (**قرقيسيا**) يدعى (السكير) أي تصغير السد، يتفرع من أمامه نهر قديم يدعى (**نهر دورين**) يمتد بموازاة نهر الفرات مسافة ١١٢ كيلومتراً منتهياً عند (**تل باغوز**) ثم يصب في الفرات، هذا ما يدل على أن الزراعة والري كانت تمارس في هذه المنطقة، الواقعة بين الجانب الأيسر لنهر الفرات والضفة اليسرى لنهر الخابور منذ أقدم الأزمنة.

ويبدو أن الجماعات التي استقرت في **سورية** قد ازداد عددها بعد مرور مدة من الزمن نتيجة لنزوح جماعات أخرى إليها بالإضافة إلى تكاثر عدد النازحين الأصليين، هذا عدا تقلص مساحة الأراضي التي كانت تسق سيحاً نتيجة هبوط مستوى مياه نهر الفرات في هذه المنطقة، فانتقلت جنوباً على طول نهر الفرات حتى استقرت في شمالي المنطقة السومرية في **السهل الخصيب** الممتد بين نهري دجلة والفرات حيث أسست مستوطناتها على ضفتي مجرى الفرات القديم غربي وجنوب مدينة بغداد الحالية، حيث تقع حالياً شبكة جداول الصقلاوية وأبي غريب واليوسفية واللطيفية.

ولم تكن هذه الجماعات عندما أسست مستوطناتها في هذه المنطقة الخصيبة يخطر ببالها أن قومها سيصبحون بناة أعظم وأقدم إمبراطورية سامية عرفها التاريخ، أي الإمبراطورية الأكدية التي أسسها **سرجون** في القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد والتي سميت بالأكدية نسبة إلى عاصمته **أكد** التي أسسها.

وهكذا استقرت الحضارة السامية في العراق فازدهرت فيه سلسلة متواصلة من الممالك العظيمة لعبت دوراً رئيسياً في تقدم الحضارة الإنسانية.

لقد ازدهرت الحضارة السامية أول مرة في هذه المرحلة على يد الأكديين في وادي الرافدين وعاشت دولتهم فيه حوالي مائتي سنة (٢٣٥٠ ـ ٢١٥٩ ق. م)، ثم خفتت مدة من الزمن ولكنها لم تلبث حتى بعثت من جديد على يد العموريين والبابليين بعد حوالي خمسة قرون في هيئة المملكة البابلية الأولى التي عاشت حضارتها حوالي ثلاثة قرون بين سنة ١٨٩٤ و ١٥٩٥ قبل الميلاد.



★ خارطة اليمن ★

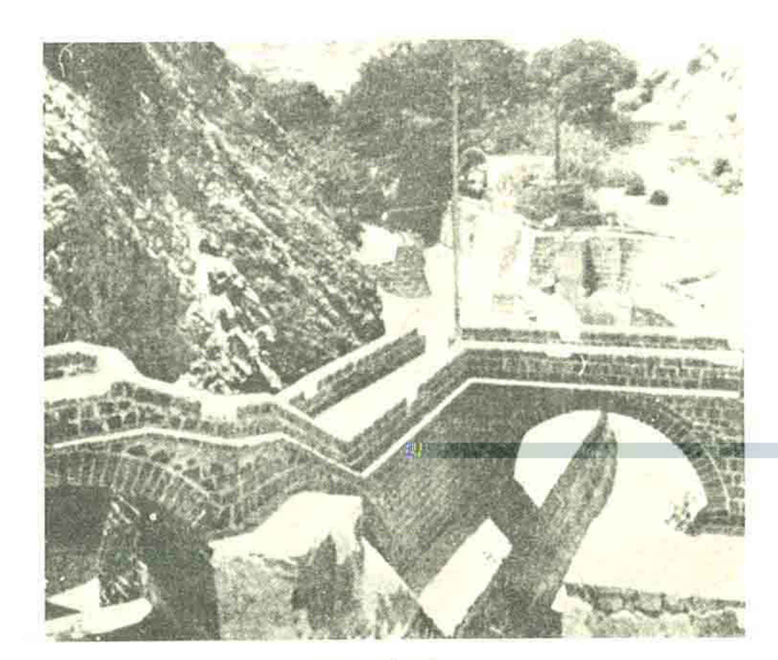
ثم بقيت الحضارة العربية فترة من الزمن بين المد والجزر كونت في خلالها دولا عربية كدولة **الغساسنة** في سورية **ودولة المناذرة** في العراق **ودولة الأنباط والتدمريين** وغيرها من الإمارات العربية **كإمارة كندة وإمارة الحضر وإمارة الرها وإمارة حمص وسنجار** وغيرها في إثر الضعف الذي حل بالسلوقيين حتى ظهر الإسلام، فانبعثت الحضارة العربية من جديد على مستوى أوسع وأعم، وعادت فانبعثت من منبعها الأصلي (جزيرة العرب) وأسست دولة عظمى فاقت جميع الدول التي سبقتها، بحيث شملت القارات الثلاث (**آسيا وإفريقيا وأوروبا**) وفي القارة الأخيرة عاشت الحضارة العربية في الأندلس حوالي ٨٠٠ سنة من عام ٧١٢ ـ ١٤٩٢ م.

وقد حاولت **أوروبا المسيحية** قهر الحضارة العربية الإسلامية في مهدها وإبادتها، ولكنها فشلت بعد محاولة استمرت حوالي ١٥٠ سنة ممثلة بالحروب الصليبية، سيئة الصيت.

وكانت كل هذه الحضارات التي غذتها جزيرة العرب بالطاقة البشرية عربية الأصل لغتها اللغة العربية (الأم)، ثم تفرع من هذه اللغة عدة فروع انطبع كل منها بطابع المكان والبيئة الجديدة على مقتضى **ناموس الارتقاء**.

وهكذا تطورت اللغة الأصلية بتطور لهجات الأقوام الناطقة بها في مستوطناتها الجديدة، حتى أصبحت هذه اللهجات مغايرة لأصلها، ولكنها مهما تباعدت بألفاظها وتشعبت تراكيبها فإنها بقيت محتفظة بالخصائص التي تتميز بها لأنها ترجع إلى أصل واحد مشترك. وقد سمى العلماء هذه اللهجات باللهجات السامية أو اللغات السامية نسبة إلى (سام بن نوح) تمييزاً لها عن اللغات الآرية والطورانية.

وتتميز اللغة السامية في كونها مؤلفة من أصول ثلاثية الأحرف ثابتة وتمتاز بحصول معظم الاشتقاق بواسطة تغيير الحركات وعلى هذه الحركات



★ صهاريج عدن ★

يتوقف نوع الدلالة . ولما كان العلماء يعتمدون على أصل اللغات في تعيين صلات الأقوام بعضها ببعض ، فقد قسم بعض علماء الساميات اللغات السامية إلى أربع مجموعات ، هي **المجموعة السامية الشرقية** ، ومنها الأكدية والبابلية والأشورية ، **والمجموعة الشمالية** ، ومنها العمورية والآرامية ، **والمجوعة الغربية** ، ومنها الكنعانية والفينيقية والموابية والعبرانية ، **والمجموعة الجنوبية** ، ومنها المعينية والسبئية والأثيوبية والعربية والأمهرية .

ويرجح عدد من الخبراء أن اللغة التي يتكلم بها بدو الجزيرة العربية حالياً هي أقرب إلى اللغة العربية الأصلية التي كان يتكلم بها أبناء الجزيرة قبل أن تنفصل لهجاتهم في مستوطناتهم الجديدة ، وذلك على أساس أن هؤلاء بقوا منعزلين في صحرائهم دون أن يختلطوا بالأقوام الأخرى الغريبة في لغاتها وقومياتها .

وهذا ما يبرهن على أن حضارة الأمة العربية أم الحضارات القديمة ، وهي من الأمم الحية والتي لا بد أن تعود إلى الازدهار كما حدث في الماضي .

وأهم ما تركه العرب في هذه المرحلة من تطور الحضارة العربية القديمة بعد هجرتهم من جزيرة العرب اختراع الحروف الهجائية **(الأبجدية)** وهي من أعظم المخترعات التي أوجدها العقل البشري ، ثم تأتي بعدها الناحية الروحية في الدعوة **لعقيدة التوحيد والاهتداء إلى عبادة الإله الواحد** .

والفضل في كلا الحادثين كما ثبت تاريخياً يرجع إلى الحضارة العربية القديمة التي نمت وازدهرت على يد الأقوام العربية التي نزحت من جزيرة العرب واستقرت في الهلال الخصيب .

ومن المتفق عليه أن الكنعانيين الذين هاجروا من جزيرة العرب واستقروا في فلسطين كانوا أول من استعمل الحروف الأبجدية في الكتابة ، وهي الحروف التي اكتشفت في **شبه جزيرة سيناء** ويعود تاريخها إلى سنة ١٨٥٠ قبل الميلاد ، ومن الكنعانيين انتقلت إلى الفينيقيين الذين نقلوها بدورهم بين سنة ٨٥٠ و ٧٥٠ قبل الميلاد إلى الإغريقية واللاتينية وصارت تعرف في اليونانية باسمها العربي الأصلي **(الألف باء)** . وبانتشار الأبجدية بطل استعمال **الكتابة المسمارية** ذات المقاطع التي كانت شائعة آنذاك وحلت محلها الأبجدية الكنعانية .

الحضارة في جنوبي جزيرة العرب

على الرغم من نزوح سكان جزيرة العرب إثر الجفاف الذي حل بها واندثار حضارتهم القديمة التي كانت قد ازدهرت في خلال فترة الدورة الجليدية الرابعة والأخيرة ، فالذين بقوا في أرضهم بعد الجفاف تركوا من مخلفات حضارتهم القديمة في جنوبي الجزيرة ، بعد أن هاجر معظمهم منها ، وأسسوا ممالك عربية ذات حضارة راقية هي حضارة اليمن المشهورة . وقد لعبت حضارة العرب في جنوبي الجزيرة دوراً مهماً في دوام واستمرار حضارة جزيرة العرب القديمة .

وفي دول جنوبي الجزيرة هذه كانت هناك دويلات يعاصر بعضها البعض ، وبخاصة في البلاد التي أطلق عليها فيما بعد اسم **(بلاد العرب السعيدة)** ، وكان أهم هذه الدويلات **سبأ ومعين وقتبان وحضرموت** . وإليك نبذة عن كل من ممالك اليمن التي ازدهرت في المرحلة الثالثة من حضارة العرب :

مملكة معين

ظهرت هذه المملكة منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، ويعتبر المعينيون أقدم الشعوب العربية التي حملت لواء الحضارة في بلاد العرب الجنوبية . وقد ظهرت هذه الدولة في المنطقة الواقعة بين **نجران وحضرموت** ، وقد كانت عاصمة هذه الدولة هي مدينة **(القرم)** ، وفي القسم الجنوبي من الجوف تقع خرائب مدينة (معين) القديمة . وقد عثر على كثير من الكتابات المعينية وهي من أقدم الكتابات العربية المعروفة . ومن أقدم الأسر التي عثر على أسماء ملوكها أسر **(ايل صادق)** و **(قه ايل)** و **(صدق ايل)** .

وكانت **حضرموت** جزءً من مملكة معين وما يتعقبها من مقاطعات في عهد الملك (صدق ايل) الذي كان يلقب بملك معين وحضرموت . ويتفق أكثر العلماء المختصين على أن حكومة معين انقرضت وحلت محلها دولة سبأ ، مع أن اسم المعينيين ورد في عدد من الكتابات المعينية التي يرجع زمنها إلى ما بعد سقوط حكومتهم .

مملكة قطبان

عاصرت الدولة المعينية مملكة عربية أخرى كانت تعرف باسم **(مملكة قطبان)** وكانت أراضي هذه المملكة تقع في الأقسام الغربية من

الجزيرة العربية وإلى الجنوب الغربي من أرض المعينيين وتمتد حتى باب المندب .

وقد استدل علماء الدراسات العربية من الكتابات التي حصلوا عليها أن هذه المملكة حكمت حوالي ٨٠٠ سنة بين القرن العاشر والقرن الثاني قبل الميلاد ، أما عاصمتها فهي مدينة (**تمنع**) وتعرف حالياً باسم (**كحلان**) وتقع في وادي (**بيجان**) في منطقة كانت تتميز قديماً بخصبها وبكثرة مياهها ومزارعها وبساتينها ، وقد كشفت آثار (تمنع) مؤخراً عن بقايا عدد كبير من المعابد .

استفاد القطبانيون من موقعهم الجغرافي ومجاورتهم لحضرموت التي تنتج أحسن أنواع البخور[1]، فجنوا ثروة كبيرة وصارت لهم قوة حدت من نفوذ المعينيين ، وهناك أدلة تشير إلى أن حكومة معين خضعت لمملكة قطبان في سنة ٨٢٠ ق . م .

ويستدل من بعض الكتابات القتبانية القديمة على أن حكام قطبان كانوا يتلقبون بلقب (**مكرب**) ووجد في كتابات أخرى أنهم كانوا يتلقبون بهذا اللقب بالإضافة إلى لقب ملك ، ثم صاروا يتلقبون بلقب ملك وحده . وقد نظم علماء الدراسات العربية قوائم بما عثروا عليه من أسماء ملوك القتبانيين وبحثوا في سني ملك كل منهم .

مملكة أوسان

وعرفت الكتابات القتبانية اسم شعب يقال له (**أوسن**) أو (**أوسان**) كانت له حكومة ومملكة عثر على أسماء بعض ملوكها . وكانت ممتلكات هذه الحكومة تكوّن جزءاً من مملكة قطبان ، ولكن الأوسانيين ثاروا على قطبان وانفصلوا عنها وكونوا (مملكة أوسان) التي انضمت إليها أو تحالفت معها قبائل أخرى . وكان الأوسانيون مثل المعينيين والقتبانيين من أهم شعوب العالم المصدرة للبخور . وقد وصلتنا كتب أوسانية كانت من جملة الكتابات التي اعتمد عليها **الهمذاني** في الحصول على معلوماته عن أخبار اليمن القديمة .

وقد وصل إلى أيدي المنقبين من هذه المملكة الصغيرة عدد من التماثيل الرخامية لبعض ملوكها تعد من أنفس ما عثر عليه من آثار في الجزيرة العربية ، وهي أول تماثيل تصل إلينا لملوك العرب ، وقد كتب على قاعدة كل واحد اسم الملك الذي يمثله . ومن هؤلاء الملوك (**معد ايل سلحان**) بن (**مصدق ايل**) . وهنا يلاحظ إضافة اسم الإله ايل إلى اسمه على غرار الملوك المعينيين .

مملكة حضرموت

ظهرت هذه المملكة قبل المسيح بمئات من القرون ، وتتميز عن الحكومات العربية الأخرى التي عاشت قبل الميلاد في كونها لم تزل تحتفظ باسمها القديم حتى هذا اليوم . وقد ورد اسمها في **التوراة** (تكوين ١٠ : ٢٦) كما ورد اسمها في الكتابات اليونانية والرومانية ، وفي الكتابات المعينية .

وكان الحضرميون يعبدون من بين آلهتهم الإله « سين » الإله القمر الذي كانوا يزعمونه والذي يعد الإله القومي لشعب حضرموت حسب اعتقادهم ، وقد تمكن العلماء المختصون بالدراسات العربية من الوقوف على أسماء عدد من حكام هذه المملكة فنظموا قوائم بهم حسب تسلسل سني حكمهم ومن هؤلاء (صدق ايل) الذي كان ملكاً على حضرموت ومعين . وقد ذكر أنه حكم في أواخر القرن الخامس قبل الميلاد . وتشير الكتابات الحضرمية إلى الروابط القوية بين حضرموت ومعين . ففي الوقت الذي كان (**معد يكرب**) ملكاً على حضرموت كان شقيقه ملكاً على معين ، كما تشير هذه الكتابات إلى أن عدداً من المكربيين حكموا في حضرموت .

وقد اتخذ ملوك حضرموت مدينة (**شبوة**) عاصمة لهم ، وقد ذكرها الكتاب الكلاسيكيون في كتاباتهم كما ذكرها الهمذاني ، وقد زار (**فيلبي**) موضع هذه المدينة وكشف آثار معابدها وقصورها القديمة ، كما كشف عن آثار السدود التي كان قد أقامها الحضرميون في وادي شبوة لخزن مياه الأمطار واستغلالها في إرواء الأراضي الزراعية .

مملكة سبأ

ورثت هذه المملكة حكومات معين وقتبان وأوسان وحضرموت ، وتمثل دولة اليمن الكبرى .

ويرى البعض أن أصل السبئيين ، قبائل بدوية من سكان (الجوف) الشمالي من جزيرة العرب غير أنهم تركوا مواطنهم في القرن الثامن قبل الميلاد وارتحلوا إلى جنوبي الجزيرة وهناك استقروا وأخذوا يتوسعون في ممتلكاتهم مستفيدين من ضعف المعينيين حتى وصلوا إلى الجوف الجنوبي من الجزيرة .

وهناك اتخذوا (**صرواح**) و (**مأرب**) عاصمتين لهم . وتقع (مأرب) التي اكتسبت شهرتها من سدها العظيم على نحو (٦٠) ميلاً إلى الشرق من صنعاء . وكان ملوك سبأ الأقدمون يلقبون بلقب (مكرب) شأنهم في ذلك شأن ملوك قطبان الأوائل ، ثم أخذوا يتلقبون بلقب (ملك) ، وقد وصلت إلينا أسماء ١٥ مكرباً و١٢ ملكاً .

وقد اشتهر دور المكارب ببناء سد مأرب الذي يعد أعظم سد أنشئ في الجزيرة العربية ، إذ كان من أعاجيب العالم القديم . فأول مكاربي سبأ وصل اسمه إلينا (**سمح علي**) (حوالي ٨٠٠ — ٧٨٠ ق . م) ثم تلاه في الحكم المكرب (**يدع ايل ضريح**) و (**يدع ايل بين**) وقد تولى بعد ذلك المكارب (**سمح علي بنافِ**) و (**يثمر وتر**) وكرب (**ايل بين**) وهم الذين قدموا الجزية **لسنحاريب وأسرحدون** . وفي عهد (**ذمر علي وتر**) خلف كرب (ايل بين) بدئ بتشييد سد مأرب أو **سد العرم** .

الحميريون

كان السبئيون قد خلفوا المعينيين في نقل التجارة بين الهند والحبشة

ومصر والشام والعراق فكانت السلع والأطياب تأتي من الهند والحبشة إلى شواطئ جزيرة العرب فينقلها السبئيون على قوافلهم إلى مصر والشام برا، فكان أن ازدهرت بلادهم واتسعت ثروتهم وامتد سلطانهم إلى أطراف الجزيرة شمالا وشرقاً فعمروا بلادهم بحفر الترع وإنشاء السدود وبناء القصور والهياكل والحصون وقد مارسوا الزراعة على أوسع نطاق حتى أخذت طرق التجارة تتحول من البر إلى البحر الأحمر وتنزل بضائعها في الموانئ المصرية أو في العقبة .

وقد أدى ذلك إلى تدهور أحوال المدن اليمانية التي كانت تعتمد في الأكثر على التجارة المارة بها ، وذلك في حين تحول الانتعاش إلى المدن اليمانية الواقعة على ساحل البحر الأحمر ، فأخذت قوة هذه المدن تزداد تدريجياً حتى استطاعت أن تتغلب على السبئيين وأن تكون دولة مستقلة .

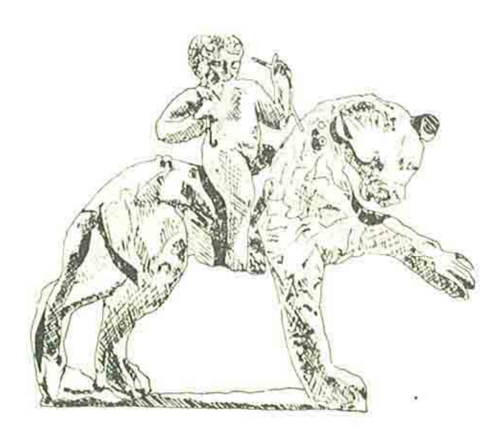
وكان أصحاب هذه المدن هم (الحميريون) وهم فرع من السبئيين اتخذوا (**ريدان**) التي هي (**ظفار**) الواقعة على بعد مئة ميل من (**مخا**) عاصمة لهم .

ويبدأ العصر الحميري سنة ١١٥ ق . م ، حين انتقلت عاصمة السبئيين إلى (ريدان) وينتهي بانقراض دولة حمير على عهد (**ذي نؤاس**) عام ٥٢٥ م . وبذلك يكون الحميريون قد حكموا في اليمن ٦٤٠ سنة ، وقد عثر علماء الآثار على أسماء ٢٨ ملكاً من ملوك حمير حكموا في الفترة بين سنة ١١٥ ق . م ، وسنة ٥٢٥ بعد الميلاد .

وقد ساعد الحميريين موقعهم الساحلي واحتكارهم الملاحة في البحر الأحمر على الاسهام في الحركة التجارية حتى سنحت لهم الفرصة فتغلبوا على إخوانهم السبئيين أو اتحدوا معهم في آخر أيام دولتهم فصار لقب زعيمهم (**ملك سبأ وذي ريدان**) وريدان هي ظفار عاصمة الحميريين .

وفي عهد الدولة الحميرية بدأت المسيحية تنتشر في اليمن فاتخذ الأحباش من نصارى اليمن سنداً لهم واستولوا على اليمن سنة ٣٤٠ م . غير أن الحكم الحبشي لم يدم طويلاً ، فقد استطاع اليمانيون إخراجهم سنة ٣٧٨ م . وكان لهذه الحملة رد فعل عند اليمانيين الحميريين ضد النصارى ، فلما جاء (ذو نؤاس) (٥١٥ ــ ٥٢٥ م) عزم على اجتثاث المسيحية من اليمن وفرض على النصارى ترك دينهم ، ولما أبوا أحرقهم بالنار .

ويروى أن (ذا نؤاس) اعتنق اليهودية وتسمى (**يوسف**) أو (**فنحاص**) غير أن اضطهاد ذي نؤاس للمسيحيين أثار البيزنطيين فأوعزوا إلى الأحباش بالهجوم على اليمن انتصاراً للنصارى ، وكان أن جهز الأحباش حملة على الدولة الحميرية واستطاعوا أن يقضوا عليها ، فقتلوا أهلها وهدموا حصونها ، أما ذو نؤاس فقد رمى بنفسه في البحر وقال : (**الموت في البحر خير من الأسر**) ولكن لم يلبث أهل اليمن طويلاً حتى استنجدوا بالساسانيين الفرس وهم أعداء البيزنطيين فأنجدوهم بقوة استطاعت أن تخرج الأحباش من اليمن ، وبذلك تحررت اليمن على الرغم من محاولة الفرس البقاء فيها .



★ أحد التماثيل البرونزية المكتشفة في مقبرة في «تمنة» (تمنع) في جنوبي الجزيرة العربية يعود تاريخه إلى ٧٥ ــ ٥٠ ق.م. ★

الصفويون

هم قبائل عربية من جنوبي جزيرة العرب ، كانوا يتنقلون من مكان إلى آخر طلباً للماء والكلأ ، فكانت رحلاتهم تسير وفق نظام فصول السنة ، إذ كانوا يقضون الشتاء في جزيرة العرب وخاصة في (**نجد**) ، وفي الربيع كانوا يتجهون نحو الشمال بحثاً عن المراعي فيصلون إلى أطراف حدود أهل الحضر ، وكانوا أيضاً يغزون المراعي الطبيعية مثل مراعي **الجولان** . فكانت هذه القبائل تقوم بهذه الرحلة نفسها كل عام إلى منطقة **الصفاء** أو (الصفا) الكائنة في الجنوب الشرقي من الشام ، مما جعل الباحثين المحدثين يطلقون اسم (**الصفويين**) عليهم ، نسبة إلى أرض الصفا التي تركوا فيها كتاباتهم على الأحجار . لذلك فإن كلمة (الصفويون) لا تعني شعباً معيناً أو قبيلة معينة وليست لدينا أية معلومات عن الاسم القديم لسكان إقليم الصفا ، كما أننا لا نعلم شيئاً عن كيانهم الاجتماعي والسياسي فيما إذا كانوا يشكلون إمارة مستقلة ، مع أنه عثر على نص إغريقي يسمي الإقليم (**صفاشن**) Saphathene ، واسم إله مزعوم عرف بـ « **زيوس الصفوي** » أي نسبة إلى هذه الأرض ، وإلى اليوم يطلق على العرب الذين يعيشون حول الصفا اسم (**عرب الصفا**) .

حضارة اليمن

إن أهم المخلفات الحضارية التي حافظ أهل اليمن عليها ، وقد بقيت معهم ، هي لغتهم القديمة ، وهذا يفسر لنا الأهمية التي كانت للعربية الفصحى بين عرب ما قبل الإسلام ، كما يفسر لنا إجماع علماء النحو المقارن للغات السامية على أن اللغة العربية الفصحى هي بلا منازع أقدم صورة حية من اللغة السامية الأم ، وأقرب هذه الصور إلى تلك اللغة التي تفرعت منها بقية اللغات السامية .

ومما يؤيد أن الجماعات التي نزحت من جنوبي الجزيرة العربية إثر الجفاف الذي حل ببلادهم كانوا مزودين بتراث حضاري عربي قديم ورثوه عن أجدادهم وقد جاؤوا به معهم من مناطق سكناهم ، وهذا التراث هو الخبرة الهندسية التي اكتسبوها من ممارسة الزراعة على مشاريع الري .

ولما كانت الزراعة عماد الحضارات القديمة فهذا هو تفسير السر الكامن في مقدرة المهاجرين الجدد أن يؤسسوا في وادي الرافدين أعظم الإمبراطوريات مما عرفه عالم ذلك الزمان في مدة قصيرة نسبياً .

ومما ساعد أهل اليمن على تكوين الممالك العربية واستمرار حضارة العرب القديمة استخدامهم مياه السيول بإنشاء السدود والخزانات حتى بعد الجفاف ، وهذا مكنهم من استمرار ممارستهم الزراعة التي تعتمد على الري الدائم ، ولما كانت أودية الجزيرة الحالية تؤلف أنهاراً جارية في العصر الجليدي الأخير ، وذلك قبل نزوح سكان الجزيرة إلى الهلال الخصيب ، [illegible] وادي النيل وحضارة وادي الرافدين .

أما العوامل التي أدت إلى سقوط حضارة اليمن فيمكن تلخيصها في النقاط التالية المتشابكة فيما بينها :

١ ــ **العامل الاقتصادي** : وذلك من جراء فقدان اليمنيين لتجارة المر والبخور منذ بداية القرن الرابع ، مما أدى إلى عزل اليمن سياسياً واقتصادياً وثقافياً عن مراكز الحضارات الأخرى في **حوض البحر الأبيض المتوسط** وبلاد الرافدين . وكنتيجة حتمية أفقدها حركة التواصل والتأثير في الأفكار والقيم الحضارية المشتركة .

٢ ــ **العامل الاجتماعي** : وذلك بسبب الحروب الداخلية والغزو الخارجي ، مما أدى إلى هجر أعمال الري الرئيسية وإهمالها ، وإعاقة إجراءات الصيانة الضرورية لأنظمة الري .

٣ ــ **العامل السياسي** : وذلك بانقلاب الأقلية الموجهة إلى سلطة تعسفية في أواخر حياة الحضارة اليمنية عندما بدأ العمل يقل تدريجياً بنظام الاستشارة ، ثم زال من الوجود منذ القرن الثالث للميلاد بعد قيام دولة سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنات .

٤ ــ **العامل الديني** : وذلك بقيام الأقلية المسيطرة في اليمن القديمة بفرض المسيحية على رعاياها . وقد حاولت في الأخير أيضاً محاولات عقيمة للتوفيق بينها وبين اليهودية ، ولكن زاد الأمر سوءً فأدى إلى تقسيم اليمنيين إلى فريقين متناحرين يتقاتلان من أجل تينك الأيديولوجيتين الدخيلتين ، ومن ورائها القوتان الأعظم في ذلك الحين (**فارس وبيزنطة**) ، مما كان له أبلغ الأثر في سقوط الحضارة اليمنية . ناهيك عن أن الوثنية القديمة في اليمن قد تعرضت لضربات عنيفة من هذه الأيديولوجيات الدينية الجديدة ، والاحتمال كبير في أن القيم السابقة قد تلطخت سمعتها ، وأن مثل هذه التبدلات المتتالية في الأديان قد تركت اليمنيين في حالة ضياع فكري وبدون أية قيم ومعتقدات واضحة يهتدون بها ويرجعون إليها .

٥ ــ **العامل الثقافي** : وذلك بسبب الفتور الذي خيم على ثقافتهم القديمة التي شاخت بحيث لم يعد بمقدورها مواكبة الحياة الجديدة أو الاستجابة لمطالبها واتجاهاتها . . . وعندما ظهر الإسلام إلى الساحة لم يعد هناك من الثقافة القديمة ما هو جدير بالبقاء أو بمقاومة الحياة الجديدة المتكاملة التي أتى بها الإسلام .

الخاتمة

إن حضارة العرب تميزت في كل الأدوار التي مرت بها بالاستمرارية والديمومة . فقد بدأت في جزيرة العرب قبل أكثر من عشرين ألف سنة ثم توقفت مؤقتاً بعد أن حل الجفاف في البلاد ، ولكنها واصلت نشاطها فكونت إمبراطورياتها في وادي الرافدين ، ثم عادت فظهرت في جزيرة العرب أيضاً بظهور **الإمبراطورية العربية الإسلامية** بعد القرن السادس الميلادي ، وهي لم تزل حية لم تمت تمارس نشاطها الحضاري حتى هذا اليوم .

وأهم ما تميزت به حضارة العرب هذه هي أنها ذات طابع أصيل وذات طابع استمراري متواصل عبر العصور التاريخية ، فقد كانت في كل الأدوار التي مرت بها ، تزدهر حيناً ثم تنهار حيناً آخر ، ثم تنبعث من جديد وتختفي عدة مرات ، كل ذلك دليل على أن هذه الحضارة لا تزال حية بجذورها العميقة ومقوماتها التراثية .

وفي ذلك يقول **(جورج سارتون)** : « **سبق للعرب أن قادوا العالم في مرحلتين طويلتين من مراحل التقدم الإنساني طوال ألفي سنة على الأقل قبل أيام اليونان ، ثم في العصور الوسطى مدة أربعة قرون تقريباً ، وليس ثمة ما يمنع هذه الشعوب من أن تقود العالم ثانية في المستقبل القريب أو البعيد** » .

ويجب أن لا ننسى أن جميع الحضارات التي قامت على الأرض العربية هي ملك الأمة العربية . وأن حضارة العرب على امتدادها التاريخي هي الوريث الشرعي لتلك الحضارات القديمة .

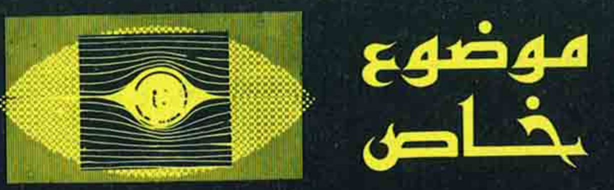
وكما ازدهرت حضارة العرب ثم اختفت عدة مرات عبر التاريخ ، كذلك ستنبعث من جديد في المستقبل ، **والتاريخ يعيد نفسه** (★) .

الهوامش

(١) كان لمادة البخور أهمية خاصة في العالم القديم توازي أهمية الذهب والبترول في عصرنا الحديث ، إذ كان البخور يستخدم أساساً عند تقديم النذور في المعابد . وكانوا أيضاً يستخدمونه أثناء حرق جثث الموتى من أجل القضاء على الروائح الكريهة المنبعثة منها من جهة ، ومن جهة أخرى ، لأجل استرضاء الآلهة المزعومة . ولا شك في أن الحاجة إلى البخور كانت بالغة الأهمية قبل ظهور المسيحية ، وعندما كانت العادة هي أن تحرق جثث الموتى بدل أن تدفن دفناً عادياً . كذلك كانت الحاجة شديدة إلى البخور من أجل استخدامه في تحضير الروائح العطرية وأيضاً لبعض خاصيته الشفائية . فقد كانوا يستخدمونه لوقف النزيف وضد التسمم ، وهو مع مادة (المر) كانا يستعملان أيضاً كعقاقير طبية لتخفيف الشلل ووجع الرأس وداء الاستسقاء .

(★) صدر الكتاب عن (وزارة الثقافة والإعلام) بغداد ١٩٧٩م ، طباعة : دار الحرية . يقع الكتاب بحدود ٣١٦ صفحة من الحجم الكبير .

موضوع خاص





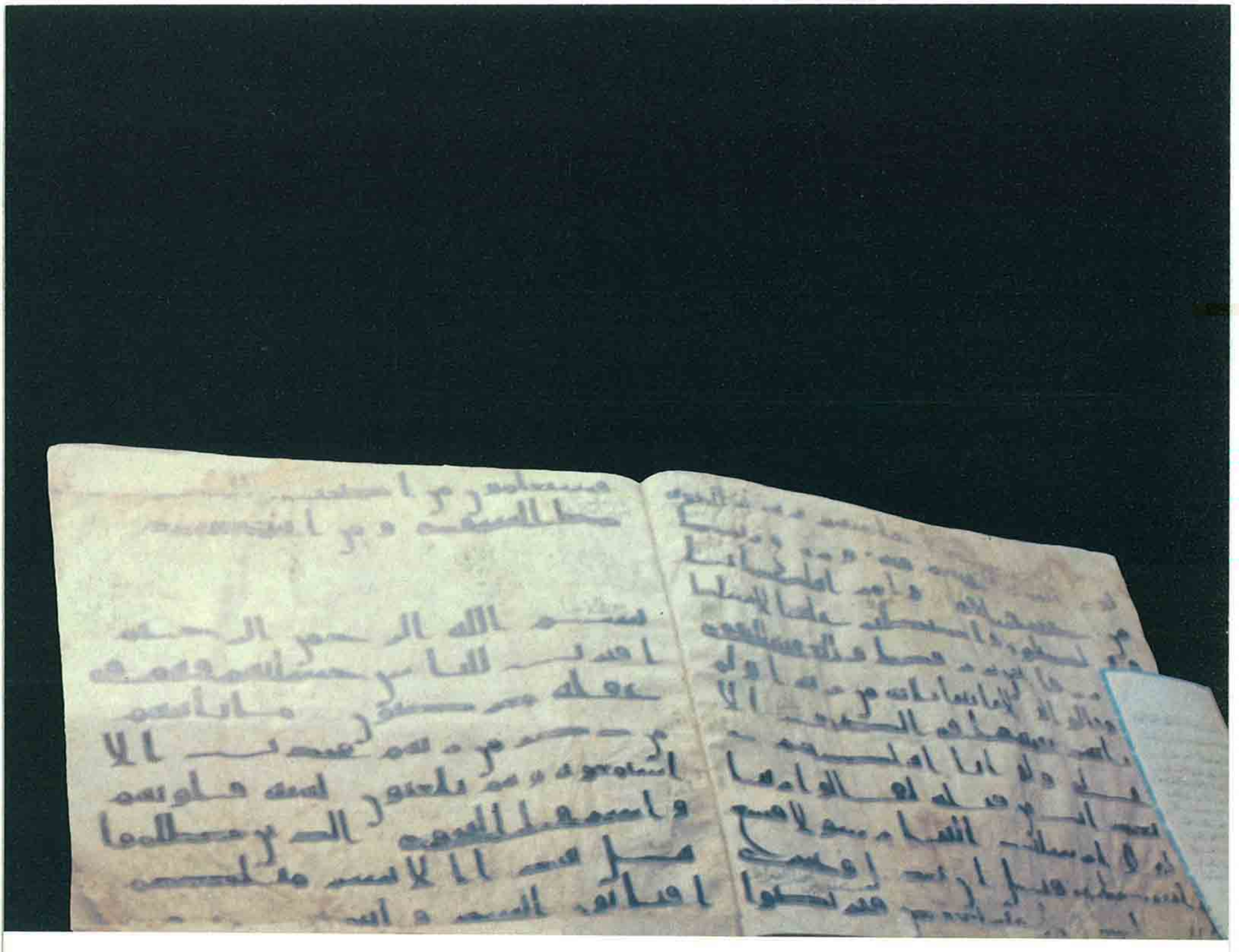
المصحف الشريف
وتطور الخط العربي



بقلم : د. سعد ظلام

أقامت دار الكتب والوثائق القومية في مبناها الجديد بكورنيش النيل بالقاهرة معرضاً تراثياً ضمّ مجموعة ضخمة من المصاحف الشريفة تمثل في تسلسلها تطوراً تاريخياً فنياً ممتازاً للخط العربي .





★ مصحف عثمان بن عفان ★

وقد زخر المعرض بمجموعة لا بأس بها من أدوات الكتابة وبوادرها في القرون الأولى للهجرة . فضم دواة من حجر الصابون في شكل مربع يمثل عينين للمداد ومكاناً لليقة[1] من الحرير ، ومستطيلاً للمرملة لتجفيف المداد وقلماً من البوص للكتابة .

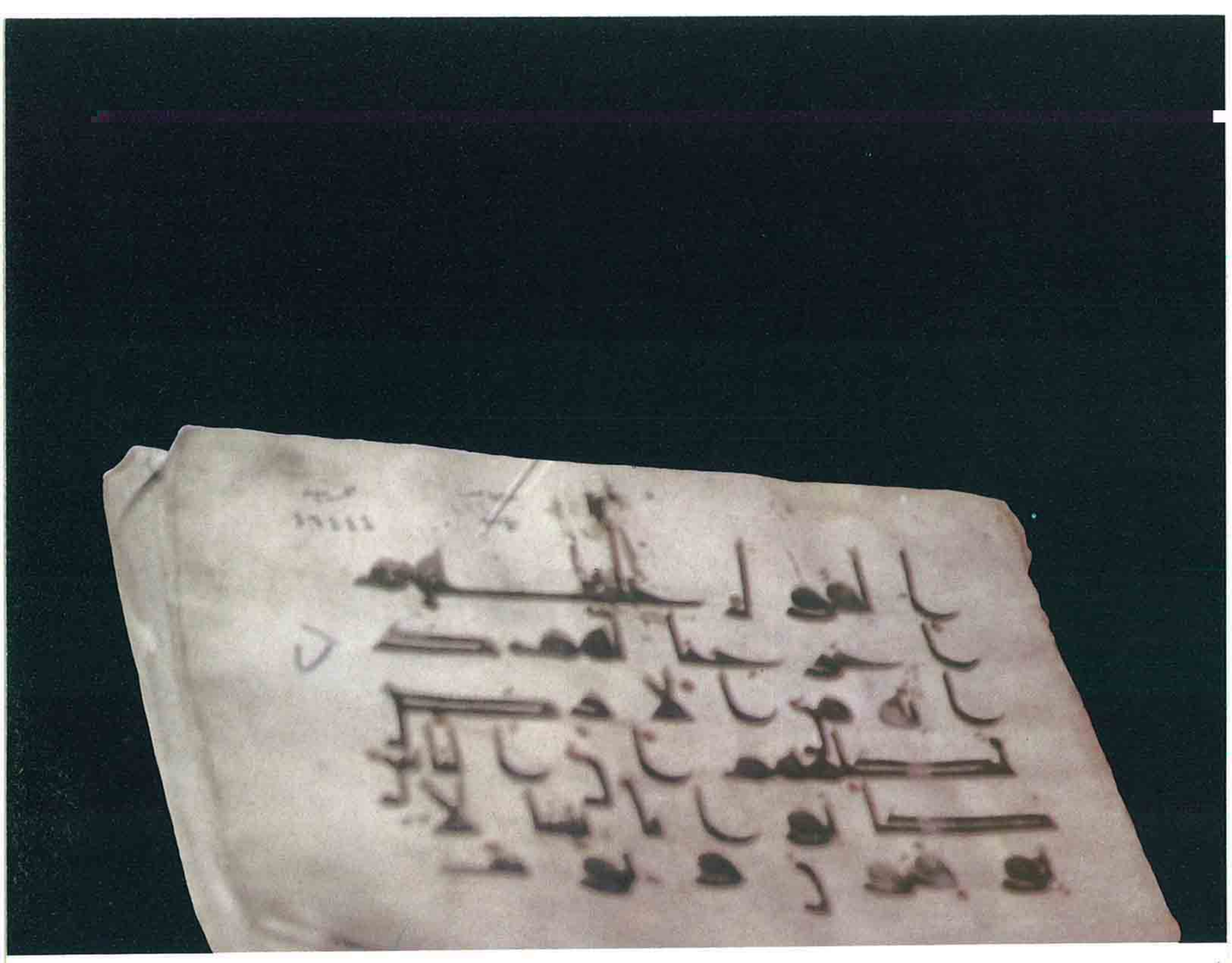
وكما ضم المعرض مجموعة من نماذج أدوات الكتابة ، ضم مجموعة أخرى من المواد التي كانوا يكتبون فيها . فهناك مجموعة من **الشقف** كانت تستعمل كمذكرات خاصة ، ومفكرة من الأوراق البردية مخيطة من أعلى كانت تستعمل مذكرات خاصة يومية فيما يبدو ، وهناك أيضاً قطعة من الخشب مكتوب عليها الآية الكريمة « **والنجم إذا هوى** » وقطعة رخام من عهد **الوليد بن معاوية** المتوفي ٢٠٥ هـ ، وكتف جمل مكتوب عليه أسماء الشهود المعتمدين لدى القاضي في أوائل القرن الرابع الهجري ، كان يُعَلَّق على باب الوالي ، وعقد زواج مكتوب على ورق من القرن الرابع الهجري أيضاً .

وهذه النماذج تمثل تطوراً تاريخياً فنياً للأدوات الكتابية ، وللأشياء التي كانت تستخدم في الكتابة عليها ، وكيف تطورت هذه الأدوات حتى وصلت إلى الورق في القرن الرابع الهجري .

ومجموعة المصاحف المعروضة تمثل تراثاً غالياً في التطور الفني التاريخي للخط العربي وللكتابة العربية عموماً .

ولكي نتبين هذا التطور التاريخي الفني ينبغي أن نعرض الفكرة التاريخية حول معرفة العرب للكتابة .

فالعرب أمة أمية . هكذا وصفهم الله سبحانه ، والرسول من العرب وهو أميّ لم يقرأ ولم يكتب ، ولم يكن قارئاً أو كاتباً قبل نزول الوحي . قال تعالى : ﴿ **وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطّه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون . بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم** ﴾[2] . وكانت أميته من بين أسباب التصديق برسالته وإعجاز القرآن ، وهناك خلاف حول معرفته القراءة والكتابة بعد



★ مصحف أبي الأسود الدؤلي ★

البعثة ، أظهر هذه الآراء أنه بقي أمياً ، وليس ذلك فيما يخدش أو يشين .

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين . وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم** ﴾[٣] . ﴿ **لقد مَنَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين** ﴾[٤] .

ونلاحظ أن الآيات السابقة تثبت أمية العرب وأمية الرسول . ولكنها في الوقت نفسه تثبت أن الرسول والرسالة قد ارتبط بهما أمر حيوي هام بالنسبة إلى العرب وهو التغيير الذي يتناول كل شؤونهم ومختلف حياتهم وأوجه نشاطهم . فقد ارتبط بهما أمر تلاوة القرآن والكتب والتعليم والتزكية ، فكأنه من غاية الرسالة الإسلامية الخروج بالعرب من هذه الأمية التي كانوا عليها إلى مرحلة فيها قراءة وتلاوة وكتابة للكتب وبيان وفيها تعليم للحكمة وتطهير النفوس وتزكيتها قال تعالى : ﴿ **فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون** ﴾[٥] . ولهذا لم يكن بمستغرب أن تكون أول آية نزلت من القرآن الكريم على الرسول وأولى طلائع الوحي المهيب في حراء النور تحدياً لهذا الواقع الذي كان عليه العرب وعروجاً بهم إلى هوادي المستقبل المليء بالبشر والرجاء ، وربطاً للرسالة وللرسول بالفلاح والإيمان والهداية من جهة ، وبالنور والعلم وتعليم الحكمة والآي البينات التي نزلت على الرسول . . ﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم** ﴾[٦] . وقد ارتبطت عملية التغيير باسم الله الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ، وكأن الله أعطى أداة التعليم وهو القلم مع أول آية إيذاناً ببدء عملية التغيير والإصلاح المنشود المرتبط بالله



★ مصحف السلطان برقوق ★

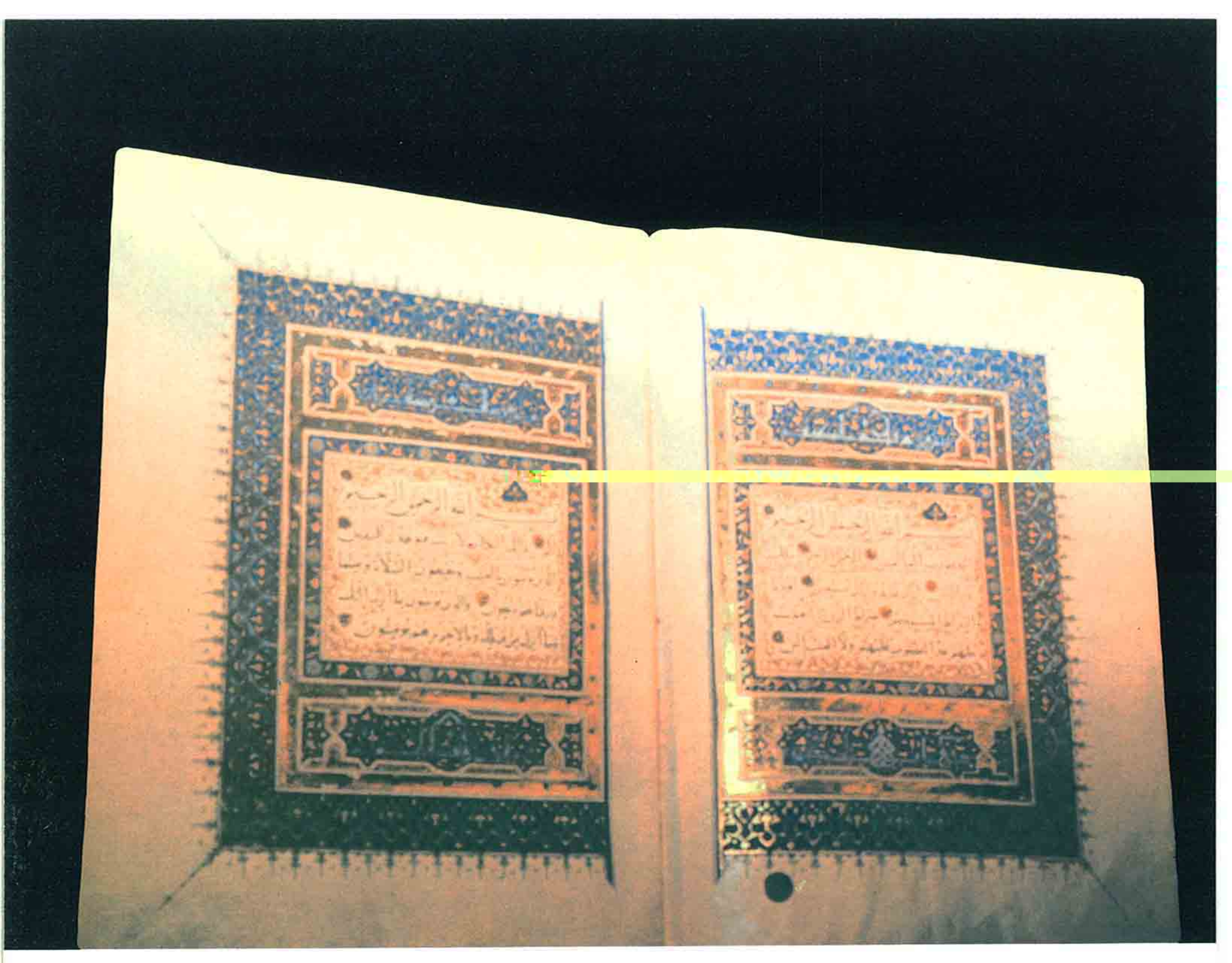
والحق، وبالتعليم للإنسان. حتى كان الرسول نفسه نوراً وكان القرآن ـ وهو المعجزة الوحيدة من بين المعجزات ـ كتاباً مكتوباً مقروءً ليبق ويؤثر ويغيّر ﴿ **يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً** ﴾(٧). ﴿ **ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم** ﴾(٨).

ولقد ارتبطت أمية العرب أيضاً بأن ظلت الحضارة العربية حضارة شفوية ذات طابع شفوي يجعلها قريبة من ينابيع الطفولة والبدائية، واستمرت تحاول الاحتفاظ بكل المعارف والأحداث والتواريخ في قالب لغوي يسهل حفظه ويخدم غرضها في نقل التراث الحضاري بدون تدوين. فاعتمدت على النقل الشفوي حتى أصبح بمرور العصور طابعاً أساسياً تعتمد عليه فخصصوا النقلة والرواة وأصبحت صدورهم سجلات تزخر بكل ما تتسع له حضارتهم. ولم تخلص **الجزيرة العربية** من هذا الطابع الشفوي للحضارة إلا بتكريم الله لها واختصاصها بالقرآن، الذي دفع بالحضارة إلى اتجاه جديد، ومنحى جديد، منحى التدوين والتسجيل، ففضل القرآن على الحضارة العربية في هذا فضل عظيم دون شك.

لكن.. **كيف تعلم العرب الكتابة؟ وكيف بدأت كتابة القرآن؟ وكيف تطور هذا الفن؟**

أما كيف تعلم العرب الكتابة، فلذلك تاريخ طويل، فقد كانت هناك حروف متشابهة أو متباينة يكتب بها **الحميريون والسبئيون والمعينيون** وكتب بها أقوام **عاد وثمود**، ثم اتصلت **بالحيرة والأنبار**، ربما بعد انهيار **سدّ مأرب** وبدء اتصال العرب الجنوبيين بالشماليين.

والمهم أن أهل الأنبار هم الذين نشطوا لهذا الفن، فعلموا أهل الحيرة الكتابة، وعلموهم القلم الذي به تُمحى الأمية وتنكشف رموز الأشياء وتُعرف حقائقها.



★ مصحف مملوكي ★

وأول من وضع الخط فيما يحكيه **القلقشندي**[9] رجل من طيء سمّى أولاده بأسماء الحروف الهجائية « أبجد . هوز . حطّي . كلمن . سعفص . قرشت » . قال : **فوضعت الكتابة على أسمائهم ، وزادوا ما نقص من حروف الكتابة والنطق . ثم شاع هذا وفشا في العرب بعد .**

وروي أن **زياداً** قال **لابن عباس** رضي الله عنه : معاشرَ قريش .. هل كنتم تكتبون في الجاهلية ؟ بهذا الكتاب العربيّ ، تجمعون فيه ما اجتمع ، وتفرّقون فيه ما افترق ؟ هجاء بالألف واللام والميم والشكل والقطع ، وما يُكتَبُ به اليوم ؟

قال **ابن عباس** : نعم .

قال **زياد** : فمن علمكم الكتابة ؟

قال **ابن عباس** : حرب بن أمية .

قال **زياد** : ومن علم حرب بن أمية ؟

قال **ابن عباس** : عبدالله بن جُدعان .

قال **زياد** : ومن علم عبدالله بن جُدعان ؟

قال **ابن عباس** : أهل الأنبار .

قال **زياد** : فمن علّم أهل الأنبار ؟

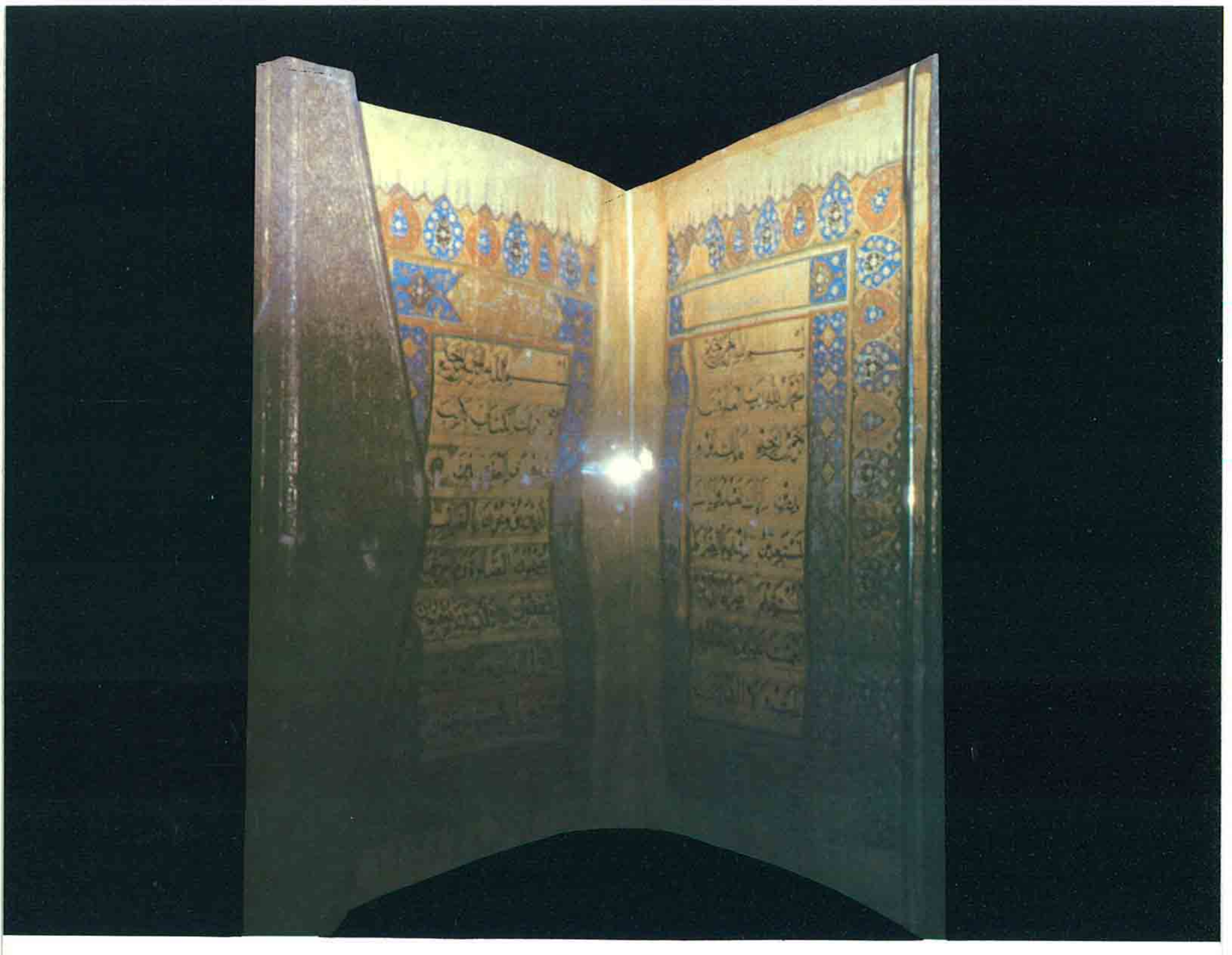
قال **ابن عباس** : طارئ طرأ عليهم من أهل اليمن من كندة .

قال **زياد** : فمن علّم ذلك الطارئ ؟

قال **ابن عباس** : **الخكجان بن الموهم ، كان كاتب هود نبيّ الله** عز وجل .

وروى أن ثلاثة من طيء اجتمعوا وقاسوا هجاء العربية بالسريانية ، ثم تعلم منهم أهل الأنبار وعن طريقهم تعلم أهل الحيرة ، كما رواه **البلاذري** عن **عباس بن هشام بن محمد بن السائب الكلبي** عن جدّه .

ونلاحظ بعد هذا كله أن **الحجازيين والمكيين تعلموا الخط**



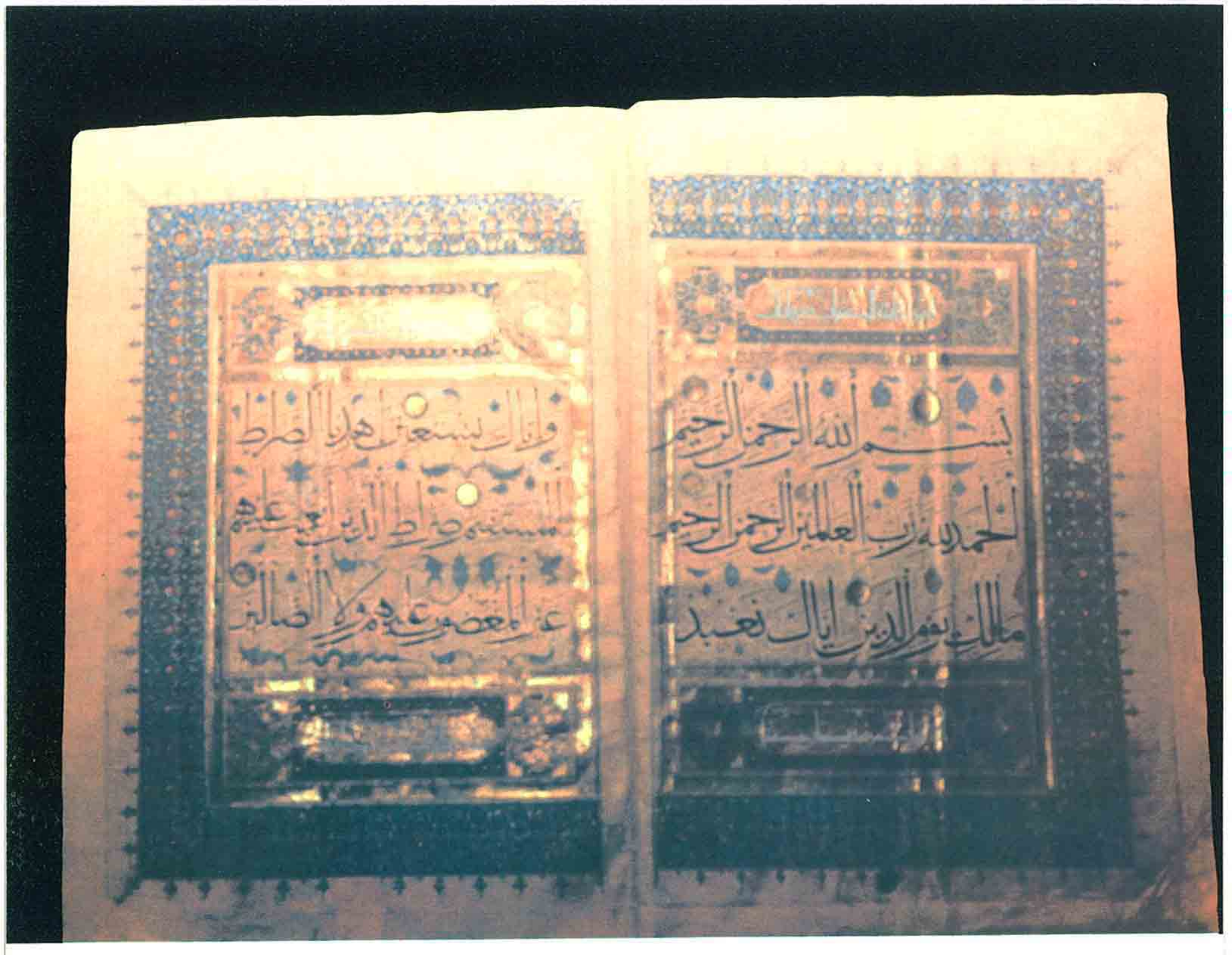
★ المصحف الهندي الكبير ★

والكتابة من خارج الحجاز ومكة ، وتلتقي أغلب الآراء حول الأنبار والحيرة ، الأنبار أولا ثم الحيرة ، ثم بدأت تظهر بعد ذلك في مكة والمدينة قبل البعثة المحمدية وقد تعلم الكتابة **أبو بكر وعمر وعثمان وعلي** بعد هجرته ، وكان هناك كتاب للوحي منهم غير هؤلاء الأربعة **أبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وثابت بن قيس بن شماس ، وعبد الله ابن رواحة** وغيرهم ذكرهم صاحب الروض الأنف[١٠] **وابن هشام** في سيرته .

كتابة القرآن

كانت كل معارف العرب تعتمد على البديهة وكانت كل حضارتهم تعتمد على المشافهة والنقل والحفظ والسماع والتنقل ، ولم تكن حضارتهم تعتمد على التدوين ، وقد خاف الرسول صلى الله عليه وسلم ، على القرآن أن يتفلّت : « وكان الرسول يعالج من التنزيل شدّة فكان يحرّك به لسانه وشفتيه ، مخافة أن يتفلّت منه ما يريد أن يحفظه ، فأنزل الله عليه ﴿ **لا تحرّك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه** ﴾[١١] » . « فكان رسول الله إذا ما جاءه جبريل أطرق إليه واستمع » فإذا ذهب قرأه كما وعده الله .

ولقد توجهت همة الرسول إلى تدوين القرآن ، فاختار مجموعة من أصحابه لكتابته ، وكان يعلمهم بنفسه طريقة التدوين للآيات ويبين لهم مواضعها فكانوا يكتبون الآيات على رقائق الحجارة المصقولة ، وجريد النخل والجلود والعظام ، كما كان يأمرهم بتدوين الآيات والسور حسب ترتيب نزولها . فكان الصحابة يكتبون ما يسمعون من رسول الله . وفي الوقت نفسه نهاهم عن كتابة شيء سواه ، يقول الرسول : « **لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن** »[١٢] .



★ مصحف مملوكي ★

جمع القرآن

ولم يجمع القرآن في شكل مصحف على عهد رسول الله ، وإنما كان في عهد **أبي بكر** بعد توليه الخلافة ، وبعد أن استمر القتل بالقرّاء في **بئر معونة** وفي **معركة اليمامة** في العام الثاني للهجرة ، بعد أن استشهد من الصحابة القُرّاء في هذه المعركة سبعون صحابياً .

جزع **عمر** لذلك وخشي على القرآن أن يضيع فذهب إلى **أبي بكر** وشكا له وطلب منه جمع القرآن ، فتردد في الأمر ، وقال له : كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله من قبل ، وظل عمر يراجعه حتى شرح الله صدر أبي بكر لرأي عمر .

يقول **أبو بكر** : فطلبت **زيد بن ثابت** ، وقلت له : إنك رجل شاب عاقل ، لا نتهمك ، فقد كنت تكتب الوحي لرسول الله فتتبع القرآن فاجْمَعْه .

يقول **زيد** : فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن . .

ويقول زيد : فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال . حتى وجدت آخر سورة التوبة مع **أبي خزيمة الانصاري** ، لم أجدها مع أحد غيره .

جمع **زيد** الصحف ، فكانت عند **أبي بكر** حياته حتى توفاه الله ، ثم كانت عند أم المؤمنين **حفصة** ، وروى أن **علياً** كان أسبق من أبي بكر في جمع الصحف . ولكن يضعف هذه الرواية قول عليّ نفسه : **« أعظم الناس أجراً أبو بكر رضي الله عنه ، هو أول من جمع المصحف »** .

وقام عثمان في عهده بجمع القرآن في مصحف واحد من الصحف التي كانت عند حفصة ثم نسخ منه مجموعة من المصاحف ، وطيرها وأرسلها إلى البلاد الإسلامية . وسبب ذلك ما رآه **عثمان** من الاختلاف



في قراءة القرآن ، وقد كان **زيد بن ثابت وعبد الرحمن بن الحارث ابن هشام وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص** نساخ أول مصحف بأمر **عثمان** .

وكان من أهم خصائص مصحف عثمان ترتيب السور وتنسيقها على الصورة والشكل اللذين نراهما الآن ، ثم أحرق عثمان المصاحف المخالفة .

ومصحف عثمان مكتوب بخط كوفي ، ويلاحظ عليه خطه الواسع ، فالصفحة فيه تتسع لاثني عشر سطراً ، مكتوب على رق غزال أبيض وحجمه كبير وتبدأ الصفحة اليمنى التي في الشكل من قوله ﴿ **ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه** ﴾ من أواخر سورة «طه» إلى قوله تعالى : ﴿ **فتربصوا** ﴾ وتبدأ الصفحة الثانية (اليسرى) من قوله تعالى : ﴿ **فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى** ﴾ ، آخر سورة طه ثم تبدأ سورة الأنبياء فتنتهي عند قوله تعالى : ﴿ **وأنتم تبصرون** ﴾ ويقال إن هذا المصحف هو الذي استشهد عليه **عثمان** رضي الله عنه .

وأغلب الظن أنه من المصاحف التي طيرها عثمان إلى الآفاق . كما يلاحظ على المصحف خلوه من النقط والشكل ، لأن النقط والشكل جاءا في مرحلة تالية بعد ذلك ، لقد كان الذوق العربي والفطرة العربية السليمة في النطق تستغني عن النقط والشكل مستندة إلى ملكة ذوقية سليمة وفطرة صحيحة .

وهناك إلى جانب مصحف **عثمان** مصحف **الحسن البصري** ٧٧ هـ ، وهو مكتوب بخط كوفي أيضاً ، ولكن خطه دقيق جداً ، وسعة الصفحة ثلاثون سطراً ، وحجمه صغير .

وكلا المصحفين مكتوب في **القرن الأول الهجري** ، وقد خليا من النقط والشكل .

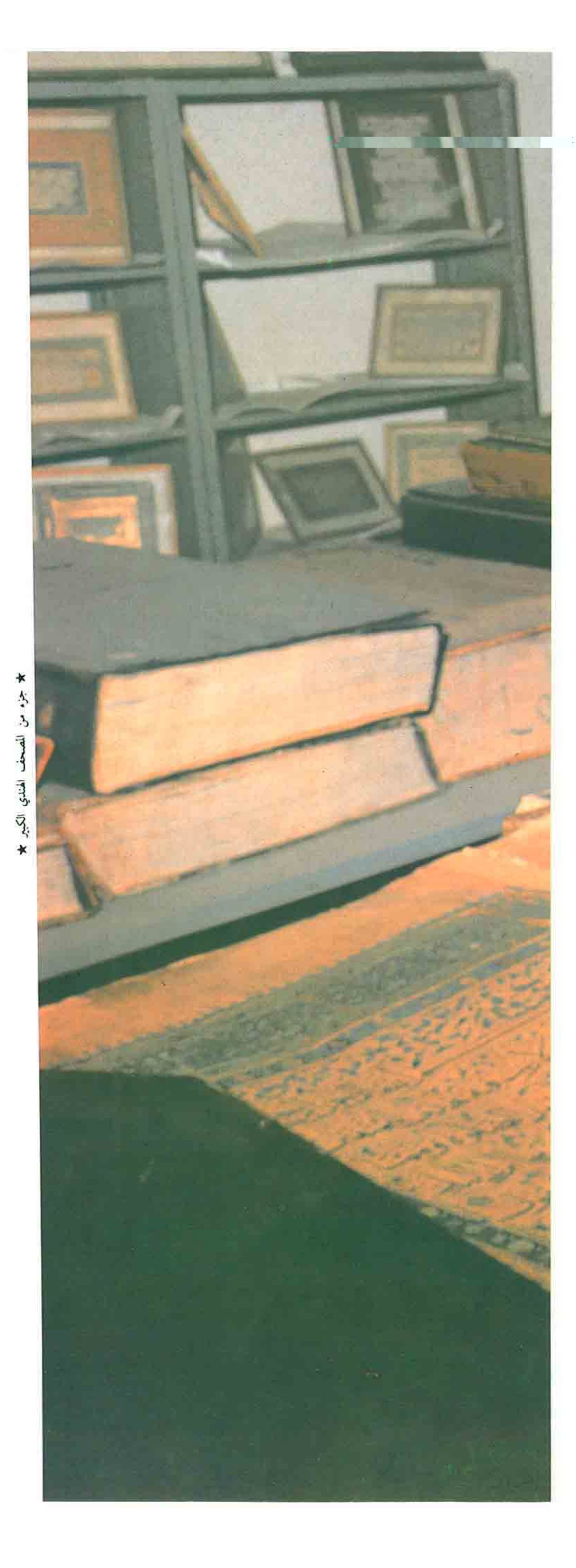
نقط المصاحف

كانت المصاحف التي نسخت غير منقوطة ، وكانت حروفها كلها مهملة غير معجمة أو منقوطة ، فلقد كان السلائق في أوجها والمواهب اللغوية والملكات اللغوية في برجها الأسنى .

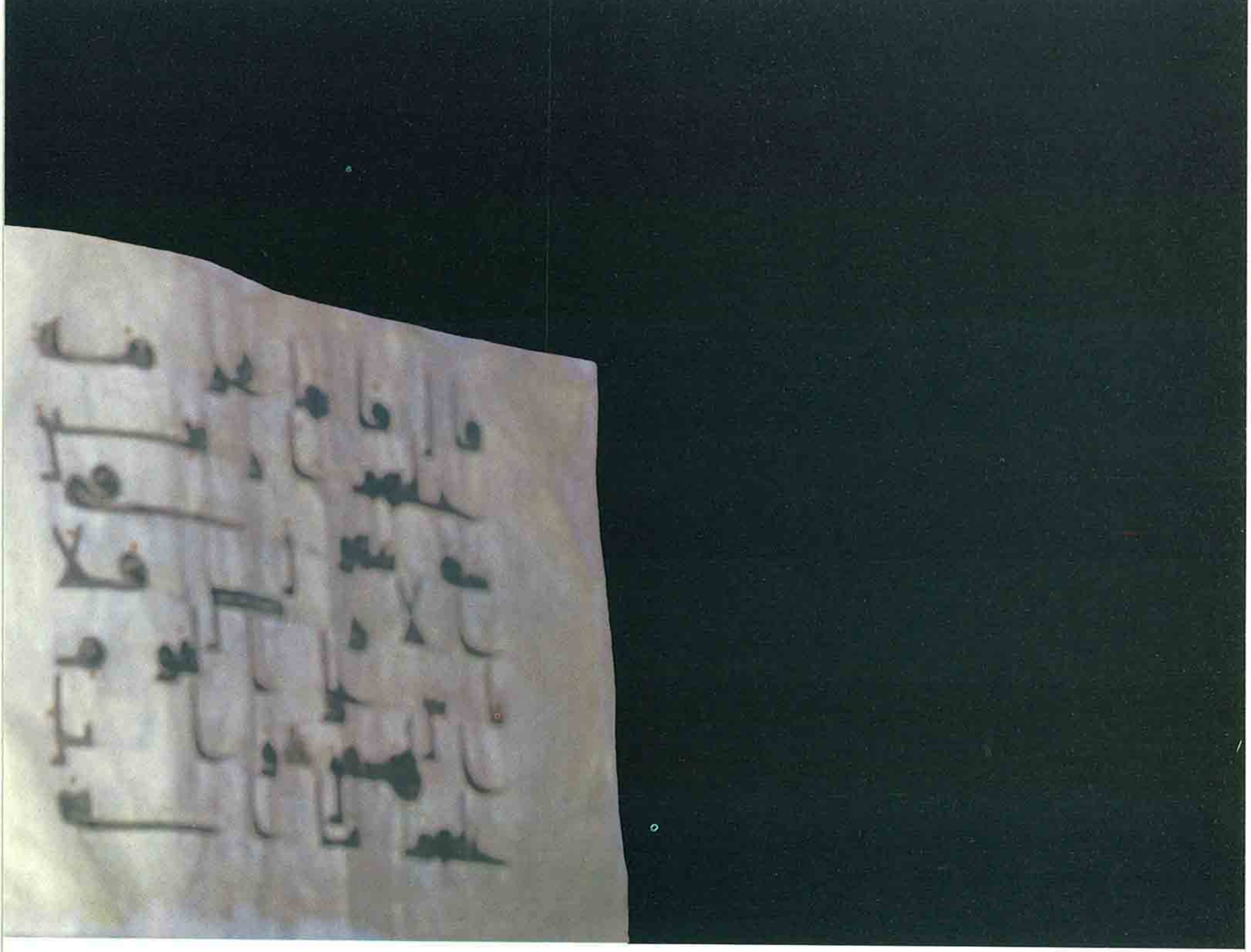
ولم تكن هناك ضرورات تستدعي النقط أو توجبه ، فلم تكن تأثرت بالعجمة بعد ، وحدث أن فتح الله على المسلمين الأقطار والأمصار لم تكن لغاتها العربية ، فبدأ الاعتماد على السلائق يضعف بالاحتكاك من جهتين : من جهة الاحتكاك الناشئ بين العربي وغيره من أبناء الإسلام فرساً أو روميين ، ومن جهة الموالي من الفرس والروم الداخلين في الإسلام . وقد أدى هذا كله إلى أن بدأت الحاجة إلى نقط المصاحف تتضح وتظهر وتُلح .

فلقد بدأ الموالي يقرؤون القرآن ويلحنون في قراءته . فنهض لهذا الأمر بعض الغيورين على القرآن يصوبون هذه الألسن ، وقد رأوا أن أسلم الطرق لتلافي ذلك الخطأ هو نقط المصحف . **وقد قام بهذا الأمر أبو الأسود الدؤلي** ، فهو أول من نقط المصاحف ، وقيل إن الذي نهض بهذا الأمر هو **نصر بن عاصم الليثي ويحيى بن لعجر العدواني** ، وقد يكون هذان قاما بعد **أبي الأسود** بتصحيح بعض المصاحف بالنقط ، فقد اشتهر أنه هو الذي نقط المصحف ، كما اشتهر بأنه هو الذي حقّق الشكل الإعرابيّ للحروف عندما سمع قارئاً يقرأ قوله تعالى : « **وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله** » بالجر .

وقيل إن الذي أمره بذلك **زياد بن أبيه** ، وقيل : **بل علي بن أبي طالب** هو الذي أمر أبا الأسود أن يضبط الشكل القرآني وقد أوشك أبو الأسود أن يمتثل لهذا الأمر ، لكن مات **علي** ، وجاء **معاوية** ، فخشي أبو الأسود أن يقال إنه لم يقم به في عهد عليّ ، وقد قام به في عهد معاوية حتى سمع القارئ يتلو الآية السابقة على هذا النحو من الخطأ



★ جزء من المصحف العثماني الكبير ★



★ مصحف جعفر الصادق ★

الفاحش فنهض للأمر .

ولم يكن الشكل شائعاً آنذاك ، وإنما كان يقوم النقط مقامه ، فكانت توضع نقطة على الحرف الأخير بدل الفتحة أو للدلالة عليها ، ونقطة تحته لتدل على الكسرة ، ونقطتين لتدلا على السكون ، أما الضمة فكانت توضع نقطة بين الحرف علامة على الضمة .

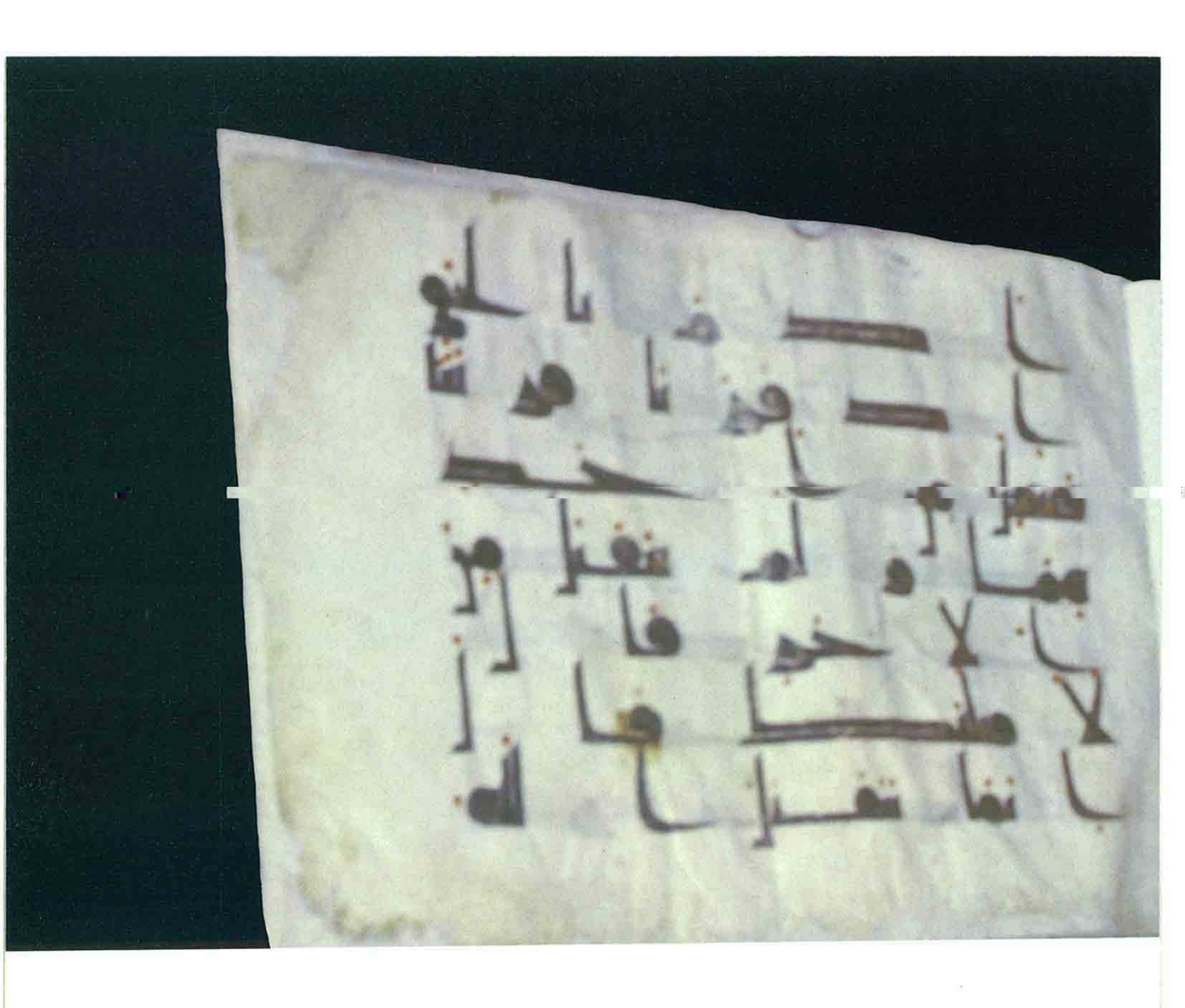
وليس معنى هذا أن القرآن كان يقرأ دون إعراب ، أو أنه كان يقرأ وإعرابه مهمل ، كما يزعم بعض المستشرقين[١٤] ، وهو زعم مزيف نفاه حتى **نولدكه** نفسه .

أما شكل الحرف الذي نراه الآن في القرآن ، فقد تم الاتفاق عليه في عهد الخليفة الأموي **عبد الملك بن مروان** .

وفي المعرض من مصاحف القرن الثاني مصحف « **جعفر الصادق** » ابن الإمام **محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الإمام الحسين** السبط بن الإمام علي وهو مكتوب على رق غزال والأسطر في كل صفحة تسعة عشر سطراً ويلاحظ عليه أن هناك ابتداء لظهور الفواصل والنقط ، والشكل والنقط فيه بأصل المداد الأسود ، والشكل باللون الأحمر . **ومصحف أبو الأسود الدؤلي** ، وهو أول مصحف نُقط وشكل وظهرت عليه حركات النطق في آخر كل كلمة ، خوفاً من اللحن وقد اهتم بحركات النطق على آخر كل كلمة خوفاً من اللحن .

والمصحفان على ورق غزال أبيض والخط فيهما كوفي .

كما توجد أيضاً مجموعة من المصاحف غير الكاملة مكتوبة في القرنين الثاني والثالث الهجريين ، وكلها بالخط الكوفي ، ومكتوبة على رق غزال أبيض ، والنقط والشكل والإعراب حسب ما رآه أبو الأسود .



الحضارة الإسلامية وأثرها في رسم المصاحف والخط

ارتقى الخط العربي بارتقاء الحضارة الإسلامية ، وبعد أن كان الخط بلا قاعدة وُضعت له القواعد والأصول ، والأحبار والألوان ، وعدّلوا من كيفية إمساك الكاتب للقلم .. إلخ .

وبدأوا يبتكرون في رسم الحروف بدءً من الكتابة الحجازية المستطيلة فيها مدات الحروف النائمة كالدال والكاف وتنزوي حروفها المقوّرة كالواو والراء والنون .

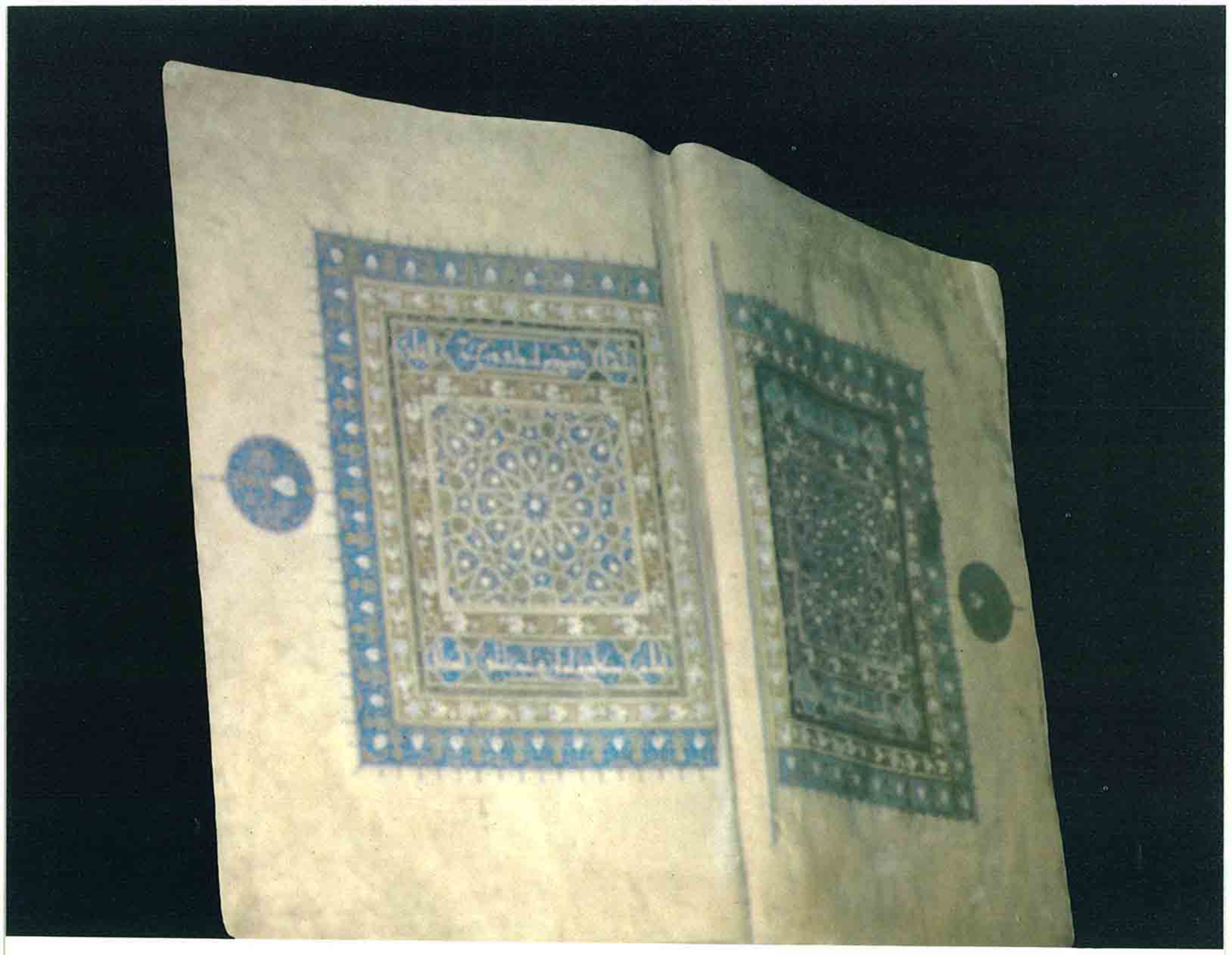
ثم انتقلت الكتابة الحجازية إلى البصرة والكوفة مع مصحف **عثمان** ، فنشأ أول طراز من طرازات الكتابة بأنواعها الثلاثة المستقيمة والمائلة والمثلثة .

وعرفت هذه الكتابة بكوفيّ المصاحف . وقد جاورها في التدوين خط النسخ لكتابة المؤلفات .

وفي القرن الثالث الهجري انتهى الخط إلى **ابن مقلة** ، وكان فناناً كبيراً فابتدع القواعد لقياس الحروف ميلاً واستقامة وتدويراً وتقويراً ونقطاً وأنصافاً ، وذكر كثيراً من هذه القواعد في رسالته التي عنوانها « **رسالة في علم الخط والقلم** » .

وانتقلت زعامة الخط من بعده إلى تلاميذه **ابن البواب وياقوت المستعصمي** وغيره حتى اشتهر في القرن الرابع عشر للهجرة في تركيا **عبد العزيز زهدي** الشهير « بطور غه لي » **والحافظ عثمان وشكر زاده** ، وفي مصر **محمد حسني وسيد إبراهيم** ، وفي العراق **هاشم البغدادي** وغيرهم .

وهذه السلسلة من الكتاب بلغت بالخط العربي درجة الاجادة ، ونوعت أقلامَهُ بين الطومار والجلي والثلث والنسخ بأنواعه والعراقي والفارسي . ثم لقي القرآن عناية المزوقين والمزركشين الذين بلغوا حدّ



★ مصحف خواند بركه ★

الروعة في التزويق والتزيين والتحلية ، فتناولوا رؤوس السور بأنواع من التشكيلات النباتية أو الهندسية التي شكلت بألوان التذهيب واللازورد والأزرق والقرمزي ، وقد شمل هذا التزويق فواصل الآي وعلامات التجزئة في الأحزاب والأرباع والأعشار ورموز السجدات ، واختلفت مذاهب المزوقين في الزخرفية التي بلغت غايتها من الاتقان في **العصر المملوكي** ، والعصر الحاضر .

كما تفنن كل المسلمين في أنحاء العالم في هذا التزويق وكان الهنود المسلمون من أبرع وأسخى هؤلاء المزوقين .

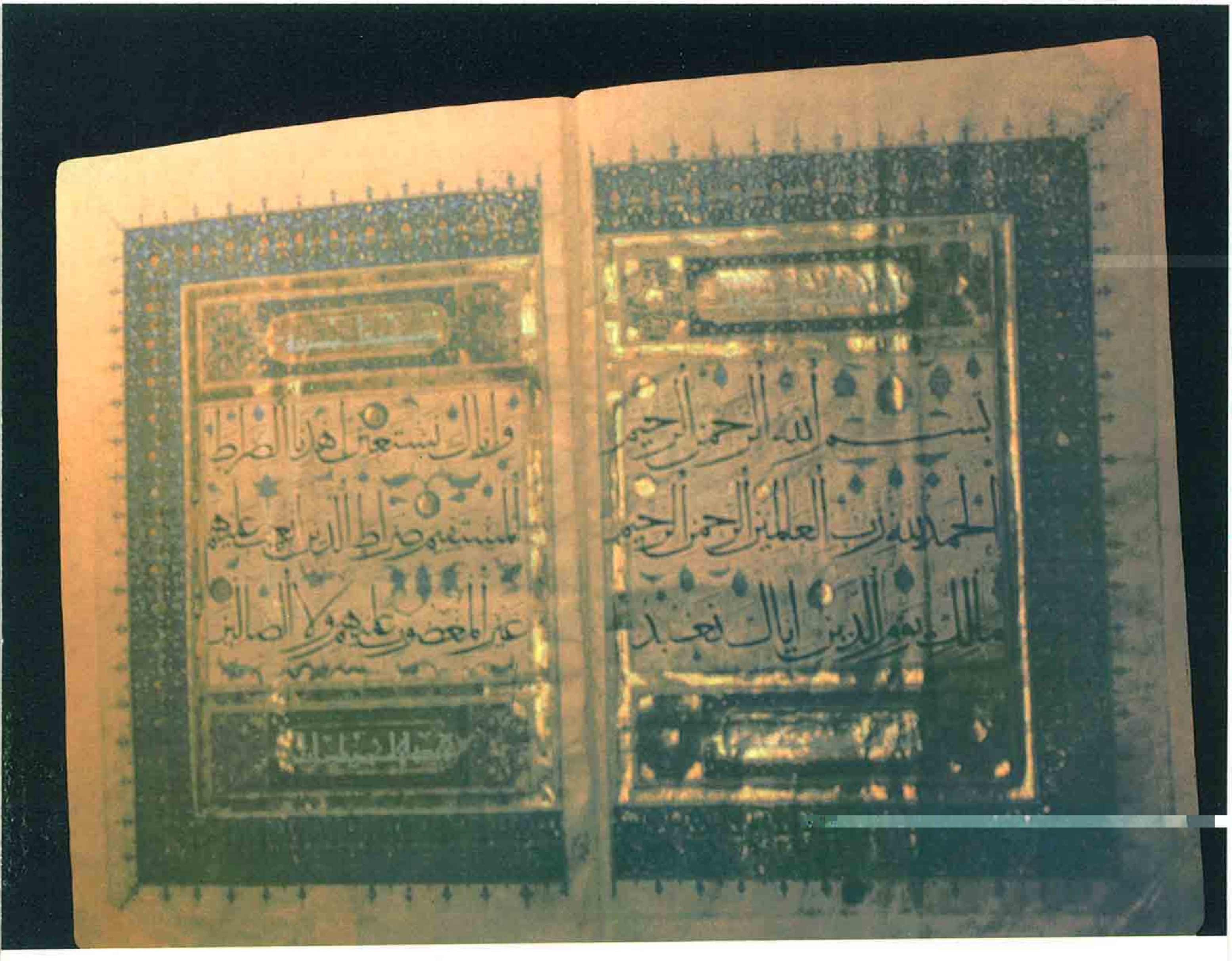
وأول مصحف مملوكي على هذا النحو الجميل من الزخرفة والزينة والتزويق والحلية الرائعة ، **مصحف «خوند بركة»** أم السلطان شعبان .

والقلم في هذا المصحف ريحاني مضبوط ضبطاً عادياً ، والفواتح وكل رؤوس السور ، وعلامات التجزئة محلاة بالذهب واللازورد والأزرق الجميل ، وقطعه كبير إذ يتجاوز خمسة وسبعين سنتيمتراً طولا وخمسين سنتيمتراً عرضاً . وتوجد مصاحف مملوكية من عصر **خوند بركة** منها مصحف ابنها **السلطان شعبان** . ويلاحظ عليها كلها تحلية الآيات والفواصل والتجزئة بالألوان وبالعناصر الغالية .

ومنها مصحف **«برسباي»** و **«أرغون شاه»** **والسلطان محمد ابن قلاوون** ومصحف السلطان **«صرغطمش»** ، ومصحف **فرج ابن برقوق والسلطان برقوق** .

وكلها تحمل نفس الطابع ونفس المواصفات في الزينة والتحلية .

وهناك في هذا المعرض مصحف هندي أهدي من نواب ولاية اسمها «بهو بال» سنة ١٩٥٠ م ، مكتوب بخط قلم ثلث ، ويتخلل الأسطر ترجمة فارسية ، وهو مقسم على سبعة أقسام أو سبعة أجزاء ، كل جزء وضع وحده ، والقسم الأول وهو الموجود بالمعرض ، مجلد بغلاف من الفضة الخالصة المطعمة بالرقائق الذهبية ، والرقائق



★ مصحف مملوكي ★

الياقوتية ، وغلافه مصنوع بالهند سنة ١٣٣١ هـ ، ويزن طناً من الفضة ، **وهو أكبر مصحف في مجموعة المصاحف الموجودة بدار الكتب .**

لقد كان القرآن الكريم وأول آية تمجد القلم سبباً في ازدهار الكتابة بين العرب وتفننهم فيها ، وتقعيدها ، والاهتمام بتطويرها ، جيلاً بعد جيل ، وقد سارت مع القرآن مسيرة تاريخية ، فأتقن المسلمون من خلال اتقانهم للقرآن واحتفائهم به ، أتقنوا فن الخط ، وأتقنوا فن الهندسة في تزويقه وتحليته إلى الحد الذي ذكرنا . قال تعالى : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ .

الهوامش

(١) الليقة قماشة من الحرير يوضع عليها الحبر ليغمس فيها القلم حتى لا يمتلئ ليتحكم فيه الكاتب عند الكتابة .

(٢) سورة العنكبوت الآية ٤٨ ، وجزء من الآية ٤٩ .

(٣) سورة الجمعة ، الآية ٢ ــ ٤ .

(٤) سورة آل عمران الآية ١٦٤ .

(٥) سورة الأعراف الآية ١٥٧ .

(٦) سورة العلق ، الآية ١ ــ ٥ .

(٧) سورة النساء الآية ١٧٤ .

(٨) سورة آل عمران الآية ٥٨ .

(٩) راجع صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٩ .

(١٠) راجع الروض الأنف ، ج ٦ ، ص ٤٨٧ ، تحقيق عبد الرحمن الوكيل ، دار النصر للطباعة ، القاهرة ١٩٧٠ م .

(١١) رواه البخاري ومسلم والإمام أحمد بسنده عن ابن عباس .

(١٢) رواه مسلم بسنده عن أبي سعيد الخدري .

(١٣) راجع العربية ليوهان فك ، ص ١١ .

(١٤) مقدمة العربية للدكتور عبد الحليم النجار ، ص ٤ الهامش .

مجلة الفيصل العدد (٤٢) ص ١٠٣

لوحة وفنان

• سحيب سحيب ؟

يتميز أسلوب أيوب حسين بتقارب الألوان وكثرة استخدام اللونين الأصفر والبرتقالي مبتعداً ، بقدر الإمكان ، عن مصادر الضوء والظل .

في المرحلة الأخيرة من أعماله بدأ يطور أسلوبه موضحاً التفاصيل في شخصياته ، معتمداً على قوة الخط واللون ، متأملاً في الظلال والألوان . . حيث يعطي الحيوية والمعايشة .

ولوحة «سحيب سحيب» التي تتكون من مجموعة من الأطفال في لعبة شعبية قديمة ، واحدة من الأعمال التي تعطينا الإحساس بالحركة والحيوية والمعايشة اللحظية التي تبدو طبيعية إلى حد كبير ، لذلك فهي تنقل إليك الجو الطبيعي .

ولقد اهتم فيها الفنان بالتفاصيل والظل والضوء ، مستخدماً ألوانه المفضلة من أصفر وبرتقالي .

ويلاحظ من خلال العمل أنه ينقل من الطبيعة نقلاً حرفياً ، لذلك يعتبر فناناً تسجيلياً ، إذ يسجل كل ما حوله من مشاهد واقعية .

يقول أيوب حسين : **«إنني دوماً أحاول أن أقلد الطبيعي بقدر المستطاع لكي أسجل بريشتي هذا السجل القيم من العادات والتقاليد المندثرة» .**

أيوب حسين

• ولد في الكويت عام ١٩٣٢ م .

• درس في المدرسة الابتدائية والمتوسطة ثم التحق بدار المعلمين بالمباركية ، وهناك تعلم أصول التربية الفنية .

• تخرج عام ١٩٤٩ م ، حيث بدأ في تنمية هوايته الفنية وعمل مدرساً في مدرسة الصباح الابتدائية .

• اشترك في أول معرض بالكويت عام ١٩٥٨ م .

• اشترك في معارض الربيع والجمعية الكويتية للفنون التشكيلية داخل وخارج الكويت ، بالإضافة إلى المعارض الشخصية .

• بدأ «أيوب حسين» الرسم بالقلم الرصاص والألوان المائية ثم اتجه إلى الألوان الزيتية . . وقد عرف بغزارة إنتاجه ، وخاصة قبل ظهور النفط حيث عاصر بلده في عدة مراحل .

ومع أنه لم يدرس الفن في المعاهد العليا ، إلا أنه فنان أصيل . . ذو أعمال جيدة ، ركز أعماله في تصوير البيئة الكويتية والألعاب الشعبية لشدة حبه وتعلقه ببيئته ولم يتأثر بالتيارات الفنية الحديثة ، بل اتجه بكل مشاعره وحبه لبلده إلى ترجمة ذلك في لوحاته فرسم الموضوعات الشعبية التي تمثل العادات والتقاليد القديمة .





إلى شباب الجامعات
في مختلف التخصّصات ...

يمكنك إكمال دراستك الجامعيّة
على نفقة القوات البحرية في جامعتك

ماعليك إلاّ الاتصال بنا وستجدنا على استعداد
لتقديم كافة التسهيلات ونؤمن لك كل
النفقات ونتيح لك الفرصة لتحقيق
مستقبل أفضل

القوات البحرية الملكية السعودية

للمراجعة - اتصل بأحد المراكز الآتية :
المنطقة الوسطى : مكتب القوات البحرية بوزارة الدفاع والطيران بالرياض
المنطقة الشرقية : قسم التجنيد بالقوات البحرية بالدمام .
المنطقة الغربية : إدارة الشئون البحرية بقيادة المنطقة الغربية بجدة .
المنطقة الجنوبية : مندوب القوات البحرية بقيادة المنطقة الجنوبية بخميس مشيط .
بقية المناطق : أقرب قيادة عسكرية .



★ مقبرة شهداء معركة اليمامة وتحتوي على عدد من قبور الصحابة ★

موقعة اليمامة

بقلم: د . عبد العزيز محمد الفيصل

بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب ومنعوا الزكاة ، فعظم ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا كيف نحارب العرب عامة ونحن قلة ، ولكن خليفة رسول الله **أبا بكر** عزم على حرب المرتدين ، فسير الجيوش إلى أنحاء متفرقة من **الجزيرة العربية** ، ومن تلك الجيوش التي سيرها أبو بكر جيش **خالد بن الوليد** الذي أمره بالتوجيه إلى متنبئ اليمامة **مسيلمة بن حبيب (الكذاب)** .

أرض المعركة (اليمامة)

اليمامة معروفة منذ القديم بخصبها وخيراتها ، قال عنها **القزويني** (أحسن بلاد الله وأكثرها خيراً ونخلاً وشجراً) [١] ، **وبلاد اليمامة هي مساكن طسم وجديس** ، وهما من ولد **لاوذ بن إرم بن لاوذ بن سام بن نوح** . وقد عرف من ملوك اليمامة **عمليق** الذي اشتهر بظلمه وهو ينتسب إلى طسم .

ومما يروى عن ملك اليمامة عمليق أن امرأة اشتكت إليه لأن زوجها يريد أن يأخذ ابنها الصغير ، فأتته قائلة : « أيها الملك هذا ابن حملته تسعاً ووضعته دفعاً وأرضعته شبعاً ولم أنل منه نفعاً حتى إذا تمت أوصاله واستوفى فصاله أراد بعلي أن يأخذه كرهاً ، ويتركني ولهى » فقال الرجل : « أيها الملك : أعطيتها المهر كاملاً ولم أصب منها طائلاً إلا ولداً خاملاً فافعل ما كنت فاعلاً ، على أنني حملته قبل أن تحمله وكفلت أمه قبل أن تكفله » ، فقالت : « أيها الملك حمله خفاً وحملته ثقلاً ووضعه شهوة ووضعته كرهاً » ! فلما رأى عمليق متانة حجتهما تحير فلم يدر بم يحكم ، فأمر بالغلام أن يقبض منها وأن يجعل في غلمانه ، فندمت المرأة وكان اسمها **هزيلة** وقالت :

أتينا أخا طسم ليحكم بيننا
فأظهر حكماً في هزيلة ظالما
لعمري لقد حكمت لا مُتَوَرِّعاً
ولا كنت فيما يلزم الحكم حاكما
ندمت ولم أندم وأنى بعثرتي
وأصبح بعلي في الحكومة نادما[٢]

وعندما سمع عمليق بهذه الأبيات أمر ألا تزوج بكر من نساء جديس حتى

تدخل عليه فيكون هو مفترعها أولا ! فوجدت جديس من ذلك عنتاً ، وقد تفاقم الأمر ليلة **زفاف غفيرة** أخت الأسود سيد جديس فقد زفت إلى عمليق أولا ورددت القينات خلفها :

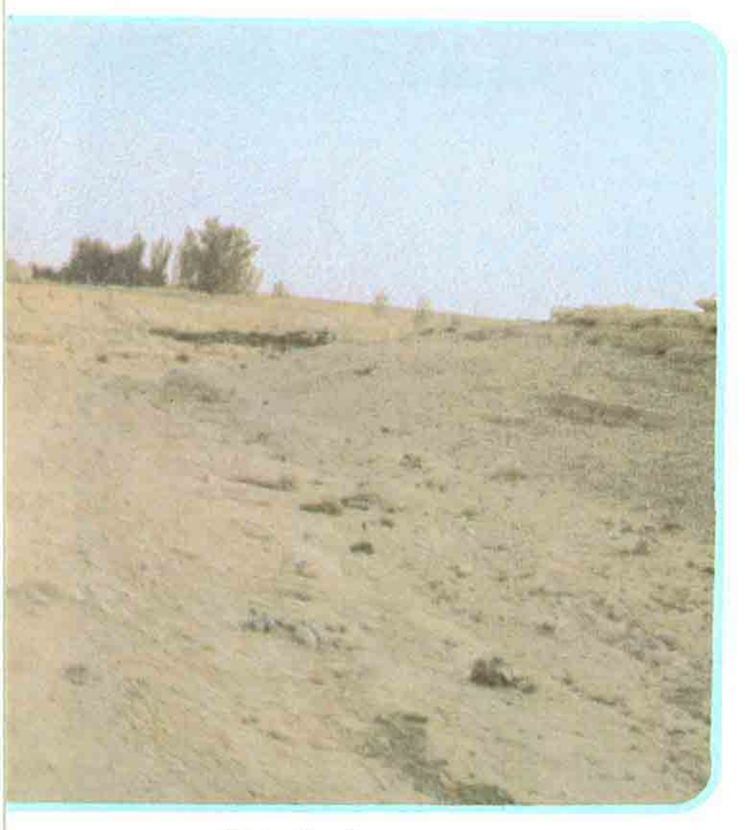
ابدي بعمليق وقومي واركبي
وبادري الصبح بأمر معجب
فسوف تلقين الذي لم تطلبي
وما البكر دونه من مهرب

وعندما أدخلت على عمليق امتنعت عليه فافترعها بحديدة وأدماها ، فخرجت من عنده والدماء تسيل على قدميها وجاءت إلى أخيها وهي تقول :

لا أحد أذل من جديس
أهكذا يفعل بالعروس ؟

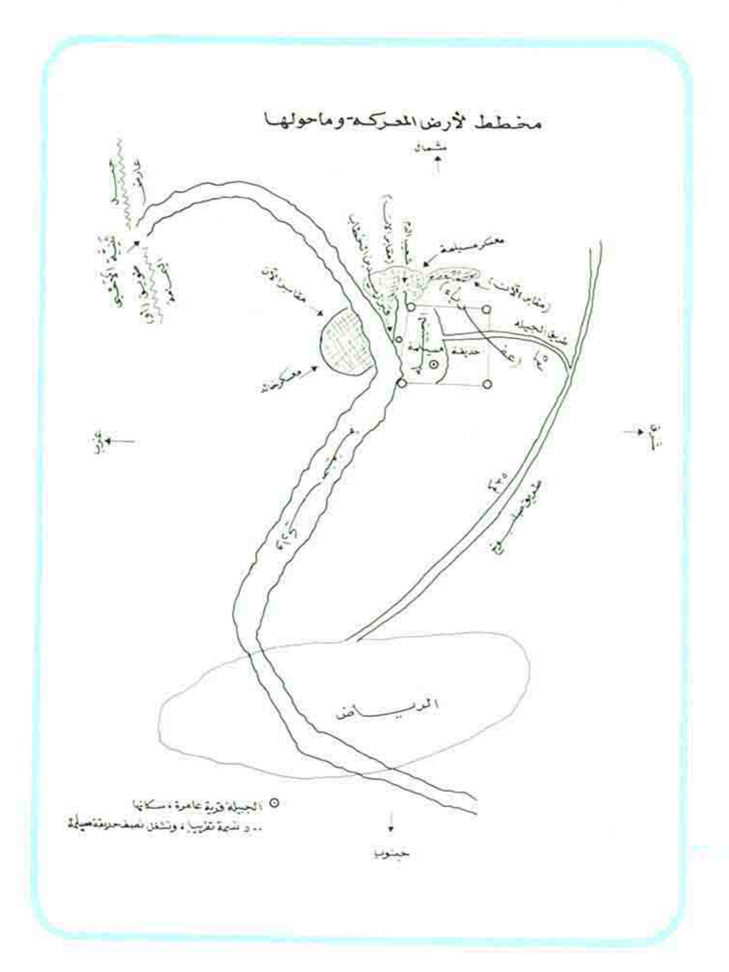
وبعد هذه الحادثة عزمت جديس على قتال طسم ، فدعت جديث طسماً إلى طعام وأمر **الأسود سيد جديس** أن يرفد كل رجل من قومه سيفه في مكان جلوسه حتى إذا حضرت طسم وبدأت في الطعام أخرج كل رجل من جديس سيفه وقضى على رجل من طسم ، وهكذا فعلت جديس ، وبعد هذه الموقعة استنجدت طسم **بحسان بن تبع الحميري** فأنجدهم وسار **حسان** إلى اليمامة وخربها .

وبدو أن اليمامة بعد هذه الأحداث تضاءل شأنها . **وقاعدة اليمامة على**



★ حديقة مسيلمة ★

امتداد تاريخها مدينة حَجْر التي هي جزء من الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية ، يقول **لغدة الأصفهاني** عن حجر : « حجر سرة اليمامة ، وهي منزل السلطان والجماعة ومنبرها أحد المنابر الأوليّة »[٣] والأرض التي ارتوت بدماء الصحابة في القسم الشمالي من اليمامة ؛ في مكان يعرف **بعقرباء** ، ولم يتغير اسمه حتى الآن ، غير أن القسم الجنوبي الغربي من عقرباء يعرف الآن **بالجبيلة ، وبلدة الجبيلة الحالية تحتل قسماً من حديقة مسيلمة** وما تشتمل عليه تلك الحديقة من المباني والحصون . **وقد دارت معركة اليمامة حول أسوار الحديقة والتي لا تزال قائمة حتى الآن** ، ويبدو أن معظم القتال كان بجانب السور الغربي ثم يليه في الأهمية ما كان بجوار السور الشمالي ، أما سور الحديقة الشرقي فلم يجر حوله قتال ، وأما الناحية المطلة على وادي حنيفة من السور فيظهر أن القتال فيها لم يكن شديداً . وكان معسكر خالد بن الوليد في الضفة الجنوبية من الوادي ، حيث يفصل **وادي حنيفة** بين معسكر خالد وجيش مسيلمة .



نُبُوَّة مُسيلمة

في السنة العاشرة من الهجرة قدم وفد بني حنيفة على النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان مسيلمة بن حبيب ضمن هذا الوفد ، وقد نقل **ابن هشام** في السيرة روايتين عن قدوم مسيلمة إحداهما تقول بحضور مسيلمة إلى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن مسيلمة كلم النبي صلى الله عليه وسلم وطلب منه بعض المطالب ، فرد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ وكان في يده عسيب ــ : « لو سألتني هذا العسيب ما أعطيتكه » ، والأخرى تقول ببقاء مسيلمة في متاع قومه ، وعندما قدم الوفد على الرسول صلى الله عليه



★ أجزاء من سور مسيلمة وقد رممه أهل الجبيلة ★

وسلم وأسلموا ذكروا صاحبهم لرسول الله فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أما إنه ليس بشركم مكاناً » [٤] لأن مسيلمة بقي يحفظ أمتعة أصحابه ، وعندما عاد الوفد إلى اليمامة تنبأ مسيلمة وقال إنني أُشْرِكتُ في الأمر مع محمد فلم يقل « أما إنه ليس بشركم مكاناً » إلا لأنه يعرف أنني قد أشركت في الأمر معه .

وقد أخذ مسيلمة يقول السجع ويدعي أنه مثل قرآن محمد ومما قال في ذلك (لقد أنعم الله على الحبلى أخرج منها نسمة تَسْعَى من بين صفاق وحشى) وقوله (والليل الأطحم والذئب الأدلم والجذع الأزلم ما انتهكت أُسَيِّد من محرم) وقوله (والليل الدامس والذئب الهامس ما قطعت أُسَيِّد من رطب ولا يابس) وقوله (إن بني تميم قوم طهر لَقَاح لا مكروه عليهم ولا إتاوة نجاورهم ما حيينا بإحسان نمنعهم من كل إنسان فإذا متنا فأمرهم إلى الرحمن) وقوله (والشاء وألوانها وأعجبها السود وألبانها ، والشاة السوداء واللبن الأبيض إنه لعجب محض ، وقد حرم المذق فما لكم لا تمجعون) وقوله (يا ضفدع ابنة ضفدع نقي ما تنقين أعلاك في الماء وأسفلك في الطين لا الشارب تمنعين ولا الماء تكدرين) وقوله (والمبذرات زرعاً والحاصدات حصداً والذاريات قمحاً ، والطاحنات طحناً ، والخابزات خبزاً والثاردات ثرداً ، واللاقمات لقماً إهالة وسمناً لقد فضلتم على أهل الوبر وما سبقكم أهل المدر ، ريفكم فامنعوه ، والمعتر فآووه ، والباغي فناوئوه) [٥] .

وقد كتب مسيلمة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم : « من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ، سلام عليك أما بعد فإني قد أشركت في الأمر معك ، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ، ولكن قريشاً قوم يعتدون » ، فرد عليه الرسول صلى الله عليه وسلم : « **بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب ، السلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين** » [٦]

وقد طلب بنو حنيفة من مسيلمة معجزة لنبوته ، فأخرج لهم قارورة ضيقة الرأس فيها بيضة ، وعندما رأى حمامة مقصوصة الجناح أمرهم بعدم قص جناح الطائر ، وقد زعم أنه سيقوم بمعجزة لكي ينبت جناحاً لهذا الطائر الآن ، فأخذ مسيلمة الطائر إلى بيت قريب وأحضر ريشاً وأدخل في قصبة كل ريشة مقطوعة ريشة سليمة ثم خرج بالطائر وقد اكتمل ريشه فأطلقه فطار ، وقد قال لبني حنيفة في ليلة مظلمة شديدة الرياح : لا يخرجن أحد منكم فإن الملك سينزل على الليلة ، وقد اتخذ صورة من الكاغد على هيئة طير وربطها بخيط وأرسلها في الجو فأخذت الرياح تحدث لها صوتاً فيه خشخشة وصلصلة ، فكل من رأى تلك الصورة دخل منزله مسرعاً ، والناس يرون الصورة ولا يرون الخيط الذي يشدها [٧] .

طريق خالد إلى اليمامة

لما عاد خالد بن الوليد من البطاح إلى المدينة ، أمره أبو بكر بالتوجه إلى اليمامة ، تلك البلاد التي استعصت على قائدين سابقين هما **عكرمة بن أبي جهل وشرحبيل بن حسنة** ، أما عكرمة فقد وجهه أبو بكر إلى مسيلمة ولكنه لم يوفق في حربه مع مسيلمة ، فكتب إلى أبي بكر يخبره بذلك ، فكتب إليه أبو بكر : « يا بن أم عكرمة ، لا أرينك ولا تراني على حالها ! لا ترجع فتوهن الناس . امض على وجهك حتى تساند حذيفة وعرفجة ، فقاتل معهما أهل عمان ومهرة وإن شغلا فامض أنت ، ثم تسير وتسير جندك تستبرئون من مررتم به حتى تلتقوا أنتم والمهاجرين أبي أمية باليمن وحضرموت » [٨]

وأما شرحبيل بن حسنة فإنه فعل فعل عكرمة ، هاجم مسيلمة قبل أن



★ جزء من بلدة الجبيلة وهذه البلدة تقع في الجزء الغربي من حديقة مسيلمة ★

يصل خالد بن الوليد ، ولكنه لم يوفق فهزم ، مع أن أبا بكر أمره بانتظار خالد ، وعلى الرغم مما قيل في خالد بعد قتله **مالك بن نويرة** ، فإن أبا بكر بحاجة إلى قائد قوي ويندر أن يجد مثل خالد ، فقد تكلم عمر في خالد عند أبي بكر ، فأجابه أبو بكر : هبه يا عمر تأول فأخطأ ، فارفع لسانك عن خالد [٩] .

وسبب كلام عمر في خالد أن خالداً في **موقعة البطاح** قتل مالك بن نويرة ، فشهد بعض الصحابة أن مالكاً وأصحابه أقاموا الصلاة ، وقد تزوج خالد زوجة مالك أم تميم ، ويقال إنه كان يهواها في الجاهلية [١٠] . وبعد رجوع خالد إلى المدينة ، دخل المسجد وكان عليه قباء وقد غرز في عمامته أسهماً ، فما إن رآه عمر حتى بادره بنزع الأسهم من عمامته ، ثم حطم تلك الأسهم وقال له : أرئاء ! قتلت امرأ مسلماً ثم نزوت على امرأته ! والله لأرجمنك بأحجارك ، وقد صمت خالد أمام عمر ولم يقل شيئاً ، ثم سار إلى أبي بكر فاعتذر إليه ، فقبل عذره ووجهه إلى مسيلمة ، وعندما مر خالد على مجلس عمر وقد رضي عنه أبو بكر قال : هلم إلي يا بن أم شملة ! [١١] فسمعه عمر وعلم أن أبا بكر رضي عنه ، فلم يقل شيئاً . وقد خرج خالد من المدينة إلى البطاح ، وانتظر بقية جيشه هناك فلما اكتمل الجيش سار إلى اليمامة ، وكان هذا الجيش يضم المهاجرين والأنصار وغيرهم ، فكان على الأنصار **ثابت بن قيس والبراء بن فلان** وعلى المهاجرين أبو حذيفة وزيد ، وعلى كل قبيلة رجل منها ، وعندما اقترب خالد من ثنية اليمامة ، وجد جماعة من بني حنيفة كانوا قد عادوا من طلب ثأر لهم في بني عامر ، وكانت تلك الجماعة تضم **مجاعة بن مرارة** وعدداً من بني حنيفة ، وقد أخذوا أسرى إلى خالد ، فسألهم عن أمرهم فأخبروه بأنهم رجعوا من بلاد بني عامر لأنهم خرجوا يطلبون ثأراً . وقد أمر خالد بضرب أعناقهم وأبقى مجاعة مقيداً في الحديد .

وقد تهيأ خالد للقتال فجعل على المقدمة **خالد بن فلان المخزومي** ، وجعل على المجنبتين زيداً وأبا حذيفة ، وقد واصل خالد سيره عن طريق ثنية الأحيسي ، ثم سار في وادي حنيفة حتى وصل عقرباء ، فاختار ضفة الوادي الجنوبية وعسكر هناك ، أما مسيلمة فقد جمع جيشه في عقرباء ، وقد خرج إليها لأنها تقع في طريق خالد الذي سيسلكه إلى اليمامة ، ولأن مسيلمة يملك بستاناً محصناً في عقرباء فرأى أن الخروج إلى خالد ولقائه في الطرف الشمالي من اليمامة أجود من البقاء داخل حصون اليمامة .

استعد الجيشان ، جيش خالد في الضفة الجنوبية لوادي حنيفة ، وجيش مسيلمة في الضفة الشمالية لوادي حنيفة ، وكان مسيلمة قد جعل على مجنبتيه **المحكم بن الطفيل** والرجال ؛ والرجال هذا هو الرجال بن عنفوة ، وكان قد أسلم وقرأ القرآن وتفقه من الدين ، فأرسله النبي صلى الله عليه وسلم معلماً لأهل اليمامة لأنه من بني حنيفة ، فلما وصل اليمامة شهد لمسيلمة بأنه قد أشرك مع النبي في الرسالة ، فعظم أمر (الرجال) وأصبح سنداً لمسيلمة في كل ما يقول ، والأعظم من ذلك أنه يؤذن ويشهد أن محمداً رسول الله ولكنه يشرك معه مسيلمة .

وعندما وصل جيش خالد بن الوليد إلى عقرباء ظن المسلمون في جيش خالد أن (الرجال) سيكون في استقبالهم ليخبرهم بأسرار عدوهم ، ففوجئوا

(بالرجال) يتقدم صفوف مسيلمة . وقد حمل راية المهاجرين **سالم مولى أبي حذيفة** ، وحمل راية الأنصار **ثابت بن قيس بن شماس** ، وكانت المسافة التي تفصل جيش خالد عن جيش مسيلمة هي الواد فقط ، فكل من الجيشين يراقب الآخر ، ويرى ما يعمل بدليل أن خالد بن الوليد عندما رأى سيوف جيش مسيلمة تلمع في الشمس قال لجنده : « أبشروا فقد كفاكهم الله ، لقد دب النزاع بينهم » ، وكان مجاعة خلفه فقال : كلا هذه الهندوانية يعرضونها للشمس لتلين لهم في الحرب . وكان عدد جيش مسيلمة أربعين ألف مقاتل .

القتـــــال خارج الحـديقـة

استعد الجيشان للقتال ، وكان الجو مكفهراً والغبار يعلو الرؤوس وريح الجنوب تعصف بالعمائم ، ولكن المسلمين يعلمون أن هول الحرب أعظم فلم يأبهوا بما أحاط بهم ، وبدأت المعركة ، وامتدت الاشتباكات على ضفة وادي حنيفة الشمالية ، وفي المناطق المحيطة بحديقة مسيلمة ، واشتدت وطأة القتال على المسلمين وأخذ بعضهم يتقهقر نحو المعسكر ، وقد رجحت كفة ابن حنيفة ونزلوا إلى الوادي ثم نفذوا إلى معسكر خالد بن الوليد ، وكان خالد داخل **الفسطاط** ، فلما رأى اندفاع بني حنيفة داخل الفسطاط خرج منه وتركه ، وقد أحاط الناس بمجاعة الأسير وبأم تميم زوجة خالد ، فهم الناس بقتل **أم تميم** فمنعهم مجاعة وقال أنا لها جار فنعمت الحرة عليكم يا رجال ، وقد مزق بنو حنيفة فسطاط خالد بسيوفهم ، وعندما دخل بنو حنيفة معسكر المسلمين وعاثوا فساداً في امتعتهم كثر الهرج واللوم ، فدار كلام بين خالد وأبي حذيفة وزيد بن الخطاب غضب على أثره زيد وقال : لا والله لا أتكلم اليوم حتى نهزمهم أو ألقى الله فأكلمه بحجتي ، ثم اتجه إلى الناس وقال : عضوا على أضراسكم أيها الناس واضربوا في عدوكم وامضوا قدماً[12] .

أخذ زيد يذود الكفار عن معسكر المسلمين حتى نزل الوادي واجتازه وأخذ يصعد ضفة الوادي الشمالية عن طريق شعب صغير محاذ لغرب الحديقة عرف فيما بعد بـ (**شُعَيِّب الدم**) لكثرة ما سال فيه من الدماء ، وتكلم في هذا الموقف ثابت بن قيس فقال : بئسما عودتم أنفسكم يا معشر المسلمين ، ! اللهم إني أبرأ إليك مما يعبد هؤلاء – يعني أهل اليمامة – وأبرأ إليك مما يصنع هؤلاء – يعني المسلمين – وقال مخاطباً المسلمين : أنتم حزب الله وهم أحزاب الشيطان ، والعزة لله ولرسوله ولأحزابه أروني كما أريكم ، وقد استمر ثابت في قتاله حتى قتل ، وقد كثر القتلى من المسلمين ، واشتد القتال ، ولم يلق المسلمون حرباً قط من حرب العرب مثل ذلك اليوم[13] .

طالت المعركة ولم يحرز المسلمون تقدماً ملموساً ، وكثرت الإشاعات بأن المهاجرين والأنصار جبّنوا أهل البوادي ، وادعى أهل القرى بأنهم أقدر على حرب أهل القرى ، وعندما كثر الكلام في هذا الموضوع ، انحاز كل فريق من المسلمين إلى ناحية من المعركة ليُرى من أين يكون الخلل واختراق الصفوف ، وثبت كل فرق مخافة أن ينفذ الأعداء من جهتهم ، ولذلك كثر القتلى في المهاجرين والأنصار وسقط في المعركة مئات ممن يحفظون القرآن أو بضعه ، وفي هذه الأثناء وبينما كانت الحرب سجالا ، تارة ترجح كفة المسلمين وتارة ترجح



★ شعيب الدم غرب الحديقة وهو الآن غرب بلدة الجبيلة التي قامت في الجزء الغربي من الحديقة وقبر زيد بن الخطاب في هذا المكان ★



★ البرج الذي يمثل ركناً من أركان سور مسيلمة ★

كفة الكافرين ، برز خالد بن الوليد وانتمى وقال : أنا ابن الوليد العود أنا ابن عامر وزيد ! ودعا إلى البراز فجعل لا يبرز له أحد إلا قتله وهو يرتجز :

أنا ابـن أشياخ وسيفـي السـخت
أعـظم شيء حـين يـأتيك النفـت

وعندما شدَّ المسلمون على بني حنيفة ظهر الخلل في صـفوف المشركين وانحازوا إلى حديقة مسيلمة وأغلقوا الباب ، فعـزم المسلمون على اقتحامها ، ونادى **البراء بن مالك ــ أخو أنس بن مالك ــ** فئة من المسلمين وطلب منهم أن يحملوه ويلقوه على الكفار في الحديقة من فوق السور فحملـوه وألقـوه فقاتل المشركين حتى نفذ إلى باب الحديقة ففتحه للمسلمين فـاقتحموا الحـديقة على بني حنيفة ، وكان مسيلمة في الحـديقة ، وبينا القتـال على أشـده داخـل الحديقة إذا بوحشي مولى جبير بن مطعم يدفع حربته إلى مسيلمة فيرديه قتيلاً ، وفي هذه الأثناء يجهز عليه رجل من الأنصـار بسيفه . **ووحشي هـذا هـو الذي قتل حمزة عم النبـي صلى الله عليه وسلم في معـركة أحـد ،** وبعد قتل مسيلمة انهزم بنو حنيفة ، وكانت تلك المعـركة شـديدة الـوطأة على المنتصر والمنهزم ، فقد قتل فيها من الطرفين خلق كثير ؛ فقد قتل من المهاجرين والأنصار ثلاثمائة وستون ومن غير أهل المدينة ستمائة ، وسقط في المعركة أعـلام معروفون من المهاجرين والأنصار ، أما خسائر بني حنيفة فـكانت سبعة آلاف خارج الحديقة ، وسبعة آلاف داخل الحديقة .

وعندما أخبر خالد بن الوليد بانتهاء القتال أخذ أسيره مجاعة وجعل يتفقـد القتلى ، وطلب من مجاعة أن يعرفه بمسيلمة ، فمر خالد برجل وسيم وهو محـكم ابن الطفيل وسأل مجاعة : أهذا صاحبكم ، فقال مجاعة : هذا محكم اليمـامة ، ثم دخل خالد الحديقة فقلب القتلى لمجاعة ليعـرفه على مسـيلمة ، فـإذا بنـظر مجاعة يقع على قتيل أصيفر أخينس ، فقال : هـذا صـاحبكم ، فقـال خـالد : هذا صاحبكم الذي فعل بكم ما فعل ، فقال مجاعة : قد كان ذلك يا خالد .

صلح خالـد مع أهل اليمـامة

بعد قتل مسيلمة قال عبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر لخـالد : ارتحل بنا وبالناس فانزل على الحصون ، فقال خالد : سوف أبث الخيول فألقط من ليس في الحصون ثم أرى رأيي ، وعندما فرغ خالد من تتبع من هرب من المعركة ، همَّ بالرحيل للنزول على الحصون ، فقال له مجاعة إنـه والله مـا جـاء إليك إلا سرعان الناس ، وإن الحصون مليئة بـالرجال فـإن رأيـت أن أذهـب إليهم وأستشيرهم في الصلح فعلت .

وكان خالد قد فقد أكثر من ألف ومائتي رجل مـن الصـحابة والتـابعين ، ويريد أن يعود بهذا النصر ويخشى من انتكاسة جديدة ، فـوافق على الصـلح ، وأطلق سراح مجاعة ليفاوض قومه في الصلح ، فـذهب مجـاعة إلى قـومه وأمـر النساء بلبس الحـديد ونقض شـعورهن ، وأن يشرفـن في أعلى الحصـون ، فخرجت النساء من الحصون وأشرفن ، وذهب مجاعة إلى خالد فقال : لقد أبى قومي ، وأنت تراهم الآن في أعلى الحصون يعبرون عـن المعـارضة ، ولـكنني سأحاول إرغامهم على الصلح .

عندما رأى خالد كثرة الرجال في الحصون ، مـال إلى الصـلح وكتـب إلى مجاعة وثيقة بذلك : « **هذا ما قاضى عليه خالد بن الوليد مجاعة بـن مرارة وسلمة بن عمير وفـلاناً وفـلاناً قـاضاهم على الصـفراء والبيضاء ونصف السبي والحلقة والكراع وحـائط مـن كل قـريـة ومزرعة ، على أن يسلموا ثم أنتم آمنون بأمان الله ولكم ذمة خالد ابن الوليد وذمة أبي بكر خليفـة رسـول الله صلى الله عليـه وسـلم وذمة المسلمين على الوفاء** »[١٤] . وبعد رجـوع جيش خـالد إلى المدينة التقى عمر بن الخطاب بابنه عبد الله فقال له : ما جاء بك وقد هلك زيد ؟ ألا واريت وجهك عني ! فقال : سأل الله الشهادة فأعطيها وجهدت أن تساق إلي فلم أعطها[١٥] .

وقد **قال ضرار بن الأزور في موقعة اليمامة :**

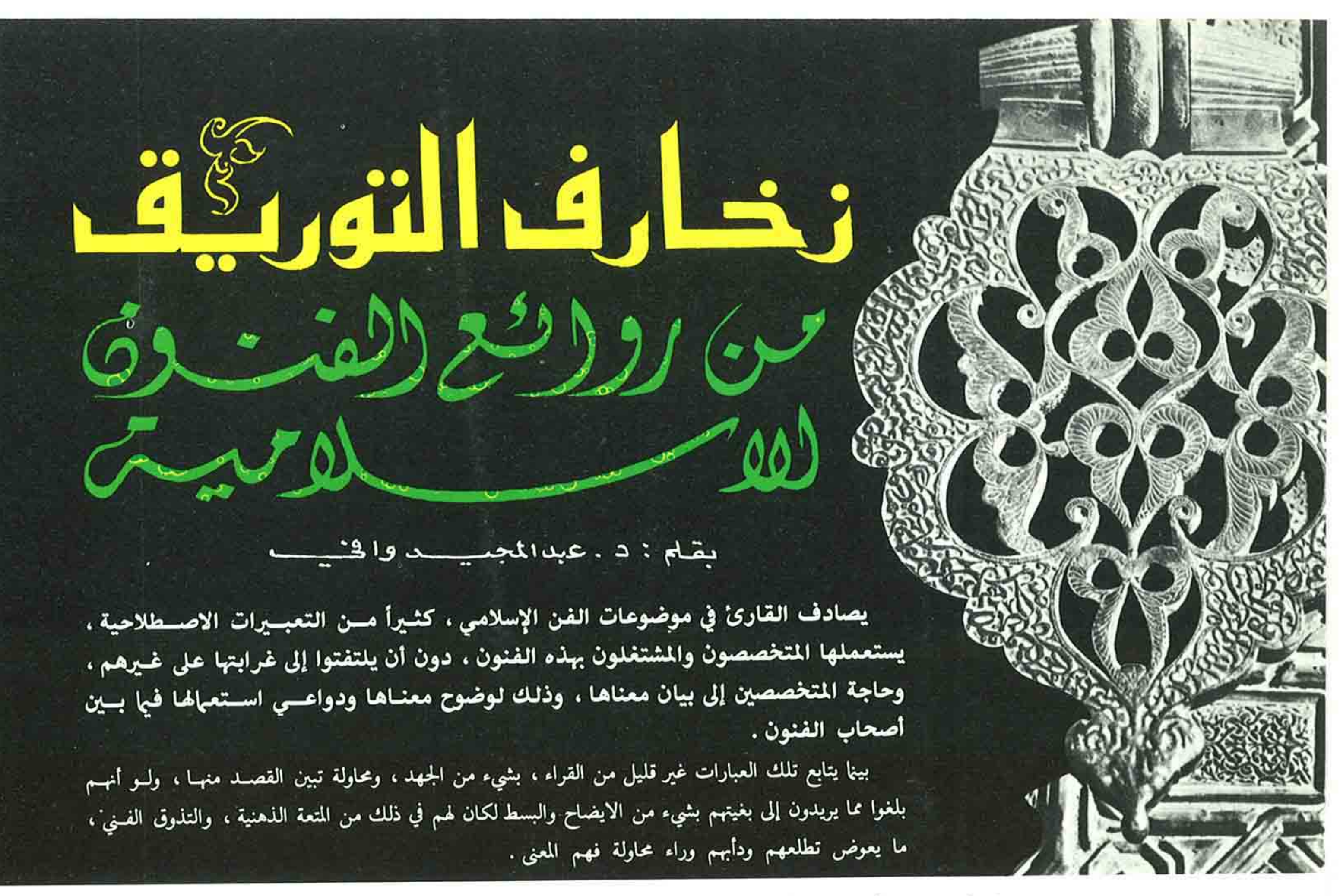
ولو سئلـت عنـا جنـوب لأخـبرت
عشية سـالت عقـربـاء وملهـم
وسال بفـرع الـواد حـتى تـرقرقت
حجارته فيهـا مـن القـوم بـالدم
عشـية لا تغـني الـرماح مـكانها
ولا النبـل إلا المشرفي المصمـم
فإن تبتغـي الـكفار غـير مليحـة
جنـوب فـإني تابع الـدين مسـلم
أجـاهد إذ كان الجهـاد غنيمـة
ولـلّـه بـالمرء المجـاهد أعـلم[١٦]

المراجع

١ ــ تاريخ الطبري ، الجزء الثالث ،تحقيق محمد أبو الفضـل إبراهيم ، طبـع دار المعـارف بمصر .
٢ ــ السيرة النبوية ، جزء ٤ ، شرح محيي الدين عبد الحميد ، دار الفكر .
٣ ــ آثار البلاد وأخبار العباد ، لزكريا بن محمد بن محمود القزويني ، دار صادر .
٤ ــ معجم البلدان لياقوت الحموي ، ج ٤ ، ٥ .
٥ ــ بلاد العرب للغدة الأصفهاني ، تحقيق حمد الجاسر والدكتور صالح العلي .
٦ ــ الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، ج ١٥ ، طبعة دار الكتب .

الهوامش

(١) آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ١٣١ .
(٢) معجم البلدان ٤٤٢/٥ .
(٣) بلاد العرب ٣٥٧ .
(٤) السيرة النبوية ٢٤٤/٤ .
(٥) السيرة النبوية ٢٤٥/٤ ، وتاريخ الطبري ٢٨٤/٣ .
(٦) السيرة النبوية ٢٧٢/٤ .
(٧) آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ١٣٥ .
(٨) تاريخ الطبري ٢٨١/٣ .
(٩) الأغاني ٣٠٢/١٥ .
(١٠) المصدر السابق ٢٩٨/٥ .
(١١) الطبري ٢٨٠/٣ .
(١٢) الطبري ٢٩١/٣ .
(١٣) المصدر السابق ٢٨٩ .
(١٤) الطبري ٢٩٨/٣ .
(١٥) المصدر السابق ٢٩٢ .
(١٦) معجم البلدان ١٣٥/٤ .



زخارف التوريق

من روائع الفنون الإسلامية

بقلم : د . عبدالمجيد وافي

يصادف القارئ في موضوعات الفن الإسلامي ، كثيراً من التعبيرات الاصطلاحية ، يستعملها المتخصصون والمشتغلون بهذه الفنون ، دون أن يلتفتوا إلى غرابتها على غيرهم ، وحاجة المتخصصين إلى بيان معناها ، وذلك لوضوح معناها ودواعي استعمالها فيما بين أصحاب الفنون .

بينما يتابع تلك العبارات غير قليل من القراء ، بشيء من الجهد ، ومحاولة تبين القصد منها ، ولو أنهم بلغوا مما يريدون إلى بغيتهم بشيء من الايضاح والبسط لكان لهم في ذلك من المتعة الذهنية ، والتذوق الفني ، ما يعوض تطلعهم ودأبهم وراء محاولة فهم المعنى .

★ مطرقة باب جامع أشبيلية وحدة متكاملة من زخارف التوريق حتى النص الكتابي على المطرقة أخذ طابع التوريق ★

ولفظة « **التوريق** » واحدة من هذه العبارات الاصطلاحية ، تداولها المشتغلون بفنون الإسلام ــ حرفة أو دراسة أو تاريخاً ــ من العرب والمسلمين ، **وكذلك من المستعربين أو المستشرقين** ، بين أقصى بقعة شوهد عليها مثال من فنون المسلمين شرقاً ، وأقصى مكان في **متاحف الغرب الأوروبي والأميريكي** ، التي عنيت باقتناء الأمثلة العديدة ، والمجموعات الواسعة من نماذج الفن الإسلامي المختلفة ، ابتداء من أصغر التحف المعدنية أو الخشبية ، إلى قطع النسيج والسجاد ، وشقف الخزف والأواني الزجاجية ، أو مصنوعات الذهب والفضة ، إلى أكبر الأمثلة المعمارية ، من حجارة وعقود ــ أقواس البناء الحاملة للسقوف ــ ونوافذ العمائر من أشغال التشبيك الجصية . . الخ

ما التوريق

وكلمة « التوريق » لا تعني ــ كما يبدو للوهلة الأولى في فهم بعض القراء ــ استعمال الورق في صناعة أو صياغة بعض من هذه المصنوعات الفنية أو تلك ، أو احاطتها بالأوراق .

وإنما تعني عنصراً معيناً ، من عناصر التشغيل والزخرفة والتشكيل النباتي انتشر استعماله ، في شغل مساحات أو أجزاء من العمائر وأدوات الحياة اليومية في العصور الإسلامية المتتابعة .

وأجاد ايقاعه وتوزيعه كل مشتغل بفرع من فروع الصناعات والفنون ، سواء أكان صانعاً دقيقاً يستعمل في مساحة محدودة ــ كقلامة ظفر أو مقدار راحة اليد ــ من **المعدن المنقوش ، أو الورق المزوق** ، أو أحجاراً أو رخاماً أو نجاراً ، يتناولون **الواجهات المعمارية ، أو الأعمدة ، أو الأبواب** بالزخارف المدقوقة أو المحفورة أو في **النوافذ** الخشبية **والمنابر** والكراسي ، وما إلى ذلك .

هذا العنصر عماده الزخارف المشكلة من **أوراق النبات المختلفة والزهور** ، بأساليب متعددة من الإفراد والمزاوجة ، والتقابل والتقاطع والتعانق ، مع تحوير في أشكال هذه الأوراق والزهور ، قد يصل إلى حد الإغراق في التجريد بعيداً عن شكلها الأصلي ، أو مقاربة بين حركات الأوراق على فروعها أو أغصانها ، كما لو كانت غضة نضرة في حديقة أو بستان .

ولم يقتصر ذلك على نوع معين من النبات ، كما شغلت مسطحات ــ صغرت أو كبرت ــ أياً كان مكانها من وحدات الفن الإسلامي .

انتشار فن التوريق

كيف دخلت زخارف التوريق حقل الفنون الإسلامية ، وكيف أخذت

بروعتها نقاد الفنون المعاصرين والغابرين على حد سواء ، وكيف صارت من الأهمية ـ رغم اندثار عهود نشأتها ـ حتى اندفع الفنانون المحدثون إلى احتذائها كمذهب ريق شيق من مذاهب الفن المعاصر ، ينسب إلى الفن الإسلامي أو العربي كما يتهافت على اقتناء روائعه مفتونوا الغربيين ، تماماً كما كان يفعل أجدادهم في **البندقية وإنجلترا وفرنسا** أيام **النهضة الإسلامية** التي حركت برونقها وعمقها النهضة الأوروبية ؟

يعود بنا الحديث إلى **انتشار عقيدة الإسلام** ومنهاجه في القرن الهجري الأول ، حيث زحفت مبادئه وسبقت جموعه الفاتحة ، وفي أقل من قرن ، كان سلطانه يهيمن على مواطن حضارات غابرة ، رسخت أقدامها ، في تاريخ الحضارات ، فناً وعلماً وعمارة ، حكم بلاد الفرس ، وفن **الفرس** رحب باهر ، واجتاح **ولايات بيزنطة** غرباً في **سورية ومصر والشمال الإفريقي** ، وقد كانت فنون بيزنطة منفردة النهج في سورية ، ولكنها تزاحمت في مصر مع **الفن المصري القبطي والفرعوني** ، وفي الشمال الإفريقي ، واجهت بقايا **الفنون الفينيقية والإفريقية البدائية** .

وما كان الإسلام وعقيدته في أول انتشار نوره ، إلا هادياً معلماً ، يخرج الناس من الظلمات إلى النور ، يحرر الشعوب من عبادة أفراد البشر إلى عبادة خالق البشر ، وبادئ كل شيء ، يمحو الاستغلال ويحطم الأغلال .

فلم يكن الفن الذاهب أو الفن القادم هدفاً له ، إلا أنه كان صاحب موقف صريح مع لون من ألوان الفن يحمل صورة من التعبد بالفن لغير الله جل وعلا ، حيث كان تحطيم هذا الفن المشرك بالله هدفاً من أهداف الإسلام .

وحسبنا ما فعله **رسول الله صلى الله عليه وسلم** ، يوم الفتح ، من تحطيم الأصنام حول الكعبة ، ومحو ما كان بداخلها من صور ، ثم إرساله البعوث لتحطيم أصنام القبائل في أرجاء البادية .

إلا أن المجتمع الإسلامي النامي ، واجه في البلاد التي دانت للإسلام وحكمه ميراثاً من الفنون والحضارات تعودها أصحاب الأرض قبل دخول الإسلام ، ولم يجد المسلمون بأساً في أن يأخذوا بحظ منها ، كذلك من دان بالإسلام من أهل البلاد الأصليين ، خاصة إذا كان هذا الحظ الذي ارتضوه لا يعارض أو يتعارض مع أصل من أصول الإسلام الحنيف .

وانتقل هذا الحظ الذي أخذوا به معهم ، إلى أنحاء الدولة الواسعة ، إلى عاصمة المسلمين الأولى في **المدينة المنورة** ، ثم إلى **الكوفة والبصرة ودمشق والقيروان والفسطاط** ، ذهاباً وإياباً ، وكان من نتيجة ذلك أن صبغت الحياة في المجتمع الإسلامي العريض ـ ولما تمض المائة الأولى من الهجرة ـ بقدر محدود من الاستمتاع الفني ـ أول الأمر ـ ثم أخذ في الاستقرار والاتساع ، مع نشأة الأسس الفنية التي أصبحت فيما بعد عريقة ، تنسب إلى جديد من الحضارات البشرية ، انطبعت بطابعها عقيدة وأصالة ودقة ورقة ، ودانت لولاء واحد بعد أن كانت تنتمي إلى منابع مختلفة .

ولعل **عمر بن الخطاب** رضي الله تعالى عنه ، قد خاف مثل هذه الانعكاسات الحضارية وتأثيرها على بساطة المجتمع المدني الأول ، فنبه مؤكداً ـ عندما أعاد تعمير المسجد النبوي ـ وقال لمن كلفة بهذا العمل : **« لا تصفر ولا تحمر ، حتى لا تفتن الناس عن الخشوع في الصلاة »** .

والمعروف أن عمر رضي الله عنه ، أعاد بناء المسجد النبوي[1] ، بالحجارة والجص ، بدلا من اللبن ، وجعل عمده من خشب منحور بدلا من جذوع النخل ، وإن لم يغير في التخطيط الذي استنه رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله .

وما فعله عمر رضي الله تعالى عنه ، لم يلتزم به **عثمان** رضي الله تعالى عنه وكلاهما صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، شهد معه المواقع ، كما شهد بالجنة لكل منهما ـ وذلك عندما كلف **زيد بن ثابت** رضي الله عنه ـ كاتب الوحي وجامع القرآن على **عهد أبي بكر** ، ثم أحد الذين كتبوا مصاحف الأمصار والمصحف الإمام على عهد عثمان رضي الله عنهما ـ بالإشراف على المسجد النبوي وتوسعته .

فقد أجمع الرواة على أن عمارة ابن عفان بإشراف زيد بن ثابت رضي الله عنهما دخلت فيها الحجارة المنقوشة والقصة « الجص » ، في الجدران والأعمدة التي حلت محل أعمدة الخشب في حمل السقف ، وكذلك السقف المزين بالذهب[2] .

وهكذا رأينا التأثيرات الفنية قدمت بنفسها إلى المدينة ـ المجتمع الإسلامي الأول ـ ولما ينقض عهد الخلفاء الراشدين .

وكان التوريق عنصراً من عناصر هذه التأثيرات الفنية الوافدة ، ضمن تأثيرات أخرى ، وكان العمال الذين قاموا بهذه التجديدات من مسلمي الآفاق ، خبراء في هذه الفنون ، وأولوها جيلاً بعد جيل ، ذوي حس مرهف أعانهم على تعديل استعمالاتهم ـ بعد اعتناقهم الإسلام ـ للعناصر الفنية بما لا يجرح صريح العقيدة الإسلامية ولا مضمونها ، وهي التي ترفض تجسيم المعبودات ، وافتعال التهويل في أجواء المعابد .

وإذا كانت زخارف التوريق قد عرفت في فنون ما قبل الإسلام بأشكال مختلفة ، فإنها ـ بشهادة غير المسلمين من دارسي الفنون ومؤرخيها[3] قد اتخذت بعد انتشارها بين فنون المسلمين سمتاً آخر ، أساسه التنويع ، والتتابع ، والتحوير خلال انتشار الدعوة الإسلامية .

ولا شك أنها بدأت أول الأمر قريبة من أشكالها في الطبيعة ، كطبيعة الأساليب السابقة في الاستعمال ، لكنها بدأت في التغير عن أصولها ، مع احتفاظها بعنصر التعبير الجمالي ، وكان التحوير في الشكل الأصلي وسيلة إلى الوصول إلى ذلك التعبير المتفرد دون سبق .

كما أنها بدأت أول الأمر متماثلة ثم تنوعت ، وبدأت مفردة ثم تتابعت مستكملة بذلك أبعاد الأسلوب الثلاثة ، مشتركة حيناً ، وينفرد التتابع بالتعبير أحياناً ، كما قد ينفرد التنوع أو التحوير .

وورقة النبات قد تستعمل وحدها ، متصلة بفرع ، أو مع ورقة لنبات آخر بالتبادل لتوقيع **التوازن الموسيقي** بالتفرع من خطوط ذلك الفرع ، أو من فرعين متعانقين ، مستمرة في تغطية افريز محدود ، أو مساحة واسعة ، دون أن يمل الناظر إلى هذا التتابع أو التعانق أو التقاطع أو



★ جزء من طراز كتابات قصر الحمراء من شعر ابن زمرك ونلاحظ الخلفية المورقة بأوراق نقشت باسم الله « التوريق المسبح » ★

التقابل .

كأني بهذه الوريقات ، بعد أن أخذت سمتها على الجدران أو الأخشاب أو سطوح الأواني ، أو أطراف الثياب أو حواشي صحائف الكتب ، إلا ترديد المسبحين وأصواتهم مترنمة بأسماء الله الحسنى ، في تبادل صوتي بين الهمس الخافت والرنين الواضح ، رفيعاً ذا جرس مطرب مرة ، غليظاً ذا تردد عريض أخرى كلما رتل المسبحون ، متجاورين أو متقابلين ، متأملين فيما يرددون ، مغرقين في بحر التجرد المحفوف بالسمو الخالص الذي أسبغته عليهم أسماء العلي القدير .

تجرد الله تعالى عن المثال وتعالى بنفسه ، فهو العلي القدير ﴿ **الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون** ﴾ .

﴿ **هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾ .

عناصر فن التوريق

لقد كانت **ورقة العنب** ـ مثلاً ـ ذات الشعب الخمس ، عنصراً استعمله المصريون والسوريون ، قبل العصر الإسلامي ، فلما تطور المجتمع بالدعوة الإسلامية وصبغته فطرة العقيدة النابضة ، فطرة الله التي فطر الناس عليها ، ارتاحت يد الفنان في تنسيقها عبر رسومه وتخطيطاته ، « فخرجت من جمودها وجفافها ، وخلعت رداءها التقليدي ، وكأنها ألقيت في مهب الريح فانفتحت مرة وانكمشت أخرى وهشت أحياناً ، وانثقبت أخرى ، واعتدلت أو انحرفت أو انشقت أو انبسطت واستوت أطرافها أو تضرست ، وأصبحت في بعض أشكالها نسيجاً من صنع الخيال كالخيوط المتصلة أو الخروم الملتصقة »(٤) .

لم يكن هذا هو حظ ورقة العنب وحدها ، بل شاركتها فيه **ورقة الصنوبر ، أو أوراق الكافور أو الصفصاف** ، ذوات السمت المستطيل والأطراف الرمحية المدببة ، تبدو أول الأمر مستقيمة ، ثم تنساب أطرافها في التفاف ، حتى تعود ملامسة أصلها ، تعانقه أحياناً أو تقاطعه ، مكونة أشكالا قلبية أو نجمية في تناسق يطرد أو تقابل ينفرد .

وهكذا بدت تشكيلات بديعة ، بعدت أصلاً وفرعاً عن استعمالات الفنون السابقة ، وتغالى فنانو المسلمين في التنوع والتعدد ، بقصد التطريب في الشكل ، مغالاة تنم عن سعة الخيال ورحابة الأفق ، مما ينقل الفنان من مرحلة الإغراق في الحس إلى السمو في التأمل ، وبلوغ درجة عالية في التصوف تدبراً في عظيم صنعة الله بوَرقة من أوراق النبات ، تقود العبد المتدبر إلى عظمة الخالق وعظمة الملك ، فيقود تدبره إلى غرق حالم في خضم الملكوت الواسع .

ذلك هو السمت والسمة التي ميزت الفن الإسلامي التي بهرت نقاد الفنون ومؤرخيها ، وأفحمت الحاقدين الذين أصروا على وصم فنون المسلمين بالنقل والتقليد ، فعادوا واعترفوا له بالانفراد والجدة والتنوع .

أنواع التوريق

ولم تمض المائة الأولى من العصر الإسلامي ، حتى كان المسلمون ـ عامتهم لا مثقفوهم فقط ، فالإسلام وحدة فكرية وثقافة عملية كاملة الأبعاد والأعماق ـ آخذين بأسباب البحث في كل تراث سابق للحضارات البشرية يعرضونه على أصول عقيدتهم ، فما استقام معهم أخذوا به ، وما تعارض عدلوا عنه ، أو عدلوا به إلى السمت السوي من الفهم الإسلامي المستقيم .

وبنفس الحس المرهف ، والتحقيق الصادق ، انتشرت أساليب التعامل الفني مع وحدات التوريق ، من حدود **السند والبنغال** إلى **شاطئ الأطلسي** شرقاً وغرباً ومن **جبال القرغيز** شمالا إلى **شواطئ البحر العربي والمحيط الهندي** جنوباً .

وساعد اتساع الدولة ، حرية الانتقال بين ربوعها ، في سرعة انتقال

المعارف والعلوم بين أقصاها وأدناها كما ساعد على انتشار تقاليد الفنون وأساليبها ، كما كان شغف الحكام والولاة ووجوه الأمة ، يدفعهم إلى استضافة عالم ، أو اقتناء مؤلف ظهر في المشرق أو المغرب ، كما كانوا يُسعى إليهم بطرائف الفنون وغرائبها ، أو يسعون في طلب صانع مبدع ليخصهم بروائعه وبدائع صنعته .

وقد تنوعت **أساليب التوريق في المشرق** ، وأبدع **أهل المغرب** الإسلامي فيما نقلوه معهم عن أهل المشرق ، فأصبح الناظر إلى وحدة تشكيلية لا تخطئ نسبتها إلى الفن الإسلامي شرقية أو غربية ، وذلك من حقيقة أساسية ، أن وحدة العقيدة كانت عاملاً في وحدة الثقافة ، وأساساً لوحدة الفنون .

طريقة المغرب ، وطريقة المشرق

لكن على الباحث والدارس أن يدرك دقيق الفرق بين طريقة المغربي أو المشرقي ، وكثيراً ما حار القوم في ذلك لشدة التقارب والتنافس بين أهل تلك الفنون .

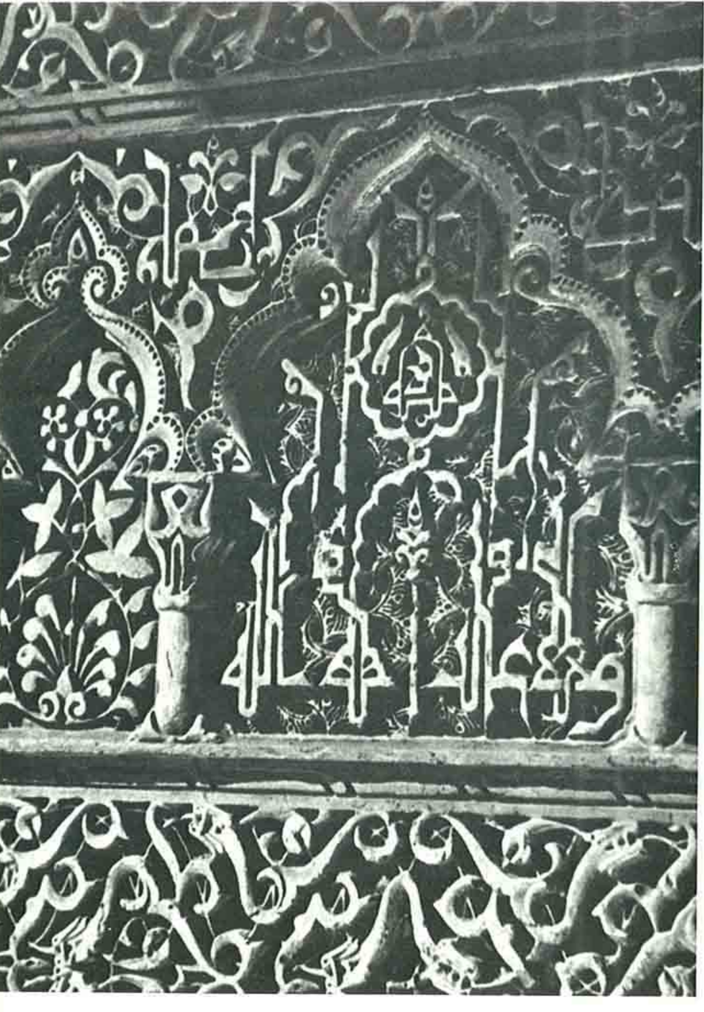
فكانت تشكيلات التوريق أول أمرها في **سورية ومصر وما وراء النهر** ، مستقلة بفراغها الذي تشغله فيما يصنع الحفارون على الحجارة أو الأخشاب ، كل يحاول أن يثبت ليونة مادة صناعته في يده ، فابتكروا الحفر العميق أول الأمر ثم بدأ الحفر المائل في الظهور ، ثم لعبت مستويات الحفر في يد الرخام والنجار بالمادة الصلبة ، حتى قاربت الأوراق المحفورة ليونتها على الفروع والأغصان في نهاية **العصر الفاطمي في مصر ، وعصر بني أمية الأندلسي** ـ الذي عاصر الدولة الفاطمية ونافسها حضارة وفناً وعلماً ـ بينما تناقلت أساليب التشكيل في **شمال إفريقية** خصائص مصرية وسورية فترة ، وأندلسية فترة أخرى .

وانتقلت عدوى التوريق ، إلى الوراقين والمزوقين ، أصحاب صناعة الكتاب واستنساخ الكتب ، وبدلا من إزميل الرخام وأداة النجار في حفرهما ، قامت ريشة المزوق وقلم الخطاط ، بتوزيع فروع التوريق على مسطحات الورق ، إطارات وأفاريز حول النصوص ، أو مساحات منبسطة حول العناوين وأوائل الفصول .

ومدادهم اللازورد ، وماء الذهب ، وروائع الألوان ، بل قلدهم حفارو المعادن ، نقشاً وتلبيساً وتكفيتاً بالذهب والفضة على النحاس أحمره وأصفره ، فلم يقصروا عن شأو إخوانهم الحجارين والرخامين والنجارين والوراقين إبداعاً وتصنيفاً ، يبدعونها في أباريق الوضوء والشرب ، وشماعد الضوء وثرياته .

ولا يلبث الرخامون والنجارون والحجارون ، أن تصيبهم عدوى التلوين من مزخرفي الكتب ، فنرى الجدران والسقوف قد اكتست بالألوان بهاء على بهاء .

كل ذلك وعنصر التوريق لا يكل عن التطور والتحور ، بما يقتضيه المقام أو المكان ، حتى تجاورت وتحاورت أساليب الصانع في مناظرات فنية



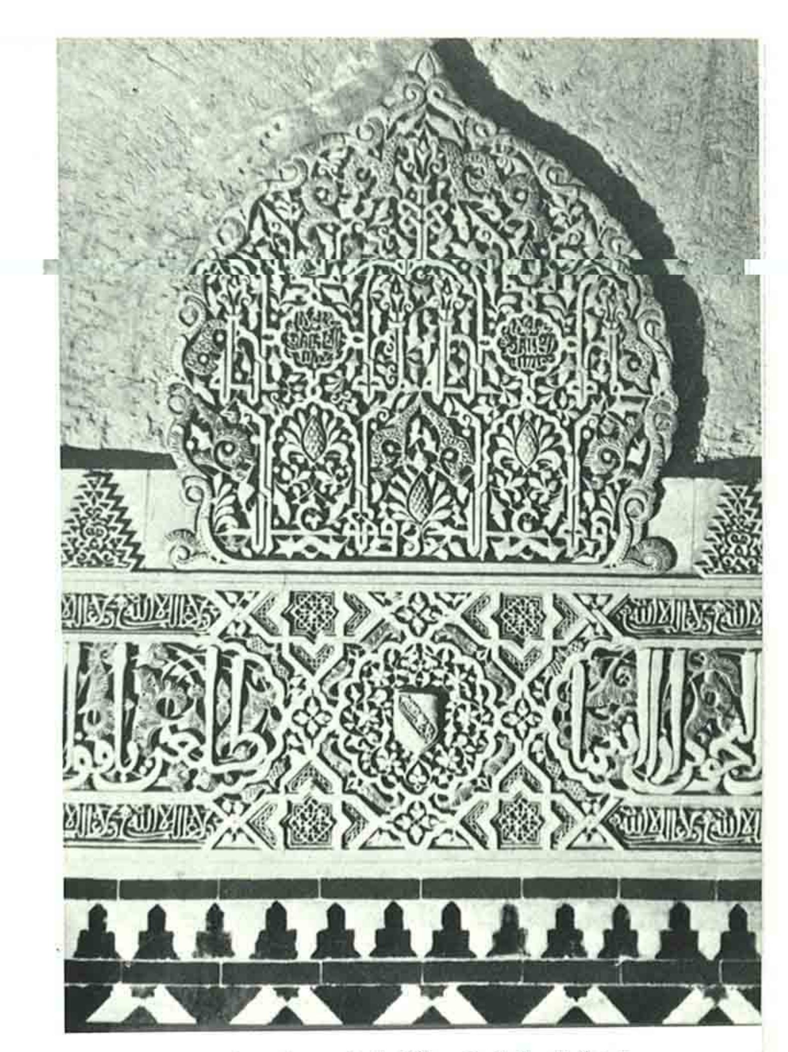
★ « ولا غالب إلا الله » بين الطبقات المتعددة لمستويات الحفر الجصي في أروقة الحمراء ★

فريدة على صعيد العمارات والتحف والمنابر والأبواب والطرائف .

وفي مراحل لاحقة من القرنين الخامس والسادس الهجريين ، أصبحت زخارف التوريق عنصراً أساسياً في واجهات العمارة وأبواب القصور والمساجد الجامعة ، وتكفي نظرة إلى باب **المسجد الجامع بقرطبة ، وجامع إشبيلية في قلب إسبانيا** ، أو أبواب المدارس والمساجد المملوكية في القاهرة ، لنرى روعة صناعة الحشوات النحاسية ، بين سباكة ونشر وقطع ونقش وتشكيل الزخارف التوريقية المسطحة أو المستديرة النهايات كأنما هي فروع وأغصان دقت ورقت على أشجارها .

ولعل **أبواب السلطان حسن** ٧٦٤ هـ ـ ١٣٦٣ م ، بما تحتوي على تلبيسات الذهب الدقيقة الايقاع والتشغيل ، لخير دليل على سيطرة زخارف التوريق على أشغال النحاس في الأبواب والنوافذ ، وانتشارها في كثير من أبواب ونوافذ **العصر المملوكي** .

ولن ننسى روائع ترابيع الخزف الملون ، التي تغطي واجهات **مساجد آسيا الوسطى وقبابها ومآذنها** ومشاهد **إيران والعراق** ، تشغل مسطحاتها تشكيلات **التوريق الملون** بين الأزرق والأحمر والأخضر والذهبي ، في تناسق بديع متتابع ، بل إن عناصر التوريق في مساحات كبيرة من الخزف الأزرق ، في بعض المساجد في إيران وتركيا ومصر ،



★ «ولا غالب إلا الله» كتبت بالكوفي المضفر بين خلفيات التوريق ، وتحتها نهاية بيت من أبيات ابن زمرك وبداية بيت آخر كتبا على خلفية مورقة ★

جعلت الزوار لهذه البلاد يسألون عن «**المسجد الأزرق**» وذلك لاشتهار مساجد بعينها بهذا الاسم ، وذلك **كمسجد الشاه عباس بأصبهان ، ١٠/٩ هـ ـ ١٥/ ١٦م ، ومسجد السلطان أحمد في استنبول ١١ هـ ـ ١٧ م ، ومسجد إبراهيم آغا مستحفظان بالقاهرة ـ ١٠٦٢ هـ ـ ١٦٥٢ م .**

ولعل **أطرف صناعات التوريق النحاسية ، بالمتحف الإسلامي بالقاهرة** ، باب مصفح بالنحاس ، قوامه زخارف التشبيك المورق ، حاول صانعه أن يظهر براعته الابتكارية ، فانفرد بأسلوب جديد تحولت فيه أوراق النبات المتشابك مع الفروع والأغصان ، وتحورت إلى حيوانات في أوضاع مختلفة ، كأنما أوراق الشجر على أغصانها وفروعها متقاطعة أو متعانقة ، صنع ذلك الباب باسم **الأمير المملوكي سنقر الطويل .**

وهكذا صارت عناصر التوريق أساساً تشكيلياً في توزيعات الفنون وتنوعاتها ، وأصبح لزاماً على كل فنان اتجه إلى نوع أو فرع من الصناعات الفنية أن يجيد التوريق أولا ، كمقدمة لتوقيعه على التحف والطرف بالآلات والوسائل المختلفة .

وربما رأى حجار أو نجار ، وحدة توريق ابتدعها مذهب وراق ، فاقتبسه ونقل عناصره ، وقلدهم من بعد خزاف أو صانع نحاس في **شمعدان أو ثريا** من ثريات الضوء الضخمة ، أو مكفتاً بالذهب والفضة .



وإذا كانت رحلة التوريق تطول عبر القرون ، بين مشرق العالم الإسلامي ومغربه ، فإن أروع ما نراه من هذا التوريق ، سمواً وتصوفاً ، تعبداً وذكراً ، توريقات الزخارف في **قصور الحمراء** ـ غرناطة الأندلس ـ حيث برع فنان الزخارف الجصية في أن يشكل الأوراق **بتوقيعات دقيقة التوزيع** ، قوامها اسم الله الأعظم ، متقابلة ومسلسلة تسلسل التسبيح في أعقاب الصلوات ، وعلى ألسنة القائمين الذاكرين ، فأينما انتقلت عيون الناظر وراء تسلسل التشكيل التوريقي ، تابعت اسم الله رؤية وتلاوة وتسبيحاً بالجمال الذي أضاءه اسم الله وزانه على سطوح الأوراق حفراً وإبرازاً .



كل ذلك كان عندما استقل التوريق بالتشكيل واشغال مساحات تختلف اتساعاً أو ضيقاً على مسطحات العمارة أو صفحات الورق ، أو أبدان الأدوات المعدنية أو الخشبية أو الخزفية ، لكن العظمة التي تبلغ حد الإعجاز تتجلى في الجمع بين عنصر التوريق وعنصر آخر من عناصر الفن الإسلامي ، هو الكتابة كوفية الطراز أو جلية ثلثية أو نسخية متعددة الأساليب .

ولن أستطرد هنا في الحديث عن الكتابة وأساليبها وفنونها ، فذلك وحده باب مستقل يشوق الباحث أو الصانع أو الصائغ على السواء .

وإنما حديثي عن التوريق عندما يكون موضعه في التشكيل الفني خلفية لعنصر الكتابة ، سواء أكان ذلك في العمارة أو الصحائف أو الصحاف والأواني ، يستمر متتابعاً خلف قوائم الكتابة أو كاساتها ، أو تفرعاً من أطرافها شاغلاً للفراغات بين القوائم ـ الألفات أو اللامات ـ والكاسات استدارة الحروف النائمة ـ كالباء والسين والصاد وأشباهها ـ .

وذلك التزاوج أو التبادل السطحي بين العنصرين ، فن إسلامي محض تفرد به الفنانون المسلمون ابتداء من القرن الثالث الهجري حتى عصرنا هذا ، بل عنهم أخذه فنانو الغرب في توابع عصر نهضتهم فيما تلا القرن الخامس عشر الميلادي ، وكان أكثر استعمالهم له في صفحات المخطوطات والمدونات الكنسية على وجه الخصوص قبل أن ينتشر **بانتشار الطباعة** في كثير من المطبوعات .

بينما هو في الفنون الإسلامية ، حيث سجلت آيات القرآن الكريم أو عبارات الدعاء وألقاب الملك والسلطنة ، بل وعبارات المديح وشعر الشعراء .

ولقد برز جهد الفنان المسلم وإبداعه حين خالف بين مستويات الكتابة ومستويات التوريق ـ خلفيات أو تفريعات ـ واشتهرت واجهات العمائر في ذلك الباب حفراً على الرخام أو الحجر ، أو ترابيع الخزف الملون على

الجدران أو القباب والمنابر ، كما انتشر ذلك الأسلوب في طرازات الكتابة الجصية داخل القباب وايوانات المساجد وساحات القصور .

ولعل أبرز مثالين أسوقهما لذلك الإبداع ، مثال مملوكي : هو طراز **سورة الفتح في مسجد ـ أو مدرسة ـ السلطان حسن بن الناصر بن محمد بن قلاوون بالقاهرة ـ ٨ هـ ـ ١٤ م .**

ومثال أندلسي من **العصر النصري** ـ بني نصر بن الأحمر ـ هو **طراز من شعر الوزير الغرناطي محمد بن زمرك ، في مدح السلطان الغني بالله** على جدران قاعات الحمراء ـ ٩ هـ ـ ١٥ م .

● **أما المثال الأول** : فطراز طوله يقرب من ٤٠ متراً ، يشغل جدران رواق القبلة مبتدئاً بالصدر الأيمن لواجهة الإيوان ، ومنتهياً بالصدر الأيسر للإيوان بارتفاع ما يقارب المتر ، وقوام ذلك الطراز آيات من سورة الفتح مبتدئاً بالاستعاذة والبسملة ، منتهياً بالتصديق ، كتبت بالخط الكوفي المملوكي ، فريد في تشكيله ، عريض القوائم طويلها ، مستقيم الكاسات قليل الاستدارات ، محدود الفواصل بين الحروف افترشت خلفية من التوريق الرقيق المتتابع في دوائر لا نهائية ، حتى ليظن المتتبع لتسلسله تحت الآيات ، أنه بدأ مع الاستعاذة بالله من الشيطان ولم ينته إلا بانتهاء الآيات بالتصديق ـ صدق الله العظيم ـ .

وإذا كانت الحروف والكلمات تشكل السطح أو المستوى الأعلى ، فإن التوريق خلف الحروف ، يكون مستويين خلفهما ، وتميز برشاقة الفروع واكتناز الأوراق ، وتنوعها بين المصمت والمفرغ والمخرم ، حتى أصبح التوريق ـ بل تشكيل الطراز كله ـ آية في رقة التقابل والتقاطع والانثناء والانفراج .

وقد اشتهرت هذه الفترة من العصر المملوكي بهذا اللون من التوريق وخاصة العمائر التي أقيمت في عصر القلاوونيين ـ **المنصور قلاوون** ٦٨٣ هـ ـ ١٢٨٤ م ، ثم ابنه **الناصر محمد** ، ثم ابنه **السلطان حسن بن محمد بن قلاوون** ، وكانت كلها عمائر فارهة حوت ألواناً من الفنون ، واقتبست كثيراً من العناصر المعمارية والفنية التي اشتهرت في ربوع الأندلس ، وأظهر هذه العناصر ، طرازات الجص المشغول بالتوريق ، وطرازات الكتابة النسخية أو الكوفية ذات الخلفيات المورقة ، وهكذا عدنا إلى حركة الفنون بين ربوع بلاد الإسلام .

● **أما المثال الثاني** : فلا تكاد تخلو منه ساحة من ساحات الحمراء أو قاعاته ، قوامه أبيات من قصائد ابن زمرك في مدح سلاطين بني نصر ـ آخر حكام الأندلس عامة ، وغرناطة خاصة ـ من ملوك المسلمين .

والكتابة كلها نسخية على خلفية مورقة بعرض ٦٠ سم تقريباً ، نسخ مغربي طويل القوائم لينها ، والتوريق من أوراق الصفصاف في انحناءات واستقامات حرة التشكيل ، حرة التعانق والإنفراد ، في سطوح أو مستويات ثلاثة تحت مستوى الكتابة حفرت على الجص في رقة ودقة وليونة بلغت حد الروعة .

وزاد من روعة التشكيل تصوف الفنان كما ذكرت آنفاً ، حين جعل سطوح أوراق الصفصاف ، مخرمة تخريماً فريداً في رقته ، قوامه لفظ الجلالة ، في تكرار وتتابع وانسياب بديع ، أبى الزمان أن يقربه بالفناء وفيه اسم الله المتفرد بالبقاء يسبح ربه كل من رآه ، قراءة للفظ الجلالة ، وتعبيراً عن الإعجاب بالنمط الفريد ، فهو بحق توريق مسبح ، يملك على كل ناظر إليه لبه ، وكان الفنان حين وقع ذلك التشكيل الفني ، يؤدب ابن زمرك فيقول له أنت تمجد سلاطين الخلق الزائل وأنا أمجد العلي القدير .

ورغم هشاشة مادة الجص ، فقد مرت على ذلك الإبداع أربعة قرون ونيف ، ولن ننسى توالي الصيانة والترميم ، حيث صناعة السياحة في إسبانيا ـ ٣٠ مليون ساكن ، و٣٠ مليون سائح سنوياً ـ فهم يجلبون الذهب سائلاً من جيوب السائحين .

ويكمل ذلك المثال مجاورة ، أو مناوبة ، إطارات متفاوتة الأبعاد والأشكال تحوي العبارة الأندلسية المشهورة « **ولا غالب إلا الله** » شعار بني نصر وعبارة : « **الحمد لله على نعمة الإسلام** » في تراكيب متشابكة من الكوفي المضفر أو النسخ المتطاول ، خلفياتها بسط التوريق المخرم تسبح أوراقه باسم الله العظيم .

التوريق في العهد العثماني

وإذا كانت **الخلافة العثمانية** قد استورثت تراث الإسلام ، عنوة أو اختياراً ، فجمعت في حواضرها فنون المسلمين وصناعتهم ، فإن التوريق واصل رحلته ، وظل خلف كل جهد لفنان في كتاب ـ من الجلدة إلى الجلدة كما يقول التعبير الدارج ـ أو في شوامخ المساجد التركية في أنحاء آسيا الوسطى ، وسورية ومصر وستظل مساجد استانبول نماذج عز وحضارة وتقوى وفن خالص ، أظهر ما فيه العودة بالتوريق إلى قريب من أوراق الشجر الطبيعية على أشجارها بعيداً عن التحوير ، مزاوجة مع الموروث من أساليبه العريقة ، ولعل ترابيع **الخزف الكوتاهي** أظهر أمثلة على ذلك المستحدث من أساليب التوريق .

وسيظل التوريق قرة عين لكل محب لفن تصوف وسبح لخالق الكون مصور الكائنات من ورقة الشجرة وبرعم النبت والزهرة إلى أوسع ما في الملكوت من المجرات في كبد السماء[5] .

الهوامش

(١) «مسالك الأبصار» العمري ، ج ـ ١ ـ ص ١٢٥ .

(٢) وفاء الوفي للسمهوري ، ج ـ ١ ـ ص ٣٥٥ ، فتوح البلدان للبلاذري ، ص ٦ .

(٣) M. S. Dimand: A handbook of Mohammadan Art. Metropolitan – Museum of Art. New-York P.69.

ويلاحظ أن الكاتب يسميها فنوناً محمدية ، لأنهم هناك ينسبون الدين إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا ينسبونه إلى أمر الله ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾ .

(٤) «المدخل» للدكتور أحمد فخري ـ بتصرف ـ ص ٤٠ .

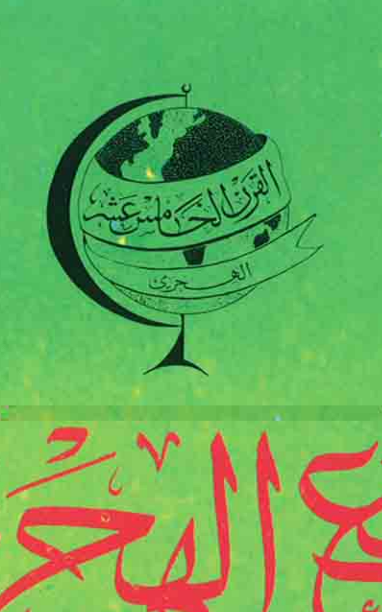
(٥) ليس ذلك من باب الإغراق في التعبير الجميل ، ولكنه إشارة إلى عنصر آخر من عناصر الفنون الإسلامية ، هو الزخارف والتشكيلات النجمية الهندسية التي عجز عن حصرها النقاد والمشتغلون بالفنون .







Paul Buhré
بول بوريه
من كبار صانعي الساعات في العالم منذ عام ١٨١٥م .
Paul Buhré
QUARTZ
محسن
MOHSEN
المركز الرئيسي : جدة - شارع المطار وشارع الأشراف ص.ب : ٣٤٩٨
الرياض : شارع الملك عبدالعزيز وشارع الناصرية
الخبر : شارع ٢٨ مطلس سنتر
المدينة : شارع السنبلية وشارع الملك عبدالعزيز



مع الهجرة

على مشارف القرن الخامس عشر الهجري

شعر : محمد منذر لطفي

ـ ١ ـ

نجمان من غرز الأصولْ   نجم الرسالة .. والرسولْ
هذا شفاء للنفوس   وذاك هَدي للعقول
قد كان في « أم القرى »   ليلان .. ظلهما ثقيل
شرك .. وجهل مطبقان ،   فهل إلى برء سبيل ؟
حتى تجلّى النيِّران ،   فأزهر الليل الطويل
يا موسم الفجر الندي   وموسم الصبح الجميل
ما أنتما إلا الخميل   أظل صحراء الطلول
ما أنتما في « مكة »   إلا الرسالةُ والرسول

ـ ٢ ـ

يا من أضاء دجى الدروب ..   فأشرقتْ كل الدروبْ
الحق شرعك .. فامض فيه   فأنت رائدنا الحبيب
عميتْ عقول الناس دهراً ..   والضمائر .. والقلوب
فانشر مصابيح الضياء   على المدائن والشعوب
ضاقت « قريش » بنورك الوضاء ..   بالدوح الرطيب
فمضت تدبّر في الخفاء ..   وفي الضحى أمراً عصيب
لكنّ من حَفِظَ الإلهُ ..   فليس تدركه الخطوب
« فاصدع بما تؤمر » .. وهاجر ..   إن مولاك « الحسيبْ »

ـ ٣ ـ

خرج الرسول .. وراح يحثو   الترب في كل العيونْ
ويمر .. فالحراس في   سِنَةٍ عن الكنز الثمين
حتى إذا طلع الصباح ..   ووشّح البيت الحزين
دخلتْ « قريش » فهالها   « اللاشيءُ » .. والصمت المبين
لم تلق في البيت الرسول ..   ولم تجد إلا الخدين
حارت وحار دليلها الأشق ..   وحاديها اللعين
حتى إذا لاحت له   آثار أقدام « الأمين »
ثارت حفيظته ..   وراح يدق ناقوس المنونْ

ـ ٤ ـ

قصد الرسول الغار و« الصدّيق »   في جنح الظلامْ
وبنيّةٌ سمراء يعمر   قلبَها النورُ التمام

وراحت [illegible] تنثني عن القوم الطعام
تسعى إلى الغار الذي قد ضم آمال الأنام
نسجت عناكبه الخيوط.. وباض بالباب الحمام
حتى إذا وصلت «قريش» الغار.. واحتدم الكلام
وأوحى [illegible] الله أن القوم لن يصلوا المرام
فرنا إلى «الصدّيق» في بشر يزف له السلام
ويقول: «إن الله ثالثنا» فلا تخش اللئام

– ٥ –

ومضت ثلاثٌ .. ثم لما أعقب الليل .. النهار
حضر «الغلام» يقود راحلة.. فضاء الانتظار
هيا: وراحا ينهبان السهل.. والبيد القفار
ومضت «قريش» ببحثها المحموم تسأل كل دار
هذا الكمي «سراقة» أغرته جائزة الحُرار[1]
لكن من حفظ الإله.. فليس يدركه العثار
حتى إذا لاحت لهم واحات «يثرب» والجدار
راحت مواكبها تموج.. وزيّن اللقيا انتصار
وطلعت بدراً «من ثنيّات الوداع» على الديار
وطلعت بدراً «من ثنيّات الوداع» على الديارْ

– ٦ –

من كان مثلك يا «محمد» لن يضل ولن يخيبْ
ما كان أحوجنا إليك.. وقد تكالبت الخطوب..!
ما كان أحوجنا لمن نشر الأخوّة في الشعوب..!
لا فرق في جنس.. وفي لون.. وفي نسب قريب
الفرق بالأعمال.. فاصنع دولة تأبى الغروب
إن صوّحت جناتها فغداً تماوج بالطيوب
أكبرت شرعك أن يغيبه زمان.. أو يغيب
أكبرته.. أكبرت «مكة» و«المدينة» و«الحبيبْ»

الهوامش

(١) جمع حرة وهي الناقة الكريمة .



اذاكنت ترغب في بناء قصر أو فلة على احدث طراز وامتن بناء.. اتصل بالمشهورة

المشهورة : الممثلون الوحيدون لمؤسسة جنسان العالمية

مؤسسة المشهورة

بناء قصور وفلل - مشاريع عمرانية
ديكورات داخلية وخارجية .
تلفون ٢٣٧٤٥/ ٢٣٧٠٠ - تلكس ٢٠١٣٣٦ - الرياض



المراعي وأخطار التصحر

د. عبدالحليم منتصر

تمثل المراعي ــ وبخاصة في **المناطق الحارة الجافة** ــ مورداً لا غنى عنه من موارد الثروة ، حيث يعتبر **النبات البري** ــ شجرة كان أو شجيرة أو عشباً ــ إنما يمثل واحة نضرة ، وسط صحراء شاسعة مترامية الأطراف ، فجذع الشجرة يصد الريح ، وورقها يظلل سطح الأرض حيناً فيبرده ، وعند تساقطه يثري التربة بالدبال ، فإذا ما قطعت الشجرة أو اقتلع أو رُعي العشب ، تغدو التربة في الجو القائظ الجاف ، غير صالحة لإنبات البذور . وإن الرياح لتذرو حبيبات التربة الجافة ، فتزيد في جفافها .

إن أعداد **الماشية الراعية** ، إنما هي دليل الثروة في هذه الجهات ، وإن آلافاً منها لتقطع عشرات الأميال ، فوق رمال ساخنة ، لتصل إلى بئر لترتوي منها أو إلى مرعى لتغتذي من أعشابه .

على أن هناك ظاهرة خطيرة ، بدأت آثارها تتبدى على هذه المراعي ، إنما هي ظاهرة **زحف الصحراء** ، التي تهدد القرى والدساكر والأراضي الزراعية والمراعي ، وكثيراً ما تثور **الزوابع الرملية** ، حتى لترى الكثبان الرملية ، وكأنها تنمو وتكبر وتمتد ، لتغطي جذوع النخيل والأشجار وأعمدة التليفون ، وإنها لتغطي المساكن والمباني ، حتى ليهرب السكان ، ليقيموا بعيداً عن مكامن الخطر ، وكثيراً ما تنسب بعض هذه الأخطار إلى الإنسان نفسه الذي يسهم في عملية التصحر بما تنفثه مداخن المصانع ، وفضلات ونفايات الصناعات المختلفة ، من أبخرة وغازات ، مما يلوث البيئة على الكائنات النباتية والحيوانية والإنسان نفسه ، وبذلك تتحول مساحات شاسعة إلى صحارى بعد أن كانت مزدهرة يوماً بحياة نباتية وحيوانية وإنسانية متكاملة ومتوازنة .

وتتبدى خطورة هذه الظاهرة بصفة خاصة في البلاد التي تمثل الأراضي الزراعية أو الرعوية ما لا يزيد على ثلاثة في المائة ، وفي بعضها لا تزيد على ثلاثة في الألف من مساحتها الرملية الصحراوية الشاسعة ، التي تمتد فيها بحار الرمال على مدى البصر ، حيث لا تكاد ترى آثار أقدام أو طرق ، فقد طمرتها الرمال السافية الزاحفة ، وأن بحر الرمال والكثبان الرملية ليمتد على مدى يزيد على خمسين ألف ميل مربع في **الربع الخالي في المملكة العربية السعودية وفي الصحراء الغربية في مصر وليبيا** ، وأن الكثبان الرملية ، لتعلو مئات الأقدام وتمتد إلى مئات

الأميال .

وإن الإنسان ليرتكب خطأً جسيماً في حق نفسه ، إذا لم يحافظ على أرضه الزراعية ومراعيه ، وتركها لرمال الصحارى تغطيها ، أو اقتطع من هذه الأراضي ، ليحولها إلى مبان ومدائن وطرق ، وكان الأولى به والأجدر أن يقيم هذه المرافق في الصحراء ، دون أن يقتطع أو ينتقص من الأراضي الزراعية أو المراعي شبراً واحداً .

ولو قد تنبه الإنسان إلى مثل هذه المخاطر ، لأحاط الكثبان الرملية بأسيجة من الأشجار أوالمصدات للرياح ، أو حاول تثبيتها باستزراع نباتات معينة تثبتها ولا تجعلها تتحرك بسهولة .

مع أن الدول المتقدمة ، قد استطاعت بالعلم والتقنية الحديثة أن تخفف من آثار هذا التصحر ، وأن تتغلب على الكثير من متاعبه ، بزراعة **مصدات الرياح** ، واستعمال **مظلات النايلون** ، لتحجب الحر الشديد دون أن تحجب الضوء ، ولتقلل البخر ، وترطب الجو حول **النبات** ، وإن المظلة الواحدة لتغطي فدانين من النباتات النضرة . وفي الوقت نفسه تستعمل أنابيب دقيقة للري بالتنقيط فلا تضيع قطرة ماء هباء ، إنما هي قطرات تتلقفها الشعيرات الجذرية فقط فمثل هذه الدفيئات أو **الصوبات** إنما تحتاج الى عُشر المساحة التي تحتلها الأرض المكشوفة ، كما أنها تحتاج إلى ٢٠/١ من كمية الماء التي تستغلها الأرض المعرضة للجو .

ويلجؤون في بعض البلاد إلى نشر طبقة رقيقة من **بقايا البترول الخام** ، لتغطي الكثبان الرملية ، فتثبت الرمال وتحفظ رطوبتها ، وتمنع الرياح من أن تذروها .

كما أنهم يبذرون بذور الحشائش والأعشاب فوق الكثبان الرملية قبل تغطيتها ، فتستحيل الرمال الجدباء ، مع الأيام والسنين إلى أرض تنبت المرعى والكلأ ، بل الزرع والشجر ، وتصبح مع العناية والحماية من الرعي المبكر ، حقولا منتجة لمحاصيل وخضروات مختلفة .

تجربة الصين

ويقول الجغرافيون الصينيون ، إن قروناً متطاولة من الرعي المستمر ، قد حولت مساحات شاسعة من الصين إلى أرض ، تدفع رمالها الإنسان الصيني ليدور حولها . وتنبه الصينيون أخيراً إلى ظاهرة التصحر ، وأخذوا يمارسون طرائق مختلفة لتثبيت هذه الرمال وتلك الكثبان ، ومحاولة استزراع بعضها بالحشائش والأعشاب والأشجار .

وفي الهند

ويبذل **الهنود** جهوداً مماثلة لوقف عملية التصحر ، بمحاولة استزراع بعض الحبوب . فالواقع إنه ليس ثمة صحراء في العالم ، تعيش فيها هذه الأعداد الهائلة من السكان مع عدم صلاحيتها للتوطن ، إنهم يعتمدون على **رياح « المانسون »** وما قد تجلبه من خيرات وأمطار ليست مؤكدة ، ولقد اشتهرت على مر التاريخ بأعلى نسبة وفيات ، بسبب القحط والجفاف والجوع . ولكن نسبة الوفيات قد تناقصت أخيراً ، ففي بعض جهات الهند ، غدا أكثر من ٨٠٪ من الكثبان الرملية ، مستزرعاً وكثرت **الحيوانات** الراعية . وثمة جهود مستمرة في زراعة المصدات ، وتكثيف زراعة الأشجار والمراعي . ولكن عدم رغبة الهنود في قتل الحيوانات حتى القوارض ، قد أوجدت مشكلة جديدة ، مما زاد الحال سوءً ، وغدت المقاومة أشد وأعنف ضد **الجرذان** ، وأضرابها ، وإنها لتتزايد وتتكاثر بدرجة تفوق كثيراً تزايد السكان في « **راجستان** » . وإن الأسوار والأسيجة التي يبنيها الناس لحماية مراعيهم وحقولهم من رعي الماعز ، قد



غدت هي الأخرى مرابي أو فنادق ممتازة للجرذان والقوارض التي تلتهم ما تنبته الأرض من مرعى وعشب أولا بأول .

فـي أستراليـا

وكذلك تفعل **الأرانب في أستراليا** ، إنها عامل مساعد على التصحر ، وإذا عرفنا سرعة تكاثرها قدرنا قدرتها على التخريب ، مما جعل الأستراليين يضجون من هذا الوباء ، بل جلبوا الأمراض والأوبئة للمساعدة على التخلص من هذه الأرانب التي تلتهم الأخضر واليابس . فلم تعد أراضي أستراليا قادرة على تأمين الحياة لملايين الأغنام والماعز والماشية التي كانت ترتعي في مراعيها . وكذلك تتعاقب فترات الامحال والازدهار ، حسب مواسم الأمطار ، التي قد تهطل بغزارة في بعض السنين ، ثم تتعاقب سنون متطاولة دون هطول قطرة مطر فإذا بالمراعي وقد أجدبت .

فـي شيلـي

وفي جنوب « **شيلي** » حيث تهطل بعض الأمطار ، ومع ذلك فإن الأرض تتصحر يوماً بعد آخر ، فقد كان ينمو هناك **القمح** ، وكان يصدر إلى **كاليفورنيا** ، ولكن الخطر ازداد ، والصحارى زحفت تدريجياً ، حين اقتلع السكان الأشجار التي كانت تعمل كمصدات للريح وما تحمل من رمال ، وذلك رغبة منهم في استزراع أعشاب المراعي التي كانت تلتهم أولا بأول ، كما تكسوها الرمال السافية تدريجياً . ويرى المختصون أنه يمكن استعادة هذه الأراضي من الصحراء ، بشرط أن يعود السكان إليها وأن يستغلوا التقنيات الحديثة في الاستزراع والري والصيانة ، وإلا فإن تدهور التربة سيستمر ، وسيزداد الفقر وسيهرب الناس من شيلي .



الأرجنتين

وتمر **الأرجنتين** والبرازيل بنفس الظروف من حيث الجفاف ، وزحف الصحراء ، واستنفاد المراعي وقطع الأشجار .

الولايات المتحدة

وليست **الولايات المتحدة الأميركية** في منعة من هذا كله ، أو في مأمن من زحف الصحراء ، وعملية التصحر ، وقد يكون خطرها على بعض الولايات أشد من **خطر التضخم وخفض قيمة الدولار ،** مما يقض مضاجع الاقتصاديين الأميركيين في هذه الأيام ، وإن تنبه السكان إلى العناية بالمراعي وتنظيم الرعي ، ورعاية الدولة بترشيد الاستزراع والاستيطان ووقف التصحر ، **واستعمال أنابيب من البلاستيك للري بالتنقيط ،** وتخليص ماء الري من الأملاح الذائبة فيه قبل استعماله للري .

إن السكان في « **أريزونا** » و « **تكساس** » مطمئنون إلى تعليمات علمائهم وارشاداتهم وبحوثهم المتصلة في هذا المجال . ولكن خوفهم إنما يكمن في أثر الريح والزوابع في سمج الأرض ونحاتها وتصحيرها مما ينقص من إنتاجية الأرض إلى حد كبير .

شمال إفريقيا

لقد كان **شمال إفريقيا** يوماً مخزناً **للقمح** والغلال ، ليطعم **الإمبراطورية الرومانية** المترامية الأطراف . لقد تصحرت مساحات شاسعة ، واختفت هذه الأراضي الزراعية وهذه المراعي التي كانت مزدهرة يوماً ، بسبب اهمال الإنسان في وقف ظاهرة التصحر ، وتثبيت الرمال .

إن العلم والعلماء ، لهذه الظاهرة بالمرصاد ، فمن عمل على تثبيت الكثبان الرملية الزاحفة واستزراع الأشجار لتعمل كمصدات للريح العاصفة ، ومن محاولة لتغطية مساحات من الكثبان الرملية والأراضي الصحراوية بنباتات معينة تغطيها رقائق من اللدائن تمنع البخر ، ومن إعذاب لماء البحر ، ومن ترشيد لطرائق الري بالتنقيط ، حتى لا تضيع قطرات الماء هباء ، فتزرع مساحات من **صحراء المملكة العربية السعودية** أو **صحارى شمالي إفريقيا في مصر وليبيا والجزائر** أو **صحارى شيلي والأرجنتين والولايات المتحدة الأميركية** أو **صحارى الهند وشرقي آسيا وأستراليا .**

إنه تحدٍ للعلم والعلماء ، أن نحافظ على المراعي ، وأن نعمل على تنميتها ، وأن نستعيد أرضنا من الصحراء ، وأن نوقف عملية التصحر ، ونستزرع مساحات أكبر من الأرض ، مما يكفي سكان الأرض ، الذين يتزايدون يوماً بعد يوم ، وما ذلك على الله بعزيز . إذ يكفي المراعي ما تلقى في سني الجفاف ، ومن عدم تنظيم الرعي ، ومن إسراف في القطع والحرق لما قد ينمو بالمرعى من أشجار وشجيرات متناثرة .

والله ولي التوفيق .



عهد.. للجزيرة

شعر

علي محمد محاسنه

فَخْرُ العروبةِ دُرَّةٌ فِي عِقدِها ... مهدُ الأباةِ زكا وطابَ المحتِدُ
يا دوحةَ الإسلام دامَ عطاؤها ... والعزمُ فِي أعطافها متجدِّدُ
مُذْ كنتِ للسُّمْرِ الأشاوس مَعقلٌ ... وشِرَاعُكِ الخفّاقُ عالٍ سيِّدُ
شادوكِ حِصناً بالمحبة شامخاً ... فغدوتِ كلَّ الحبِّ إذ يتجسدُ

يا للضروعِ الخيراتِ نصونُها ... بالروح والأجسادِ لا نترددُ
بالدرِّ جادتْ للبنينِ وقَلْبُها ... ينبوعُ دفءٍ للحضارةِ رافدُ
فِي كلِّ أصقاعِ البريّةِ عطرُها ... أبراجُ مجدٍ للسلام تُشَيَّدُ

قومي إلى درج العلا وتقلّدي ... عقدَ الفخارِ على الدهورِ مخلدُ
قد حزتِ أمجادَ الأبوّةِ بُوركتْ ... وبذا المشارقُ والمغاربُ تشهدُ
القدسُ يبسِمُ والشآمُ تهللتْ ... للأسْدِ منكِ بيوم جدٍّ تُرعِدُ

بقلوبنا أرضَ الأسودِ عرينُنا ... عهداً علينا للأنام نؤكّدُ
أنّا إذا مُدَّتْ إليكِ يدُ العِدا ... صِيدٌ ضياغِمُ بالشهادةِ نسعدُ
نجتثُّ أفئدةَ العُداةِ صواعقاً ... لا عاش من داناكِ إذ يَتَصَيَّدُ

دومي على دربِ الإباءِ عزيزةً ... واستَكْتِبي التاريخَ إذ يتجدّدُ
أنّا الصقورُ الماضياتُ إلى المُنى ... بجناحِ علمٍ واحتسابٍ نصعدُ
أنّا لِمن رغبَ السلامَ أحِبَّةٌ ... والطامعونَ لهُمْ جهَنَّمَ نوقِدُ

الاقتصاد السمكي العربي

إعداد
شريف عبد اللطيف فتوح سالم

تعتبر ممكنات وإمكانات الدول العربية في مجال استخدام الثروة المائية الشاسعة المحيطة بها شرقاً وغرباً وشمالا وجنوباً ، كبيرة إذا قورنت ببعض الدول المتقدمة في مجال الإنتاج السمكي . كما تعتبر تلك البحار والمحيطات مصدر متجدد للإنتاج السمكي وغير السمكي الذي يمكن عن طريقه سد جزء كبير من احتياجات الدول العربية من الأغذية البروتينية وتصدير فائض الإنتاج عن الاستهلاك مصنعاً أو غير مصنع . ومع ذلك فإنه للآن لم تستطع تلك الدول العربية فرادا أو تكتلاً من استغلال تلك الموارد المائية استغلالا يحقق لها اكتفاءً ذاتياً في الأغذية السمكية . بل إن غالبية الدول العربية تعاني في قصور الإنتاج السمكي ما عدا المغرب .



وتتعدد مصادر الحصول على الأسماك في الوطن العربي سواء إن كانت مصادر مياه المحيطات والبحار المحيطة بالوطن العربي **(الجدول ١)** أو مصادر مياه داخلية شاملة البحيرات المتخللة البلاد العربية كما في مصر ، أو شاملة الأنهار الجارية في البلاد العربية . **ويعتبر المحيط الأطلنطي من أهم مصادر الثروة السمكية في البلاد العربية ، يليه المحيط الهندي ، ثم الخليج العربي ، فالبحر الأبيض المتوسط ، فالبحر الأحمر .** وتمد مصادر إنتاج السمك من المياه الداخلية للوطن العربي بحوالي ١٣ ٪ من جملة إنتاجه . وتتركز تلك المصادر أساساً في **مصر** متمثلة في بحيرات الدلتا وبحيرة ناصر وبحيرة قارون علاوة على الترع والمصارف المنتشرة في ريف مصر . كما تتمثل تلك المصادر في النيل الأزرق والنيل الأبيض ومتفرعاتهما المختلفة في **السودان** . علاوة على نهري دجلة والفرات ، ومجموعة الأنهار الصغيرة المنتشرة في **فلسطين والأردن ولبنان وسورية .**

الإنتاج السمكي

يمكن تقسيم الدول العربية من حيث الإنتاج السمكي إلى ثلاث مجموعات إنتاجية :

● **المجموعة الأولى :** تشمل **المغرب واليمن الجنوبية وعمان ومصر ودولة الإمارات** ، وهي دول إنتاجها مرتفع بالمقارنة بالدول العربية الأخرى .

● **والمجموعة الثانية :** تشمل **تونس والسعودية والجزائر وموريتانيا والسودان والعراق** ، وهي دول إنتاجها متوسط يتراوح ما بين ٣٠ ألف طن و ٢٠ ألف طن .

● أما **المجموعة الثالثة :** فتشمل دول إنتاجها منخفض يتراوح ما بين ١٠ آلاف طن فأقل ، وتقع غالبية الدول العربية في تلك المجموعة وهي : **اليمن الشمالية والكويت وسورية والصومال وليبيا ولبنان والبحرين وقطر والأردن .**

وبدراسة **نصيب الفرد** من الإنتاج القومي في كل دولة عربية يتضح أن **دولة الإمارات** ، بالرغم من أنها ليست أكبر الدول العربية إنتاجاً للأسماك ، إلا أن نصيب الفرد من الإنتاج بها يفوق باقي الدول العربية ، حيث يبلغ حوالي ٣٩٧ كيلوجراماً سنوياً ، تليها **عمان** بنصيب فردي حوالي ١٦٤ كيلوجراماً سنوياً ، ثم **اليمن الجنوبية** بنصيب فردي حوالي ٨٢ كيلوجراماً في السنة ، ثم **موريتانيا** بنصيب فردي حوالي ١٨ كيلوجراماً في السنة ، **والمغرب** بحوالي ١٧ كيلوجراماً في السنة ، ثم باقي الدول العربية بنصيب فردي منخفض ومتباين لا يتعدى ١١ كيلوجراماً في السنة .

الاستهلاك السمكي

وتنقسم البلاد العربية إلى ثلاث مجموعات استهلاكية :

● **المجموعة الأولى :** تشمل كل من **المغرب ومصر** ، حيث يرتفع فيها إجمالي استهلاك الأسماك .

● **والمجموعة الثانية :** تشمل كل من **اليمن الجنوبية وعمان وتونس والسعودية والجزائر وموريتانيا والسودان** ، حيث يتراوح فيها استهلاك الأسماك ما بين ٢٠ ألف طن وخمسين ألف طن .

● **والمجموعة الثالثة :** تشمل باقي البلاد العربية ، حيث ينخفض فيها استهلاك الأسماك عن ١٠ آلاف طن أو يزيد قليلاً .

ويعتبر مقياس الاستهلاك الفردي من الأسماك هو المقياس الحقيقي المعبر عن الأحوال الاقتصادية ومستوى المعيشة في البلاد العربية وليس جملة الاستهلاك نظراً للتباين الكبير في عدد سكان الدول العربية . فبينما نجد أن جملة استهلاك مصر من الأسماك يفوق أكثر من ١٠٠ ألف طن إلا أن معدل الاستهلاك الفردي للأسماك فيها يعتبر ضئيلاً للغاية ، حيث يبلغ حوالي ٣ كيلوجرامات سنوياً ، في حين أن دولة الإمارات من دول المجموعة الثالثة التي ينخفض فيها جملة الاستهلاك إلى ١١ ألف طن إلا أن نصيب الفرد من الأسماك يعتبر أعلى المعدلات في البلاد العربية ، حيث يبلغ حوالي ٧٥ كيلوجراماً سنوياً . كما تتميز كل من عمان واليمن الجنوبية بارتفاع معدل الاستهلاك الفردي من الأسماك ، حيث يبلغ في عمان حوالي ٦٣ كيلوجراماً ، وفي اليمن الجنوبية حوالي ٢٧ كيلوجراماً سنوياً ، وبالرغم من أن المغرب تعتبر أكبر الدول العربية في جملة استهلاك الأسماك إلا أن نصيب الفرد فيها لا يتعدى ٨ كيلوجرامات سنوياً .

الموارد الإنتاجية

اقتصر هذا الجزء على دراسة العمالة في مجال صيد الأسماك ، أي **عدد الصيادين** في الدول العربية ، **ومتوسط إنتاجية الصياد** في تلك الدول بقسمة جملة الإنتاج السمكي على عدد الصيادين العاملين في مجال إنتاج الأسماك . كما اقتصر في تلك الدراسة أيضاً على **عدد المراكب** بأنواعها الثلاثة المدونة في **(الجدول ٢)** ، ومتوسط إنتاجية



المركب بقسمة إجمالي الإنتاج السمكي على عدد المراكب ، وبفحص ودراسة (**الجدول ٢**) يتضح أن :

مجال العمالة السمكية ـ أي عدد الصيادين ـ أن **عدد الصيادين في مصر يبلغ ١٠٠ ألف فرد** ، وهو تقريباً نصف العمالة في الدول العربية . وأن **عدد الصيادين في المغرب يبلغ ١٥ ألف صياد** . وأن أقل الدول في مجال عدد الصيادين هي **الأردن ، حيث يبلغ عددهم حوالي ١٥٠ فرداً** . وإذا كان عدد الصيادين العاملين في أي مقتصد سماكي يبين ضخامة البنيان القومي السمكي إلا أنه لا يبين كفاءتهم ، حيث نجد أن متوسط إنتاجية الصياد المصري تبلغ ٠,٩ من الطن في حين أنها تبلغ ١٨,٨ طناً في المغرب ، ٩,١ أطنان في الإمارات . أي إنه **بالرغم من أن عدد الصيادين في مصر يبلغ نصف عدد الصيادين في إجمالي الدول العربية إلا أن متوسط إنتاجيته في مصر تعتبر في أدنى المستويات على محيط الدول العربية . الأمر الذي يشير إلى أن كفاءة المقتصد السمكي لا ترتبط بالعدد المطلق من الصيادين ، بل ترتبط أيضاً بما يمتلكوه أو يستعملوه من وسائل إنتاجية أخرى ، وخاصة نوع المراكب المستخدمة في الصيد . (الجدول ٢) .**

وفي مجال عدد ونوع مراكب الصيد . فإن **المغرب يمتلك أكبر عدد من المراكب الآلية الكبيرة** ، حيث يبلغ العدد ٥٠٠ مركب ، في حين يبلغ ٥ فقط **في مصر** ، و ٩٦ مركباً **في تونس** ، و ٤ مراكب **في اليمن الجنوبية** . كما أن اليمن الجنوبية تمتلك أكبر عدد من **المراكب الآلية الصغيرة** ، حيث يبلغ حوالي ١٥٠٠ مركب ، في حين أن مصر والمغرب يمتلكان عدداً متقارباً ، حيث يبلغ ٥٠٠ في مصر ، ٤٥٠ في المغرب ، كما يمتلك العراق ٤٣٥ مركباً آلياً صغيراً والجزائر ٥٧٠ مركباً آلياً صغيراً . وفي مجال **المراكب الشراعية** فإن مصر تمتلك أكبر عدد منها حيث يبلغ حوالي ١٩ ألفاً ، والمغرب حوالي ٢,٦ ألفين ، واليمن الجنوبية حوالي ٥,٨ آلاف ، والعراق ٤,٥ آلاف (**الجدول ٢**) .



وإذا كان عدد المراكب يبين فقط ضخامة البنيان الاقتصادي السمكي ، فإنه لا يبين كفاءة البنيان الاقتصادي السمكي . فبينما تمتلك مصر حوالي ١٩,٥ ألف مركب والمغرب حوالي ٢,٦ ألفين من المراكب ، إلا أن إنتاجية المركب في المغرب تبلغ ٨٠,٥ طناً سنوياً ، في حين تبلغ في مصر ٤,٦ أطنان سنوياً ، أي إن كفاءة إنتاجية المركب في المغرب تفوق كفاءة إنتاجية وحدة المركب في مصر . كما أن لبنان يمتلك عدداً من المراكب يفوق ما تمتلكه دولة الإمارات إلا أن إنتاجية وحدة المركب في دولة الإمارات تبلغ ٤٦ طناً في حين أنها تبلغ ١,٢ طناً في لبنان .

ومن الدراسة السابقة يتضح أن بعض الدول العربية تعاني من قصور شديد في الاستهلاك السمكي لعجز الإنتاج السمكي في تلك الدول عن ملاحقة الاستهلاك المتزايد وخاصة في مصر ، حيث يمثل العجز الاستهلاكي في المتوسط بحوالي ٢٤ ألف طن سنوياً ، وفي موريتانيا بحوالي ١٣ ألف طن سنوياً ، والسعودية بحوالي ٩ آلاف طن سنوياً ، والعراق بحوالي ٨ آلاف طن سنوياً . وإذا كانت تلك الدول السالفة الذكر تعاني من زيادة استهلاكها السمكي عن إنتاجها ، فإن كل من المغرب وعمان واليمن الجنوبية والإمارات تعاني من فائض في إنتاجها السمكي عن استهلاكها السمكي ، حيث يبلغ في المغرب حوالي ١٥٧ ألف طن ، وفي اليمن الجنوبية حوالي ٨٤ ألف طن ، وفي عمان حوالي ٦٢ ألف طن ، وفي دولة الإمارات حوالي ٤٧ ألف طن .

ويعتبر **المقتصد السمكي العربي** مقتصداً ذا فائض في الإنتاج السمكي عن استهلاكه حيث يبلغ الفائض في المتوسط حوالي ٢٧٠ ألف طن . ومما يسترعي الانتباه أنه بالرغم من إمكانات إنتاج السمك في الدول العربية ، وبالرغم من وجود فوائض في الإنتاج ، إلا أن بعض تلك الدول تعاني في كيفية الحصول على احتياجاتها الاستهلاكية من الأسماك .

وفي مجال **الموارد الإنتاجية السمكية** يلاحظ من تحليلنا للبيانات الواردة في (**الجدول ٢**) وما ذكرناه سابقاً أنه كلما زاد عدد المراكب الآلية الكبيرة ازداد حجم الإنتاج السمكي وارتفعت الكفاءة الإنتاجية لوحدة المركب علاوة على انخفاض العمالة في مجال إنتاج الأسماك ، فبينما نجد أن المغرب يمتلك حوالي ٥٠٠ مركب آلي كبير ومصر تمتلك ٥ مراكب آلية كبيرة ، فإن إنتاج المغرب من الأسماك يفوق ٣ أضعاف إنتاج مصر من الأسماك ، علاوة على النقص الواضح في عدد الصيادين في المغرب ، حيث يبلغ حوالي ١٥ ألف صياد ، في حين أنه في مصر حوالي ١٠٠ ألف صياد . . مما أدى إلى ارتفاع الكفاءة الإنتاجية لوحدة الصيد في المغرب سواء كان عاملاً أو كان مركباً . كما يلاحظ أيضاً أن المغرب يمتلك ٥٠٠ مركب آلي من جملة مراكب آلية ٦٠٥ مراكب على محيط الدول العربية ، مما أدى إلى ارتفاع إنتاجها من الأسماك إلى حوالي ٣٣ ٪ من جملة إنتاج الدول العربية .

ومن ذلك يتضح أنه يجب التركيز على استخدام المراكب الآلية الكبيرة والتوسع في امتلاكها ، وخاصة للدول التي تسمح مواردها النقدية بذلك .

وللتكامل العربي القومي في مجال الثروة السمكية مزايا عديدة منها :

(أ) القضاء على ظاهرة الموسمية في الإنتاج السمكي العربي نظراً لتعدد المصايد واتساعها، وكذلك تعدد الأصناف، وأيضاً تنظيم عملية التسويق بين الدول العربية بما يضمن مواجهة الطلب على المنتجات السمكية على مدار السنة .

(ب) الاستفادة من وفورات السعة سواء من ناحية تخفيض التكاليف أو توفير البروتين الحيواني الغذائي لشعوب المنطقة، وأيضاً الاستفادة من التكامل السمكي بين الدول العربية في الأسواق العالمية بالنسبة لأسعار المعدات المستوردة أو أسعار المنتجات المصدرة .

(ج) مقاومة الآثار الخارجية التي تضر باقتصاديات الدول العربية بسبب تقلبات أسعار المنتجات السمكية في الأسواق العالمية، خاصة في الدول العربية التي تعتمد أساساً على استيراد مثل هذه المنتجات لسد حاجاتها المحلية .

مقترحات وتوصيات

١ ـ وجوب اهتمام الأجهزة المسؤولة في الدول العربية بصورة صادقة **بإصدار الإحصائيات والبيانات السمكية**، بحيث تقسم بالدقة الواجبة وتصدر في مواعيد دورية فيمكن الاعتماد عليها واعتبارها ركيزة لها أهميتها وجديتها في جميع الأبحاث والدراسات التي تجري بهدف تنمية الإنتاج السمكي في الدول العربية .

وما لم تتسم هذه الإحصائيات بالدقة في بياناتها والثبات في مواعيد إصدارها فإنها تفقد الكثير من أهميتها . ويجب أن تولي المنظمات العربية المعنية والمسؤولة عن تنمية الإنتاج السمكي، اهتمامها الواجب بتنسيق هذه الإحصائيات ونشرها بحيث تكون شاملة عن كل فترة زمنية لجميع البيانات الواجب أن تتضمنها هذه الإحصائيات، فتتضمن مثلاً :

أ ـ **كميات الإنتاج السمكي وقيمته .**

ب ـ **أنواع الأسماك المصيدة .**

جـ ـ عدد السفن ونوعها وقوتها .

د ـ عدد العاملين في الإنتاج السمكي .

هـ ـ **الصادرات والواردات من الأسماك .**

و ـ **إجمالي صافي الدخل السمكي .**

ز ـ الاستهلاك ومتوسط نصيب الفرد في السنة من الأسماك .

٢ ـ لا بد وأن تبدأ الدول العربية، منفردة أو مشتركة وبأسلوب علمي، في **المسح السمكي** لما لم يتم مسحه في مناطق الصيد بواسطة مراكب الأبحاث، وسوف تكون نتيجة المسح السمكي عمل خرائط تفصيلية لمناطق الصيد وطبيعة القاع ودراسة الخواص لكل نوع من الأسماك من ناحية التغذية ومواسم الإخصاب وظهور الزريعة ونموها وأنسب الأوقات لصيدها والوصول إلى معرفة أفضل أنواع السفن المناسبة للصيد في كل منطقة وأحسن وسائل الصيد التي يتم تجهيز السفن بها .

ويجب أن يتم التبادل لهذه المعلومات بين الدول العربية التي تتفق فيما بينها **لإنشاء شركة إنتاجية مشتركة للصيد** في هذه المناطق . كما يجب أن يتم في هذا الشأن التعاون المشترك بين **معاهد علوم البحار والمصايد** الموجودة في بعض الدول العربية .

٣ ـ ومن المعلومات السابقة سوف تتضح **نوعية العمال المطلوبين والأسلوب الواجب اتباعه** لتدريبهم ورفع كفاءتهم على استخدام الوسائل الحديثة للصيد، وفي هذا الشأن يجب أن تقوم **جامعة الدول العربية** بإنشاء العديد من **مدارس تدريب العمال على مهنة الصيد** في بعض الدول العربية، وأن تقوم بوضع برامج ومناهج الدراسة فيها، بحيث يتخرج منها العمال المدربون على مختلف الفنون مثل **(الملاحة والميكانيكا والصيد)** وأن تفتح أبوابها لجميع أبناء الدول العربية الأخرى .

٤ ـ البدء في **إنشاء شركات إنتاجية سمكية مشتركة** بهدف :

(أ) الصيد في أعالي البحار المفتوحة خاصة وأن جميع الدول العربية تقع سواحلها على المحيطات والبحار والخلجان، أو يسهل عليها الوصول إليها، وسوف يساعد ذلك على تدعيم أسطول الصيد ويسهل زيادة عدد المراكب أو السفن الآلية الكبيرة وتزويدها بأحدث أجهزة الكشف عن الأسماك وصيدها، بحيث تتم على السفن عمليات تجميد الأسماك أو تصنيعها، مثل اشتراك الدول العربية الواقعة على الخليج العربي في مشروعات مشتركة للصيد من المحيط الهندي، ومثل اشتراك المغرب وموريتانيا للصيد في المحيط الأطلنطي .

(ب) الصيد في المياه المشتركة الداخلية منها والبحرية، ومثال ذلك اشتراك مصر والسودان في مشروعات بهدف زيادة الإنتاج السمكي في بحيرة ناصر وبحيرة النوبة أو من المياه الإقليمية لمصر والسودان في البحر الأحمر، مثل اشتراك تونس وليبيا والجزائر والمغرب في مشروعات مشتركة للصيد في مياهها الإقليمية في البحر المتوسط .

(جـ) الصيد في المناطق العربية غير المستغلة وأهمها البحر الأحمر كله بإقامة مشروعات مشتركة تضم المملكة العربية السعودية والسودان واليمن الشمالية ومصر أو بعض هذه الدول للصيد في مياهها الإقليمية .

٥ ـ تنفيذ المشروعات العربية المشتركة سيقترن ولا شك بضرورة إنشاء مشروعات أخرى لها أهمية بالنسبة للإنتاج السمكي العربي، إذ إنها مكملة له، ومثال ذلك :

(أ) إنشاء ثلاجات بجوار الموانئ تكون جاهزة لاستقبال الإنتاج السمكي وتخزينه .

(ب) إنشاء مشروع لإنتاج شباك الصيد بالمواصفات التي تتطلبها طبيعة الصيد في كل من مناطق الصيد المشتركة، فقد تكون الأسماك سطحية أو نصف قاعية أو قاعية .

(جـ) إصلاح الموانئ ومحطات الاستقبال بحيث تكون جاهزة ومستعدة لاستقبال السفن، وخاصة الآلية الكبيرة، مع

منحها التسهيلات اللازمة التي قد يتطلب منحها عقد بروتوكولات بين الدول .

(د) تعجيل مشروع إنشاء الترسانات البحرية في بعض الدول العربية ، أو توسيع طاقة الترسانات الموجودة في بعضها ، مثل ترسانة الإسكندرية لبناء سفن الصيد الآلية .

(هـ) إنشاء بعض المصانع السمكية بجوار ثلاجات التخزين .

(و) تسويق الإنتاج السمكي في صوره المختلفة طازجاً أو مجمداً أو مصنعاً ، ليتم هذا التسويق بين الدول العربية ، فتحقق بذلك سياسة التكامل المطلوبة ، **أو يتم هذا التسويق عالمياً** . وهذا التسويق العالمي يتطلب معرفة أذواق المستهلكين في البلاد المختلفة ، وتوجيه إنتاج المصانع السمكية لكي يتوافق مع ما تتطلبه الأسواق الخارجية .

وهناك حقيقة يجب أن تكون واضحة أمام المسؤولين على جميع المستويات في الدول العربية ، وهي أن قلة البروتين الحيواني في معظم الدول العربية جعلت من الاهتمام بالإنتاج السمكي ضرورة ملحة .

وحتى تنتهي الدول العربية من إنشاء الشركات المشتركة ، فإن الاتجاه إلى سياسة الاستزراع السمكي في المياه الداخلية في معظم الدول العربية قد أصبح واجباً هاماً وضرورياً ، وأنه يجب الاسراع في تنفيذها لمواجهة الأمر الذي تعيشه حالياً معظم الشعوب العربية ، وهو قلة نصيب أفرادها من البروتين السمكي ، كجزء من استراتيجية العمل العربي في مجال الغذاء .

والله ولي التوفيق .

جدول (١)

الرقعة المائية البحرية العربية وإنتاجيتها

سنة ١٩٧٤ م .

منطقة الصيد	الدولة	مساحة الرصيف القاري كم٢	طول الساحل كم	إنتاج عام ١٩٧٤ م ألف طن	إنتاجية كم٢ طن
المحيط الأطلنطي	موريتانيا	٣٤٠٠٠	٦٦٧	١٢,٦	٠,٤
	المغرب [١]	٦٠٠٠٠	١٧٥٠	٢٨٧,٨	٤,٨
الجملة		٩٤٠٠٠	٢٤١٧	٣٠٠,٤	٣,٢
البحر الأبيض المتوسط	الجزائر	١٠٧٠٠	١١٠٠	٣٥,٨	٣,٣
	تونس	٧٧٣٠٠	١٠٣٠	٤٢,٧	١,٦
	ليبيا	٥٥٠٠٠	١٦٨٥	٣,٨	٠,١
	مصر [٢]	٥٣٦٠٠	٢٤٢٠	٢٧,٥	٠,٥
	سورية	١١٦٠	١٧٥	٠,٧	٠,٦
	لبنان	٢٠٠٠	٢٥٠	٢,٥	١,١
الجملة		١٩٩٧٦٠	٦٦٦٠	١١٣,٠	٠,٦
البحر الأحمر	السودان	٩٨٠٠	٧١٧	٠,٨	٠,١
	السعودية [٣]	١٢٣٠٠٠	٢٤٣٧	٣١,٣	٠,٣
	اليمن الشمالية	١٧٧٠٠	٤٥٢	١١,٥	٠,٧
	الأردن	٢٠	٩	٠,١	٥,٠
الجملة		١٥٠٥٢٠	٣٦١٥	٤٣,٧	٠,٣
المحيط الهندي	اليمن الجنوبية	٢٠٢٥٥	١٥٥٠	١٣٣,٥	٦,٦
	عمان	٣٢٠٠٠	١٦٠٠	١٠٠,٠	٣,١
	الصومال	٤٥٠٠٠	٢٩٥٠	٥,٠	٠,١
الجملة		٩٧٢٥٥	٦١٠٠	٢٣٨,٥	٢,٥

منطقة الصيد	الدولة	مساحة الرصيف القاري كم²	طول الساحل كم	إنتاج عام ١٩٧٤ م ألف طن	إنتاجية كم² طن
الخليج العربي	العراق	٢٠٠٠	٥٠	٣,٠	١,٥
	الكويت	٧٢٠٠	٢١٣	٧,٧	١,٠
	الإمارات	١٦٠٠٠	٨٠٠	٦٥,٠	٤,٠
	البحرين	٤٠	٢٠	١,٥	٣٧,٥
	قطر	٨٠٠٠	٤٠٠	١,٠	٠,١
الجملة		٣٣٢٤٠	١٤٨٣	٧٨,٢	٢,٤
إجمالي عام		٥٧٤٧٧٥	٢٠٢٧٥	٧٧٣,٨	١,٤

(١) تشمل سواحل البحر الأبيض المتوسط.
(٢) تشمل سواحل البحر الأحمر.
(٣) تشمل سواحل الخليج العربي.

جدول (٢)
الموارد الإنتاجية للأسماك في البلاد العربية

الدولة	عدد الصيادين ألف فرد	نصيب الصياد من الإنتاج (طن)	عدد المراكب المستخدمة بالواحدة				متوسط إنتاج وحدة المراكب طن
			آلية كبيرة	آلية صغيرة	شراعية مجدافية آلية خارجية	جملة	
المغرب	١٥٠٠٠	١٨,٨	٥٠٠	٤٥٠	٢٥٥٠	٣٥٠٠	٨٠,٥
اليمن الجنوبية	١٣٠٠٠	٩,٦	٤	١٥٠٠	٥٧٥٠	٧٢٥٤	١٧,١
عمان	..	—	..	..	..	..	..
مصر	١٠٠٠٠٠	٠,٩	٥	٥٠٠	١٩٠٠٠	١٩٥٠٥	٤,٦
تونس	١٦٠٠٠	١,٩	٩٦	١٧٠	٤١٣٠	٤٣٩٦	٧,٠
السعودية	٣٩٢٠	٧,٧	—	٧٥٠	١٠٦٠	١٨١٠	١٦,٨
الجزائر	٤٩٠٠	٥,٩	—	٥٧٠	٩٤٤	١٥١٤	١٩,١
موريتانيا	٨٠٠٠	٢,٧	—	١٠	٣٠٠٠	٣٠١٠	٦,٩
السودان	٤٠٠٠	٥,٦	—	—	١١٥٠	١١٥٠	١٩,٥
العراق	٤٢٠٠	٥,٢	—	٤٣٥	٤٤٥٧	٤٨٩٢	٤,٥
الإمارات	٦٣٥٥	٩,١	—	٥٥	١٢١٣	١٢٦٨	٤٥,٧
الكويت	٤٦٠٠	١,٩	—	١٧٠	٣٧٠	٥٤٠	١٥,٩
اليمن الشمالية	٢٠٠٠	٤,٦	—	—	٣٠٠	٣٠٠	٣١,٠
الصومال	٢٥٠٠	٢,٠	—	٧٧	١٩٠٠	١٩٧٧	٣,٥
ليبيا	٣٨٠	١٢,٣	—	٣٣	٣٥٠	٣٨٣	١٢,٣
البحرين	..	..	..	..	..	..	..
سورية	٤٠٠٠	٠,٣	—	٨	٤٥٠	٤٥٨	٣,١
قطر	..	..	..	..	..	..	..
الأردن	١٥٠	٠,٧	—	—	٥٠	٥٠	٣,٠
لبنان	٣١٥٣	٠,٧	—	—	١٨٠٠	١٨٠٠	١,٣
الجملة	١٩٢١٥٨		٦٠٥	٤٧٢٨	٤٨٤٧٤	٥٣٨٠٧	١٥,٧



اللقاء .. الذي كان

شعر : عبد المنعم عواد يوسف

وأقسم مهما يمرُّ الزمانُ ... على جسر أيامنا يعبرُ
سأذكرُ هذا اللقاءَ الجميلَ ... فهل يا تُرى لم تزلْ تذكرُ
ونجواه في القلب هل ما تزالُ ... وتشعرُ نفسَ الذي أشعرُ
لقد كان حقًّا لقاءً قصيراً ... وحلمُ السعادةِ كم يقصرُ
على شاطئْ البحر كان اللقاءُ ... ربيعاً بأشواقنا يُزْهرُ
فكان الحنانُ ، وكان الهناءُ ... وكان الصفاءُ الذي يقطرُ
لقد كان شيئاً شفيفاً نقيًّا ... كرؤيا بخاطرنا تعبرُ
هو العمرُ يُوجَزُ في لحظةٍ ... هو الكونُ تَحْصرُه أسطرُ
عرفتُ الحياةَ بهذا اللقاءِ ... وأدركتُ كُنْهي ولا أنكرُ
لقد كان كنزاً ثميناً ثميناً ... بعذبِ الأحاسيس كم يزخرُ

* * *

وأقسمُ لو بعده تنقضي ... حياتي ، فعمري إذنْ أدهرُ
بهذا أحسُّ اللقاءَ الذي ... مضى مثلَ سانحةٍ تَخطرُ
فهل أنتَ تشعرُ نفس الشعور ... وتنظر نفس الذي أنظرُ
إذا كان هذا ، فوافرحتي ... وإن لم يكنْ ، فالردى أجدرُ

تاريخ الشرطة في الإسلام

بقلم: محمد الحسيني عبد العزيز

عرفت الشرطة منذ فجر التاريخ في الدولة القديمة بمصر طبقاً للنصوص التي وردت أو نقشت على الآثار أو دونت على أوراق البردي، وكان على رأس جهاز الأمن الوزير الذي يتولى دراسة القضايا الهامة من جنايات كالسرقات والقتل، وترفع إليه الحوادث الخطيرة التي تقع في الأقاليم، ويشرف على اختيار ضابط الشرطة وتدريبهم ممن سيتولون أمر الأمن في المناطق المختلفة.

وقوام قوات الشرطة فرق خاصة تتولى مهمة الأمن وحراسة الفرعون ومقابر الملوك وإلقاء القبض على اللصوص الذين يحاولون سرقة الكنوز من المقابر الملكية.

وقد وضع الوزير **حور محب** تشريعات للقضاء على الجريمة والفساد ومنع التعدي على وسائل النقل النهرية والبرية، وكان من بين العقوبات الجلد والغرامة والسجن بالمعابد.

وأخذ نظام الشرطة في بلاد اليونان صورة عن التنظيم الحكومي هناك حيث كان من متطلبات الحكم والإدارة في بلاد اشتهرت بالدقة التي تهدف إلى نشر العدالة في مجتمع متقدم له نظمه السياسية والإدارية القومية، ولم تختلف مهمة الشرطة عنها في مصر فهي حماية الأرواح والأموال والأملاك من اعتداء العابثين بالقانون.

الشرطة في صدر الإسلام

تولى العسس[1] في عهد الرسول الكريم ﷺ، في المدينة القائد العربي المشهور **سعد بن أبي وقاص**، كما شغله عبد الله بن مسعود أيام الخلفة **أبي بكر الصديق**، وتولى مهمة الشرطة (العسس) أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ومعه مولاه أسلم وعبد الرحمن بن عوف، وتولاها الصحابي **أبو هريرة** في ولاية البحرين.

وألحقت الشرطة بالقضاء في صدر الإسلام، لأن مهمتها تنفيذ أحكام القضاء وإقامة الحد على السارق والزاني وغيرهما وذلك بعد ثبوت إدانة المتهم واعترافه وشهادة الشهود بذنبه.

الشرطة أيام دولة بني أمية

ولما توسعت الدولة العربية وامتد نفوذها بعد سيطرتها على بلاد الفرس والعراق شرقاً، ودخول الشام ومصر في حوزتها وبلاد شمال إفريقيا اقتضى الأمر فصل الشرطة عن القضاء تمارس المهمات والأعمال الكبرى التي تطلبها التنظيم الإداري للولايات المفتوحة، ودخول عناصر من جنسيات متعددة في عاداتها وأهوائها وطباعها في الدولة الجديدة، أي إلى وقوع جرائم لم يعرفها المجتمع



الإسلامي الذي كانت تحكمه عقيدة الإيمان الراسخة وخشية الله في مهبط الوحي بالجزيرة العربية ، فالعقيدة راسخة والمؤمنون يخشون الله ووازعهم الديني عميق .

وهكذا تطورت الشرطة تبعاً للتغير السياسي والتبدل الاجتماعي الذي ظهر أيام **الأمويين** ،فوضعت نظم محكمة تعد الأساس الحقيقي لنظم الشرطة الحديثة ، ومنها مراقبة المشبوهين وحصر ذوي النشاط الإجرامي في سجلات خاصة ، كما أسندت مهمة مراقبة هؤلاء في حاضرة الدولة دمشق إلى زياد بن قيس وإلى غيره في المدن والولايات لمحاسبة كل خارج على أصول الدين وقواعده .

الشرطة في الولايات الإسلامية

ولما فتح العرب مصر على يد **القائد عمرو بن العاص** عام ٢١ هـ ، واستوطنوها أقاموا نظاماً للشرطة يتولى حماية الناس من الجناة ويقاوم بعض العادات التي تتنافى مع آداب الإسلام ، وأسسوا للشرطة داراً في حاضرتهم الجديدة **الفسطاط** عرفت باسم الشرطة ، يرأسها صاحب الشرطة الذي كان يتلق أوامره من الوالي شخصياً ، ويعاونه جماعة من الناس اختيروا لهذه المهمة ممن تتوفر فيهم الشجاعة وقوة البأس والنزاهة والأمانة .

وفي مدينة الكوفة ، إحدى ولايات العراق الست ، أنشئت قوة للشرطة أدت مهمتها على خير وجه ، حيث انتظم الأمن واستتب النظام وأمن الناس من اعتداء قطاع الطرق في الصحراء ، وقد تولى أمرها **زياد بن أبيه** الذي أعلن أنه مسؤول عن أمن الناس ، كفيل برد كل ما يفقد منهم .

واشتهرت مصر باتباع نظام خاص للسفر ، فما كان أحد يستطيع أن يترك الناحية التي يقيم فيها إلى ناحية أخرى دون الحصول على إذن من ولي الأمر (**صاحب الشرطة**) ، وتؤكد هذا وثيقة من ورق البردي أصدرها والي مصر عام ١٠٠ هـ (٧٢٠ م) إلى أفراد شرطته بإلقاء القبض على من يوجد مسافراً أو متنقلاً من مكان إلى آخر من غير سجل (جواز سفر) ، وإذا وجد شخص صاعداً أو نازلا من مركب دون ترخيص بذلك فرضت الحراسة على المركب واقتيد المخالفون للتحقيق معهم ، والراجح أن هذا الأمر صدر بسبب محاولة بعض الأفراد الدخول إلى مصر خلسة تهرباً من دفع الأعشار (ضريبة السفن) ، وذلك حماية للأمن بسبب وقوع مصر على ساحل البحر الأبيض وفي مواجهة أعداء العرب من الروم الذين كانوا يطمحون في استرداد مصر ، كما يروي المؤرخ ابن سعيد أنه كان لا بد من سجل للخروج من مصر وكان يدرج فيه من يرافق المسافر من أهله حتى ولو كانوا من عبيده .

ولم يكن هذا النظام متبعاً في باقي الولايات الإسلامية ، حتى أن المؤرخ المقدسي استنكره حين شاهده منفذاً في أيام **بني بويه** حكام إيران أيام العباسيين ، حيث أمر **عضد الدولة البويهي** بمنع كل فرد من دخول مدينة (شيراز) دون أن يحمل جواز سفر صالح .

الشرطة أيام الدولة العباسية

تطورت الشرطة أيام العباسيين تطوراً ملحوظاً ، وأصبحت أكثر دقة ونظاماً ، حيث أولاها الخلفاء أهمية كبرى لأنها حصن البلاد ودرعها ، فخصص لذلك رجال مسؤولون عن مراقبة أعداء الدولة ، ممن ظلوا على ولائهم للأمويين ، أو ممن يعتقدون بأن العباسيين ليسوا أحق العرب بالخلافة ، وهكذا منح أفرادها صلاحيات ونفوذاً أكبر .

وأصبح لرئيس شرطة بغداد حق تدبير حرس الخليفة الخاص وتوزيع الحراسة على مداخل بغداد الأربعة وفي طرقات المدينة ، لمراقبة المفسدين وكل من يحاول إثارة الشغب ، أو يخرج على القوانين المرعية أو الآداب العامة ، أو يطفف الكيل والميزان ، حرصاً على المصلحة العامة وحماية للأرواح والأموال والأعراض .

ويتضح هذا من قول **أبي جعفر المنصور** مؤسس **الدولة العباسية** : « أركان الملك أربعة : **قاض** لا تأخذه في الحق لومة لائم ، **وصاحب شرطة** ينصف الضعيف من القوي ، **وصاحب خراج** لا يظلم الرعية ، **وصاحب بريد** يكتب إليَّ بخبر هؤلاء على الصحة » .

شروط اختيار صاحب الشرطة

لم يصل إلى منصب صاحب الشرطة إلا أهل العلم والمعرفة ، وممن

اشتهروا بالسيرة الحسنة والعدل والنزاهة والورع والاستقامة ، لأن صاحب هذا المنصب كثيراً ما شغل منصب الوزارة وأشرف على إدارة الولايات الإسلامية ، فإذا ما غاب الوالي حل محله صاحب الشرطة في الإشراف على أمور الولاية وفي الصلاة بالمسلمين بالمسجد الجامع .

أعوان صاحب الشرطة

ويتخذ صاحب الشرطة أعواناً يساعدونه في مهمته التي تنوعت بزيادة السكان وتعدد جنسياتهم وعاداتهم وطباعهم في ملاحقة الخارجين على الآداب الإسلامية والشريعة السمحاء التي تحرم الخمر والزنى والقتل ، فمن خرج على النظم المعمول بها عوقب وصدرت أحكام بحقه ، فضلاً عن قضايا الإرث والبيع والشراء وقول الزور والفسق وما إليها ، ولهذا كان من واجبات أفراد الشرطة تنفيذ أمر القاضي بنقل المتهمين إلى السجن وحبسهم المدة التي صدرت بحقهم عقاباً على ما اقترفوه من إثم ، كما كانت من مهامهم **القيام بالتحريات** عن الفارين من وجه العدالة .

ويختار صاحب الشرطة رجال من ذوي الأخلاق الكريمة والسيرة الحسنة ، لأن مهمتهم سامية وهي المحافظة على الحرمات والحريات وإقامة الحدود طبقاً لأحكام الدين كحد الزنى والسرقة والقصاص من القتل الذي سفك دماء حرمها الله سبحانه دون وجه حق .

الشرطة في الأندلس

وقد عرف صاحب الشرطة في دولة بني أمية بالأندلس **بصاحب المدينة** ، وكانت مهمته إقامة الحدود واستيفائها ومعاقبة المجرمين ، وقسمت الشرطة هنا إلى **شرطة صغرى** لا يتجاوز اختصاصها عامة الناس ، **وشرطة كبرى** يمتد عملها إلى الخاصة من ذوي المناصب الرفيعة والخاصة ، وكان مقر صاحبها أمام **دار السلطان** حيث يجلس بين أعوانه في مجلس مهيب .

ثم جاء **عبد الرحمن الناصر لدين الله** (٣٠٠ـ٣٥٠ هـ) فابتكر نظاماً للشرطة أطلق عليه **الشرطة الوسطى** ، وكان اختصاصها الطبقة المتوسطة من المهندسين والأطباء والمثقفين والتجار ، وعين لهذه الوظيفة **سعيد بن سعيد بن جدير** .

وكان هناك فريق رابع من رجال الشرطة الخاصة كلفوا بحراسة الخليفة وقصره وحمايته أثناء المواكب الرسمية وزواره وضيوفه من رجال الدول وسفرائهم .

واستقلت كل فئة عن سواها واختصاصاتها ، فكان لها رجالها ونظمها وأماكنها ولو أنها لم توجد في كل عهد من عهود الحكم الأموي في بلاد الأندلس .

وكان رجال الشرطة بالأندلس يطوفون ليلاً في الدروب والأحياء ، ولهذا أطلق عليهم اسم « **الدرابين** » حيث كان كل حي مقسماً إلى دروب لها باب يغلق عليه بعد غروب الشمس ، وكان كل حارس يحمل قنديلاً أثناء طوافه ومعه كلبه وسلاحه ليكون مستعداً لملاحقة اللصوص في تلك البقاع ، واستخدام الكلاب في أغراض الشرطة عمل عربي ورائد في هذا المجال إدراكاً منهم لأهمية الكلب في ملاحقة المجرمين واقتفاء أثرهم عن طريق حاسة الشم القوية التي يتمتع بها ويتفوق بها على سائر الحيوانات والإنسان .

وقد أكدت الوثائق التاريخية أن صاحب الشرطة في **مدينة قسنطينة** بشمال إفريقيا حمل الناس على احترام تعاليم الدين ، فكان لا يجيز أن يعاقب اللص بضربه بالسوط دون أن يقيم عليه الحد بقطع يده طبقاً لحكم الشريعة ، وذلك لأنه لا يريد أن يجمع حدين في ذنب واحد .

الشرطة في مصر أيام الطولونيين

استأثر والي مصر أحمد بن طولون بسلطة الشرطة ، وحالفه التوفيق في إقرار السكينة والأمان في ربوع البلاد ، فكبح جماح كل من حاول إرهاب الناس أو التعدي عليهم ، وفتك بالعصابات التي كانت تغير على القرى وتنهب القوافل ، واستطاع سجن ما يقرب من ثمانية عشر ألفاً من هؤلاء البغاة .

وعني بتكوين جهاز **للشرطة السرية** ، وكانت له عيون تأتيه بأخبار المجرمين حيث اهتم باختيارهم بعناية وبعد اختبار دقيق يتوقف على مدى نجاحهم في استقصاء الأخبار ، كما كان يخرج بنفسه متنكراً يجوس الأسواق والطرق ؛ وروي مرة أنه استطاع أن يكشف أحد أعدائه من أتباع الخليفة الموفق العباسي وكان يتنكر في ثياب البنائين .

ووضع ابن طولون لرجال الشرطة الذين يعهد إليهم بالعمل سياسة مزدوجة الأسلوب والهدف ، تجمع بين قمع الأقوياء والرفق بالضعفاء وفي كتابه لهم دليل على ذلك : « **أرفق بالرعية وانشر العدل بينهم واقض حوائجهم واظهر إكرامهم وصيانتهم وتفقد مصالحهم فإني أسير بالليل في محالهم ، فكل موضع أمر به لا يخلو من متهجد يذكر الله** » ، وفي كتابه لصاحب الشرطة العليا يطالب بالشدة حيث يقول :

«تشدد عليهم وأرهبهم منك ولا تلن لهم واغلظ عليهم ، فإني أسير في محالهم فما أمر بموضع فأسمع منه إلا غناء أو سكراناً أو معربداً قد أخرجته عربدته إلى الوثوب والكفر» .

الشرطة أيام الفاطميين

كان أصحاب الشرطة يعينون عادة من الأعوان المقربين للخليفة ، وكانت مهمة رجال الشرطة ، بالإضافة إلى حماية الأرواح والأعراض والممتلكات ، تنفيذ أحكام القضاة وتحقيق أقوال المتخاصمين وإنفاذ الخصوم عند الاقتضاء بالقوة ، والمحافظة على النظام وقت جلوس القضاة في مجالس الحكم وحراستهم .

المحتسب

واستحدث **نظام المحتسب** الذي أوكل إليه مراقبة الآداب العامة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومحاربة الفساد والانغماس في الإباحية ، ومنع الناس من اللهو العلني والغناء والعزف على الآلات الموسيقية والاجتماع على شاطئ النيل للفرجة والجلوس على المقاهي ، ومن مهامه توقيع عقوبات التعزير والردع والجلد للصوص والزناة عند إقامة الحد عليهم ، إلى جانب التشهير والتوبيخ والنفي والضرب .

الشرطة الأيوبية والمملوكية

أطلق على صاحب الشرطة في هذا الوقت اسم الوالي الذي تعددت أعباؤه ومهامه وإن ظلت للمحتسب سلطاته واختصاصاته التقليدية ، ونتيجة لاتساع القاهرة وكثرة سكانها ، اقتضى الأمر وجود ثلاثة مسؤولين عن الشرطة : أحدهم **بالقاهرة** ، والثاني **بالفسطاط** ، والثالث **بالقرافة** .

ويختص والي القاهرة بالعاصمة والضواحي ، وكان أكبر الولاة أهمية وأكثرهم مركزاً ومرتباً حيث خصص له إقطاع يدر ايراداً بين خمسة عشر ألف وأربعين ألف دينار في العام .

أما والي الفسطاط فيشرف على سكان الفسطاط والعسكر والقطائع ، ومنح إقطاعاً يدر بين سبعة آلاف وعشرة آلاف دينار ، بينما عهد لوالي القرافة الإشراف على الأمن والمقابر والجنازات ومراعاة الآداب العامة .

ونظراً لمنزلة صاحب الشرطة المرموقة فكان يعين **بمرسوم** من السلطان ، ولا يجوز أن يغادر منطقته إلا بإذن من حاكم مصر ، ومنح لصاحب الشرطة وأتباعه زي خاص يعرفون به بين الناس .

وكان يستعين برجال مدربين أشبه بالضباط في أيامنا هذه ، وهؤلاء مساعدين يتولون حفظ الأمن والقبض على المتهمين ، ويشتركون في ملاحقة المجرمين الفارين من وجه العدالة ، وألحق بالقصر الذي يسكنه مكان خصص لحبس المتهمين والمجرمين ليكونوا تحت مراقبته .

ونظراً لزيادة الأحياء السكنية والتجارية في العاصمة استحدثت وظيفة الحراس الذين يتولون حراسة الدروب والطرقات .



الشرطة أيام العثمانيين

وكانت الدولة العثمانية قد آلت إليها بلاد العراق والشام ومصر والحجاز واليمن وشمال إفريقيا بعد انتصارهم في مصر في **معركة الريدانية** عام ١٥١٧ م ، وكانوا يختارون أصحاب الشرطة من الأتراك والمماليك دون أهالي البلاد والولايات ، وكان والي الشرطة أشبه بمدير الأمن ، ومن أشهر هؤلاء « **علي آغا** » الذي قبض على نواصي الأمور بكل حزم ، فقد أجمع على تأييده قادة الفرق العثمانية وزعماء المماليك وكبار العلماء ، فوصفه **الجبرتي** المؤرخ بقوله : « وصار له هيبة عظيمة ووقار زائد ، ولم يقف في طريقه أحد سواء كان خيالا أو حماراً ، وتخشاه النساء في البيوت ، وهو فائت لم تستطع امرأة أن تطل من طاقة » .

وكان رجال الشرطة يأمرون الناس بتحصين بيوتهم ومتاجرهم ويكثرون من إقامة الدروب في الأحياء حيث تغلق بالأبواب المصفحة بالحديد المدعمة بالمسامير والسلاسل والقضبان الحديدية ، وكان لكل باب حارس خاص يتقاضى مرتبه (أجره) من البيوت التي يقوم بحراستها . . ويغلق الباب بعد العشاء ولا يفتحه إلا لمن يتأكد من شخصيته ويكون قد نبه إلى اضطراره للعودة متأخراً .

ومن أعمال رجال الشرطة أنهم يمرون في الدروب والطرقات لتفقد الأحوال فيها ، كما يأمرون الأهالي بإشعال القناديل أمام متاجرهم ومساكنهم .

ومن الحكام الذين اهتموا بتوطيد الأمن وحققوا في ذلك نجاحاً كبيراً **علي بك الكبير** الذي ثار على الحكم العثماني ، وأحكم سيطرته على البلاد ، وجعل المساواة بين الرعية شعاره ، وقد نقل عنه أحد الرحالة الأوروبيين قوله : **« إن غايتي الوحيدة أن يأمن الناس على أموالهم حتى لو بسطوا بها أيديهم ، وأن يأمنوا حرمة منازلهم ولو تركوها مفتوحة الأبواب أثناء الليل »** .

كما أن رجال الشرطة كانوا يعتبرون سكان الحي مسؤولين عن الجرائم التي تحدث فيه كإظهار القاتل أو أداء ديته وإعادة المسروق أو رد قيمته .

وهكذا أظهرت نظم الحكم من قضاء وحسبة وشرطة أصالة ودقة في التنظيم والتشريع والأحكام ، وأكدت أن العرب والمسلمين كانوا رواداً في نظم الحكم كما كانوا سباقين في مجال العلوم والفنون ، وأصبحت تشريعاتهم وعلومهم وفنونهم مشاعل تضيء للإنسانية وتيسر لها سبل الحياة ، وتوفر لها الأمن والتقدم والحضارة ، ولهذا أصبحت قبساً أعجب بها الأوروبيون وصارت منهجاً يحتذى .

المراجع

١ ـ مقدمة ابن خلدون .
٢ ـ تاريخ ابن ميسر .
٣ ـ المعجب في تلخيص أخبار ، المغرب عبد الواحد المراكشي .
٤ ـ ابن إياس : تاريخ مصر .
٥ ـ الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار .
٦ ـ تاريخ الإسلام السياسي الدكتور حسن إبراهيم حسن .

الهوامش

(١) سميت بهذا الاسم لما تميز به رجالها من علامات خاصة بهم . والعسس هو الطواف بالليل لتتبع أهل الريب .



بمناسبة
اليوم الوطني
للمملكة العربية السعودية
يطيب لشركة أرامكو أن تتقدم بأسمى التهاني وأطيب الأماني
إلى جلالة الملك خالد بن عبد العزيز المعظم
وصاحب السمو الملكي الأمير فهد بن عبد العزيز ولي العهد ونائب رئيس مجلس الوزراء
وصاحب السمو الملكي الأمير عبد الله بن عبد العزيز النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء ورئيس الحرس الوطني
وحكومة المملكة العربية السعودية الرشيدة والشعب العربي السعودي الكريم
أعاده الله على الجميع باليمن والبركات.
أرامكو
TIHAMA
(ي رس - ٥ - ٨٠)



بقلم : خليل السواحري





منذ سنوات طويلة لم يسقط **الثلج** ، كان الأطفال يتلهفون لرؤية المدينة سهولا بيضاء مستوية ، فطالما تحدث الكبار عن روعة الثلج حين يخرج الناس إلى أسطح البيوت والشوارع يلعبون بالثلج ، يصنعون منه تماثيل ودمى ، ويتقاذفون كراته فيما بينهم ، وتصبح هذه الكرات البيضاء أدوات للغزل والتواصل بين الشبان والفتيات .

منذ سنوات وهم يحلمون بأن يستيقظوا ذات صباح ليجدوا الثلج وقد غمر المدينة وكساها حلة بيضاء زاهية وأحال الأوراق الخضراء على أغصان الأشجار شعراً أشيب جميلاً .

كان **صابر** يتمنى ، وهو يستمع إلى هذه الأحاديث المشوقة ، أن تجود السماء هذا العام بالثلج ، وحين سقطت الأمطار هذا الشتاء ،

أيقن صابر أن الثلج قادم لا محالة . . كل مساء حين تسد الغيوم السوداء الأفق الغربي ، وتبدأ الرياح العاتية بالهبوب ، كان صابر يندس في فراشه قرب والدته ويحلم بأن يستيقظ وقد سد الثلج مداخل الزقاق .

ولقد صحا أكثر من مرة في **الليالي الممطرة** وأطل من نافذة الكوخ التي تضربها الرياح والمطر لعله يجد الدنيا وقد ابيضت من الثلج .

هذا المساء كان ثمة اجماع بأن الثلج قادم ، ولذا فقد تزود أهل الحي والجيران بما يحتاجون من مؤن ومحروقات ، **الطحين والأرز والسكر والعدس** ، وبعضهم اشترى بضعة أرطال من **الخبز والخضار واللحوم** ، أما **أم صابر** فقد اشترت قليلاً من **الأرز** وبضعة أرغفة من الخبز ، وملأت الوعاء الوحيد لديهم بالكاز ، ولم يكن لديها ما يكفي لشراء اللحم أو الخضار .

حدَّث صابر نفسه :

ـ . . أريد فقط أن أرى الثلج .

قالت له أمه :

ـ احكم إغلاق النافذة والبس معطفك الصوفي فالثلج قادم .

* * *

مثلما توقعوا تماماً ، كانت المدينة هذا الصباح أفقاً فسيحاً من البياض الناصع ، كل الشوارع والأزقة والسطوح مساحات ممتدة من الثلج ، أما الأشجار وأعمدة الهاتف والكهرباء فقد كانت هي النقاط السوداء الوحيدة التي تبدو من بعيد .

كل الأولاد كانوا قد نزلوا إلى الشوارع أو صعدوا إلى السطوح ، لكن **حرب الكرات الثلجية** لم تبدأ مبكرة . فالناس حين يلتقون مع الثلج يحسون لأول وهلة برهبة مفاجئة أو يأخذهم شعور ما بأن هذه الأشياء البيضاء المستوية والطرية الملمس يجب ألا تخدشها الأيدي ، أو تلوثها النعال ،لكن هذا الإحساس ما يلبث أن يتلاشى حين تبدأ أول يد بتمزيق هذا الاستواء الإسفنجي الهش ، وهكذا تبدأ الحرب خافتة في أول الأمر ، ثم تشتد رويداً رويداً ، تبدأ أولا بين الصغار ثم تمتد إلى **الشبان والفتيات** وما تلبث حماها أن تصل إلى **الكبار** ، فالرجال تستهويهم النساء على السطوح المجاورة فيصبحن هدفاً للكرات البيضاء المضغوطة جيداً والفتيات يجدن متعة فائقة في التضارب مع الشبان الذين يتجمعون في الساحات والشوارع .

ولكن الحماس المتوهج ما يلبث أن يفتر فيلبي الناس نداء الدفء والطعام .

* * *

ربما كان صابر هو الأقل حظاً في الاستمتاع ببهجة الثلج خلال الساعات الأولى من صبيحة هذا اليوم ، فكل أولاد الحي عاشوا دونما شك هذه المتعة البكر ، بعضهم تدحرج فوق الثلج وبعضهم حمله في جيوبه كرات صلبة كأنها الحجارة وبعضهم أغراه بياضه وهشاشته فراح يلتهمه بشراهة . ولكن معظم هؤلاء حين انسلوا إلى بيوتهم بعد أن أنهكهم اللعب والجوع والصقيع كان في انتظارهم الدفء والموائد الشهية ، معظمهم وجد ملابس أخرى بدلا من ملابسه المبتلة ، أما صابر فكان أقلهم حظاً من كل النواحي فلا ملابس أخرى غير مبتلة ولا مائدة زاخرة على قدر هذا الجوع والجهد . إلا أنه لم يكن الوحيد الذي نام ليلة الثلج الأولى في ظلمة مطبقة حين لم يستطع بياض الثلج الناصع أن يكون بديلاً للكهرباء .

ومع ذلك فلم يحزن صابر كثيراً فقد كانت البيوت كلها تغطس في الظلام . ولم يحزن صابر حين راح أهل الحي يتحدثون عن انقطاع الاتصال الهاتفي مع المدينة ، فهو آخر من يعنيه مثل هذا الاتصال كما لم يحزن صابر كثيراً حين بقيت الطرق مغلقة حتى طوال اليوم التالي فما الذي يعنيه من هذه الطرق حتى ولو ظلت مغلقة سنة بكاملها ولم يحزن صابر حين ظلت **البقالات الكبيرة** موصدة لأن أصحابها لم يتمكنوا من الوصول إليها ، فليست لدى والدته أية نقود يمكن أن تشتري بها شيئاً من البقالات الكبيرة أو حتى البقالات الصغيرة .

ولم يحزن صابر لأن والدته لم تجد ما تقدمه له من طعام في اليوم التالي غير لقمة من الخبز وقليل من الأرز ، فهو يعلم أن أطفالا آخرين في أحياء أخرى فقيرة قد لا يجدون تلك اللقمة من الخبز .

لم يحزن صابر لكل ذلك ، لكنه حزن بشدة حين تبين له أن مدينته الكبيرة عجزت تماماً عن الاحتفاء بالثلج كما عجزت عن الاحتفاظ، ولو ليوم واحد صغير ، بتلك الفرحة الغامرة التي يبعثها الثلج في العيون حين تطل صباحاً من النوافذ فإذا الأرض كلها امتداد ناصع مشرق وزهرة بيضاء مفعمة بالنظافة .





بمناسبة
عيد الأضحى المبارك

يطيب لشركة أرامكو أن تتقدم بأسمى التهاني وأطيب الأماني

إلى جلالة الملك خالد بن عبد العزيز المعظم

وصاحب السمو الملكي الأمير فهد بن عبد العزيز ولي العهد ونائب رئيس مجلس الوزراء

وصاحب السمو الملكي الأمير عبد الله بن عبد العزيز النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء ورئيس الحرس الوطني

وحكومة المملكة العربية السعودية الرشيدة والشعب العربي السعودي الكريم

أعاده الله على الجميع باليمن والبركات.

أرامكو

تهامة TIHAMA D

(ى رس - ٥ - ٨٠)

قصة قصيرة

بقلم: محمد كمال محمد

لا بد أن تشكو.. لا بد أن تحكي..

تقلبت على الفراش بجسدها المنهك، لعله يكلمها..

انتظرت لحظات.. نادته في الظلام بصوت منخفض.. لم تسمع رداً غير هرير أنفاسه الخافت..

منذ لحظات طويلة وهي تراود نفسها أن تحدثه.. كانت السيجارة متوهجة في يده وهو راقد بجوارها.. كعادته سحب أنفاسها الأخيرة في سرعة وأطفأها لينام.. كانت لا تزال مترددة.. وكانت تبحث أيضاً عن كلمة تبدأ بها شكواها.. **بل كانت تبحث عن كلمات لا تضايقه..**

ليست تدري لماذا الليلة شرعت تفكر أن تسمعه شكواها.. ربما لأنه **ساعة العشاء** نظر إلى يدها المربوطة بخرقة نظيفة، **وسأل ماذا بها..**

آلمها بعض الشيء أنه لم يلحظ ذلك **ساعة الغداء**.. حولت عن وجهه نظرة عتاب فاضت بها عيناها.. عزت عليها نفسها.. لكنها ردت مهونة:

ـ «لا شيء.. حرق بسيط»..

دون أن يسأل ما سببه رشف من كوب الشاي.. وأوصاها أن تدهن بمرهم الحروق:

ـ هل نسيت؟

خف ألمها:

ـ لقد دهنت بالفعل..

لم تنبهه إلى أن أنبوبة المرهم فرغت من زمن.. وأنه لم يحضر غيرها...

طيبٌ هو... أبيض قلبه كاللبن ــ لكن لو أنه سأل ماذا أحرق يدها.. كانت تود أن يعرف أنه الموقد القديم عندما حاولت معالجته، فانقلب الزيت المغلي بإنائه على يدها..

بدأت تسمع غطيطه الهادئ. وخزها الندم لأنها لم تتكلم قبل أن ينام..

شعرت بالتعب يتزايد وينبض في كل أجزاء جسدها..

ودت لو يواتيها النوم عاجلاً لتستريح من عناء النهار الذي تحسه، لكثرة ما تتعب، طويلاً ممتداً بلا نهاية.

من ساعة أن تصحو حتى تضع جنبها على الفراش، وهي واقفة على كعبي قدميها.. لا تعرف الجلوس للحظة، ولا تملك من وقتها إلا ما تعطيه للبيت الذي لا تفرغ مشاغله.

لا بد أن تحكي.. لا بد أن تشكو.. لكنها لن يمكنها الكلام بعد أن راح في النوم..

تمنت لو أن أمها لا تزال في الدنيا الآن.. **لترى إلى أي حد تتعب في هذا البيت.**

تخيلتها تطل عليها بروحها.. دائماً كانت تقول لها إن أرواح الموتى الذين يحبوننا تحوم حولنا، لترى حالنا دون أن نراها.

على أية حال سوف تنتظر حتى الغد..

لكن ترى هل نسيت؟.. الولد ينتظر كوب الشاي ليعينه على المذاكرة.. وأيضاً يجب أن تطمئن على البنتين في نومهما، وتحكم حولهما الغطاء، إلى أن تنهض مرات أثناء الليل لتعيد ما فعلت..

صحت في الصباح قبل أن يفتح أحد في البيت عينيه..

أيقظت الأولاد وأسرعت لتضع إبريق الشاي على الموقد.. ولتتسمع من لحظة لأخرى طرقة بائع اللبن على الباب.. وتعود فتهرول إلى حجرة الأولاد لتعيد ايقاظ من لا يزال يتناوم وتحثه على الإسراع..

انتهت من إعداد الشاي فأيقظت زوجها.. وعادت لتجهز طعام الفطور..

تركت ما بيدها وجرت إلى البنت لتسكت صراخها، وتعيد إليها شريط الشعر الحريري الذي اغتصبته أختها.. مشطت للأخرى شعرها في الهوجة.. وانزلقت من يدها المتعجلة زجاجة الزيت وهي تدهن شعر البنت فانكسرت.. ليس الآن، يمكنها أن تكنس شظايا الزجاج.. تعجلت خروج الأولاد بعد أن حذرتهم من المشي على أرضية الحجرة بأقدام حافية.. وانفلتت إلى المطبخ.

ملأ أذنيها تصايح البنتين على شطائر الفول والجبن لتلحقان موعد المدرسة، سمعت شجارهما من أجل كراسة أخفتها إحداهما.

وزعيق الولد الذي يبحث عن كتاب ضائع ..
وكاد اللبن يفور على النار وهي مشغولة بتقطيع الخبز .. وخز طرف السكين إصبعها فأوجعها .

خلا البيت ووجدت نفسها وحدها ككل يوم .

تطلعت إلى الأطباق التي تملأ الحوض في انتظار غسلها .. ربما وجدت ضرورة لمسح أرضية الشقة ، بعد أن تنفض التراب عن الشبابيك التي أرجأتها أمس .. وفي انتظارها رتق جوربين لزوجها ، وقميص الولد .. وعليها غسل (مريلة) البنت الصغيرة المبقعة بالحبر ،

وبعض المناديل .. يجب بعدها أن تبدأ طبخة اليوم من السمك الذي لا يشبع منه الأولاد ، ليجدوا الغداء في انتظارهم .. هذا إذا لم تبدله بالمحشو الذي طلبه زوجها أول أمس ، والذي يستغرق منها ساعات طويلة .

كم تتعب .. وكم هي مشغولة دائماً ..

في المساء شكا زوجها من أحد جنبيه فانزعجت ..

راحت تعمل بهمة وتتعجل نفسها للفراغ مما وراءها ..

ولزمت جوار السرير الذي يرقد عليه ، بعد أن أوصت الأولاد بالهدوء لراحة أبيهم ..
استغنى زوجها عن سيجارة ما قبل النوم .. فلم تر في الظلام طرفها المشتعل .
ونسيت أحداث يومها .. **وتوارت في أعماقها الرغبة في الشكوى ..**

فقط راحت تتسمع أنفاسه لتطمئن نفسها أنه سينام جيداً .. كما تود .. وأنه بخير ..





بقلم: محمد فكري أنور

كان رئيس الجماعة الفنية في المدرسة والجامعة، نال من أساتذته الكثير من التشجيع والتقدير والحب، وكانوا يتنبأون له بمكانة مرموقة في عالم الفن.. بل إن أحدهم وصل به الحماس إلى القول بأنه سيكون صاحب مدرسة في الرسم، ومذهب في الفن يتناوله النقاد بالدرس والتفسير، وتتناقله أجهزة الإعلام إلى كافة أرجاء المعمورة إعجاباً وتقديراً.

على أن سر إعجاب أساتذته بمواضيع لوحاته وخطوطها وظلالها هو أنه كان فناناً عميق الإدراك مرهف الحس. ولم تكن لوحاته إنفعالا بشطحات فنية طارئة أو تقليداً لخطوط رسام كبير، أو مجرد خطوط تنغمس في الألوان، لا تقول غير ما يضيفه لون بجوار لون من إحساس.. كانت كل لوحة يرسمها إنما يخاطب بها أخص ما تختلج به نفوس الناس. فما من حادث اهتزت له البلاد، أو خبر انفعل به المجتمع إلا وخفقت ريشته بلوحة تفهمها العامة وتناقشها الخاصة.

وعندما تخرج في **كلية الفنون الجميلة**، زكاه أساتذته وألحوا في توظيفه **مهندساً للديكور في هيئة المسرح**، كي يظل على اتصال مباشر بما يثير في نفسه طاقة الإبداع ونزعة التجديد وسهولة الانتشار.

هنا استراح أساتذته وطاب بالهم.. وكأنهم إنما يناضلون في سبيل هدف لن تستقيم حياة الفن بدون تحقيقه.

وتفاءل صديقنا بالمستقبل خيراً، وأحس بأبواب المجد وقد انفتحت أمامه رحبة فسيحة، وبأن مجتمع الفن في البلد قد بسط يديه له مرحباً، وما عليه إلا أن يخطو.. فالطريق أمامه ممهدة، مفروشة بالورود.

لكن مسألة أخرى كانت تواجهه وتلح في طلب الحل.. كان يحب جارة له من **أيام الدراسة الثانوية**، وكان يحلم معها بالمستقبل، وهي تشاركه شهرته ومجده وكفاحه ونجاحه

— دعنا من أحلام المجد والشهرة.. العمل والنجاح والانتشار ليست مشاكل تعترض طريقنا لكي تعمل، لا بد أن يكون عندك بيت تعمل فيه.. لا تنسى حياة الضيق والملل في بيت أهلك.. شقة ضيقة وأولاد كثيرون، وأب وأم أعطيا كل ما عندهما.. وليس من العدل الإلحاح عليهما بما هو أكثر.. وإذا لم تستطع تقديم العون لهما فلا أقل من أن تعفيهما من أعبائك.

● **وما العمل؟**

— النقود هي العمل والشاغل والهدف.

● **ولكن.....**

— تظلمني لو ظننت أنني أقصيك عن آمالك.. ها هي ورقة وقلم.. أحسب بالأرقام كم نحتاج من نقود نشتري بها ورقاً وأقلاماً وألواناً.. كم من نقود تحتاج لشراء «**الشبكة**» عندما تخطبني من أهلي، أم ترانا سنظل حبيبين يغشيان الحدائق ويتجولان في الشوارع، وعند



المساء يعود كل منهما إلى بيت أهله ؟ أنت محتاج لنقود لشراء « الشبكة » ونقود للمهر .. ونقود للشقة .. ونقود لما يقع على طالب الزواج من أعباء شراء المطبخ والنجف والسجاد .

● **الدنيا ليست كلها نقود .. لا تكوني مادية إلى هذا الحد . إننا في بداية الطريق ، وأمامنا مستقبل عريض .. كل ما نحتاجه هو التفكير الهادئ والصبر . و ...**

— (تقاطعه بحدة) أرجوك كفانا حباً وصبراً .. رصيدي من حبك وفير ، والصبر بذلت لك منه الكثير ، والمسألة أننا نتطلع إلى الحياة من وجهتي نظر مختلفتين . أفق يا عزيزي .. إننا لا نزال في مجتمع يقوده رجل و « معه » امرأة وليس العكس .. كلما تقدم السن بالرجل ارتفع مركزه الاجتماعي وازداد نضجاً ونجاحاً ، فالغد عنده نجاح ومركز اجتماعي وشهرة ونقود .. أما الفتاة ، فإذا تقدمت بها السن ولم تتزوج صارت عانساً .. ألست معي في أن سنوات العمر عند الرجل خط يتصاعد ، وعند المرأة إنحدار ينزلق ؟ .

● **هذه نظرة متشائمة .**

— أوه .. ها أنت تدخل بي في مناقشة لا نهاية لها .. اسمع ! .. أنت تقول بأن المواقف الهامة في حياة الإنسان تدعمها التصرفات الجادة .. هذا رأيك . أما موقفي فأوجزه لك في كلمات محددة قليلة .. إنني أحبك ، وسأظل على حبك . فإذا كنت تريدني زوجة فأنت تعلم الطريق إلى بيت أهلي .. ولكن تذكر .. لو جئت تطلب يدي فإن قبولك زوجاً لي مرهون بمناقشة الأرقام ..

وانصرف بلا وداع .

أمسك ورقة وقلماً ، وأمضى مع الأرقام أياماً وليال ، خرج بعدها إلى أساتذته وأصدقائه راجياً إياهم العدول عن ترشيحه لهيئة المسرح ، والبحث له عن عمل يتقاضى منه أجراً مرتفعاً ، يجد فيه الكثير من فرص الأجر الإضافي والحوافز والمكافآت والأرباح . وأذعن الأساتذة لإلحاحه ورشحوه للعمل بإحدى **شركات التنقيب عن البترول .**

وهناك ، كان العمل يستهلك معظم ساعات يومه ، وكان يضطر — في أحيان كثيرة — إلى السفر إلى مواقع العمل في **الصحراء الغربية** . في بادئ الأمر كان يرجوهم إرساله إلى هناك طلباً لبدل السفر وأجور الإنتقال وأملاً في المزيد من المكافآت والحوافز ، وبعد ذلك اعتادوا عليه وأدمنوا وجوده وعمله بينهم ، وصار مكلفاً بكل مهمة عمل إلى هناك ، فسعدوا به وكانت سعادته بهم غامرة .

ولم يمض وقت طويل حتى كان اسمه على كل لسان ، ونشاطه يغطي مساحة كبيرة من خريطة العمل ، فرشحه مديروه لرئاسة **العلاقات العامة بالشركة** ، وارتفع راتبه ، وازداد حجم مدخراته ، وأقبل مليء الجيب مفعم الثقة بالنفس إلى حبيبته يخطبها .

★ ★ ★

ومرت السنون ، وأنجب منها ثلاثة أولاد وبنتاً ، ثم استأجر شقة كبيرة جديدة وجهزها بأفخر الأثاث ، واستعد لحجز سيارة جديدة .

وذات يوم جلس إلى مكتبه يتصفح **الجرائد اليومية** ، فوقع بصره على مقال نقدي يشغل حيزاً كبيراً من **صفحة الأدب والفن** ، وعلى رأسها عنوان على ستة أعمدة يقول : « **حسين منصور .. وخطوة جسورة على الطريق** » .. وفي السطر التالي عنوان آخر بحروف كبيرة : « .. **وداعاً للأشجار والأنهار والتلال ، ومرحباً برسوم الفلاحين والعمال** » .

انسكبت القهوة على ثيابه دون أن يدري ، وأفاق على لسعة الحرارة في فخذه .. ضغط على زر الجرس بعنف وعصبية ، وأرسل « الساعي » يطلب أحد مرؤوسيه ، زميله أيام الدراسة وخريج دفعته .

● **أرأيت جرائد اليوم يا وائل ؟**

— تقصد حسين منصور ؟ لقد سعدت جداً بهذا الخبر ، وكنت قد رأيت له أكثر من معرض خلال السنوات الماضية .. ألا تذهب معي اليوم لمشاهدة المعرض وتهنئة حسين ؟

● **طبعاً ، طبعاً .**

لم يدر ماذا قال بعد هذه الكلمة ، ولا يذكر متى انصرف وائل من أمامه ، ولا أي حوار دار بينهما بعد ذلك .

إن مجرد تخرج حسين في الكلية يعتبر خبراً صعب التصديق . كان أساتذته يكنونه دائماً بالطالب الذي « **يرسم بذيل حمار** » .. ولم يسمع كلمة إطراء واحدة من أحد ، وها هو اليوم يصبح اسماً يشار إليه بالبنان ، واتجاهاً فنياً يتحرك له النقاد درساً وتفسيراً . أما هو .. فأين يقف من .. حسين ؟

وفي المساء شهد المعرض ، وشد على يد زميله مهنئاً ، وعاد إلى بيته وقد اشترى ورقاً وأقلاماً وألواناً .. ومر بغرفة نومه فرأى زوجته تغط في نوم عميق ، وعلى شفتيها ابتسامة غامضة باهتة .

أغلق باب الغرفة ومضى إلى مكتبه ، ورسم لوحة جديدة .. امرأة جميلة تتطلع إلى **جدار من نقود** .. لها عشرون يداً ممدودة ، وعشر عيون جاحظة ، وسبعة أفواه فاغرة ، ولسان كالثعبان .. وهي تمد أياديها إلى الجدار تريد أن تقتلع ما به من نقود فتقذف بها إلى أفواهها .

وفي الصباح وضع للوحة عنوان : « **الزواج** » وغادر بيته قبل أن تستيقظ زوجته ، تطلع إلى الطريق فوجده — على غير العادة — طويلاً ، شاقاً ، مليئاً بالمنحنيات .

ميتسوبيشي اليكتريك

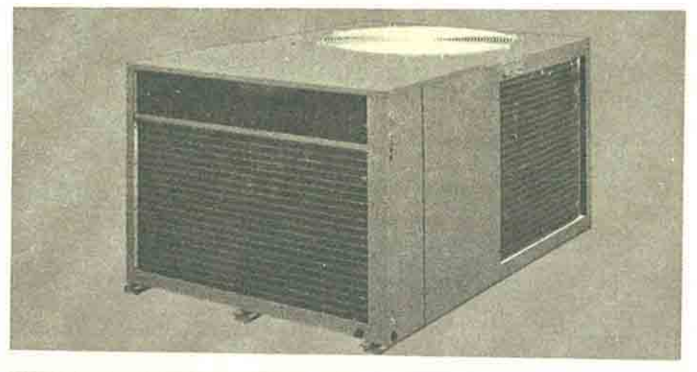
اسم يستحق ثقتكم في مجال التبريد

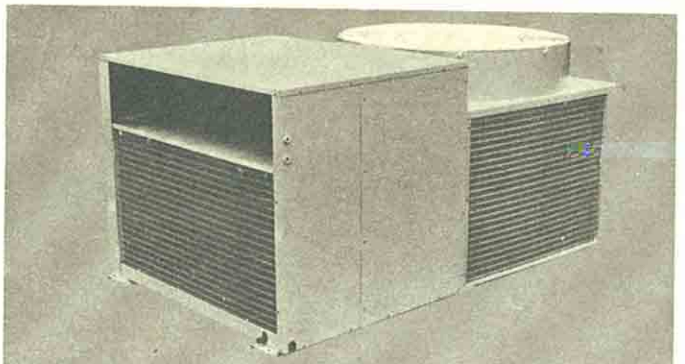
وبجانب وحدات الشبابيك المألوفة

نحن نقدم مجموعة من :-

الأجهزة الصامتة ذات القطعتين وأجهزة التكييف المركزي

وكلها تمتاز بـ كفاءة عالية - أسعار منافسة - خدمة تامة وضمان شامل







للمعلومات إتصلوا بـ : وكالة ميتسوبيشي اليكتريك

الشركة السعودية للألكترونيات

الرياض : ت ٣٩١٩٢ - ص.ب ٦٢١٤ عمارة الرصيص الجنوبية - شارع الملك فيصل

جدة : ت ٢٦٨٥٨ - ص.ب ٦٥٩٢ عمارة البنك الأهلي - طريق مكة - كيلو (١)

[illegible] ٢٨٣٤٤ - ص.ب ٢٨٤٠ الشارع ١٥ من الشارع العام - خلف سوق السمك



كثيراً ما نسمع شبابنا وشاباتنا يتمنون أن يصبحوا أطباء بعد إنهاء دراستهم الثانوية ويلتحقوا بالجامعة لدراسة الطب. بعضهم يحقق أمنيته فيصبح طبيباً، وبعضهم ينصرف إلى صنعة أخرى غير الطب. ولو سألت أحدهم عن سر رغبته في أن يكون طبيباً لأجاب دون تردد، جواب العارف الحكيم: «لأساعد الناس وأخلصهم من آلامهم بالقضاء على المرض ...»



أخلاق الطبيب

بقلم: جاسر أبو صفية

تذكرت أيام كان الناس من كل أرجاء الدنيا يأتون إلى بلاد المسلمين ليتعلموا الطب بأخلاقياته من الأطباء المسلمين. يومها كان للطب أخلاق يتقيد بها الطبيب ومن شذَّ يحرم من ممارسة صنعة الطب . . . قرأت عنهم أن **نقابة الأطباء** تشترط على الطبيب أن يكتب وصفته الطبية من نسختين، تبقى إحداهما عنده في ملف المريض لدراسة الوصفة في حالة حدوث مضاعفات أو موت للمريض، فإذا ثبت دقة الوصفة وملاءمتها لحالة المريض فلا لوم على الطبيب، وإذا ثبت عكس ذلك عوقب الطبيب ومنع من ممارسة الطب.

وكم كانت فرحتي كبيرة عندما وقع في يدي كتيب صغير رأيته في عيادة طبيب صديق ممن منَّ الله عليهم فحافظوا على أخلاقهم الدينية والطبية، فاستعرته منه وقرأته وأحببت أن أعرّف القراء به فكان هذا المقال.

★ ★ ★

فإذا ما وصل إلى غايته وأصبح طبيباً يمتلك سيارة فارهة، وعيادة فخمة وملابس ثمينة، سرعان ما ينسى **بعضهم** ما نذر نفسه له من مساعدة الآخرين، ويدخل في سباق مع زملائه في اكتساب الزبائن وتنمية الثروة؛ ليكون له مكان في المجتمع ناسياً، أو متناسياً، كلّ أخلاقيات الطب في سبيل تحقيق غرضه المادي، وأن الطب رسالة سامية إنسانية قبل أن يكون مهنة لتحقيق النفع.

هذه الظاهرة يمتلئ بها مجتمعنا العربي اليوم، وقليل من الأطباء من وفقهم الله فحافظوا على أخلاقيات الطب وأثروا علمهم، وظلوا على اتصال وثيق بمصادر المعرفة الطبية وتقدم العلوم بمختلف أنواعها، ولم يكتفوا بلوحة نحاسية كتب عليها: «الدكتور فلان بن علان، خريج جامعة كذا، بتقدير كذا، والحائز على شهادة كذا وكذا وكذا . . .»

تذكرت هذا وأنا أشرح لأحدهم أعراض مرض ألمّ بي، فوجدته غير مهتم لما أقول، يهز رأسه بحركة مسرحية دلالة على أنه يفهم ما أقول ويشجعني على الاستمرار. وبعد الروتين المتبع أخرجت ورقة نقدية كبيرة لأقدمها له، فخطفها من يدي خطفاً، فتبسمت ضاحكاً من فعلته، وقفزت إلى ذهني صورة **الرازي، وابن سينا وابن زهر** وغيرهم من أطباء المسلمين وعلمائهم . . .



الكتيب كان بعنوان : « **أخلاق الطبيب** » .

وهو عبارة عن رسالة موجهة من أبي بكر الرازي إلى بعض تلاميذه . وقد حقق هذه الرسالة وقدم لها **الدكتور عبد اللطيف محمد العبد** ، جزاه الله كل خير بإخراج هذا الكتاب .

وقد رجعت إلى ما كتبه **بروكلمان** في كتابه « **تاريخ آداب اللغة العربية** » عن مؤلفات الرازي ، فلم أجد ذكراً لهذه الرسالة ، وأشار الدكتور عبد اللطيف أنها من مخطوطات **دار الكتب المصرية** ، كتبت عام ١١١١ هـ ، نقلاً عن أصل خط الرازي .

الركائز التي تقوم عليها أخلاق الطبيب

وتدور الرسالة من أولها إلى آخرها حول عدة ركائز تتعلق بأخلاق الطبيب وسلوكه الشخصي والمهني وكيفية المعالجة . وفيما يلي نعرض بإيجاز أهم هذه الركائز .

١ ــ أن يصون الطبيب نفسه عن الاشتغال **باللهو والطرب** ؛ لأن مهنة الطب مهنة جادة ، واللهو والطرب من الأشياء التي تصرف الإنسان عن الجد والواقع ، وتجعله يعيش في جو حالم بعيداً عن آلام الناس ، ولا يليق بالطبيب أن يكون أضحوكة أمام الناس إذا لها أو طرب ؛ لأن اللهو والطرب يخرجان الإنسان عن طوره .

كما نهى الرازي تلميذه عن **السُكر** ؛ لأنه يذهب العقل والوقار ، فلا يدري الطبيب ما علة المريض وما هو الدواء النافع له ، كما لا يستطيع الطبيب السكران أن يجري عملية جراحية لما قد يترتب عليها من نتائج خطيرة نتيجة السكر .

٢ ــ **علاقة الطبيب بالمرضى** : يقول الرازي : « واعلم يا بني أنه ينبغي للطبيب أن يكون **رفيقاً بالناس ، حافظاً لغيبهم ، كتوماً لأسرارهم** » . (ص ٢٧) .

فمعاملة الناس بالرفق من قِبَل الطبيب يعطيهم أماناً وراحة نفسية لا يقدرها إلا من يحس بها من المرضى . كما أن حفظ أسرار المرضى يجعل الطبيب محل ثقة المريض ، ويساعده في معرفة الداء وأسبابه ووصف العلاج الناجع له ؛ لأن المريض يبوح بكل ما عنده لطبيبه لعل ذلك يخفف عنه الألم ويشعر براحة نفسية إذ يحدث طبيبه بمشاكله وآلامه .

٣ ــ **غضّ الطرف** : ينص الفقه الإسلامي على أن تعالج المرأة المسلمة عند طبيبة مسلمة ، فإن تعذر ذلك ، فلا مانع أن يكون الطبيب رجلاً ، شرط أن يكون مسلماً متصفاً بصفات المسلم من غضّ للبصر وغيره . وهذا ما أكد عليه الرازي فقال بالنص : « **على الطبيب أن يكون مخلصاً لله ، وأن يغضّ طرفه عن النسوة ذوات الحسن والجمال ، وأن يتجنب لمس شيء من أبدانهن ، وإذا أراد علاجهن أن يقصد الموضع الذي فيه معنى علاجه ويترك إجالة عينيه إلى سائر بدنها** » (ص ٢٩) .

٤ ــ ألا يكون **متكبراً على الناس** ، مما يجعل المرضى ينفرون منه ويكرهونه .

٥ ــ ومن ذلك أيضاً ألا يداخله « **العُجْب بالنفس** » وأن يكون متواضعاً ؛ لأن العُجْب بالنفس آفة تقتل صاحبها أياً كان نوعه وعلمه .



★ ابن زهر ★

قال الرازي : « ورأيت المتطببين من إذا عالج مريضاً شديد المرض فبرأ على يديه ، دخله عند ذلك عجب وكان كلامه كلام الجبارين » (ص ٣٨).

ولذلك يوصي الرازي تلاميذه بالتواضع ؛ لأن « **التواضع** في هذه الصناعة زينة وجمال ، دون صنعة النفس ، لكن يتواضع بحسن اللفظ وجيد الكلام ولينّه وترك الفظاظة والغلظة على الناس » (ص ٨٤).

٦ ــ **التوكل على الله في العلاج** : بعض الأطباء قديماً وحديثاً يعتقدون أنهم بعلمهم يستطيعون شفاء المرضى وعمل المعجزات ، ناسين أن الشفاء بيد الله وحده ، وإنما الطبيب وسيلة الله ــ سبحانه وتعالى ــ للشفاء ، وذلك انطلاقاً من قوله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم ــ عليه السلام ــ : ﴿ **وإذا مرضت فهو يشفين** ﴾ (الشعراء آية ٨٠).

وينصح الرازي الأطباء **بالتوكل على الله** وتوقع البرء منه لا من قوة الطبيب وعلمه وعمله « فإذا فعل بضد ذلك ونظر إلى نفسه وقوته في الصناعة وحذقه حرمه الله البرء » (ص ٣٨ ــ ٣٩).

٧ ــ **استمرار التعلم** : وذلك بالمواظبة على تصفح الكتب الطبية والعلمية ، فلعله يسأل عن شيء فيعرف الإجابة عنه ، وكم من طبيب يكتفي بحصوله على إجازة الطب ويهمل بعدها متابعة الدراسة وتطور العلوم الطبية فيخسر نفسه ويخسر المريض أيضاً .

٨ ــ **دراسة عامة لحال المريض في الصحة والمرض** ليتسنى للطبيب دراسة الظاهرة المرضية منذ بدايتها وقبل أن تظهر ، وما مسبباتها والحالة النفسية والصحية التي كان عليها المريض قبل مرضه ، ماذا فعل ، ماذا أكل أو شرب ، كيف ينام ، وقياس النبض قبل وبعد المرض .

٩ ــ ويهتم الرازي بدراسة **نفسية المريض** وعاداته وخاصة في الأكل لمعرفة نوع الطعام الذي يحبه ودراسته ؛ لما لنوع الطعام من علاقة مباشرة أو بعيدة بالمرض ، وبعد دراسة الطعام يوصي الطبيب بغذاء معين يحبه المريض ، لكن حسب مواصفات طبية وتحت إشراف الطبيب .

١٠ ــ **المساواة بين المرضى في العلاج** : من النصائح الثمينة التي يقدمها الرازي لتلاميذه الأطباء **ألا يميزوا بين الفقير والغني في العلاج** ــ كما هو حاصل اليوم ــ لما لذلك من تأثير سيء على نفسية المريض الفقير ، ونزع للثقة بينه وبين طبيبه . وقد كان الرازي خير مثال يحتذى لطلابه في هذا ، فقد كان يجري على الفقراء الجرايات الواسعة .

١١ ــ **متابعة العلاج وعدم التجربة في المريض** : ينصح الرازي تلاميذه الأطباء بعدم الاكتفاء بوصف الدواء للمريض بل بملازمة المريض بعد إعطائه الدواء والإشراف التام عليه ومتابعة سير الدواء ، فلعل له بعض التأثيرات الجانبية التي تظهر بعد فترة من تناول الدواء فيقتضي وجود الطبيب لعلاجها في حينها .

ومن هنا جاء **نهي الرازي عن التجربة في المريض** ، فالمريض ليس حقلاً للتجارب ــ كما يفعل الكثير اليوم ــ بل على الطبيب أن يشخص المرض بدقة ليصف العلاج الناجع .

قصة طبيب

هذه أهم النصائح التي وجهها الرازي في رسالته إلى تلميذه الطبيب وإلى كل طبيب قديماً وحديثاً لعلها تنفع من يريد النفع . وفي ختام هذه المقالة أود أن أشير إلى قصة تبين مدى الخلق الذي كان يتحلى به الأطباء المسلمون ، أسوقها للعبرة دون تعليق :

استدعى أحد الأمراء طبيباً ليطببه في قصره ، فرفض الطبيب الذهاب ، فاضطر الأمير إلى الحضور بنفسه إلى بيت الطبيب حيث نزل ضيفاً عنده ، ولما تم شفاؤه وأراد الرجوع إلى بلدته عرض على الطبيب مالا مقابل العلاج ، فرفض الطبيب وقال : لا آخذ على علاج ضيفي شيئاً . فشكره الأمير ورحل . وبعد أن استقر به المقام في بلده أرسل إلى الطبيب هدية مع الوزير . فرفض الطبيب قبولها أيضاً . فقال له الوزير : وما يدري الأمير أنك رفضت قبول الهدية ؟ آخذها أنا وأخبره أنك أخذتها ؟ قال الطبيب قولته المشهورة : « **يكفي أنني أعلم أنني رفضتها** » .



مناسك الحج



الإحرام :

من أنواع الإحرام : **الإفراد ، والقران ، والتمتع .**

(فالإفراد) : أن يحرم من يريد الحج من الميقات بالحج وحده ، ويقول في التلبية : «**لبَّيك بحج**» ، ويبقى محرماً حتى تنتهي أعمال الحج ، ويعتمر بعد ذلك إن شاء . وفي هذه الحالة ليس عليه ذبحة .

(والتمتع) : سُمّي بذلك للانتفاع بأداء النسك في أشهر الحج ، ولأن المحرم يتمتع بالتحلُّل من الإحرام بلبس الثياب والتطيُّب وغير ذلك ، وكيفيته أن يحرم من الميقات بالعمرة وحدها ، ويقول عند التلبية : «**لبَّيك بعمرة**» . وهذا يقتضي البقاء محرماً حتى يصل إلى مكة ، ويطوف البيت ، ويسعى بين الصفا والمروة ، ثم يحلق أو يقصر ، ثم يتحلَّل ، فيخلع ثياب الإحرام ، ويلبس ثيابه المعتادة إلى أن يجيء **يوم التروية** يوم الثامن من ذي الحجة ، فيحرم من مكة بالحج . وفي هذه الحالة عليه هدي (ذبح ذبيحة لفقراء الحرم) ، أما غيره فلا يلزمه ذبح شيء . يقول الله عزَّ وجل : **﴿ فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة ﴾** .

والتمتع أفضل من القران ومن الإفراد لأنه أقرب إلى اليسر ، وهو الذي عناه رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه ، وأمر به أصحابه .

أما (القران) فهو أن يحرم من عند الميقات بالحج والعمرة معاً ، ويقول في التلبية : «**لبَّيك بحج وعمرة**» . وهذا يقتضي بقاء المحرم محرماً إلى أن يفرغ من أعمال العمرة والحج جميعاً ، ويكفيه في هذه الحالة طواف واحد وسعي واحد للحج والعمرة مثل المفرد . روى مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعائشة : «**طوافك بالبيت وبين الصفا والمروة يكفيك لحجك وعمرتك**» . وذهب **أبو حنيفة** إلى أن لا بد من طوافين وسعيين .



بئر زمزم :

بعد الطواف وبعد التوجه إلى مقام إبراهيم عليه السلام ، وصلاة ركعتين سنَّة الطواف ، يذهب الحاج إلى بئر زمزم ، ويشرب منها هنيئاً ، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : «**ماء زمزم لما شرب له** ، إن شربته تستشفي شفاك الله ، وإن شربته لشبعك أشبعك الله ، وإن شربته لقطع ظمئك قطعه الله» .

أما الشراب فيستحب أن يكون على ثلاثة أنفاس ، وأن تستقبل به القبلة وتحمد الله وتدعو وتقول : «**اللهم إني أسألك علماً نافعاً ، ورزقاً واسعاً ، وشفاء من كل داء وسقم**» .



التلبية :

بعد أن ينوي الحاج الإحرام يبدأ التلبية فيقول : «**لبَّيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك .. إن الحمد والنعمة لك والملك .. لا شريك لك .. لبيك إله الخلق لبيك .. غفّار الذنوب لبيك .. لبيك وسعديك .. والخير كله بيديك .. لبيك اللهم لبيك .. لا شريك لك لبيك .. إن الحمد والنعمة لك والملك .. لا شريك لك .. لبَّى لك عبدك وابن عبديك .. لبيك وسعديك .. والخيرات والبركات كلها بين يديك**» .



ثنية كداء :

وتعرف **بالثنية العليا** ، وعلى الحاج أن يدخل مكة منها ، فقد دخلها النبي صلى الله عليه وسلم من جهة **المعلاة** (وهي مقبرة أهل مكة) ، فمن تيسَّر له ذلك فعله وإلا فعل ما يلائم حالته .



الجمار :

إذا ارتفعت الشمس من اليوم العاشر من ذي الحجة ، يتوجَّه الحاج إلى

منطقة الجمار لرمي جمرة العقبة قبل الزوال ، وعلى يمين مستقبل القبلة في الجادة ، ويستحب أن يقف الحاج عند الجمرة جاعلاً مكة عن يساره مستقبلاً الجمرة بوجهه ما لا يقل عن مترين . ويأخذ الحصاة بطرفي إبهام وسبابة يده ويرميها بحيث تقع الحصاة عند الجمرة أو قريباً منها وهو يقول : « **الله أكبر** » ، ويرمي الحصاة الثانية ، وهكذا حتى يرمي سبعاً .

ورمي الجمار ذكر لانتصار إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام على الشيطان حين أراد أن يثني الوالد عن أمر ربه ، يغرّر بإسماعيل حتى لا يستجيب لأبيه .



الحجّ :

روى النسائي عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم** أنه قال : « جهاد الكبير والضعيف والمرأة الحج والعمرة » . وقد فُرض الحج في العمر مرة واحدة لقول الله عزّ وجل : ﴿ **ولله على الناس حج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً** ﴾ ، وقول رسوله الكريم : « يا أيها الناس قد فُرض عليكم الحج فحجُّوا » ، قيل : فقال رجل : أكل عام يا رسول الله ، فسكت صلى الله عليه وسلم حتى قالها ثلاثاً . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو قلت نعم لوجب ولما استطعتم » .

والحج عبادة الله تعالى بزيارة بقاع مخصوصة هي مكة وعرفة والمزدلفة ومنى ، بأفعال مخصوصة هي **الإحرام والطواف والسعي والوقوف بعرفة ورمي الجمار ، والحلق أو التقصير** ، وغير ذلك ، في أيام معلومات . قال تعالى : ﴿ **وإذ بوّأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً وطهِّر بيتي للطائفين والقائمين والركّع السجود . وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق . ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير . ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوّفوا بالبيت العتيق . ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه وأحلّت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور** ﴾ .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من حجَّ فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه » ، وعنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الحجّاج والعمّار وفد الله إن دعوه أجابهم وإن استغفروا غفر لهم » .



النّذر :

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن امرأة من **جهينة** جاءت إلى **النبي صلى الله عليه وسلم** فقالت : إن أمي نذرت أن تحجّ ، ولم تحجّ حتى ماتت ، أفأحجّ عنها ؟ قال : « نعم ، حجّي عنها ، أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته ؟ اقضوا الله ، فالله أحقُّ بالوفاء » .

وعن **الفضل بن عباس** أن امرأة من **خثعم** قالت : يا رسول الله ، إن فريضة الله على عباده في الحج ، أدركت أبي شيخاً كبيراً لا يستطيع أن يثبت على الراحلة ، **أفأحج عنه** ؟ قال : « نعم » . فمن استطاع السبيل إلى الحج ، ثم عجز عنه بمرض أو شيخوخة لزمه إحجاج غيره عنه ، لأنه أيس من الحج بنفسه لعجزه ، فينيب عنه غيره ، وفي الحديث دليل على أن المرأة يجوز لها أن تحجّ عن الرجل ، والرجل يجوز له أن يحج عن المرأة . وإذا عوفي المريض بعد أن حج عنه نائبه فإنه يسقط الفرض عنه ، ولا تلزمه الإعادة وإلا تفضي إلى جانب حجتين . **ويشترط فيمن يحج عن غيره أن يكون قد سبق له الحج عن نفسه** لما رواه ابن عباس رضي الله عنهما أن الرسول صلى الله عليه وسلم سمع رجلاً يقول : لبّيك عن شبرمة ، فقال : « أحججت عن نفسك » ؟ قال : لا . قال : « فحجّ عن نفسك ، ثم حجّ عن شبرمة » .



الذبح :

قال الله تعالى في شأنه : ﴿ **وأتمُّوا الحجَّ والعمرة لله فإن أحصرتم فما استيسر من الهدي ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي محلّه فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك فإذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة** ﴾ .

يذهب الحاج إلى **المنحر** بعد رمي الجمار ، ويشتري الهدي ويذبحه بيده إن استطاع ، وإلا فبيد جزار . والهدي واجب عليه في حالتي التمتع والقران ، وغير واجب في حالة الإفراد بالحج أو بالعمرة ، وواجب على من ترك واجباً من واجبات الحج ، والهدي هو ما يُهدى من النعم تقرباً إلى الله عزَّ وجل ، وهو تخليد للفداء ؛ حيث نجّى الله إسماعيل من الذبح .

والهدي لا يكون إلا من النعم وهي الإبل والبقر والغنم . ويذبح في أي موضع من الحرم ؛ فعن **جابر** رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « **كل منى منحر ، وكل المزدلفة موقف ، وكل فجاج مكّة طريق ، ومنحر** » . والأولى بالنسبة للحاج أن يذبح بمنى ، ولا يجوز أن تعطي الجزار الأجرة من الهدي ، ولا بأس بالتصدق عليه منه .



الحجر الأسود :

بعد الطواف يقصد الحاج الحجر الأسود ، الذي يقع في الركن على يسار المشاهد إذا كان واقفاً في مواجهة الكعبة ، على ارتفاع مائة وخمسين سنتيمتراً ، مستقبلاً الحجر ماراًّ بالملتزم (وهو جدار باب الكعبة) ، فإذا صار أمامه وقف بجانبه ، واستلمه بيمينه وقبّله تقبيلاً خفيفاً إن أمكن أو أشار إليه باليد اليمنى ، وقال وهو يقبله : « إني لأعلم أنك حجر ولو لم أر رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلك واستلمك ما استلمتك ولا قبلتك ، بسم الله .. الله أكبر .. ولله الحمد .



المزدلفة :

بعد غروب يوم التاسع من ذي الحجة يتوجّه الحاج مباشرة بأن يجعل جبل الرحمة خلف ظهره من طريق الأخشبين إلى المزدلفة بالسكينة ، فيسير سيراً رفيقاً وهو يلبّي ، ويذكر الله فيكبّر ويهلّل . والمزدلفة تبعد عن عرفة بحوالي اثني عشر كيلومتراً ، فإذا أتاها الحاج صلّى المغرب ثلاث ركعات والعشاء ركعتين بأذان وإقامتين من غير تطوع بينهما (جمع تأخير) ، والمزدلفة كلها مكان للوقوف إلا وادي مُحَسِّر (بين المزدلفة ومنى) الذي يسنُّ فيه الهرولة . ويجمع الحاج تسعاً وأربعين حصاة قدر حبة الحمص تقريباً ، ولا بأس أن يجمع سبعين حصاة في كيس صغيرة للاحتياط ، ويحفظها معه . ويمكث بالمزدلفة حتى بعد منتصف الليل ، والأفضل أن يمكث إلى ما بعد صلاة الفجرة .



السَّعْيُ :

ويُقصد به السعي بين الصفا والمروة . وهو يذكّرنا بسعي **هاجر** ، وهرولتها باحثة عن الماء لولدها الظامئ .. **إسماعيل** ، حتى فرّج الله سبحانه وتعالى كربتها ، وأمّن غربتها ، وفجّر لها زمزم .

فبعد الطواف يخرج الحاج من باب الصفا ، ويصعد مرتفع الصفا (والصفا حجر أزرق من أصل جبل أبي قبيس) ، ويرى الكعبة ، ويتّجه إليها ، ويدعو . قال تعالى : ﴿ **إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حجَّ البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوّف بهما ومن تطوّع خيراً فإن الله شاكر عليم** ﴾ . والسعي بين الصفا والمروة سبعة أشواط (سعي الحج أو العمرة) ، ويرتفع الحاج على مرتفع الصفا ، ويقول : « الله أكبر .. الله أكبر .. الله أكبر ولله الحمد » .



المشعر الحرام :

قال تعالى : ﴿ **فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام ، واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين** ﴾ . ورُوي عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لـمَّا أتى المزدلفة صلّى المغرب والعشاء ، ثم اضطجع حتى طلع الفجر فصلّى الفجر ، ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام ، ولم يزل واقفاً حتى أسفر جداً ثم دفع قبل طلوع الشمس . والمشعر الحرام أو قزح تل صغير قليل الارتفاع أقيم عليه مسجد المزدلفة .



التقصير والحلق :

إن كان المحرم محرماً بالعمرة وحدها تحلّل بالحلق تقصير الشعر ، وبذلك يحلُّ له كل شيء كان محرماً أو لأجل الإحرام ، وبذا يكون قد طاف طواف القدوم . وإن كان محرماً بالحج والعمرة أو بالحج وحده فلا يقصر ولا يتحلّل ، ويستمرُّ على إحرامه حتى يوم العيد .

قال تعالى : ﴿ **لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلّقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون** ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ **ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي محلّه ، فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك** ﴾ . ويفضل المحلقون عن المقصرين لأن الحلق أبلغ ، وأدل على صدق النيّة في التذلّل لله ؛ لأن المقصر يُبقي لنفسه من الزينة . والحلق أو التقصير يكون بعد الذبح إن كان مع الحاج هدي ، وإلا فيكون بعد رمي جمرة العقبة يوم النحر .

ويستحبُّ في الحلق أن يبدأ بالشق الأيمن ثم الأيسر ، والحاج مستقبل القبلة ويكبّر ، وبعد الفراغ منه يصلّي ، ويستحبُّ أن يأخذ الحاج من شاربه ، ويقلّم أظافره ، وللأصلع أن يمرر الموسى على رأسه ، والمرأة تأخذ من مقدم رأسها أنملة من أطراف شعرها . وبعد ذلك يحلُّ للحاج ما كان محرَّماً عليه وهو محرم فيغتسل ، ويلبس ملابسه العادية ، ويتحلّل تحلُّلاً تاماً من الإحرام ، ويسمى ذلك بالتحلُّل الأصغر .



الإفاضة :

بعد رمي جمرة العقبة والحلق أو التقصير ، يذهب الحاج إلى البيت قبل الظهر من يوم النحر ، ليطوف طواف الإفاضة ، فيطوف سبع مرات ، ثم يصلّي ركعتين ثم يشرب من ماء زمزم . ويخرج الحاج من باب الصفا ، ويسعى بين الصفا والمروة سبع مرات ، ويدعو في الطواف والسعي ، كما دعا في طواف القدوم . ولا سعي عليه إذا كان سعيه الأول عند القدوم عن الحج أو عن الحج والعمرة ، ويكفيه في هذه الحالة الطواف فقط ، ولكن يكون عليه سعي إذا كان سعيه عند القدوم عن العمرة فقط .

وطواف الإفاضة أمر به الله تعالى في قوله : ﴿ **وليطوّفوا بالبيت العتيق** ﴾ . وطواف الإفاضة ركن من أركان الحج ، وبأدائه تتحلّل التحلّل الأكبر .



الطَّوافُ :

عند الطواف يأخذ الحاج الرداء من وسطه من تحت منكبه الأيمن ، ويجعل طرفيه فوق كتفه الأيسر ، ويجعله في الوقت نفسه تحت إبطه الأيمن ، ويكشف كتفه اليمنى ، ويجعل الذراع الأيمن عارياً ، ويراعي شروط الطهارة الكاملة ، ويقول : « اللهمّ إني نويت طواف بيتك المعظم سبعة أشواط لوجهك الكريم ، طواف الحج أوالعمرة أو الوداع .. اللهمّ يسره لي وتقبله منّي .. اللهمّ إيماناً بك ، وتصديقاً بكتابك ، ووفاء بعهدك ، واتّباعاً لسنّة نبيّك محمد صلى الله عليه وسلم .. أشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله .. اللهمّ إني أسألك أن تقبل توبتي ، وأن تتجاوز عن خطيئتي ، وتضع عني وزري .. الحمد لله الذي بلّغني بيته الحرام الذي جعله مثابة للناس وأمناً ، وجعله هدى ومباركاً للعالمين » . ويدعو الله ما شاء ،

قال عليه الصلاة والسلام : « تُفتح أبواب السماء ، وتُستجاب دعوة المسلمين عند رؤية الكعبة » . ويتعيَّن على الرجال الرمل أي الإسراع في المشي مع هزّ الكتفين ، وتقارب الخطو في الأشواط الثلاثة الأولى ، والمشي في الأربعة الأشواط التالية ، على أن يكونوا متوضئين ، مستوري العورة ، مضطبعين (أي جاعلين وسط الرداء تحت الكتف اليمنى ، وردّ الطرفين على الكتف اليسرى ، وتبق الكتف اليمنى مكشوفة) . ولا رمل على النساء . ويكره الشرب في الطواف ، والوقوف والكلام في أمور الدنيا مع الغير . ولو عرض للطائف عارض يمنعه من مواصلة الأشواط ، أو أقيمت الصلاة ، فله أن يقطع الطواف لذلك ، فإذا فرغ مما عرض له بنى عليه وأكمله ، ويفضل أن يستأنفه من جديد ، ولو شكَّ في عدد أشواط الطواف أخذ بالأقلّ .

محظورات الإحرام :

يحظر في الإحرام اقتراف المعاصي ، والمخاصمة مع الرفقاء ، والفسوق ؛ لقوله تعالى : ﴿ **فمن فرض فيهن الحجَّ فلا رفث ولا فسوق ، ولا جدال في الحج** ﴾ . كما **يحظر لبس المخيط ، والخف أو الحذاء ، وعقد القران ، وتقليم الأظافر ، وإزالة الشعر ،** لقوله تعالى : ﴿ **ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي محلَّه** ﴾ . ويجوز إزالة الشعر إذا تأذى ببقائه ، وفيه الفدية لقوله تعالى : ﴿ **فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك** ﴾ .

ويحظر في الإحرام التطيُّب في الثوب أو البدن ، كما يحرم التعرُّض لصيد البر بالقتل أو الذبح لقوله تعالى : ﴿ **أحلَّ لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم وللسيارة وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرماً** ﴾ .



عرفات :

بعد طلوع شمس يوم التاسع من ذي الحجة يتوجَّه الحاج إلى عرفات مع التكبير والتهليل والتلبية ، ويُستحسن النزول بنمرة والاغتسال عندها للوقوف بعرفة ، ويُستحب ألا يدخل عرفة إلا وقت الوقوف بعد الزوال . وعرفات واد واسع مساحته أحد عشر كيلومتراً مربعاً ، وتبعد عن مكة حوالي خمسة وعشرين كيلومتراً ، يجثم جبل الرحمة في الجهة الشمالية منه ، ويُقال إنها سميت بذلك لأن إبراهيم عليه السلام قال لجبريل وهو يعلمه المناسك عندما وصلا إلى مكان الوقوف : « الآن عرفت » . وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم منادياً أن ينادي « الحج عرفة » ، والوقوف يبتدئ من زوال اليوم التاسع إلى طلوع فجر اليوم العاشر من ذي الحجة ، ويكفي الوقوف في جزء من هذا الوقت ، إلا أنه يجب أن يمتد إلى ما بعد الغروب . ويمكن للحاج الصعود على جبل الرحمة ، وينبغي عليه المحافظة على الطهارة واستقبال القبلة ، والإكثار من الاستغفار والذكر والدعاء ، ورفع اليدين مع حضور القلب .

روى ابن حبان عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الحاج حين يخرج من بيته لم يخط خطوة إلا كتب الله له بها حسنة ، وحطَّ عنه بها خطيئة ، فإذا وقف الحاج بعرفات باهى الله تعالى بهم ملائكته ، يقول : « انظروا إلى عبادي أتوني شعثاً غبراً ، أشهدكم أني غفرت ذنوبهم ، وإن كانت عدد قطر السماء » .



منى :

في اليوم الثامن من ذي الحجة ، إذا كان الحاج متحلِّلاً من إحرامه قام في الفجر فاغتسل ، وصلَّى الصبح ، فإذا أشرقت الشمس يحرم من جديد بالحج ، من المسجد الحرام أو المنزل الذي تنزل فيه . ويلبس الحاج الإزار والرداء ، وينوي الإحرام ويقول : « لبَّيك اللهمّ حجًّا » . ويذهب الحاج إلى منى ، وهي تبعد عن مكَّة ستة كيلومترات ، ويصلِّي هناك الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر ، كل أربع ركعات يصليها ركعتين . ولا يفوته أن يصلي في مسجد الخيف الذي صلَّى فيه الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويبيت في منى هذه الليلة . . ليلة التاسع من ذي الحجة . وبعد طواف الإفاضة يعود الحاج إلى منى ليبيت بها ثلاث ليال ، تبتدئ من ليلة الحادي عشر من ذي الحجة ، إن لم يتعجَّل ، فإن تعجَّل بات بها ليلتين فقط ، ومتى تعجَّل سقط عنه رمي اليوم الثالث من الأيام الثلاثة بعد يوم العيد .



الإنفاق في الحج :

عن بريدة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « النفقة في الحج كالنفقة في سبيل الله . . الدرهم بسبعمائة ضعف » أما عن جواز الاقتراض للحج فعن عبد الله بن أبي أوفى قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل لم يحج : أيستقرض للحج ؟ قال : لا . والحج يجب أن يكون من نفقة حلال ، ويجب أن يعد الحاج النفقة لكل من تلزمه نفقته إلى وقت الرجوع ، وأن يردّ الودائع إلى أصحابها . ولقد شهدت الإنسانية في هذا الموضع من الأرض المقدسة أروع مظاهر البذل والفداء ، وأشد مواقف الاختبار والبلاء ؛ حيث ابتلى رب العالمين إبراهيم في ابنه إسماعيل ، وكان ما كان من أمر الفداء ، وإنقاذ ولد خليل الله إبراهيم .



مواقيت الحجّ :

للحجّ ميقاتان : أحدهما زماني ، والآخر مكاني . فأما الميقات الزماني فهو شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة . وأما الميقات المكاني فيختلف باختلاف الناس ، والناس بالنسبة له أصناف ثلاثة :

— أهل الآفاق ، وهم من كانت منازلهم خارج المواقيت الخمسة ، وهي : ذو الحليفة والجحفة وقرن المنازل ويلملم وذات عرق . فذو الحليفة ميقات لأهل المدينة ، والجحفة ميقات لأهل الشام ، وقرن المنازل ميقات لأهل نجد ، ويلملم ميقات لأهل اليمن ، وذات عرق ميقات لأهل البصرة والكوفة .

— ومن كانت منازلهم داخل المواقيت الخمسة ، وخارج الحرم ، وميقاتهم للحج أو العمرة دويرة أهلهم .

— ومن كانوا داخل الحرم كأهل مكة ، فميقاتهم للحج الحرم .

مناقشات

وتعليقات

الأطباق الطائرة من جديد

في العدد التاسع والعشرين من مجلة «الفيصل» تناول الدكتور **مظفر صلاح الدين والمهندس سمير صلاح الدين** «الأطباق الطائرة» كموضوع شغل العلماء والباحثين والقراء مدى سنوات عديدة.. وأود إضافة بعض النقاط البسيطة حول هذا الموضوع المثير.

لقد تجاذب حديث الأطباق الطائرة علماء ومتخصصون في طبيعيات الجو ورجال الدين والعسكريون، وإلى جانب هؤلاء جميعاً أصحاب الخيال. وتاهت الحقيقة بين هؤلاء جميعاً بين مؤيد ورافض ومتشكك وباحث، على أمل إيجاد تفسير شافٍ لهذه الظاهرة الغريبة التي توقف عندها البحث العلمي حائراً أمام طلاسمها، ولم يجد لها حلاً ولا تفسيراً رغم تقارب ما رواه كثير من مشاهديها.

بعضهم قال: إن بعض هذه الأطباق حطت على الأرض ونتج عن ذلك احتراق المكان الذي هبطت فيه واختفاء بعض الحيوانات منه. بل وأكد البعض أن أحد الأطباق قد هبط في **البرازيل** عام ١٩٦٢م، وخرجت منه مخلوقات خطفت بعض الحيوانات وفرت هاربة.

وانتهى بعض الباحثين إلى احتمال وجود حياة ذكية في أرجاء الكون بإمكان أصحابها القيام برحلات استطلاعية لبعض الأماكن على الأرض، وقوي هذا الظن لدى بعض العلماء الأميركيين بسبب أن كل ما قيل عن هذه الظاهرة لم يحدث إلا بعد **التفجير الذري في هيروشيما ونجازاكي** في أواخر **الحرب العالمية الثانية**، ودلل هؤلاء على صحة هذا الظن بأن النشاط الإشعاعي الذي أحدثته التفجيرات الذرية هو الذي جعل هؤلاء الأذكياء يقومون باستطلاعات يعرفون من خلالها ما يحدث على الأرض.

إن الأطباق التي شاهدها البعض لم تكن ذات شكل واحد وإنما تراوحت أشكالها بين **القرص والطبق والمغزل والحلقة**. أما أحجامها فتتراوح بين ستة أمتار إلى مئات وتختلف ألوانها، وبعضها بطيء السرعة وبعضها الآخر في سرعة الضوء أو في سرعة طائرة نفاثة كما أن بعضها يصدر أصواتاً وبعضها بلا أصوات.

والشيء الذي أجمع عليه كل المشاهدين أنهم لم يروا أحداً من سكان الكواكب الأخرى داخل أو خارج هذه الأطباق. وقد ذكر الأستاذ **أنيس منصور** في كتابه «**الذين هبطوا من السماء**» أن بعثة استطلاع فضائية هبطت من طبق طائر في أحد المطارات الأمريكية عام ١٩٥١م، وخرج منه ثلاثة مخلوقات يتكلمون الإنجليزية بطلاقة، وطلبوا مقابلة الرئيس الأميركي الراحل «**أيزنهاور**» الذي حضر إليهم بعد عدة ساعات ودار بينه وبينهم حوار ظل سراً حتى كشف عن الحادثة العالم الأميركي **البروفسور ليد** وقال: إنهم زعموا أنهم سكان كوكب ضمن المجموعة النجمية المسمى «**أوريون**» أو الجبار.

وظاهرة انتشار نوادي الأطباق الطائرة التي تتابع أخبارها وتصدر مجلات دورية خاصة بها وبأبحاثها منتشرة جداً في العالم الغربي، ولكن أغرب شيء حدث في مجال الاهتمام بها أن إحدى الجمعيات الإيطالية واسمها «**كون**» افتتحت مطارين خصصتهما لهبوط الأطباق الطائرة في أقصى شمال البلاد على «**جبال الألب**».

وآخر رأي علمي في هذا الموضوع الغريب لعالمين أميريكيين قالا: إن هذه الأجسام المتوهجة قد تكون مجرد حشرات تحدث وميضاً عند حدوث ظاهرة جوية نادرة اسمها «بريق سينيث الو»، وقد قام هذان العالمان وهما «**فيليب كالاهان**» ومساعده د. **مانكن** قاما بتجربة توليد حقول كهربائية مشابهة لتلك التي تتولد خلال العواصف، ثم وضعا بعض الحشرات داخل هذه الحقول وكانت النتيجة أن تحولت هذه الحشرات إلى أجسام متوهجة أشبه بالأطباق الطائرة.

سيد سعد شحاته
جامعة القاهرة/ كلية العلوم

حول موضوع «السائرات سيراً عكسياً»

لقد طالعت العدد (٣٥) من مجلتنا العلمية «**الفيصل**»، وقد لفت انتباهي الموضوع الفيزيائي الكوني المنشور فيها وهو (**السائرات سيراً عكسياً**) بقلم الدكتور **عبد الرحيم بدر**. وقد تمعنت بالموضوع تمعناً جعلني أسلط عليه بعض الأضواء، ولكي تكون الصورة واضحة لدى القراء عموماً عن النظريات والآراء المتناقضة والمتضاربة التي تحاول الآن إعطاء تفسير جديد مناسب يحل علمياً وتجريبياً معضلة نشوء **النظام المركزي الشمسي**.

ومن المعروف، من الجانب التجريبي، أن النظام الشمسي يتكون من (٩) كواكب تبدأ **بعطارد**، وحسب تسلسل البعد تأتي: **فينوس، الأرض، المريخ، جماعة الكويكبات، المشتري، زحل،**

مناقشات و تعليقات

أورانوس ، **نبتون** ، وتتحدد بـ (**بلوتو**) كأبعد جسم منظور عن الشمس .

إلا أنه في السنوات الثلاث الأخيرة وُضع عدد من النظريات (الفرضيات الرياضية) من قبل العلماء تذهب إلى وجود (كواكب) جديدة في المسافة التي بعد بلوتو يسمى الأول بـ (**إكس**) ويعني الكوكب المجهول ــ والذي لم يثبت وجوده علمياً بعد ــ وثانيهما جرم أو كوكب (**كوال**) نسبة لاسم العالم الذي اكتشفه ، ولا يزال قيد الدراسات والأرصاد الفلكية . وثمة احتمالات قوية باكتشاف هذين الجرمين الفضائيين البعيدين غاية البعد عن الأرض والشمس .

واستنتاجاً لما ذكرته أن النظام الشمسي لا يزال يزخر بالعديد من الأسرار والقوانين الطبيعية المجهولة .

ومن الملاحظ في بحث د . بدر ، أن النظريات التي ذكرت في البحث لعدد من علماء الفيزياء ، لا تعدو عن كونها (**آراء**) .. وأن العلم لم يثبت بتجاربه أي واحد منها إلى اليوم ، وأن النظرية الفيزيائية الحديثة لنشوء وتطور النظام الشمسي التي ابتدأت من آراء (**كانط**) إلى آراء (**وايزاكر**) . هذه الآراء فسرت عدة جوانب لطبيعة نشوء النظام الشمسي ... إلا أنها لم تعط إثباتاً لما قاله (كانط) أو لما قاله (وايزاكر) وغيرهما . وأن تلك التعليلات لم تصب الهدف بعد .

إن مجرد نشر (خبر) اكتشاف الاتجاه العكسي الذي يدور فيه كوكب (فينوس) حول محوره ، لم يهدم ما وضعه العلماء منذ عهود مضت ، من نظريات بل تسبب في بروز معضلة علمية جديدة .

إن العلماء ــ بطبيعة الحال ــ يواصلون دراساتهم للوصول إلى سبب النظام المكتشف .

إن خير نظرية يمكن الاستناد إليها في عملية تفسير وتعليل ظواهر الفيزياء هي نظرية **النسبية** ، وخاصة قانون الجاذبية للعالم الألماني **ألبرت أنيشتاين** . فهي التي يمكنها أن تزيل الغموض والآراء غير الثابتة وتأتي بتعاليل علمية وتعطي حلاً علمياً قاطعاً لمنشأ الحركة النظامية الشمسية وتكوينها وما يحصل في هذه الحركات الفضائية .

إن اكتشاف الحركة المحورية العكسية لـ (فينوس) لا يعني أبداً أنها أثرت (وأزالت) النظريات التاريخية التي وضعت لتعليل ظواهر (النظام) بل هو شيء يخص موقع وحركة الكوكب حول الشمس . أما بالنسبة لمسألة وجود مجموعة الكويكبات (أجسام ما بين المشتري والمريخ) فلم يضع العلماء بصماتهم بعد على نظرية قاطعة . وقاعدة الشذوذ التي نذكرها في موضوعاتنا الفلكية هي مسائل تطرحها طبيعة الاكتشافات الفضائية ، ولكن ليس على حساب النظريات التي أثبتتها التجارب العملية .

إن النظرية النسبية هي أساس **الفيزياء العصرية** ، وفي هذا المنطلق العلمي تكمن أهمية التطبيق لمبدأ النسبية لأنشتاين لا سيا قانون الجاذبية على تلك الظواهر الكونية لحل معضلاتها وكذلك بما يسمى بـ (مستحيلاتها) في بعض الأحيان .

خيري بخاخ دخيل
البصرة ــ العراق

عودة إلى المنامة

لقد قرأت في العدد ٣٤ من مجلة « **الفيصل** » في باب « **مدينة وتاريخ** » وأعجبت بالموضوع لاستعراضه تاريخ « **المنامة** » ، وأحب أن أضيف أن اسم « **دلمون** » هو أقدم اسم عرفت به البحرين على مدى عصور التاريخ . ومعناها في اللغة القديمة **أرض الحياة** ، أو ارض الخلود ، وحتى في الفترة الآشورية شاع هذا الاسم بتحريف بسيط وأصبح « تلمون » .

وفي الفترة « **الهلينسية** » أصبح « **تايلوس** » أو « أرادوس » ، والطريف أن الأسطورة القديمة تجد ما يؤيدها عند علماء **الجيولوجيا** ، فهم يتحدثون عن نشأة **البحرين** ويقولون : إنها كانت في الأصل جزءً من **شبه الجزيرة العربية** ، وفي أواخر **العصر الحجري الأول** المعروف علمياً باسم « **البليوليتي** » لم تكن جزر البحرين ولا الجزر الأخرى المنتشرة على شاطئ **الخليج العربي** موجودة ، إلى أن حدث في يوم من أيام ما قبل التاريخ زلازل رهيبة انفصل ــ على أثرها ــ من الأرض ما انفصل وتناثر ما تناثر وأخذت تظهر في الخليج **قطع** ضخمة من اليابسة إلى أن استقرت في مكان قريب من الجزيرة الأم .

وفي أوائل **العصر الحجري الثاني** المعروف علمياً باسم « المزليتي » حدثت طوارئ جيولوجية في باطن الأرض فانفصلت جزر البحرين والجزر الأخرى القريبة من شاطئ الكويت وأخذت مكانها في الخليج .

وفي ذلك الوقت الذي يعود تاريخه إلى ما قبل **١٥٠ ألف سنة** كانت المنامة **والمحرق** جزيرة واحدة ثم انفصلتا بتأثير تغيرات جيولوجية جديدة أخف وأقل أثراً من التغيرات الزلزالية السابقة .

لحدان جاسم الكرادي
دولة قطر ــ الدوحة



● **الأخ محمد أسامة فتنة ـ اللاذقية ـ سورية**

● **الأخت حياة نصر ربيع ـ دمشق ـ سورية**

شكراً لكما على إعجابكما بالمجلة ، وفي تشجيع قرائنا دافع لنا إلى الأفضل .

● **الأخ عبد الباسط الجزار ـ دمشق ـ سورية**

كثير من قرائنا الأفاضل اقترحوا علينا ما اقترحت ، وبالرجوع إلى أعدادنا السابقة ستجد إجاباتنا على ذلك .

● **الأخ محمد طاهر محمد عبد السلام ـ كفر الدوار ـ مصر**

المجلة ليست وقفاً على كاتب معين وصفحاتها المحدودة التي نحاول أن تضم من كل روضة زهرة لا تسمح لها بنشر القصص أو الروايات الطويلة . أما زيارتك للمملكة العربية السعودية فيمكنك ذلك إذا اتبعت الاجراءات النظامية التي يتبعها غيرك ولك تحياتنا .

● **الأخ السيد أحمد علي نصر ـ الدقهلية ـ مصر**

إعجابك بالشاعر محمد حسن فقي نشكرك عليه نيابة عنه واقتراحاتك تستطيع أن تكتبها إليه مباشرة ، وبالنسبة لعنوان مدير عام الصحافة فقد ذكرته بنفسك في رسالتك ولا داعي للاستفسار .

● **الأخ المقيس حسن بن محمد ـ فاس ـ المغرب**

ملاحظتك جيدة والصور التي نشرها عن الأطفال في الدول النامية والدول المتقدمة توقفنا عنها بعد انتهاء العام الدولي للطفل ، وثق تماماً أن اهتمامنا بالطفل سيظل مستمراً إن شاء الله ، وشكراً لك على تهنئاتك بالعام الجديد .

● **الأخ رشيد عوض ـ اللاذقية ـ سورية**

اقتراحكم أحلناه إلى اللجنة الدينية لدراسته ولك تحياتنا .

● **الأخ راشد سعد المطر ـ الجبيل ـ المملكة العربية السعودية**

كل كتاب ننشر عنه في باب **« كتب وردت للمجلة »** نشير إلى جهة إصداره أو الدار التي نشرته ، فعليك بالرجوع إلى المجلة بعد البحث في المكتبات عن الكتب التي ذكرتها .

● **الأخ جاسم الهويدي ـ القامشلي ـ سورية**

سؤالك سوف يحال إلى لجنة « سؤال وجواب » وموضوعك لا نستطيع الحكم عليه إلا بعد الاطلاع مع تمنياتنا الطيبة .

● **الأخ كمال محمد المنيرة ـ حلفاج ـ السودان**

نحن نرحب بكل ما يصل إلينا وننشره إذا كان في مستوى النشر .

● **الأخت ر . ص . ط . ـ دمشق ـ سورية**

نحن نأسف لما يحدث من بعض القراء ، وقد التزمنا منذ فترة مضت بعدم نشر عنوان أي فائزة في المسابقة واكتفينا بذكر المدينة والاسم ، وقد تلقينا عدة رسائل مشابهة لرسالتك ، تمنياتنا بالتوفيق .

● **الأخ محمد خليل إبراهيم عبد التواب ـ الأقصر ـ مصر**

نشكرك على مساهمتك ونعتذر عن نشر ما أرسلته ولك تحياتنا .

● **الأخ عبد القادر صلاحية ـ حلب ـ سورية**

إن الكتب التي ننشر عنها في باب **كتب وردت للمجلة** ترد إلى المجلة مقدمة من مؤلفها ، وفي العادة لا يبعث المؤلف بأكثر من نسخة واحدة ، لذا نعتذر عن تلبية طلبكم كما نعتذر عن نشر قصتكم المرفقة .

● **الأخ شطاح ملكية ـ البليدة ـ الجزائر**

نعتذر عن تلبية طلبك وعليك بالرجوع إلى المكتبات المختصة ببيع الكتب فلعلك تجد ما تريد .

● **الأخ محمد صالح حمدان إبراهيم ـ السودان**

إن ما نسعى إليه دائماً هو التجدد والتجديد والمحافظة على الثقة بيننا وبين قرائنا الأفاضل ، وعلى أي حال فالمجلة ترحب بكل ما يرد إليها والحكم بعد الاطلاع .

● **الأخ محمد مرزوق ـ المدينة المنورة ـ المملكة العربية السعودية**

ونحن نسألك أي كتاب أزرق هذا الذي تعنيه ؟ مع العلم أننا لا نستطيع الإحاطة بكل ما يطبع أو يترجم من الكتب يومياً في عالمنا الكبير .

● **الأخ النادي فاطمة ـ تازة السفلى ـ المغرب**

نحن لا نألو جهداً في أن نزود قراءنا بكل جديد وشكراً على المشاعر الطيبة .

● **الأخ شمس الدين محمد الأمين باشا ـ بورت سودان ـ السودان**

هذه مشكلة يشكو الكثيرون منها مع أن توزيعاتنا تكون في بداية كل شهر لكل البلدان التي توزع فيها المجلة . شكراً .

● **الأخ عبد القادر الحداد ـ مكة المكرمة ـ المملكة العربية السعودية**

نشكرك على مشاعرك النبيلة ونعتذر عن القصيدة ولك تحياتنا .

● **الأخ محمد الحمادي ـ دير الزور ـ الحميدية ـ سورية**

من قراءتك للمجلة تستطيع التعرف على المنهج الذي تسير عليه ، ثم إننا لا نحكم على ما يصلنا إلا بعد الاطلاع .

● **الأخ خالد كليسلي ـ حلب ـ سورية**

شكراً على رسالتك التي ضمنتها مجموعة من الملاحظات ، وسنحاول بقدر الامكان الاستفادة من ملاحظات جميع قرائنا .

● **الأخ حسام الدين سلمان ـ مصياف ـ سورية**

عندما تتوفر لدينا الدراسات الوافية عن أي شاعر أو مفكر سواء كانوا من العرب أو الأجانب فالمجلة حريصة على نشر ذلك لقرائها لتعميم الفائدة وشكراً على الملاحظات .

● **الأخ أحمد المهر ـ دمشق ـ سورية**

● **الأخت هند المهر ـ دمشق ـ سورية**

● **الأخ أحمد عبد المطلب إبراهيم ـ جامعة اسيوط ـ مصر**

اقتراحكم موضع اهتمامنا ولعل تنفيذه يكون في بداية سنتنا الرابعة إن شاء الله .

● **الأخ خليل شكر حسين ـ نينوى ـ العراق**

للحصول على طلبك يجب أن تكتب لسعادة مدير عام الصحافة ـ وزارة الإعلام ـ الرياض ، ولك تحياتنا .

● **الأخ عز الدين سليمان سليمان ـ حماة ـ سورية**

شكراً على اهتمامك بالمجلة ونعتذر عن نشر قصيدتك لعدم مناسبتها .

● **الأخ السماني أحمد الملالي ـ الرباط ـ المغرب**

لقد انتهى العام الدولي للطفل ونعتذر عن نشر قصيدتك لعدم مناسبتها .

● **الأخ صلاح حسن منصور ـ رشيد ـ مصر**

شكراً على اقتراحاتك التي سنعمل على تنفيذ المناسب منها ونأسف لعدم نشر قصيدتك .

● **الأخ عدنان أسعد ـ القاهرة ـ مصر**

قصيدتك جيدة ومشاعرك تدل على تأثرك العميق . لكننا نعتذر عن النشر مع شكرنا العميق .

● **الأخ إبراهيم أحمد خضر ـ دمنهور ـ مصر**

تمنياتنا الطيبة وشكرنا لك على تهنئتك وبإمكانك الحصول على طلبك بسهولة من أي مكتبة في بلدك .

● **الأخ محمد مجاهد بدوي سعد ـ المحلة الكبرى ـ مصر**

نبادلك شعورك ونعتذر عن تلبية طلبك علماً بأن المجلة تنشر أبحاثاً عن الكون في كثير من أعدادها .

● **الأخت مينة محبوب ـ الدار البيضاء ـ المغرب**

بإمكانك الكتابة إلى **وزارة التعليم العالي بالرياض** للاستفسار عما تريدين .

● **الأخ محمد الأحمدي ـ جدة ـ المملكة العربية السعودية**

إن الطريق ما زال طويلاً أمامك وننصحك بكثرة الاطلاع متمنين لك التوفيق .

● **الأخ صالح محمد أحمد نور ـ بورت سودان ـ السودان**

نحن حريصون دائماً على السعي إلى الأفضل ونحاول أن نكون متجددين دائماً لنشبع شهية قرائنا بأنواع مختلفة من المعارف وشكراً على اقتراحك .

● **الأخ صدر الدين عبد الرحيم آغا ـ محافظة التأميم ـ العراق**

شكراً على بطاقتك التي أهديتها إلينا ومعذرة على عدم نشر القصيدة مع تحياتنا .

● **الأخ محمد المعراوي ـ حمص ـ سورية**

نشكرك على ملاحظتك وشعورك النبيل ، أما بالنسبة للفراغ الأسود في ص ٩٨ من العدد (٢٦) فليس خطأ ، بل ظرفاً تطلبه الإخراج ، ونأسف لحدوث أخطاء في أرقام الكشاف .

● **الأخ نمر علي محمد أحمد البواطي ـ إربد ـ الأردن**

نفيدك بأن المجلة ليست واسطة اتصال بين المسؤولين مع الشكر .

● **الأخ عبد اللطيف درو ـ حلب ـ سورية**

قصتك التي بعثت بها ينقصها الكثير من المقومات ، ونرجو لك التوفيق .

● **الأخ لؤي فريح ، ـ محافظة دير الزور ـ سورية**

المجلة لا تعيد نشر الموضوعات التي سبق نشرها مع الشكر .

● **الأخ عوض أحمد ـ جدة ـ المملكة العربية السعودية**

● **الأخ منصور شعبان كيلاني ـ دسوق ـ مصر**

نشكركما على شعوركما النبيل تجاه المجلة والعاملين فيها .

● **الأخ عبد الرحمن جنيد ، مساكن برزة ، ـ دمشق ـ سورية**

من الأفضل مواصلة دراستك ولا بأس من كتابة الشعر عندما تتمكن منه .

● **الأخ الحرفوف محمد ـ المغرب**

نشكرك على شعورك الطيب تجاه المجلة ، أما بالنسبة لطلبك بعض الكتب فبإمكانك طلبها من **المديرية العامة للصحافة بوزارة الإعلام ـ المملكة العربية السعودية .**

● **الأخ بنجرنجة مجيد ـ مراكش ـ المغرب**

طلبك سوف يحفظ ضمن طلبات العمل المقدمة للمجلة ، وحين يأتي دوره وتحتاج المجلة لخدماتك فسوف نكتب لك مع تمنياتنا لك بالتوفيق .

● **الأخ عبد الفتاح أحمد حسن ـ الهفوف ـ المملكة العربية السعودية**

الكتب المتعلقة بالحج موجودة بكثرة في كل المكتبات والبرامج الإذاعية والتلفزيونية التي تبصر الناس بأمور الحج تقوم بما فيه الكفاية ولا داعي لأن ترسل لك المجلة ما طلبت .

● **الأخ فريد سليمانو ـ اللاذقية ـ سورية**

نشكرك ونعتذر عن نشر القصيدة وشكراً .

● **الأخ أحمد النعسان ـ حلب ـ سورية**

ننصحك بأن تهتم بدراستك ونتمنى لك التوفيق .

● **الأخ أحمد عارف الغاني ـ بيروت ـ لبنان**

شكراً على غيرتك على المجلة وقد اتخذنا الإجراءات المناسبة إزاء ما ذكرت .

«وردت للمجلة هذه الطائفة من الكتب في مختلف مجالات المعرفة الانسانية والمجلة ترحب بكل عطاء ثقافي جديد من شأنه أن يفتح امام القارىء آفاقا أوسع وارحب وابعد مدى».



القرآن ونظرية الفن

تأليف **حسين علي محمد**، وهو بحث يعالج موضوعه من خلال بعض الشخصيات والمواقف، ويوضح كيف أن الإسلام يحترم أساليب الترويح والتسلية التي تدخل السرور على النفوس، ولا تدخل الشرور على القلوب والعقول، كما يوضح الطريقة التي يجب أن يتسامى بها الفن عن رخيص القول وفاحش الكلام. ويحتوي الكتاب على بعض النماذج التي يحسن أن يقتدى بها درامياً. الكتاب صادر عن **دار العلم للطباعة**، ٤٠ شارع خيرت ـ المالية ـ القاهرة. يقع في ٩٤ صفحة من الحجم الصغير.

مجلة دراسات الخليج

اسمها الكامل «**مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية**» العدد العشرون. يحتوي هذا العدد على دراسات وأبحاث من بينها «**الخليج بين مقومات الوحدة وصراع القوى الأعظم**» للدكتور **محمد عبد الغني سعودي**، و«**النشاط السياسي للمبشرين في منطقة الخليج العربي**» للدكتور **محمود سلامة**، و«**بعض الملامح الديموغرافية لسكان المملكة العربية السعودية**» للدكتور **أحمد عبد الرحمن الشامخ** مع موضوعات أخرى. تقع المجلة في ٢٩٢ صفحة، صادرة عن **المطبعة العصرية** ـ الكويت.

هذي الألحان إليك

ديوان للشاعر **زهير المرزوقي**، يوجه فيه شعره إلى الفتاة المسلمة لتكون رائدة جيل، ويهيب بها أن تكون العفيفة الطاهرة.

من القصائد التي يحتويها الديوان: «**يا رائدة الجيل**»، «**الحب المطلق**»، «**شاة وذئب**»، «**سأبقى في الهوى قيساً**». يقع الديوان في ٦٣ صفحة من الحجم الصغير. صادر عن **مطبعة المعري** ـ حلب الحميدية.

البسيط

كتاب في قواعد الإملاء، تأليف **أسعد عبد الله ظاهر**، يرسم فيه الخطوط العريضة للمدرس باعتباره الشخص الذي يقع عليه العبء الأكبر في تنشئة الأجيال. يضم الكتاب ثمانية أبواب من بينها: اللام الشمسية واللام القمرية، والتنوين في آخر الكلمة، التاء المفتوحة، والتاء المربوطة. الناشر مكتبة الفلاح ـ الأحساء الهفوف. يقع في ٥٢ صفحة من الحجم الصغير.

الإسلام والثقافة العربية

«**الإسلام والثقافة العربية في أوروبا**»، تأليف **عبد الفتاح الغنيمي**، يضم أربعة فصول، يتناول الأول منها الإسلام في شرق أوروبا، وفي جزيرة **رودس** وجزيرة **قبرص** ومعركة ذات الصواري، والإسلام في بلغاريا، والمسلمون في المجر. وفي الفصل الثاني الإسلام في أوروبا الوسطى، وحديث عن الإسلام والثقافة العربية في إيطاليا، وجزيرة كريت، وجزيرتي **صقلية ومالطة**. أما الفصل الثالث فعن الإسلام والثقافة العربية في **فرنسا وسويسرا وجزر سردينية وكورسيكا وجزر البليار**. وفي الفصل الرابع والأخير يتحدث المؤلف عن أثر الحضارة العربية الإسلامية في الحضارة الأوروبية والدور الذي قام به المسلمون في بناء الحضارة الإنسانية. يقع في ٢١٦ صفحة من الحجم المتوسط. الناشر: **عالم الكتب ـ القاهرة**.

سارقة المعبد

ديوان للشاعرة السورية **هند هارون**، تسكب فيه دفقاً فياضاً من المشاعر الرقيقة والإحساس الشاعري المرهف في مجموعة كبيرة من القصائد المتنوعة في الشكل والمضمون، من بينها **وصية أم، وشمسان في الأفق، الرؤى القدسية، وعودة الملاح**. يقع الديوان في ٣١٦ صفحة من الحجم المتوسط. صادر عن **دار الأنوار للطباعة ـ دمشق**.

الموت في شباب النهار

ديوان للشاعر السوري **محمد منذر لطفي**، يضم مجموعة قصائد تعالج جراحات الوطن ونداء الأرض وهموم الإنسان منها: «الصوت والصدى»، و«غول العصر»، و«أبعاد المستقبل». يقع في ١٢٨ صفحة من الحجم الصغير. صادر عن **المطبعة الحديثة في حماة**.

الملف الثالث

كتاب أصدره **نادي الطائف الأدبي**، يحوي ما قدمه النادي خلال عام كامل من مطبوعات ومحاضرات ومعارض مع نماذج من الإنتاج الأدبي في «الشعر والقصة والمقالة والنقد». طبع الكتاب في مطابع **شركة مكة للطباعة والنشر**. يقع في ١٣٦ صفحة من القطع الصغير.

الثقافة الإسلامية

«**الثقافة الإسلامية وأثرها في النهضة الأوروبية**»

تأليف العميد المتقاعد **محمد فائز القصري**، يتناول الإسلام من حيث أنه لم يكن مجرد دين وعقيدة روحية فحسب وإنما هو حضارة كاملة تبدأ من العقيدة والإيمان بالله وتمر بالوجود والواقع الثقافي والعلمي عبر الأجيال، معتمداً على قواعد أساسية هي القرآن الكريم والسنّة النبوية. يقع الكتاب في ٣١٨ صفحة من القطع المتوسط.

مطبعة زيد بن ثابت. دمشق ـ بستان الحجر ـ تجاه مفرق كفرسوسة.

مسابقة مجلة الفيصل

شروط المسابقة وإيضاحات أخرى

١ ـ قيمة المسابقة عشرة آلاف ريال سعودي .. موزعة على عشر جوائز على النحو التالي :

أ ـ الجائزة الأولى ٢٠٠٠ ريال

ب ـ الجائزة الثانية ١٥٠٠ ريال

جـ ـ الجائزة الثالثة ١٠٠٠ ريال

إلى جانب سبع جوائز مالية قيمة كل جائزة (٥٠٠ ريال سعودي) ، وعشر جوائز أخرى قيمة كل جائزة (٢٠٠ ريال سعودي) .

٢ ـ المطلوب الإجابة على جميع الأسئلة .. وارفاقها مع قسيمة العدد الخاصة بالمسابقة موضحاً عليها الاسم ثلاثياً أو رباعياً ـ إن أمكن ـ مع وضع العنوان بوضوح لضمان وصول قيمة الجائزة إلى المشترك في المسابقة حالة الفوز .

٣ ـ ترسل الإجابات على العنوان التالي :
(الرياض ـ المملكة العربية السعودية ـ مجلة الفيصل ـ ص . ب (٣) المسابقة) .
مع ذكر رقم المسابقة على الغلاف من الخارج .

٤ ـ أية إجابة تصل بعد ٤٥ يوماً من صدور العدد لا يلتفت إليها .

٥ ـ من حق القارئ أن يشترك باسمه في المسابقة الواحدة أكثر من مرة على شرط ارفاق قسيمة المسابقة مع كل رسالة .



للقارئ

يهمنا جداً في الدرجة الأولى أن يستفيد المشترك في المسابقة من المعلومات التي يحصل عليها القارئ عند بحثه عن إجابات الأسئلة ، كما يهمنا أن يقضي القارئ أو يعتاد على زيارة المكتبات للاستفادة مما بها من كتب تحمل زاداً ثقافياً .

وتأتي الفائدة من الفوز في المسابقة في الدرجة الثانية ، لأننا حين وضعنا المسابقة لم نكن نهدف للاغراء المادي بقدر ما كنا نهدف إلى استفادة القارئ ثقافياً .. والفوز يأتي نتيجة للجهد الذي يبذله القارئ ، وبهذا ـ عند الفوز ـ يكون الكسب مرتين ، مرة الكسب الثقافي ، ومن ثم الكسب المادي ، ومن لم يتمكن من الكسب المادي فإن الكسب الثقافي لم يفته . وهو أكبر كسب .. لأن الحكمة تقول : « المال تحرسه ، والعلم يحرسك » .

ونحن حين وضعنا شروط المسابقة ووضعنا من بين الشروط أنه من حق القارئ أن يشترك في المسابقة الواحدة مرتين على أن يرفق قسيمتين كنا نعطي القارئ فرصة للإجابة عن أي سؤال قد يجد له إجابتين ، ويختار في أي الإجابتين أصح .

لهذا فالمطلوب أن توضع كل إجابة مع قسيمتها في ظرف مستقل لتسهيل مهمة اللجنة في الفرز والاطلاع .

كما ننبه القارئ بأن تكون الإجابة على وجه واحد من الورق ، وبخط واضح وفي حدود المطلوب ، وأن يوضع رقم العدد على الظرف من الخارج ، لأننا لاحظنا أن هذه النقطة تفوت على بعض القراء ربما عن غير قصد .. وهذه الكلمة للتنبيه .. والله الموفق .. وهو من وراء القصد .

المجلة

السؤال الأول :

أديب تونسي ، ولد عام ١٨٥٠ م ، وتوفي عام ١٩٠٠ م ، تولى تحرير صحيفة « الرائد » التونسية .. ألّف كتاب « الرحلة الحجازية » ، وكتاب « الاستطلاعات الباريسية » ، وكتاب « رحلة إلى باريس » .. ما اسمه ؟

السؤال الثاني :

الطواسين .. مصطلح يطلق على السور التي تبدأ بحروف ط ، س ، م ، في القرآن الكريم ، أذكر أسماء هذه السور .

السؤال الثالث :

ولد في لبنان عام ١٨٨٣ م ، وتوفي عام ١٩٣١ م في نيويورك ، اتجه إلى التخصص في الرسم فجذبه الأدب حتى صار أحد أعلامه البارزين الذين تندرج أعمالهم الأدبية تحت ما يسمى بالأدب المهجري .. من كتبه : دمعة وابتسامة ــ العواصف ــ الأجنحة المتكسرة ــ النبي . ما اسم هذا الأديب ؟

السؤال الرابع :

ما الفرق لغة بين قولنا أكْفاء (بسكون الكاف) ، وقولنا أكِفّاء (بكسر الكاف وتشديد الفاء) ؟

السؤال الخامس :

ما الفرق بين الميكروفيلم ، والالترافيش ؟

السؤال السادس :

من كبار أطباء الفرس في عصر كسرى أنوشروان في القرن السادس بعد الميلاد ، كان متميزاً في علوم الفرس والهند . جلب كتاب « كليلة ودمنة » من الهند إلى كسرى وترجمه إلى الفارسية ، ثم قام بترجمته ابن المقفع إلى العربية .. ما اسمه ؟ يوجد نحوي يحمل نفس اللقب .

السؤال السابع :

أذكر أسماء مؤلفي الكتب الآتية :

تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ــ الجواهر الحسان في تفسير القرآن ــ الكشف والبيان في تفسير القرآن ــ الجاسوس على القاموس ــ عجائب الآثار في التراجم والأخبار .

السؤال الثامن :

فَمن للقوافي شانها من يحوكها ... إذا ما ثوى كعبٌ وفوّز جرول

مَن قائل هذا البيت .. ومَن جرول ؟

السؤال التاسع :

من خطب الرسول صلى الله عليه وسلم :

« الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره وأستهديه وأؤمن به ولا أكفره ، وأعادي من يكفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى والنور والموعظة على فترة من الرسل .. » .

متى ألقيت هذه الخطبة .. وأين ؟

السؤال العاشر :

مَن أسّس « بيت الحكمة » في بغداد ؟

قسيمة مسابقة مجلة الفيصل العدد ٤٢

الاسم : ---------------------------------

المهنة : ---------------------------------

العنوان : ---------------------------------

نتائج مسابقة العدد الخامس والثلاثين

● فاز **بالجائزة الأولى** وقيمتها (٣٠٠٠) ثلاثة آلاف ريال سعودي الأخ حسن أذكة، وعنوانه: كاديم رقم 799 ص. ب (233)، مكناس ــ المغرب.

● وفاز **بالجائزة الثانية** وقيمتها (٢٠٠٠) ألفا ريال سعودي الأخ حمدان مبارك محمد الفدان، وعنوانه: الأفلاج ــ ليلى، مدرسة القادسية المتوسطة ــ السعودية.

● وفازت **بالجائزة الثالثة** من سورية ــ دمشق الأخت دلال نايف تميم، وقيمة الجائزة (١٥٠٠) ألف وخمسمائة ريال سعودي.

وهناك **سبع جوائز** قيمة كل جائزة (٥٠٠) خمسمائة ريال سعودي فاز بها الإخوة والأخوات الآتية أسماؤهم:

● من السودان ــ الخرطوم، مصلحة الطيران المدني، الأخ عبد الغني محجوب إبراهيم.

● من الأردن ــ عمان، ص. ب (١٦١٢) الأخ سرحان موسى نجيب.

● من لبنان ــ الجامعة اللبنانية، فروع الشمال بالقبة في طرابلس، الأخ كمال بدر الدين الرافعي.

● من اليمن ــ صنعاء، ص. ب (٥٥٠) الأخ عبد الحكيم عبد الله عيسى الزبيدي.

● من الجزائر ــ ساحة السوق رقم ٩ بالمدية، الأخ عبد الكريم قارة برنو.

● من سورية ــ حماة، شارع الحسنين بناية الشيخ عبد الكريم الرستم الطابق الأول، الأخ فادي نورس الرستم.

● من الرياض ــ طريق الخرج، هيث، الأخت حنان أحمد عبد العال أحمد.

اجوبة مسابقة العدد الخامس والثلاثين

ج ١ الاسم القديم لكل من:
نهر العاصي: الأورنط.
جبل طارق: أعمدة هرقل.
المحيط الأطلسي: بحر الظلمات.

ج ٢ المعتصم بالله هو الخليفة المثمن، لأنه: ثامن بني العباس. وقد حكم ٨ سنوات، و٨ شهور، و٨ أيام.

ج ٣ تقع قناة بنما في أميريكا الوسطى، وتصل بين المحيط الأطلسي والمحيط الهادي، وتتجه من الجنوب إلى الشمال.

ج ٤ أبو الحسن علي بن البواب: خطاط عربي شهير، كان أبوه بواب بيت القضاء في بغداد، كان واسع المعرفة بالفقه، حفظ القرآن ونسخه أربعاً وستين مرة إحداها بالخط الريحاني، ابتدع الخط الريحاني والخط المحقق.

ج ٥ ابن المعتز: شاعر وبلاغي ولد وقتل في بغداد، ونشأ في مكة المكرمة، وتولى الخلافة يوماً واحداً، كان حسن المعرفة بالأدب، وألف فيه عديداً من الكتب.

ج ٦ عدد الأقمار التابعة للكواكب التالية:
الأرض: قمر واحد، المريخ: قمران، المشتري: ثلاثة عشر قمراً، زحل: تسعة أقمار.

ج ٧ تقع الأنهار التالية:
سوباط: جنوب السودان، التيبر: وسط إيطاليا، الليطاني: جنوب لبنان، الأمازون: في أميريكا الجنوبية ويخترق البرازيل.

ج ٨ المستمع: المصغي القاصد السماع والمتفرغ بكليته.
السامع: هو الذي يطرأ الشيء على سمعه فيسمعه عن غير قصد.

ج ٩ الوان قوس قزح: الأحمر، البرتقالي، الأصفر، الأخضر، الأزرق، النيلي، البنفسجي.

ج ١٠ تقع المدن التالية:
زبيد: اليمن الشمالي، قرطاج: تونس، طبرية: فلسطين، رابغ: السعودية، إسلام آباد: باكستان.



مجلة ثقافية شهرية
تصدر عن
دار الفيصل الثقافية

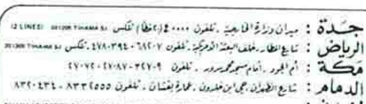
المراسلات
الرياض - المملكة العربية السعودية
مجلة الفيصل
ص.ب (٣)

هاتف : ٤٥٤٣٠٢٦ - ٤٥٤٣٠٢٧



أسعار بيع النسخ في البلاد العربية

المملكة العربية السعودية	٨ ريالات
الكويت	٦٠٠ فلس
الامارات العربية المتحدة	٧ دراهم
قطر	٦ ريالات
البحرين	٥٠٠ فلس
سلطنة عمان	٦٠٠ بسة
الأردن	٤٠٠ فلس
ج . ع . اليمنية	٦ ريالات
ج . اليمن الديمقراطية الشعبية	٨٠٠ فلس
مصر	٣٠٠ مليم
السودان	٣٠٠ مليم
المغرب	٥ دراهم
تونس	٥٠٠ مليم
الجزائر	٥ دنانير
العراق	٤٠٠ فلس
سورية	٥ ليرات
لبنان	٥ ليرات
ليبيا	٨٠٠ درهم





ALFAISAL MAGAZINE

MONTHLY CULTURAL MAGAZINE
PUBLISHED BY
AL-FAISAL CULTURAL HOUSE

All Correspondence To:
Riyadh-Saudi Arabia
Al-Faisal Magazine
P.O.Box 3
Tel.: 4543026 - 4543027



EUROPE – AMERICA – ASIA

Delgium	BF	200
Denmark	DKR	30
Finland	FMK	30
France	FF	15
F.R.G.	DM	10
Greece	DR	100
Italy	L	4000
Netherlands	DFL	10
Norway	NKR	30
Pakistan	RS	10
Portugal	ESQ	100
Spain	PTS	150
Sweden	SKR	30
Switzerland	SF	15
United Kingdom	£	2
U.S.A.	$	5

● أسعار الاشتراكات السنوية :

للأفراد ١٥٠ ريالا سعوديا
لغير الأفراد ٢٥٠ ريالا سعوديا
ترسل قيمة الاشتراك باسم مجلة الفيصل

ANNUAL SUBSCRIPTION RATES

Personal Subscription : S.R. 150
Others : S.R.250
PAYABLE TO AL-FAISAL MAGAZINE

شركة الطباعة العربية السعودية المحدودة ، العمارية ، الرياض